دراسات حضارية في القرآن الكريم



نذير حمدان

دار المنارة
جدة - السعودية

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠ - هاتف الإدارة: ٦٦٠٣٦٥٢
هاتف وفاكس: ٦٦٠٢٣٨ - هاتف المعرض: ٦٦٧٥٨٦٤


الظاهرة الجمالية
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد:

قال لي زميل جامعي: وماذا تكتب عن جماليات القرآن وكل ما فيه جمال؟.

قلت: إنني أحاول أن أتقصّى هذه الجماليات لأستنتج منها تصوراً كلياً أو قاعدة ظاهرة.

ـ وهل تظن أن أحداً لم يقنّن قاعدةً جماليةً ممن كتب عن القرآن أو عن البلاغة العربية؟.

ـ إن هذه القضية شغلت ذهني منذ أمد طويل. ومع كثرة مطالعاتي لم أعثر على مثل هذا التصور العام.

ـ وما موقف العلماء والنقاد والمفسرين والبلاغيين والدارسين وسَبْقهم إلى إبراز نماذج وصور منها؟.

ـ إن الدراسة لا بدّ من أن تُفيد من نظراتهم وملاحظاتهم وسبحاتهم ودقائق تأملاتهم.

ـ ولكن ماذا تقصد بالقاعدة أو الظاهرة الجمالية، وقد تحدّث الأقدمون والمحدثون عن بلاغة القرآن وإعجازه وتحدّياته وكثير من صوره وخصائصه؟.

ـ أرى أن أقدّم مدخلاً لدراسة (الجمالية) وحدها يشمل أهمية هذه الظاهرة وشيئاً من تاريخها وخصائص الأدب الجاهلي جمالياً. ثم تصنيف الجماليات القرآنية إلى: مفردات جمالية، وتراكيب جمالية، وخصائص وموضوعات جمالية، ومن ثم يمكنني استنتاج القاعدة أو الظاهرة الجمالية في القرآن، وذلك عقب إيراد نماذج منها: خاصة وعامة.

وسيقتضيني ذلك:

١ ـ أن أتخذ أسلوباً أدبياً علمياً يتناسب وطبيعة الموضوع وخطته.

٢ ـ وأن أوسّع مدى الوقفات الوجدانية المتأنية في روعات الآيات القرآنية حتى تقتبس أبعاداً فكرية، وتطلعات روحية، تعتمد على مواقف المفسرين والبلاغيين ومؤلفاتهم في المجال الجمالي.

٣ ـ وأن أخص بعمق تحليل المقوّمات الجمالية ومجالاتها وطبيعتها وآثارها. فإن القضية الجمالية القرآنية صحيحة وعامة وضافية.

فليست هذه الدراسة (تحديثاً) لفنون البلاغة وإن كان في بعضها نظرات بلاغية ذاتية وأخرى مسبوقة.

وليست (تطبيقاً) لمناحي (علم الجمال) والتماساً لأحد مذاهبه، واقتباساً من فروعه، واعتماداً على آراء الجماليين في الشرق والغرب، ولا تأثراً بما تذهب إليه تفسيراتهم ومدارسهم وتياراتهم واتجاهاتهم، وإن ضمت شيئاً من الموازنات النقدية وسوقاً لبعض أقوالهم.

فالظاهرة القرآنية مستقلة عن كل هذا لأنها ربّانية المصدر تتوج (الإعجاز البياني) الذي تحدّى العرب بياناً، وتحدّى الناس شريعة ونظاماً، وهي تتحدى الجماليين في روائعه وجمالياته وجلالياته.

إن دراسة الجمالية في القرآن ذات جوانب متشابكة:

● فهي منطلقٌ ووجود حضاري لأقدس وأعظم سجلّ حضاري في الوجود.

● وهي اتّجاه أدبي وفني رائد يغني الموضوعات الكونية والإلهية بأبهى الصور الأدبية والفنية الرائعة.

● وهي منحى تربوي يلبي حاجات الإنسان الجمالية، ويصيغه بالشخصية المسلمة على نمط جامع وفريد متميز.

أسأل الله الصبر والعون والسداد فهو ولي ذلك.

المؤلف

المدخل

١ ـ إنّ ظاهرةَ الوحي
وظاهرةَ التشّريع
وظاهرةَ الفِكر
وظاهرة الإبْداع الفنّي

من أبرز ظواهر القرآن الكريم، التي يمكن أن تجتمع وتتلاحم في أي أثـر فني أو عملي آخر لتحقيق أهـداف البناء والتـربية الإنسـانيـة، والنسق الجمالي الذي يكسو هذه الـظواهر وغيـرها، ويمنحهـا القدرة على التـأثير الوجداني والسلوكي والعقلي معجزة المعجزات.

فالقرآن باعتباره وحياً إلهياً له قدسيّة التنزيـل وعُلْوية الـوحي وربانيـة المصْدر فلا يطرأ عليه زيف ولا تعتريه شكـوك، وليس من مهمته معـالجة الواقع الاجتماعي وأنماط الحيـاة وحدهـا وإنما مـا يحسّن العلاقـة بين الله والنفس الإنسانية، ويأخذ بها إلى مدارج الخير والسعادة.

وباعتباره مَصْدراً أساسياً في التّشريع، فمن المعتاد والمألُوف في مثل المصادر التشريعيّة الأخرى، أن تعرض قضاياها ومسـائلُها بـأسلوب التّقنين القانوني، ولكنّ القرآن خالف ويخالف المعتادَ المألوف، فقـد أتى بها في القصّة والغزوات وتاريخ الأنبياء ومَشاهد الدنيـا والآخرة بـأسلوبه المعجـزِ، وبيانه الفذّ.

وباعتباره عقيدةً قائمةً على الفكر، فـإن أمثالَـه من مصنّفات العقيـدة

تَعـرض إلى خيالاتٍ وأسـاطيرَ وتَهْـويمات وتعقيـدات لا تمتّ إلى الحقائق والقضايا التي تشغل فكر الإنسان بصلة، أما القرآنُ الكريم فقد بيّن ما يتصل بالذّات الإلهية والغيبيات، منبّهاً العقل، ومثيراً وسائل الإدراك، في صياغة من الإبداع الفني الذي لم تعرف في الآثار الأخرى.

إن أدبه (الواقعيّ المثالي الملتزم) يلوّن الحياة الفكرية والتشريعية بألوان البهجة والروْعة، ويضفي عليها فناً من القول والتعبير ما يجعله أدبَ الحياة في الماضي والحاضر والمستقبل.

وهو إذ يوسّع مفهوم الواقعية، ويضبط أبعاد المثالية، ويصحح الالتزام لتشمل المجالات كلها بآفاقها الرحبة وأبعادها الفسيحة، فإنّه ينفرد عن سواه بصياغةٍ واقعيةٍ مثاليةٍ ملتزمةٍ (للذّات الإنسانية والجماعةِ المسْلمة) على أقوم منهج وأصدقِ سبيل بعيداً عن النظريات التربوية والنفسية المتخبطة.

ففيـه أدبُ النفس والقلب والروح، وأدبُ البـدن واللبـاس والـطعـام والحاجات المادية الفطرية، وفيه أدبُ الفرد مع الجماعة، وأدبها معه، ثم أدبها مع الأسرة البشريّة وما يحيط بها من نشاطات كونية مختلفة.

إن القرآن إذ يعالج قضايا الحياة الأدبية والعلمية والاجتماعيّة والتشريعية والفكريّة يتفوق على المؤلفات الاختصاصية ومعالجاتها من جانبين: من طبيعة المعالجة والدراسة والتحليل، ومن الأسلوب الفني المعجز.

فهو باتّساق معالجاته للقضايا المختلفة بوسائله وصوره الجمالية يراعي مصداقيتها وحُسْنهـا ودقـة التصوير الأدبي فيها.

وقد أضحت هذه في مجموعها تمثّل (جماليّة) القرآن أو أرحب ظواهره الأخرى باعتبارها أُطُراً وأوعية للمبادىء والعلوم والقواعد الفكرية المختلفة.

* * *

٢ ـ ويعد **الجاحظ** أول من وضع مسألة الجمالية القرآنية في نسقه البديع ونظمه الجميل، وربط ذلك بالتحدي النبوي. يقول: إن الرسول تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه[(١)].

ويؤكده في كتابه: الحيوان بقوله: ... بعد أن تحداهم الرسول بنظمه... إلى أن يقول: وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد...[(٢)].

وتابع (**الخطابي**) (ت ٣٨٨ هـ) الجاحظ في جمالية النظم، ولكنه بناه **على صفات جمالية في الألفاظ**... يقول: وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه (اللفظ الحامل، والمعنى به، والرباط الناظم لهما) في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها...[(٣)].

وجمالية الألفاظ في انتقائها واختيار موقعها من الجملة القرآنية و (وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة...)[(٣)].

وربما انفرد الخطابي ببيان وجه جمالي من المعجزة القرآنية: وهي لذة القلب والنفس بسماعه، وفعاليته بهما عند تلاوته. يقول[(٤)]:

«قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا

---

(١) الكامل: ٤٤/٢ عن نشأة البلاغة د. سيد نوفل: ١٢٠.
(٢) ٨٥/٤.
(٣) بيان إعجاز القرآن: ٢٦ - ٢٨ - ٢٩.
(٤) المصدر السابق: ٢٠ وذكرها: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار من ص ٤٣٥ د. عبدالفتاح لاشين. دار الفكر العربي.

الشاذ من آحادهم: وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تكاد تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عَراها الوجيبُ والقَلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب يَحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً».

والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ينوه بخاصية النثر القرآني في الجمالية وهي جمالية تتميز بطول (نَفَسه) وتناوله أغراضاً كثيرة فيه على غير ما اعتاده العرب في مثل هذا الجانب الأدبي:

يقول: ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصريف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وهذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات محدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتعمّل والتكلف والتجوز والتعسف.

وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢). فأخبرهم أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلاف.

ثم ينوه بخاصية الجمالية في أغراض القرآن جميعها من غير تفاوت ولا

تباين، وهي جمالية النظم العجيبة التي يعجز عن مثلها أرباب الفصاحة والأدب يقول[1]:

«ومنها: أن القرآن عجيب في نظمه، وبديع في تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر وقَصصٍ، ومواعظ، واحتجاج، وحكم، وإعذار، وإنذار، ووعد، ووعيد، وتبشير، وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل والخيل، أو سير الليل أو وصف الحرب، أو وصف الروض أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتداوله الكلام.. ولذلك ضُرِب المثل بامرىء القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف في شعره...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط على المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا... إلخ».

أما (**الجرجاني**) (ت ٤٨٢) فينبه إلى انبهار العرب الأبيناء بجمال متفرد للقرآن الذي يسري في جميع ألفاظه وآيه وسوره ومقاطعه. ولكنه إذ ينوه بالنظم

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٣.

القرآني فإنه لا يغفل عن جماليات أخرى تتزيّن باتّساقهـا وحسنها يقولَ: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق نظمه. وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظه وموقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتنبيه وإعلام، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وبيان. . . وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً وعشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، أو لفظة ينكرها شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك، أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن أن تدعي وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول[1].

أ ـ إنه هنا جمال انبهاري قام على البديع الرائع في النظم واللفظة الجميلة اللائقة، والاتساق والالتئام والنظام المبهر للعقول والبيان.

ب ـ وخصائص جمالية أخرى في طول نفسه ومد بيانه.

ج ـ ولذة النفس بسماعه وتلاوته من قبل أن يصنف هذا الجمال إلى علوم البلاغة المعروفة.

حتى وإن استوعب رواؤه بعضها وأدخلها في أنواع الاستعارات والتشابيه والكنايات فإن جماليات أخرى تعجز عن تصنيفها وتوزعها، لأنها احساسات (ذوقية) رائعة لأعظم وجود أدبي معجز.

وعموماً فإن عبقرية العمل الأدبي تظهر في أمرين:

١ ـ الشكل الذي يختاره الأديب مظهراً للحقيقة الجمالية.

٢ ـ الكلمة من حيث علاقاتها اللزومية المرتبطة بمعناها[2].

وقد بـزّت روعة القرآن وجماليته عبقريات الآثار الأدبية الأخرى.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٢.

(٢) من مقدمة أسرار البلاغة: محمد عبدالمنعم خفاجي.

أرسل عمر بن الخطاب إلى لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات، يطلب منه ما قاله في الإسلام من الشعر، فانطلق إلى بيته، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها. فقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر[1].

ولكن هذا لم يمنع من تشجيع الرسول عليه الصلاة والسلام شعراء الدعوة والإسلام مثل: حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبدالله بن رواحة، وأن يرفعوا لواء الحق ويخاصموا به أعداءه في بيان رائع ومؤثر.

٣ ـ **خصائص تعبيرية في الأدب الجاهلي**: إن العرب برعوا في لغتهم الأدبية، وبلغوا شأواً طويلاً في تذوق جمالياتها وتفهم أسرارها وامتازوا بالفصاحة، وقدّروا الفصحاء من الخطباء والشعراء، وكان الأدب الجاهلي ثمرة عقولهم وقلوبهم والتعبير عن بيئاتهم.

ويمكننا[2] أن نحدد ما قبلناه من خصائص التعبير للغة الأدبية قبل الإسلام. . . بما يأتي:

أولاً: خصائص صوتية: وتتمثل في مراعاة النسق الموسيقي بحذف بعض أصوات الكلمة لتحقيق الانسجام الصوتي.

ثانياً: خصائص صرفية: وتتمثل في إحلال صيغ محل أخرى. كوضع فعيل في موضع مُفعِل أو مُفْعَل، أو أفعل موضع الفاعل، وكاستخدام المصدر في موضع الفاعل، أو الفاعل في موضع المفعول، أو المفعول في موضع المصدر. . .

ثالثاً: خصائص تركيبية: وتتمثل في الخروج من الرفع إلى النصب، والاتباع في حركات الإعراب، والتضمين، ومخالفة القياس لهدف فني. . . ومخالفة ظاهر اللفظ كإخراج الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك. . .

---

(١) طبقات فحول الشعراء.

(٢) من كتاب: **لغة القرآن الكريم في جزء عم**: الفصل الثالث: الخصائص التعبيرية للغة الأدبية قبل الإسلام: ١٤٥ ـ ١٤٦. د. محمد أحمد نحلة. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ م.

هـذا في الشعر، ويزيد في النثر:

١ ــ الميل إلى الجمل القصار المتلاحقة، والتي تكون منفصلة أو متصلة بروابط خفيفة في وحدات متتالية أشبه بحبات العقد، وهي على كل حال لا تصل إلى العبارات المركبة التي تترابط فيما بينها ترابط أعضاء الكائن الحي، ويبدو أن هذه ظاهرة تعبيرية في الأسلوب السامي على وجه العموم.

٢ ــ التوسع الكائن في استخدام أدوات الشرط والجمل الحالية، وأفعل التفضيل الذي تنفرد به العربية دون سائر أخواتها الساميات، ذلك بأن صيغة (أفعل مِنْ) ليس لها نظير في العبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية القديمة.

٣ ــ الميل إلى التسوية بين العبارات وكثرة الفواصل والفقرات السريعة والحروف العاطفة الخفيفة كالواو والفاء ونحوهما.

٤ ــ الميل إلى التسجيع المقترن بالتوازي العددي، لأن «الحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقييد وقلة التفلت».

٥ ــ الاتجاه إلى التصوير المجازي السريع الخاطف، والعزوف عن التحليل المتصل الهادىء.

والقرآن الكريم الذي نزل بأسلوب العربية في الجاهلية، وتضمن أسمى وأسلم خصائصها فإنه بهر معاصريه ومن بعدهم بروعة تراكيبه وتنويع جمله وجمال صوتياته وبهاء فاصلته، وقبل هذا وذاك في اتساقه الفني وطول نفسه في تناول القضايا الأساسية والكونية والإلهية.

وإن الآثار الأدبية الجمالية والتربوية والعلمية مظاهر متجددة للإعجاز القرآني في وجوهه المتعددة وفي مقدمتها المعطيات الجماليـة بسماتها الخاصة في الشكل والمضمون.

حتى إنه ليصح القول: إن الجمالية أبرز الظواهر القـرآنية بسبب مـا استخدمته من المواد العربية الأولى كالمفردة والتركيب والصورة الأدبية، ولكن في آفاق من الإعجاز الإلهي الدائم.

مفردات جمالية
في
القرآن الكريم

المفردات والإعجاز القرآني:

من المعروف لغوياً وبلاغياً أن القرآن الكريم جرى في كلماته وتراكيبه على أسلوب العرب وأنماط خطابهم ما عدا تلك المفردات أو التراكيب الإسلامية التي أسبغ عليها معانٍ ومفاهيم تقتضيها الدعوة الإسلامية في بعديها العربي والعالمي.

فالقرآن عربي اللغة، معجز البيان، تحدّى العرب وأفحمهم بلسانه الفذ وبيانه الفريد، كما أفحم غير العرب بتشريعه ونظمه الربانية.

وإذا أمكن أن تترجم معاني القرآن ومسائله التشريعية وفضائله الخلقية وحكمه البالغة فإنه من الصعب ترجمة صوره الرائعة وجماليات بيانه.

بل ومن غير الممكن أن تترجم هذه وأمثالها بسمو بلاغتها ودقة فنيتها كأثر أدبي إلى أية لغة أخرى...

ويجري معظم البلاغيين المسلمين على أن إعجاز القرآن كامن في العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ وما يعرف بالشكل والصورة التي تظهر منهما جمالية الصورة والتعبير البلاغي.

فالعلاقات بين الألفاظ ومعانيها وتلازمهما في الجملة القرآنية توضح الإعجاز في (النظم) القرآني أكثر من أي جانب آخر.

ولكن لا بد من أن يتم البيان القرآني المعجز من تلك (المفردات) التي يقوم عليها تركيبه وصوره وروعة نظْمه.

فإن قوام هذا البيان يعتمد على (اختيار) مفرداته وانتقائها لمراعاة النسق المعجز في الجملة أو الصورة القرآنية، في عقد جمالي يبدأ من وظيفة الكلمة مفردة إلى وظيفة الجملة ثم إلى تآلف الجمل القرآنية بعضها ببعض في لوحات أو مشاهد جمالية بالغة الروعة.

حتى إن بعض علماء البلاغة ينوهون بأهمية (المفردة) القرآنية المنتقاة في إعجاز القرآن جملة وتفصيلاً.

فعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٨٢ هـ) أشد البلاغيين تحمساً لإبراز (النظم) دليلاً على إعجاز القرآن وجماله لا يغفل عن صورة الكلمة وبنائها من حيث أنها مألوفة مستعملة أو غريبة وحشية، أو أن تكون حروف واحدة أخف وامتزاجها أحسن ومما تكد اللسان أبعد.

وهذا التفاضل الذي لا يعتد به عند الجرجاني وأمثاله لا يجعله أيضاً ينكر على اللفظ قيمته ووزنه في جمال الصورة البيانية وإشراق وجهها. وكثيراً ما يستقل اللفظ بجماله، ويستغني بحسنه، ولكن الأكثر ما يروع المتذوق من نظم القرآن وبيانه المتآلف المتآخي.

يقول الجرجاني: وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حسنه للفظ دون النظم. وآخر حسنه النظم دون اللفظ، وثالثاً قرىء الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين...[1].

ويقول القاضي عبدالجبار بن أحمد بن الخليل بن عبدالله الهمذاني قبله (ت ٤١٥ هـ)... فالذي تظهر فيه المزية ليس إلا الإبدال الذي تختص به الكلمات (أي اختيار الكلمات لأداء المعنى المناسب)... ثم يقول: ولا

(١) وانظر تتمة كلامه الذي لا يقدم على النظم وجهاً آخر في: دلائل الإعجاز: ٧٥.

يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره... إلى أن يقول: فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة[1].

ويفرد الخطابي قسماً خاصاً باللفظ المفرد الذي سماه: اللفظ الحامل، من بين بلاغة الكلام وإعجازه، وهي القائمة على: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم، ويطبق وجهة نظره في ألفاظ القرآن فيقول: ... حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه... ثم يقول: واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف... ويتابع كلامه منبهاً إلى الفروق بين المفردات والمترادفات فيقول: إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم، والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات... والأمر فيها وترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصة تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا يشتركان في بعضها... ثم يورد أمثلة قرآنية على انتقاء اللفظة القرآنية نذكر منها تعليقه على قوله: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ...﴾ (يوسف: ١٧)، ولم يقل: فافترسه الذئب. يقول: إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل[2].

---

(١) من كتابه: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦/١٩٩، منتقاة.

(٢) بيان إعجاز القرآن: ٢٦ - ٤١، منتقاة.

وسيأتي معنا تعليل (الرازي) لاختيار القرآن الألفاظ الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ . . .﴾ (البقرة: ١٧٩). ونستنتج مما سبق أن ثمة علاقة أساسية أو ثانوية للمفردات بالإعجاز القرآني، وأن البيان القرآني المعجز إنما قام على وجوه تعبيرية متنوعة ومنها: اللفظة القرآنية بخصوصها مفردة كانت أو منتظمة مع غيرها.

وعلى ذلك جرت تعليلات بلاغية واسعة من كتاب الله لحسن اختيار ألفاظه وانتقائها من مترادفها ونظرائها[1].

يقول الجرجاني[2]: . . . واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفيّل (نقبّح ونخطىء) رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشّناعات.

* * *

---

(١) وانظر مثلاً: تفسير الرازي، ففيه الكثير وبخاصة قوله تعالى: **﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾** (الذاريات: ٤٧). وانظر أيضاً تفسير سورة الرحمٰن.

(٢) دلائل الإعجاز: ٤٠١، وستأتي أقوال أصرح ومواقف أبين في أهمية المفردات بالنسبة للإعجاز.

المفردات وجماليات القرآن:

وإذا كانت الجمالية صورة مشرقة للإعجاز البياني في القرآن، وأحياناً جانباً هاماً فيه، فإن دلالة المفردات القرآنية على جمالياته في الوضع اللغوي الأصولي المنفرد أوضح من دلالتها الإعجازية النظمية.

فإن المفردات الجمالية موضوعة في الأصل اللغوي تعبيراً عن روائها وحسنها، وكذلك فإن القرآن اتخذ بعضها في صورة فنية أو تشبيه رائع أو كناية بديعة، أو إسناد بليغ.

وحينئذ يمكن أن ينظر لها وإلى أهميتها من وجوه ثلاثة:

أ ـ فهي تعبير عن مضمون جمالي مادي أو معنوي في وضعها اللغوي الأصيل.

ب ـ ودلالة على تلاحم المفردة مع سائر الجملة القرآنية في نسق بياني معجز، تتخذ لها إطاراً جمالياً آخر.

ج ـ ثم إنها الأداة في تصوير فني لألوان من الجمال اللفظي والمعنوي في صورة أو مشهد تأخذ الكلمة المستعارة بعداً جمالياً إضافياً ومتنوعاً.

والذوق الأدبي الجمالي إذ يقرر بفطرته وبقواعده النقدية انتشار المفردات القرآنية فإنه قادر على تقويمها تقويماً جمالياً بسبب انتقائها لأروع الجمال الفني القرآني بعد أن وضعت في العربية للتعبير عن ألوان الجمال المتشعبة.

وسنخصص الكلام على جماليات المفردات القرآنية من جوانب:

١ ـ جماليات وضعية:

ويقصد بها أن اللفظة الواحدة تحمل معنى جمالياً في (أصل) اللغة،

ولهذا اختارها القرآن للتعبير عن المفاهيم والقيم الإسلامية الجديدة التي يمكنها أن تزداد ضياءً وبهاءً بها مثل ما حمَّلها من معانيه السامية بالقدر الذي تفي بأغراضه الفكرية والفنية.

ولا ريب أن هذه المفرادت تحمل قيماً جمالية لها فعاليتها في النفوس المرهفة الذواقة، مثل ما تحدثه أضدادها من الآثار في التربية الجمالية.

وإن عرض هذه المفردات (منغمة) في كثير من الأحيان تنمي الحس الجمالي في تفهم القيم الإسلامية والالتزام بها واتباعها على المستويين الفكري والجمالي.

فحيثما تلونا سورة أو جزءاً منها أو أنصتنا إليها فإن نفوسنا تسبح في عالمها الجمالي وأذهاننا تقر في حسن معانيها، وآذاننا لا تمل من تكرارها وترددها.

وسواء عبرت المفردات عن جماليات مادية أو معنوية فإن استيعاب القرآن العظيم لكل منهما يدل على شمولية في مفهوم الجمالية التي تتجاوز الماديات إلى المجالات الفكرية والنفسية والروحية والخلقية.

وهذا ما نلاحظه وبكثرة وعمق في المفردات ذات الدلالات المعنوية الجمالية في آفاقها الإلهية والكونية والإنسانية الفسيحة مثل:

أ ـ الله ـ النور ـ الخير ـ الحق ـ الحكمة ـ اليقين ـ الروح ـ العقل ـ العلم ـ النفس ـ الفضل ـ العدل ـ السلام ـ الإيمان ـ الإحسان ـ البر ـ التقوى ـ المعروف ـ الأخوة ـ المحبة ـ المودة ـ الطهر ـ العذوبة ـ الرضا ـ الحنين ـ اللطف ـ الرحمة ـ الإيثار ـ الإشفاق ـ الطيب ـ الصلاح ـ التعظم. وكثير من الصفات النفسية والروحية، فهي جماليات معنوية تدرك بالعقل والوجدان والعاطفة والإرادة لا تبرحها، ومن غيرها تبقى الحياة جافة قاتمة وبائرة ضيقة.

ب ـ ومفردات تنص على الجمالية صراحة بكل ما تستوعبه من معاني الجمال والحسن المادي والمعنوي مثل:

الجمال ـ الحسن ـ النضارة ـ السنا ـ الأنس ـ حدائق ذات بهجة ـ بديع السموات والأرض ـ السراج الوهاج ـ القمر المنير ـ الظل الظليل ـ اللذة ـ المتعة ـ ريحان ـ زهرة الحياة الدنيا ـ زينة الحياة الدنيا ـ الضياء ـ روضة الجنان ـ رخاء حيث أصاب ـ جنة الدنيا والآخرة ـ فرح ـ الذوق.

وهي ألفاظ تزدان بها اللغة العربية التي لم تضن بها على القرآن: وقد استطاع القرآن أن يستوعبها كلها أو معظمها لتلبي موضوعاته الفكرية والجمالية في نمط أسلوبي رائع.

ج ـ ومفردات ذات صلة وثيقة بالجمالية ترتبط به كعامل نفسي مساعد ولفظي تعبيري في مجالاتها وميادينها مثل:

الحب ـ الحسن ـ الشعور ـ الشكر ـ التصوير ـ الضحك ـ القلوب والأفئدة ـ شهوات النفس ـ الهوى والأهواء ـ تحية وسلاماً ـ أشرقت الأرض بنور ربها ـ العذب السائغ ـ الاهتزاز ـ والربى ـ نديّ ـ لينة. إنها أجمل ما ترتبط بالجمال، وأبهى ما تتعلق بالبهاء. وأروع ما تضفي على الجمال القرآني حسناً وألقاً.

د ـ وجمالية محسة رائقة الحسن يتقراها اللمس وتمتلأها العين، وتأنس بها الآذان مثل: الزخرف ـ الذهب والفضة ـ الظل ـ المزن ـ العبقري الحسان ـ العسل المصفى ـ الصبح ـ والإصباح والمصابيح ـ الجوار المنشآت ـ أثاثاً ومتاعاً ـ أثاثاً ورئياً ـ ريشاً ـ ريع آية ـ الصبح المسفر ـ الطلح المنضود ـ الظل الممدود ـ كأس من معين ـ . . . وكل جماليات النعيم الأخروي.

ويتبعها الأفعال والأسماء المضعفة العين مثل: عسعس ـ حصحص ـ وشوش ـ وسوس ـ الوسواس ـ صفصفاً ـ صلصال.

فهي إذ تدرك بالحواس فإن الوجدان يتقبل رواءها المحسوس وحسنها المادي متأثراً بها ومؤثرة في النفوس بقدرتها التعبيرية والظلالية والجرسية.

هـ ــ ومفردات فنية توحي بالخشية والهلع والفزع، وتنبض بالجلال والعظمة والقوة مثل:

لجة ـ لظى ـ تلظى ـ تلقف ـ ضبْحا ـ قدحا ـ عتياً ـ صك ـ متصدعاً ـ صعق ـ صعّر ـ اللهب ـ الصواعق ـ لواحة ـ يحموم ـ صياصي ـ مقامع من حديد ـ تمور السماء ـ زلزلت الأرض ـ البحر المسجور ـ رجّت الأرض رجاً. وسائر الألفاظ في وصف القيامة عموماً ومشاهد العذاب الأخروي خصوصاً.

ومنها اشتقاقاتها مثل: لاهية قلوبهم ـ يموج ـ نجياً ـ القارعة ـ كالحون ـ مهطعين ـ مقنعي رؤوسهم ـ وسائر الألفاظ التي تصور مشاهد الآخرة وهولها، والقدرة وعظمتها...

□ □ □

٢[1]ــ **وقد يستقل لفظ واحد**: ـ لا عبارة كاملة ـ برسم صورة شاخصة ـ لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة ـ. وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير، أبعد من الخطوة الأولى، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق. خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً.

تسمع الأذن كلمة «اثّاقلتم» في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فيتصور الخيال ذلك الجسم المُثّاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثِقَل. إن في هذه الكلمة «طنّاً» على الأقل من الأثقال! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٩١ ـ ٩٥.

الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها.

وتقرأ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها ـ وفي جرس «ليبطئن» خاصة. وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها!.

وتتلو حكاية قول هود: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ فتحس أن كلمة «أنلزمكموها» تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشد بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم منه نافرون!.

وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللفظية، اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن ـ قديماً وحديثاً ـ أعظم مزايا القرآن!.

وتسمع كلمة «يصْطرخون» في الآية:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ﴾.

فيخيِّل إليك جرسُها الغليظ، غِلَظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة؛ كما تُلقي إليك ظلَّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه. وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون.

وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصورة كلها يكون ذلك فنّاً من التناسق الرفيع.

ومثلها كلمة «عُتُلّ» في تمثيل الغليظ الجافي المتنطع: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

فإذا سمعت: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ صورت لكل كلمة «بمزحزحه» ـ المقدمة في التعبير على الفاعل لإبرازها ـ صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة، من وراء هذه اللفظة المفردة.

وكذلك قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾. فكلمة «كبكبوا» يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها.

وحقيقة إن وضع هاتين اللفظتين اللغوي هو الذي يمنحهما هذه الصورة ـ وليس هو استعمال القرآن الخاص لهما، كما هو الشأن في الكلمات الماضية، التي اشتقها خاصة أو استعملها أوّل مرة ـ ولكن اختيارهما في مكانيهما يحسب بلا شك في بلاغة التعبير.

ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة: «الصَّاخَّة» و«الطَّامَّة». والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه للهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخاً مُلِحّاً. والطامة لفظة ذات دويّ وطنين، تخيّل إليك بجرسها المدوّي أنها تطم وتعم، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه.

ضع هذه الألفاظ بجوار ذلك اللفظ المشرق الرشيق «تنفس» «والصبح إذا تنفس» تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصورة على اختلافها.

ومثلها التعبير عن النوم بالنعاس، وعن التنويم بغشية النعاس: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ تجد جو النعاس الرقيق اللطيف، وكأنه غشاء شفيف، يغشى الحواس في لطف ولين: «أمنَة منه» فالجو كله أمن ودعة وهدوء.

ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في الناس:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث «وسوسة» كاملة تناسب جو السورة. جو وسوسة «الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس».

ونوع من هذا ـ ولكن فيه عنه اختلافاً ـ ذلك قوله: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ فالمطلوب هنا هو تفظيع ما قالوا من أن الله اتخذ ولداً، وتكبير هذه الفرية بكل طريقة. فقال: «كبرت» وأضمر الفاعل؛ ثم جعل هذه الكلمة تمييزاً منكراً، ليكون في الإضمار والتنكير معنى الاستنكار والتكبير «كبرتْ كلمةً» ثم جعلها تخرج من أفواههم خروجاً كأنها رمية من غير رام «تخرج من أفواههم» وتنسيقاً لجو التكبير كله جاءت كلمة «أفواههم». وإنك لتحتاج في نطقها أن تفتح فاك بالواو الممدودة، وأن تخرج هاءين متواليتين من الحلق في عسر ومشقة، قبل أن تطبق «فاهك» على الميم الأخيرة!.

وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع، ولكن لا بجرسه الذي يلقيه في الأذن، بل بظله الذي يلقيه في الخيال، وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية.

مثال ذلك: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فالظل الذي تلقيه كلمة «انسلخ» يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات، لأن الانسلاخ حركة حسية قوية.

ومثله: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فلفظة «يترقب» ترسم هيئة الحذر المتلفت. (ولا نغفل هنا أنه خائف يترقب «في المدينة» موضع الأمن

والاطمئنان عادة، وإن كان هذا خاصّاً بالتعبير كله. ولكن العبارة هنا تبرز قيمة اللفظ المصوِّر للفزع في موطن الأمان!).

وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد مثل: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ فلفظ الدَّعّ يصور مدلوله بجرسه وظله جميعاً..ومما يلاحظ هنا أن «الدَّع» هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع هو كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا: «أعْ» وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس «الدَّعْ»!.

ومثله: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فالعَتْل جرس في الأذن وظل في الخيال، يؤديان المدلول للحس والوجدان.

□ □ □

٣ ـ ومفردات تتعين نفسها لأداء وظيفة معنوية: لا تستوفيه لفظة مرادفة أخرى في دقة معناها وشموله، ويعرف هذا من وجودها في الجملة القرآنية التي تتسق مفرداتها مع بعضها للتعبير عن أدق المعاني باختيار أدق الألفاظ.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ فنراه قد استخدم كلمة «أهل» وهي هنا أولى بهذا المكان من كلمة «أصحاب»، لما تدل عليه تلك من الإقامة في النار والسكنى بها. وكلمة «ميراث» في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، واقعة موقعها، وهي أدق من كلمة «ملك» في هذا الموضع، لما أن المال في أيدي مالكيه من الناس، ولكنه سوف يصبح ميراثاً لله.

وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر، ليدرك السر في إيثار كلمة على أخرى، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني، فمن ذلك قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ (طه: ٦٥)، فقد يبدو

للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إما أن تلقي وإما أن نلقي، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الجرسي فحسب، حتى تتفق الفواصل في هذا النغم، وذلك ما يبدو بادىء الرأي. أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن، في تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم خائفين، أو شاكين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم، في نصر مؤزر عاجل، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء ألقى موسى أولاً، أم كانوا هم أول من ألقى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ (البقرة: ١٧٦) فقد يتراءى أن وصف الشقاق، وهو الخلاف، بالقوة أولى من وصفه بالبعد ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ (الحج: ٢٧) فربما كانت الصوتيات، والفاصلة في الآية السابقة دالية، تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد، فيقال: فج بعيد، ولكن إيثار الوصف بالعمق، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين، فصار كأن له طولاً، وعرضاً، وعمقاً.

وإيثار كلمة «مسكوب» في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ مكان كلمة (غزيرة)، أدق في بيان غزارته، فهو ماء لا يقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاذه، بل ربما أوحت تلك الكلمة بمعنى الإسراف في هذا الاستخدام.

واستخدام كلمة «يظنون» في الآية الكريمة: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٥، ٤٦) قوية في دلالتها على مدح هؤلاء الناس؛ الذين يكفي لبعث الخشوع في نفوسهم، وأداء الصلاة والاتصاف بالصبر أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا؟[١].

□ □ □

٤ ـ **ومفردات موظّفة لألوان جديدة من الجمالية**: فلا يراد منها معناها الوضعي لسبب بلاغي وجمالي، وعندئذ يمكن أن تكتسي غالباً حلتين من الجمالية: واحدة من حقيقتها الوضعية والثانية من دلالتها الجديدة المقصودة.

وإن نقل مفردات من مضمونها اللغوي إلى مضمون قرآني في صورة مجازية يسبغ عليها جمالاً قدسياً وبهاء ربانياً آخر باعتبار أن القرآن صفة أزلية لله تعالى، كما يلبي مقصداً بيانياً في إعجاز الكلمة والجملة والنظم القرآني. وعندئذ تلتحم (آلية) المفردة باعتبارها حروفاً منتقاة بلون جمالي جديد لأداء مفهوم معين يصاغ بصور لا حدّ لها في المجاز والتشبيه والتمثيل ووجوه مختارة من البديع.

أولاً ـ التوظيف التنزيهي:

وهو استعمال تزييني تنتقل اللفظة من مدلولها اللغوي الأصلي إلى دلالة بديعية تليق بالذات الإلهية التي ينبغي أن تتنزه عن صفات النقصان والحوادث، وفي هذا جمال معنوي وجلالي إلهي ينفي عن الله التجسيم والتشبيه والنظير والمثلية. ومن وجوه التنزيه الملائمة:

١ ـ **المشاكلة**: وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[٢]، فالله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ

---

(١) من إعجاز القرآن الكريم: د. أحمد حمدي بدوي.

(٢) الإتقان: ٢/٩٤. وانظر موقف سيد قطب من مراعاة النظير في التصوير الفني: ١٢٢.

يَعۡمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥) فلا تصح نسبة «الاستهزاء» إلى الله في مقابل استهزاء المنافقين بالرسول ﷺ وبالصحابة، وإنما الهزء حاق بهم، وعقوبة جازاهم الله عليها، ولذلك قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ...﴾ (الشورى: ٤٠)، وهذا جار على أسلوب العرب ومذهبهم وطريقة خطابهم.

وفي آية أخرى يقول الله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ (يونس: ٢١) فالله تعالى منزه عن المكر الذي قد يتصف به بعض الناس، لأنه استهزاء وتكذيب وخداع وتحايل، فلا يصح نسبة ذلك إلى الله، فالمعنى إذاً كما ذكره ابن كثير أن الله أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذَّب وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على حين غرة منه... ويقول الرازي: إن الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك وهو ما أعده لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال.

٢ ـ **التورية**: وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد البعيد منهما، ويستدلون عليها بآيات منها:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧) ويفسرون الأيدي هنا بالقوة والقدرة ويقولون: ذكر في الآية ما يناسب المعنى القريب وهو «بنيناها»، وسماها البلاغيون: بالتورية المرشحة وهذا تفسير ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد كما نقله ابن كثير.

وقال الرازي: الأيد: القوة وهذا هو المشهور.

وأحياناً يرجح تناسق الصورة أو المشهد المعنى البعيد حين تدل عليه أمارة. فالله تعالى يقول: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ (الرحمٰن: ٦) فالنجم هنا النبات الذي لا ساق له، وقرينته: الشجر، ويسجدان. في مقابل:

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ المتقدمة. وإن كان تفسيره بالنجم المعروف والقريب مرجوحاً عند معظم المفسرين.

٣ ـ **المبالغة والتكثير**: وهي أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ المعنى الذي قصده: وهي مبالغة بالوصف مثل: ﴿ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌ ﴾ ومبالغة بالصيغة، وصيغ المبالغة: فعلان كالرحمن أبلغ من الرحيم، وفعّال: تواب، وفعيل: حكيم...[1].

وفسر البلاغيون بهما بعض الآيات الكلّية مثل: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ... ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقوله: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ (النمل: ٢٣). قال أبو السعود في تفسيره مشيراً إلى أن لفظة «كل» لا يراد منها العموم: أي من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك. وقال ابن كثير: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، وعلى رأي الرازي هو عام دخله التخصيص[2].

وقريب منه قوله: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ (الكهف: ٥٤) فقد ضرب في القرآن أمثالٌ للتقريب والعظة والاعتبار مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم وجرى ذلك على أسلوب العرب وطريقتهم.

ويرى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) أن المبالغة والتكثير قد تجري في الجملة القرآنية وصورتها أيضاً وليس في اللفظة الواحدة، ويستشهدان على ذلك بقوله: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ (الزخرف: ٨١) وغيرها. وليس هنا مجال التفصيل فيها.

---

(١) اقتباس من: الإتقان ٢/٩٤.

(٢) عند تفسير قوله: ﴿**كُلَّ يومٍ هو في شأن**﴾ (الرحمٰن: ٢٩).

إن تـألّق مفردات قـرآنية ضمن جملتهـا، وتزيين بعضهـا في تنـاسق بديعي، وإرادة معنى جميل يتناسب والجماليات الإسلاميـة والقرآنيـة، من وظيفة الفن البديعي الذي يسبغ على اللفظة والجملة بهاءً لفظياً وجمالاً رائعاً.

والحقائق الفكرية والعقدية التي يسوقها القرآن تصاغ بمثل هذه الأوعية اللفظية الفنية فتزيدها بهاءً وجمالاً وتضفي عليها الروح والحياة في كثير من الأحيان.

○ ○ ○

ثانياً: مفردات موظفة لألوان الصور الجمالية في التشبيه والمجاز:

والمقصود هنا بحث الألفاظ التي خصها القرآن بهذا اللون الجمالي دون سواها حتى كانت محور صوره أخاذة رائعة.

فالقرآن اتخذ مفردات معينـة لإقامة علاقات جمالية بينها وبين سـائر الجملة أو الصورة القرآنية وهذا يوحي بشيئين:

أ ـ أهمية هذه اللفظة أو تلك في بناء صورة فنية أدبية عامة.

ب ـ جمالية اللفظة مفردة وبعـد ضمها إلى رتـل الألفاظ الأخـرى لتكوين الصورة الفنية المطلوبة.

ولذا فإننا لا نتحدث عن أنواع التشبيه والاستعارة والمجاز لأن مثل هذا الحديث ينبغي أن نبين فيه العلاقـة الفكـرية والجمـالية بين أركـان التشبيه والاستعـارة والمجاز، وإنمـا سنقصـر الكـلام على جماليـة المفـردة أصـلاً واستعمالاً.

وإذا ألقينا ضوءاً على بعضها بما يشبه جريان التشبيه والاستعـارة فإن المقصود بذلك لفت النظر إلى جمالية المفردة في موضعها الفني وصورتها القرآنية.

فمنها مفـردات مشرقة باسمة موحية بمشاعر الرضى والبهجة. مثـل:

الـروح ـ الهدى ـ الأمهـات ـ الحياة ـ الـوجه ـ النـاصية ـ الحسنـات ـ وارثو الفردوس.

ومنها مفردات مهيبة مروعة موحية بظلال القوة والحزم مثل: حديـد ـ الختم والطبع ـ السوء والسيئات ـ ربطنا ـ الموت ـ الصدع ـ المتين ـ الأغلال ـ أضللن ـ صم ـ بكم ـ عمي ـ أرساها.

ويلحق بها مفردات ذات دلالـة فنية خـاصة. مثـل: غشاوة ـ أكنـة ـ الحجاب ـ حرف ـ سكارى ـ المرض.

ومنهـا مفردات عفـة مهذبـة الدلالـة، بعيدة عن التهافـت والابتذال، والأدب المكشوف: مثل: تغشاها ـ التماسّ ـ الحرث ـ المـلامسة ـ فـاحشة قوم لوط ـ لباس لكم ولباس لهن ـ النكاح ـ هيت لك ـ لا تواعدوهن سراً ـ أفضى بعضكم إلى بعض...

إن من له إلمامة بالعربية يدرك الفروق بين هذه الأصناف اللفظية، كما يدرك بذوقه جمالها الفني الذي يعبر عن تشوف إليها أو انكماش عنها.

والقرآن قد اختارها واختار معها أن يرصفها في صورة فنية معبـرة أو ينقلها إليها فتزداد حسناً، وتتسع بعداً فنياً حتى لتكاد تنسى دلالتها الوضعية أحياناً.

وإذا عدنا إلى هذه المفردات ثانياً ـ ومع ملاحظة سياقها ـ نجد تعدداً في طبيعتها وجوهرها نقلاً من حقيقتها اللغوية إلى مجازات وتشبيهات وكنايات بلاغية.

فقد احتفظ ببعضها في دلالته المجردة الخالصة، وأحياناً ينقلهـا إلى صورة ومجال ماديين، مثل: ينزِّل الملائكة **بالرُّوح** من أمره ـ فاهْدُوهم إلى **صراطٍ** مستقيم ـ **فأثابكُمْ غَمّاً** بغَم ـ فإذا جاءتْهم **الحَسنةُ** قالوا لنا هذِهِ ـ وإن تصبْهم **سيئةٌ** يطيّروا بموسى ومن معه ـ.

وأبقى بعضها في دلالته المادية مثل: والجبال **أرساها** ـ وأنه هو **أضحك** وأبكى ـ سمعوا لها **تغيظاً وزفيراً** ـ[1].

ووظف بعضها في مجالات فكرية بعد أن كانت دلالته المحسة أصلاً وحقيقة، وهذا واضح من قوله: صم بكم عمي فهم لا **يعقلون** ـ وقوله: **وربطنا** على قلوبهم إذ قاموا. . . ـ في قلوبهم **مرض** ـ واصنع الفلك **بأعيننا** ـ فاصبر لحكم ربك فإنك **بأعيننا** ـ في آذانهم **وقر** ـ هو عليهم **عمى**.

وأكثر من نقل المفردات من الدلالات المادية إلى المعنوية مثل قوله: الذين **يرثون** الفردوس ـ وترى الناس **سكارى** وما هم بسكارى ـ **فاصدع** بما تؤمر ـ **ختم الله** على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم **غشاوة** ـ إذ **الأغلال** في أعناقهم ـ فبصرك اليوم **حديد** ـ **وكلمة الله** هي العليا. . .

وحسبي الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في النفس، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس، وتأثيراً فيها، ويكفي أن تقرأ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الجاثية: ٢٣) لترى قدرة كلمة ختم، في تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٧) لترى قيمة كلمتي الظلمات والنور، في إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل وقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨) لترى قيمة هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر، وقوله سبحانه: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) تقدم بعضها. هذا وقد توسع علماء البلاغة في تصنيف هذه الألفاظ وغيرها في علوم المعاني والبيان والبديع، ولنا عودة إليها ضمن تراكيبها القرآنية المبدعة.

مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ (البقرة: ٢٧) فالكلمات: ينقضون ويقطعون ويوصل، تصور الأمور المعنوية في صور (محسّة). وفي اختيار القرآن للكلمة الدقيقة المصورة للمعنى خذ كلمة «يسكن» في قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ (الشورى: ٣٣) وكلمة «تسوروا» في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ (ص: ٢١) وكلمة (يطوّقون) في الآية الكريمة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾، وكلمة «يسفك» في آية: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾ (البقرة: ٣٠) وكلمة (انفجر) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ (البقرة: ٦٠) وكلمة «يخرون» في الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (الإسراء: ١٠٧، ١٠٨) وكلمة «مكباً» في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك: ٢٢) وكلمة «تفيض» في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ ﴾ (المائدة: ٨٣) وكلمة «يصب» في قوله تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ (الحج: ١٩) وكلمة (يدس) من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩). وكلمة «قاصرات» من قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ

﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ (الصافات: ٤٨)، وكلمة «مستسلمون»، في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (الصافات: ٢٥ - ٢٦) و «متشاكسون» في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ (الزمر: ٢٩) ويطول بي القول، إذا أنا مضيت في عرض هذه الكلمات التي توضع في مكانها المقسوم من الجملة، فتجعل المعنى مصوراً تكاد تراه بعينك، وتلمسه بيدك، ولا أريد أن أمضي في تفسير الكلمات التي استشهدت بها، لأنها من وضوح الدلالة بمكان المحس الملموس.

وفي القرآن كثير من الألفاظ، تشع منها قوى توحي إلى النفس بالمعنى وحياً، فتشعر به شعوراً عميقاً، وتحس بجو الفكرة إحساساً قوياً، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، فتأمل ما توحي به كلمة: تنفس، من تصوير هذه اليقظة الشاملة للسكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة ولا حياة، وكأنما الأنفاس قد خفتت حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، ودبت الحياة في أرجائه.

وخذ قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ... ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٧، ١١٨) وقف عند كلمة ضاق في ضاقت عليهم أنفسهم، فإنها توحي بما ألمَّ بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاءً، فأصبحوا لا يجدون في أنفسهم مكاناً، يلتمسون فيه الراحة والهدوء، فأصبح القلق يؤرق جفنهم، والحيرة تستبد بهم، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

واقرأ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(السجدة: ١٦) وتبين ما تثيره في نفسك كلمة «تتجافى»، من هذه الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها، وتنبو عنها. و قف كذلك عند كلمة «يعمهون» في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥) فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى في الحروف، كفيل بالإيحاء إلى النفس، بما فيه هؤلاء القوم، من حيرة واضطراب نفسي، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق. واقرأ الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) أفلا تجد في كلمة «زحزح» ما يوحي إليك بهذا القلق الذي يملأ صدور الناس في ذلك اليوم، لشدة اقترابهم من جهنم، وكأنما هم يبعدون أنفسهم عنها في مشقة وخوف وذعر. وفي كلمة (طمس) من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ما يوحي إليك بانمحاء معالم هذه العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود. ويوحي إليك (الراسخون) في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) بهذا الثبات المطمئن، الذي يملأ قلب هؤلاء العلماء، لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به. وتوحي كلمة «شنآن» في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٢) توحي بهذا الجوى، الذي يملأ الصدر، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه، ولا تستسيغ نفسه الاقتراب منه.

ولما سمعنا قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران: ٥٥) أوحى إلينا التعبير بالتطهير، بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين، اضطر إلى أن يعيش بينهم، فكأنهم يمسونه برجسهم، وكأنه يصاب بشيء من هذا الرجس، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم. وكلمة سكرت في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه، كما جاءت في الشعر، ولو قال الشاعر بدلاً منها مقاعد العواد، مقاعد الزيارة، أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح، وزالت تلك الهجنة، ولذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن، وجاءت على ما تراه من القبح، في قول الشريف الرضي[1].

ومن ذلك استخدام كلمة شيء، ترجع إليها في القرآن الكريم، فترى جمالها في مكانها المقسوم لها. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، (الكهف: ٤٥) وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥) وقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ

---

(١) المثل السائر: ١/٢٦٣. وقول الشريف الرضي هو:

أعززْ عليّ بأنّ أراكَ وقدْ خلا ... عَنْ جانبيْكَ مَقاعدَ العُوّاد

﴿شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤) إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي وردت بها تلك اللفظة، وكانت متمكنة في مكانها أفضل تمكن وأقواه، ووازن بينها في تلك، وبينها في قول المتنبي يمدح كافوراً:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ... لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تحس بقلقها في بيت المتنبي، ذلك أنها لم توح إلى الذهن، بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها وتطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشيء، الذي يعوق الفلك عن الدوران، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبها في منح النفس الهدوء الذي يغمرها، عندما تدرك المعنى وتطمئن إليه.

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها، وسياجاً لجلالها، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبها، في مكانها من الحسن، وقد يقال: إن كلمة الغائط من قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، (المائدة: ٦) قد أصابها الزمن، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها، ولكنا إذا تأملنا الموقف، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام، وجدنا، أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى، وصاغه في كناية بارعة، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض، وكانوا يمضون إليه في تلك الحالة، فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة، وإن شئت أن تتبين ذلك، فضع مكانه كلمة تبرزتم، أو تبولتم، لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان. ومن ذلك كلمة ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن، وأنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم، في هذا الموضع التشريعي الصريح(١).

---

(١) د. أحمد حمدي بدوي: من إعجاز القرآن البياني. مقتبسات من ص ٦١ ـ ٧٥.

ثالثاً ـ في الفاصلة القرآنية:

وهي الكلمة التي تختم بها الآية، وبها يتم معناها، ويزداد وضوحاً وجلاءً. ففيها تفصيل توضيحي جمالي يضفي على معناها رواء بيانياً بديعاً بما تؤديه من جرس صوتي ينسجم مع آياتها وسائر الآيات.

١ ـ ففي الناحية الصوتية والجرسية: نلاحظ أن أكثر ما تنتهي الآيات بالنون والميم المسبوقتين بحروف المد، وتلك هي الأجزاء الطبيعية في الموسيقى نفسها. قال سيبويه: إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا.

وقد تعددت (إيقاعات) الفواصل، مثل: حرف مد (العوض) المسبوق بالحروف الهجائية، كما في سور: النساء ـ والإسراء ـ والكهف ـ والفتح ـ والنصر...

والألف اللينة المسبوقة بالحروف الهجائية أيضاً، في سورة: عبس، وطٰه، وبعض من سورة النازعات فهو غالباً إيقاع لطيف خفيف يعبر عن حركات سريعة ويقتضي مداً قصيراً له صوتياته الملائمة.

وكثيراً ما يسبق المدُّ حرفي النون والميم كما أشرت ـ وأحياناً حروفاً أخرى غير النون والميم وهو ما نلاحظه في سور متعددة، مثل سور: النساء، والفيل، وقريش، والزمر، وص، ... ومثل هذا الإيقاع يمد بنفس صوتي طويل يقتضي أداءً صوتياً خاصاً.

وأحياناً تخلو الفاصلة من حرف المد ويستعاض عنه بالقلقلة، أو التفخيم، أو الهمس، أو الحلق، أو السكت... مثل سور: الكوثر، والصمد، وأبي لهب، والفلق، والانفطار، والهمزة، ومعظم التكوير، والعصر، وهذا الإيقاع المباشر الصامت والساكن يوحي غالباً بالقوة والفخامة والجلال الجرسي.

فكل فاصلة ضمن أسرتها تنزع إلى تحقيق لون جمالي من الجرس

الظاهر، والخفي، والإيقاع القوي أو السلسل الرّتيب، القصير والمتوسط والطويل، وتنسجم في تركيب الآية، وتتسق في معناها، حتى يمكن أن تنغم بالصوت الحسن المشروع.

يقول الرافعي[1]: وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورَ تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن فإن لم تنتهِ بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وسنعود إلى هذه المسألة بتفصيل أكثر في: التناسب الصوتي إن شاء الله.

٢ ــ ومن ناحية التناسب المعنوي: (فتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقاً تاماً بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها...)...

---

(١) إعجاز القرآن: ٢٤٥. والرافعي على أدبياته المؤمنة، وكذلك أمثاله من الأدباء الإسلاميين نقدم لهم الملاحظة هي: وصفت هنا وفي مواضع أخرى بعض آيات القرآن الكريم بالموسيقى، وأنا حين أنقلها كما هي أمانة، فإن مما لا يليق بكتاب الله وصفه بذلك، ويحسن تغييرها بلفظة أخرى مثل: التناسب الصوتي، والتناسق الصوتي...

وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها حتى لتوحى الآيات بها، قبل نطقها، كما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . . . لَحْمًا﴾ وهنا قال معاذ بن جبل: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢)، فضحك الرسول، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت»[١].

حتى ليأبى قبولها والاطمئنان إليها، من له ذوق سليم؛ إذا غيرت وأبدل بها سواها، كما حكي أن أعرابيّاً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الرحيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه[٢]. . . والآية إنما ختمت بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٠٩). . .

والقرآن كله نماذج تلتحم فيها الفواصل بنسيج بديع ونسق عجيب مع الجمل القرآنية لفظاً ومعنى لتحدث في نفوسنا الأثر المراد.

ومن الأمثلة أيضاً قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ . . .﴾ (البقرة: ٢٢٠) فالمقام تشريع وتحذير يستدعي هيبة المحذر وكلمة المشرع.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ . . .﴾ (البقرة: ٣١) فالموضوع تعليم حكيم، وبها ختمت الآية.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي . . الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦) أليست الفاصلة متناسبة مع الألوهية المتفردة والاختيار الإلهي المطلق لما يشاء وفق الحكمة الربانية؟.

ومن الفواصل الواضحة قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ . . . حَلِيمٌ﴾

---

(١)، (٢) الإتقان: ٢/١٤، ١٠١.

(البقرة: ٢٢٥) فإن مناسبة الغفران والحلم لعدم المؤاخذة على اللغو في الإيمان واضحة قوية. . .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة: ٤١ و٤٢) فختم الأولى بتؤمنون، لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة، فمن قال إنه شعر كان كافراً ومعانداً عناداً محضاً، فكان من المناسب ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أما مخالفة القرآن لنظم الكهان فمما يحتاج إلى تدبر وروية، لأن كلا منهما نثر، فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، ولكنها تظهر بتدبر ما في القرآن من بلاغة رائقة ومعان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ومما يجمل إيراده هنا أن تختلف الفاصلتان في موضعين، والمتحدث عنه واحد فيهما، وذلك كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨). والمتأمل يجد سر هذا الاختلاف، أن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله، فهو ظلوم كفار، وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم والكفر بالنعم، بالغفران والرحمة، وكان ختام الآية الأولى بما ختمت به، لأنها كانت في معرض صلة الإنسان بالله، وكانت الثانية في معرض الحديث عن الله، فناسب ختم الآية بذكر صفاته.

ونظير ذلك قوله سبحانه في سورة الجاثية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ

(١) الإتقان: ٢/٢٠٢.

لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (الجاثية: ١٤ و ١٥) كررت هذه الآية في سورة فصلت، وختمت بفاصلة أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦) ولعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكري البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه، أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها: من جزاء كل بما يستحق. ونظير هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨) وقال مرة أخرى في السورة نفسها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦) ونستطيع أن نلتمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، بما ناسب أن تختم الآية بالافتراء، الذي اعتاده اليهود، وهم أهل الكتاب. أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون، ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً.

وربما احتاج الأمر إلى إمعان وتدبر لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف، ويبدو أن ختمها بسواه أولى. من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فقد يبدو بادىء ذي بدء أن قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، يحتم أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم، ولكن تأملاً هادئاً يهدي إلى أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرد عليه حكمه، فهو عزيز غالب، وحكيم يضع الشيء في موضعه، وقد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة، وليس كذلك، فكان الوصف بالحكيم احتراساً حسناً، وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب، فلا اعتراض لأحد عليك في ذلك، والحكمة فيما

فعلته، ونظير ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي سورة الممتحنة: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفي سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (غافر: ٨). وفي سورة النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾(النور: ١٠) فقد يكون من المناسب في بادىء الرأي أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم؛ لأن الرحمة مناسبة للتوبة، لكن التعبير بالحكمة هنا إشارة إلى حكمته سبحانه في مشروعية اللعان، الذي سن أحكامه، في هذه السورة.

وقد تحدث العلماء عما يكون في الآي مما يشير إلى الفاصلة، ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحاً[1]، أما التصدير فأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية، ودعوه رد العجز على الصدر، ومثلوا له بقول تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

وفي ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً، يستقر

---

(١) أقول: ذكر السيوطي في الإتقان: ٢/١٠١ أربعة أنواع هي: التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال. وكثير من الأمثلة من قبل ومن بعد، اقتبسها د. بدوي في كتابه السابق من الاتقان.

في النفس وتتقبله أعظم قبول. وحيناً يظن أن الآية تهيء لفاصلة بعينها، ولكن القرآن يأتي بغيرها، إيثاراً لما هو ألصق بالمعنى، وأشد وفاء بالمراد.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فربما وقع في النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، وتتصل به، ولكنها جاءت تبرؤاً من الجهل. وفي ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذي خلق.

أما ما سموه توشيحاً، فهو أن يكون معنى الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون. وبقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

هذه الفواصل لها قيمتها في إتمام المعنى، وهي مرتبطة ـ كما رأينا ـ بآياتها تمام الارتباط، ولها أثرها الجرسي في نظم الكلام، ولهذه الصوتية أثرها في النفس، وأسلوب القرآن فيه هذه الجرسيّةُ المؤثرة، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرعياً، وتجد بعض ذلك في كتاب الإتقان[1]، ومن ذلك إيثار أغرب اللفظين نحو «قسمة ضيزى».

وقد أحسن ابن الأثير توجيه هذه اللفظة إذ قال[2]: «إنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها، ألا ترى أن السورة كلها ـ التي هي سورة النجم ـ مجموعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وكذلك إلى آخر السورة. فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد، وما

---

(١) الإتقان: ٢/٩٩.

(٢) المثل السائر: ٦٢. أقول انظر: إعجاز القرآن: ٢٦١ للرافعي، وسيد قطب في: التصوير الفني في القرآن: ٨٦.

كان يزعمه الكفار، قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾، فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها.

ويقول: وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها، ولكن في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، ولا مناسبة، لأنها تكون خارجة عن حروف السورة، وسأبين ذلك فأقول. إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة، قلنا: (قسمة جائرة أو ظالمة) ولا شك أن (جائرة، أو ظالمة) أحسن من (ضيزى)، إلا أنا إذا نظمنا الكلام، فقلنا: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾، تلك إذاً قسمة جائرة، لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز، الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام. هذا وإن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة».

(وقد يشتد التقارب الموسيقي في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وقد تختلفان في الوزن، ولكنهما تتقاربان في حروف السجع، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وقد تختلفان وزناً وقافية، ولكنهما تتقاربان، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقوله: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ويسمي العلماء الفواصل المتفقة في الحرف الأخير متماثلة، وما عداها

متقاربة، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبداً، وقد تنتهي السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير، كقوله تعالى في ختام سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله، أو أكثر، من غير أن يكون في ذلك كلفة ولا قلق، بل سلاسلة ولين وجمال، مثال التزام حرف الراء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [2].

ومثال ما اتفقتا في حرفين، قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾.

ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وأنت ترى في كل ما التزم فيه حرف أو أكثر أنه طبيعي، لا تكلف فيه.

هذا وإذا كانت الفاصلة في الآية كالقافية في الشعر، فقد رأينا فيما سبق بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية، حينما تتقارب الفواصل ولا تتماثل، كما أنه من المعيب في الشعر أن تتكرر القافية، قبل سبعة أبيات، وليس ذلك بعيب في الفاصلة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾

---

(١) الكواكب السيارة. (٢) وسق: جمع.

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ
الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴾[1].

* * *

مفردات جمالية واشتقاقية يكررها القرآن

وهي ألفاظ ذات طابع جمالي في الجرس والدلالة والظلال، سبق الكلام على كثير منها كمفردات مستقلة، تثير كل منها ألواناً من أحاسيس البهاء والحسن، عند تذوقها بالحس الفني المرهف، وتشعر أن القرآن يتخذها (مواد) يتكرر حضورها في معان شتى، ومبادىء متنوعة.

فقد يُظَنّ أن ألفاظاً مثل: الإصباح، والضحك، والذوق، والجمال، قاصرة على طابعها الجمالي من الوجهة المادية المحببة وحدها.

وقد يظن أن ألفاظاً أخرى مثل: الحُب، والتزيين، والحسن... لا ينبغي فنياً تكرارها لأنها ضيقة الأفق محدودة الأبعاد والمجالات.

ولكن الإبداع الفني والجمالي يسري في جميع سور القرآن وآيه للتعبير عن المحسات والمجرّدات والغيبيات، وهي ميادين بعيدة الآماد، واسعة الجوانب، عميقة الأغوار.

وهذا يستدعي بالضرورة تكرار المفردة الواحدة في موضوعات متعددة وإيرادها في مجالات مختلفة تكون المفردة محورها وعمادها.

ويطلعنا على ألوان مختلفة، وأحياناً متعارضة من المعاني والجماليات استوعبتها مفردة واحدة. ففي الحب القرآني جمال وقبح، وفي الزينة رغبة ونفور، وفي الذوق إقبال وكراهية، وفي الإصباح روح وهلاك...

(١) اقتباس من: من بلاغة القرآن. د. أحمد أحمد بدوي. أقول: وقارن بالإتقان: ٩٦/٢ - ١٠٥.

وسنوضح ذلك كله في النماذج التالية:

روعـة الإصبـاح:

الصبح ـ صباح ـ مصبحين ـ مصباح ـ مصابيح ـ إصباح: من المفردات القرآنية المعبرة عن جمال فني في حجم أدنى من المتوسط. . . وخلال ١٦ موضعاً من الآيات.

وإنما قلت إن هذه المفردة تعبر عن جمال فني حتى لا يتبادر إلى الذهن أن استعمالات القـرآن لها ينحو إلى جمال الإشراق وبهاء نوره وحده، ولكنه بالإضافة إلى جمال هذا المشهد ورونقه يتجه به إلى أعمال وأحوال ترتبط بالجهاد الإسلامي وفتوحات المسلمين.

١ ـ فالصبح الـذي ورد أربـع مرات يسفر عن الليل ويكشف بضيائه عن ظلمته ويؤذن بحركة زمانية دائبة في يوم جديد، استحـق من الله أن يقسم به ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴾ (المدثر: ٣٤، ٣٥).

وإن امتداد ضوئه وتكامله والتألق المشرق يبعث الحياة في الأحياء، فلا غرابة أن يصـوَّر نابضـاً بالحيـاة ومظاهـر الحياة: واستحق أن يقسم الله بـه ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ (التكوير: ١٨، ١٩).

وأورد الرازي في مجازّيه قولين: أحدهما أنـه إذا أقبل الصبـح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له، على المجاز وقيل: تنفس الصبح.

والثاني: أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك، واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفس وجد راحة، فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة. وفي كلا القولين يضـفي (تشخيص) الجمادات وإضفاء الروح عليها ومنهـا (الصبح) في تنفس يوحي باللين والنعومة والإنسياب حركة الحياة، ومشهداً جمالياً رائعاً من مشاهد الطبيعة المتجدد.

والصبح من ناحية ثانية أنسب الأوقات لإقامة العقوبة الدنيوية على قوم لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١). ثم إنه أليق الأزمنة لظفر المجاهدين ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ (العاديات: ١ ـ ٢).

حتى إن اشتقاقية: صباح، ومصبح يلبيان هذه الحاجة وفي مثل هذا الوقت الذي يكون الناس عادة في بيوتهم أو وراء أعمالهم.

فهو صباح سيء بالنسبة للمنذرين ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ (الصافات: ١٧٧) وهو أسوأ حين تأخذهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٨٣)، أو حين يبيتون أمراً خطيراً بليل ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ (القلم: ١٧، ١٨).

٢ ـ أما (المصباح) وجمعه فلم يستعمله القرآن إلا في أبهى الصفات النورانية وأجمل مشاهد الطبيعة.

فقد مثل الله به نوره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ﴾ (النور: ٣٥).

وهي (مصابيح) لتزيين السماء الدنيا وحفظها بالنجوم المتلألئة المتموجة ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾ (فصلت: ١٢) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ (الملك: ٥).

إن إنسانية هذه الجمالية تبدع في النفس حساً جمالياً، وتذوقاً فنياً تتملاها كل عين ويشعر بروائها كل إنسان.

ضحك مختلف:

ضحكت ـ أضحك ـ تضحكون ـ ضاحكاً ـ ضاحكة ـ من المفردات القرآنية المعبرة عن جمال فني أيضاً في عدد لا يتجاوز عشرة مواضع من كتاب الله.

وفنية هذه المفردة أنها تعبر عن الانكشاف والبروز في حالتي الانبساط والرضى الظاهر سروراً أو هزواً. وقد استعملها القرآن لهاتين الحالتين جرياً على دلالتها اللغوية، فهي تدل على انفراج الشفتين وبدو الأسنان سروراً وحبوراً، وكذلك (منه، وبه) للسخرية، وأحياناً للعجب والفزع.

ومن المشتقات الجميلة: الضَّحْك بمعنى العسل أو البلح كما قال ابن فارس.

١ ــ فقد ينسب الإضحاك إلى الله تعالى باعتبار أنه أثر لقدرته العظيمة وأنه موجد لأشياء تضحك وتفرح ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ . . .﴾ (النجم: ٤٣). ويلاحظ هنا إطلاق الإضحاك والإبكاء، فليس سياقهما لبيان المقدور فلا يحتاجان إلى متعلق وهو المفعول به، ثم إنهما وصفان للذكر والأنثى، فكلاهما متصف به، كما يلاحظ اختصاص الإضحاك بالله تعالى بضمير الفصل (هو) قبله، ثم اقترانهما بفعل من الله وحده فيما بعد ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ (النجم: ٤٤، ٤٥).

وإذا عرّف فلاسفةُ الإنسان بأنه (إنسان ضاحك)، فإن تصريح القرآن بهذا الاشتقاق وفي أحوال خاصة دنيوية وأخروية يُعبر عن مدى السرور والرضى في وقائع مضحكة ومسرة متنوعة.

يقول تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام عند سماعه حديث النملة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (النمل: ١٩) فقد جمع لفظتين جماليتين محبوبتين (تبسم) و (ضاحكاً) للتعبير عن حالة نفسية تجاه حديث غريب من نوعه في الدنيا، وفهم أغرب منه وأعجب، فقد تبسم متعجباً من قولها كما يقوله بعض المفسرين، أو تبسم شارعاً في الضحك وتجاوز حد التبسم كما يقوله الرازي. وفي كلتا المفردتين تنمان عن حالة الابتهاج والسرور.

وفي الدار الآخرة تهش نفوس المؤمنين فإذا بها ضاحكة مستبشرة وتنضر وجوههم فإذا بها مسفرة مشرقة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾

(عبس: ٣٨، ٣٩). فهي مضيئة متهللة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه، وبما تشاهده من النعيم المقيم والبهجة الدائمة.

٢ ــ وقد ينسب الضحك إلى المشركين المعاندين وهم يستهزئون من المؤمنين ويسخرون من أحوالهم المعاشية والدينية. وتلك حالة العجز عن مواجهة التحدي الإسلامي بالمنطق والبرهان الذي يفتقدونه.

ففي الدنيا سخر فرعون وملؤه من موسى عليه السلام وآيات الله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٧) فأخذهم الله بعذاب الغرق وغيره، وكذلك فقد سلك كفار العرب سننهم فتوعدهم الله واستنكر عليهم استهزاءهم ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (النجم: ٥٩ ـ ٦٠) ومثلهم المنافقون المخلَّفون عن مقاعد الجهاد ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة: ٨٢). إن فرحهم وبشاشتهم في الدنيا لا يوازى ببكائهم وحسرتهم في الآخرة. وإن جمالاً فنياً في الضحك والبكاء وفي مقابلتهما ووصفهما بالقلة في الأول وبالكثرة في الثاني يبلغ القلوب وتتأثر به النفوس.

تلك مقابلة بين حالتين لفئة واحدة..

وفي حالات أخرى لفئات مختلفة يتقابل المؤمنون والمجرمون مثل ما تقابلوا في الدنيا فيسخرون منهم كما سخروا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ... فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (المطففين: ٢٩، ٣٤).

إنه مشهد مؤثر من مشاهد القيامة كانت (يضحكون، وتضحكون) محوره وحركته. ولكن شتان بين (الضحكين) وبين الموقفين، فقد باع المجرمون باقياً بفان، وفاز المؤمنون بالنعيم المقيم. فبطل استهزاء الكافرين في مواجهة الإيمان والمؤمنين.

تصويـر فائـق:

صوّر ـ صوَّرناكم ـ يصوّركم ـ صورة ـ المصوّر من المفـردات المعبرة عن جماليات في القرآن ضمن حجم أقل من المتوسط من مفرداته، فهي لا تزيد عن ثمانية مواضع في كتاب الله.

ومن مـزية هـذه المفردة جمـالها اللفـظي والمعنوي والتعبيـر بـه عن جماليات الإله والإنسان معاً.

١ ـ فالله المصور ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ (الحشـر: ٢٤) فهي من أسمائه الحسنى، وتعني فيما تعنيه أن الله خالق صور الخلق على ما يريد، الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد، ومعطي الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة، والمعجز في إبداع كل صورة متفردة لكل إنسان.

والمثالية التصويرية للإنسان اقتضت أمر الله لملائكته أن يكـرموه فيسجـدوا له سجود تحيـة وتقديـر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ...﴾ (الأعراف: ١١). فقد أثبت صورة كل إنسان بل وصورة كل شيء من الأزل على هيئته المعجزة بدءاً من تصوير آدم أبي البشر واستمراراً في تصوير ذريته في الأرحام كيف يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ...﴾ (آل عمران: ٦).

٢ ـ وإذا كـان الله المصوِّر فـلا بد أن تبلغ (صـوره) منتهى الجمال والحسن في خلق الإنسان خاصة على هيئته وتكوينه، وإبداعه.

فإن تمثل الإنسان في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ لأكبر دليل على أن الله المصور في أبهى البهاء وأسمى السمو الرّباني، فالله أحسنَ صورنا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (غافر: ٦٤) و ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ٣).

وهذا يعني أن (تركيب) الصورة الإنسانية معجزة إلهية لا يقد على مثلها الشركاء والنظراء ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٨).

فهل هناك جمالية ترقى إلى تصوير الإله المصور؟ وهل من تعبير أدل على هذا الجمال من التصوير الخالقي؟.

إن آيتين سابقتين تكرران لفظ الصورة البشرية التي صنعتها القدرة الإلهية. فإذا كانتا على (أحسن) الخلق، وأروع الإيجاد، وأبلغ التكوين فإن الفضل في ذلك لله الموجد البارىء المنعم المتفضل، وما أروع أن يصف الله نفسه بالوجه واليد والعين... صفات ذاتية تليق به، وبالعلم والحياة والسمع والبصر والكلام صفات معنوية وذاتية تليق بهذه الذات الأحدية... وهي في أصولها مما خلقها في الإنسان خليفته في الأرض، ومثال لصورته فيها وفي الأحياء على وجه فاصل يتسق بالخالقية الإلهية، والمخلوقية البشرية.

وحين يحسّ الإنسان بجمال خلقه وحسن تركيبه وأن الله وحده أبدع هذا الجمال والتركيب بنسق تكريمي فإن تشريف المصطفين منهم بالرسالة، وتكليفهم بالمسئولية الخطيرة وإشعارهم وغيرهم بالعبودية الخالصة تكمّل جمال الصورة الإنسانية وحسنها في إبداع الإله الأحد المصور.

جمال رحب:

جَمُل - جمالاً - جميل: من المفردات القليلة المحدودة فليس لها اشتقاقات واسعة، وهي مادة يدل لفظها على معناها: فالحسن والزينة والتلطف أو كما يقال: رقة الحسن، واجتلاب البهاء والإضاءة، مما يتلمسه اللغوي من هذه المادة.

ومع ذلك فنلاحظ توسعاً في متعلقاتها وجمالاتها:

١ - فهي تفيد الحسن للعين تتملاه من جمال الأنعام في مراعيها وفي غدوها ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ (النحل: ٦). ويبدو أن هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع كما أشار الرازي إذا سقط الغيث

وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة، فإن عادت ملأى البطون حافلة الضروع وتجاوب فيها الثغاء والرغاء فإن فرح أهلها بها وسرورهم بمنظرها وسماعها ومرعاها وحركتها مما يقع موقع الحسن والرضا. فهي لوحة حية محببة تأنس لها العين والأذن، قد لا يبلغها مشهدها الجمالي الحي.

٢ ــ وهي تتجاوز الجمال الشكلي المادي والإنساني إلى وضاءة المعاني وحسن القول والمعاملة. فالصبر الجميل، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ مما يضفي مسحة من البهاء على حسن النفس والإرادة، وكذلك الصفح الجميل فإنه عفو تجاوز بالحسنى ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥) وقريب منه السراح الجميل الذي يدل على خلقية المسلم في تسريح زوجته بإحسان حين تتعذر الحياة الزوجية المشتركة فلا إساءة ولا إيذاء ولا رعونة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

حتى إن هجران الآخرين بصفاته الشرعية ينبغي أن يتصف بالجمال: فهو هجران جميل ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: ١٠).

إذن: الصبر الجميل، والصفح الجميل، والسراح الجميل، والهجران الجميل، جماليات معنوية خلقية تبرز حسن المعاملة وصدق المودة.

إنها ـ وكما يلاحظ ـ معانٍ أقرب إلى الترك والدعة والسلبية، ومع هذا فلا بد من أن ترتدي رداء بهياً حسناً، فما بالك بمعان وصفات تدعو إلى العمل والتصرف والقول في صفات وفضائل إيجابية.

يقول الطبري عند تفسير هذه الآية: وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف.

ومن صور التسريح الجميل المادية: ألا يطالبها الرجل بما آتاها من المهر وغيره.

ومن صور الهجران الجميل الخلقية: حسن المخالطة والمصابرة على إيذائهم، ومجانبتهم في قلبه وهواه، ومخالفتهم في الأفعال مع المداراة

والإغضاء... كما قاله الرازي. ويقول ابن تيمية: أمر الله نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل: فالهجر الجميل: هجر بلا أذى، والصفح الجميل: صفح بلا عتاب، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى[1].

ولكن وصف الصبر والصفح والتسريح والهجران بالجمال وتوجيه القرآن بالتزامه أحب ما يشعر به المسلم في نفسه وأرقى ما يقوم به في عمله وتصرفه. وأرحب ما يتصوره في الآفاق والمجالات الجمالية.

ألوان من الحب:

حَبّ ـ أحبّ ـ تُحبون ـ حُب ـ حبِّه ـ أحباؤه ـ محبة ـ استحبوا.... من أطول المفردات الجمالية.

وهي إذ تدل على صدق مضمونها، واستقامة مشاعرها، ونظافة عاطفتها فإن تعدد متعلقاتها ومجالاتها يشيع روح الألفة والأنس وأحاسيس المودة والالتزام.

ومع تشعب هذه المادة في الاشتقاق والمتعلقات فإنها لا تضعنا وحدها في معالجة موقف (الحب القرآني) إن صح التعبير، وإنما لا بد لنا من أن يمتد النظر والمعالجة إلى مواد أخرى: مثل: المودة، الرضا، الحق، الشهوات... حتى يتجلى أمامنا (الإطار) العام لهذه القضية الحساسة، ولكن عملنا سيقتصر على تصنيف هذه المادة وحدها وإلقاء الضوء على دلالتها الجمالية.

فللإنسان عموماً محبوبات، وللمؤمن محبوبات باعتباره إنساناً ومؤمناً، ولله محبوبات ومكروهات... فالحب صفة مشتركة بين المخلوق والخالق:

١ ـ فالإنسان عموماً يحب الحياة الدنيا ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ (القيامة: ٢٠) ويحب المال كثيراً ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ٢٠) ﴿وَإِنَّهُۥ

---

(١) الفتاوى: ١٠/٦٦٦.

﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨). وقد انحرف (الحب) هنا إلى مبالغات مرفوضة نابية عن الفطرة السليمة.

ولكنه في المحبوبات الأخرى يقرر القرآن استجابات الفطر الإنسانية العامة لها فيقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ (آل عمران: ١٤).

فيلاحظ هنا أن جل مشتهيات (الناس) النساء، والنسل، والأمول الكثيرة وبخاصة الذهب والفضة، والخيل الحسان، والسوائم، والزرع... وفي آية (التوبة: ٢٤)، التي سنذكرها فيما بعد، محبوبات أخرى: كالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والتجارة الرائجة، والمساكن الرضية.

ومن الحب الحرام الذي يدل على انحراف في الفطر: حب الأنداد لله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ (البقرة: ١٦٥)، والحب الشغوف للدنيا ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٧)، وامرأة العزيز التي ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾ (يوسف: ٣٠).

ومنه: حب الثناء والشهرة من غير عمل ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ...﴾ (آل عمران: ١٨٨) ومحبة نشر الفساد والفواحش ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ...﴾ (النور: ١٩).

٢ ـ المؤمن يُحِب ويُحَب: فهو يحب المشتهيات البشرية التي سبق الكلام عليها ولكنه أعظم حباً لرسالته التي حمله إياها الإسلام والمهمة التي خلقه الله من أجلها، فقد عقب الله على محبوبات (الناس) التي ذكرها في آية آل عمران بقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ

بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ١٥). فأين هذه المحبوبات الخالدة والنعيم المقيم ورضوان الله من مشتهيات فانية، نبّه القرآن إليها للابتلاء والامتحان؟.

وصرح القرآن بالحب (الأفضل) وآثاره العظيمة في آية التوبة ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

ولذلك فالمؤمن يحب النظافة والتطهير الظاهرين والباطنين: ﴿ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ... ﴾ (التوبة: ١٠٨) ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ويحب أخاه المؤمن ويؤثره على نفسه ﴿ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ﴾ (الحشر: ٩).

ويحب انفاق المال لذوي القربى والمحاويج ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ويحب انتصار الإسلام وإعلاءه في الأرض ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الصف: ١٣).

ويحب هداية حبيبه ويسعى إليها ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ (القصص: ٥٦).

ويحب أن يعفو ويصفح حتى يغفر الله له ذنوبه ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢).

وهو لا يحب الرذائل ومنها الغيبة ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ... ﴾ (الحجرات: ١٢).

ولكن أعظم المحبوبات وأخلصها وأعمقها هي حبه لله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ . . .﴾ (البقرة: ١٦٥)، وهذا يقتضي متابعة الأوامر الإلهية وطاعة رسوله عن محبة والتزام ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . .﴾ (آل عمران: ٣١).

٣ ــ الله محب وحبيب: فهو يصرح بحبه للمؤمنين والمحسنين، والتوابين، والمتطهرين، والمتقين، والصابرين، والمتوكلين، والمقسطين، والمجاهدين ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

وعلى العكس فإنه يصرح بأنه لا يحب المعتدين، والفساد والمفسدين، والكافرين، والظالمين، والمستكبرين، والخائنين الآثمين والمسرفين. ومدعي الحب من اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم . . .﴾ (المائدة: ١٨).

وما أجمل وشائج المحبة وروابط المودة بينه وبين المؤمنين، فهو يرضى عنهم ويرضون عنه، ويودهم ويودونه و﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، فحبب إليهم ﴿الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وأجرى فيهم محبته وفق حكمته البصيرة ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

والحب قدر الله لعباده وعلى عباده لا يجد معه الإنسان فكاكاً ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . . .﴾ (طه: ٣٩).

ولا بد من أن يجعله بين المؤمنين الصالحين المتحابين فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).

وبين الزوجين ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . .﴾ (الروم: ٢١)، والأعداء ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً . . .﴾ (الممتحنة: ٧).

ولا عجب في ذلك فهو المحب لمن آمن بـه وتاب إليـه وسار على منهجه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ البروج: ١٤).

وأخيراً فإن (الحب) الذي اعتاده الناس عاطفة مؤلمة ومشحونة بالحنين واللوعة وكان هذا مبعثه الجمالي عند الشعراء والأدباء اتخذ في المفهوم القرآني مجالات أرحب، و(محبوبات) أغزر، وجماليات أكثر ثم أضحى شعوراً هادئاً وعميقاً يظهر مكامن العواطف الأخوية، وتربط المؤمن بمحبة الله العلي الأعلى.

زينة وزينة:

زيّن ـ زَينّا ـ ازيَّنت ـ زينة ـ زِينتها ـ زِينتهنّ: من أوسع المفردات الجمالية تناولاً في القرآن الكريم من حيث الحجم والاستعمال.

أما من حيث الحجم فقد استخدمها القرآن حوالي (أربعين مرة) في الآيات المكية والمدنية مبثوثة في طوال المفصل وقصاره، وأما من حيث الاستعمال فقد أخذت مجالات وألواناً متعددة في معان ومفاهيم مختلفة.

ويمكن تصنيف (التزيين) القرآني في المجالات التالية:

١ ـ الزينة المرفوضة:

فالشيطان زيّن للمشركين أعمالهم فأعجبوا بها عن الحق: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣). وكذلك ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأنفال: ٤٨)، والزينة وسيلة الشيطان في التغيير دائماً ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ (الحجر: ٣٩).

ويتبع هذا (تزيين) النفوس مباهج الفتنة ووسائل الخداع وقبائح الصفات والأعمال، فالمسرفون زيّن لهم إسرافهم المتع الحرام ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ

﴿لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢)، وفي مقدمتها: حب الشهوات والمرغبات في المال والأهل والولد..

ويخص الأموال والبنين بهذه الزينة العامة ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ (الكهف: ٤٦) وإذا كانت (الزينة) تحل حراماً أو تحرم حلالاً فإنها سراب الفكر وخداع الحياة ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ...﴾ (محمد: ١٤).

والمكر قد يتخذه الإنسان زينة ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الرعد: ٣٣) وعندئذ ينحرف الكفار في تشريعهم وحياتهم ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ (التوبة: ٣٧)...

إن الصيغ التزيينية جميعها تسحر الألباب وتأخذ بمجامع النفس وتدفع إلى السلوك المنحرف ما دامت مشاعر الزينة مستقرة في القلوب والعقول ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفتح: ١٢).

حتى إنها تأخذ بأحدهم مخدراً إلى قتل الأولاد ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧).

٢ ـ الإيمان والفضائل زينة محببة: فلها جمالها الروحي ورؤاها الماتعة وشفافيتها الأخاذة، لا لأنها جميلة وماتعة وبهية بطبيعتها وحسب وإنما لأنها من الأنوار الإلهية التي يخص بها عباده المؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات: ٧).

فقد أمر بها للمسجديين ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ (الأعراف: ٣١). ولم يحرمها على المسلمين خارج المسجد ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ...﴾ (الأعراف: ٣٢).

حتى إن الله منحها للمشركين ومدعي الألوهية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ

إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً . . .﴾ (يونس: ٨٨).

وقارون الذي ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ . . .﴾ (القصص: ٧٩)، و(يوم الزينة) موعد الحق والباطل بين موسى وفرعون. . . تسبغ بهاءها ورونقها الخادع عن جماليات الإيمان وتزيينه في القلوب.

إن (مسألة) الإيمان جمال، والله صانع هذا الجمال، والآمر به في كل مسجد ومجتمع، تتجاوز الواجبات والمسؤوليات إلى آفاق الحب وأشواق الروح وجماليات الأحاسيس.

من غير الله يسدي للبشرية مثل هذه النعماء ويمنح هذه الجماليات؟.

وإن قضية: (التغيير الجمالي) أي بسبب من جمال الزينة وبهجتها، من الباطل إلى الحق وبالعكس تضعنا أمام حقيقة شعورية ذوقية في صياغة النفس البشرية.

وحسبنا أن الله جعلها وسيلة في يد الشيطان والنفس وقرناء السوء ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . .﴾ (فصلت: ٢٥).

ثم إنه وحده أثارها في فطرة الإنسان ونزعته الجمالية في تحبيب الحق والإيمان ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ . . .﴾ (الحجرات: ٧).

٣ ـ زينة الطبيعة وجمالها: بما فيها من وسائل النقل المعتادة حينذاك ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . .﴾ (النحل: ٨)، وما تزال الخيل متعة الإنسان وجماله في أي مكان وجيل.

فجمال الطبيعة يستحق أن يبرز في صفة الله (الجميل). وهو إذ يبثه في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد يرتفع إلى أجواء السماء المبهرة وآياتها المبدعة، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: ٦)، فالكواكب مصابيح السماء وزينتها ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا . . .﴾

(فصلت: ١٢).

وخص السماء الدنيا بهذه المصابيح لتتملاها الأعين وتسرّ بها الأنفس ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥).

ومثلها بروج الكواكب ومنازلها فقد (تبرجت) للناس وأظهرت محاسنها وجمالها ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦).

فالسماء بناء محكم ومزين لا يمله النظر ولا تأنفه العين ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ (ق: ٦).

والأرض (العروس) أخذت زخرفتها في أبهى حللها وأنضر جمالها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ . . .﴾ (يونس: ٢٤).

وسرت في شعابها ومناكبها ومساربها ألواناً من الإبداع والبهاء، في الينابيع والأنهار والشجر والزرع والزهر والطير والجبال ما يؤكل ويشرب ويبهج.

ولكنه جمال (يبتلى) به الإنسان، وحين (يمتحن) لمواقعه في الشكر والجحود والإيمان والكفران، وهي على كل حال (زينة) الحياة الدنيا مبثوثة في الأرض ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧) ذلك لأن للشيطان زينة، وللإيمان زينة، وللطبيعة والكون زينة، والإنسان قادر على أن يميز بينها ويختارها حين يختبر بها ضمن إرادته ومسؤوليته.

من دلالات (الحق) وجمالياته:

الحق ـ حق ـ حقنا ـ يحق ـ استحق ـ حقاً ـ أحق ـ حقيق ـ الحاقة: يرجح أنها أوسع المفردات الجمالية والجلالية في القرآن. وقد تضمنت وفرة من المفاهيم والدلالات الهامة.

وبعضها عرض في تراكيب جمالية ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾

(البقرة: ٤٢) و ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ. . .﴾(الإسراء: ٨١) و ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ. . .﴾ (المؤمنون: ٧١). فهو يلتبس به، ويجيء، ويتّبع. . .

أما إنها أوسع المفردات فلأنها استغرقت قريباً من (٢٨٠) موضعاً في كتاب الله، ومعظم ورودها في السور المكية، في كثـرة آياتها وسورها.

واستأثرت سورة (البقرة) المدنية بالنصيب الأوفر من بين سائر المدني، أما سورة (يونس المكية) وحدها فقد وردت في (١٧) موضعاً دلالة على معان متشعبة ومتعددة.

وأما أنها من المفردات (الجمالية ـ الجلالية) فلأن الحق قوة وفي القوة جمال وجلال. . . ولأن منطقيته ناصعة تنتظم العقول والأفكـار ومعطيـاتها، والشرائع وحجيتها، والكون وقيامه عليها.

وفي كل ذلك جلال وجمال. فالضعف تهالك وقبح، والمنطقية برهان والعبثيـة جهالـة أو ظن. وانتظام العقـول حكمة، وفـوضى الأفكـار ضعف وبـاطل. وقـد شمل (الحق) أعـظم القضايـا وكبـريـات المسـائـل الإلٰهيـة والإنسانية.

أ ــ الله حق: وجوداً وقدرة وحكمة ومصدراً ومرجعاً، فقد وصف نفسه بصفات الكمال، ومنها أنه (الحق) الذي لا يداخله باطل، وأن صفاته حق لا ينتقص منها شيء، وهو منبع الحق ومرجعه ينزل على من يشاء من عباده. فربنا الحق ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ (يونس: ٣٢) ترد إليه البشرية وحده ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ (يونس: ٣٠) وهو الملك المتعالي عن النظير حقاً ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ (طه: ١١٤) و (المؤمنون: ١١٦) و ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ. . .﴾(الحج: ٦) و (لقمان: ٣٠).

ب ــ وهو مصدر الحق للكائنات جميعاً ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ

﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ (يونس: ١٠٨) ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ . . ﴾ (الكهف: ٢٩) و ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ (الرعد: ١٤). والنبوات عموماً ونبوة الرسول ﷺ منه ﴿ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾(يونس: ٩٤) و ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

ج ــ وهو الخالق حقاً، وقد خلق الأشياء والكائنات بالحق، بديع السمٰوات والأرض وما فيهن ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ . . . ﴾ (الأنعام: ٧٣)، خلْق يستحق النظر والتأمّل ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(العنكبوت: ٤٤) و ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ . . . ﴾ (إبراهيم: ١٩). . . وآيات أخرى تصرح بالخالق والخلق مقترنة بعجائب القدرة الحقة، دالة على الإيمان الحق.

وإذ تصرح بالحقّية الخلْقية تبرز قضية (التوحيد) فيها ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(النحل: ٣) فهو الله الحق الخالق الواحد القادر المدبر الحكيم، لذا فيستحيل أن يتصف خلقه بالبطلان والعبث والفساد.

د ــ والقرآن حق مصدراً وتنزيلاً: فهو كلام الله المعجز متسق الآيات، منتظم التراكيب مستوعب المعاني في رواء باهر وبهاء جليل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأكد الله حقّية القرآن في ألوان من المعاني والمفاهيم، فهو من الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ . . ﴾(البقرة: ١٧٦) وحكَم بين الناس ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ (النساء: ١٠٥)، ومنزل وحياً من الله ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء: ١٠٥)

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ . . . ﴾ (فاطر: ٣١)، وناطق بالحق تلين له القلوب وتفيض بتلاوته الدموع ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ (الحديد: ١٦) ﴿ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ (المائدة: ٨٣).

وما اشتمل عليه من الآيات لا يعتريها الباطل، وما تضمنته من التشريع والحكمة والتربية والقصص لا يخامره شك، فكل ما أنزله الله منها ثابت ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ ﴾ (آل عمران: ٦٢) بدءاً من آدم وإخراجه من الجنة وابنيه إلى نهاية ما قصه وبيّنه ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ . . . ﴾ (المائدة: ٢٧) ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ . . . ﴾ (البقرة: ١٤٤).

ومن أبرز ما اشتملت عليه آياته الإيمان الراسخ بالشرائع والكتب السماوية السابقة ﴿ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ . . . ﴾ (الأعراف: ٤٣) ففي أقوامهم الصالحون والمنكرون ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٩). . .

والعبادات ومنها: الزكاة هي حق الفقراء ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾ (الأنعام: ١٤١) ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ (المعارج: ٢٣، ٢٤).

هـ ـ صراعات أزلية خالدة: فالحق والباطل في صراع، والخير والشر في مواجهة، فإذا كانت الغلبة للحق والخير ساد العدل والفضائل، وعمت الطمأنينة والاستقرار وتقدم الإنسان حضارياً، وإذا ساد الباطل والشر عمت الفوضى وانتشر الفسادوارتكست حضارة الإنسان، ولاحت نذر التدمير والبوار، وهذا يعني سيادة الحياة الرضية السعيدة أو الشقية التالفة. ولكن القرآن ينوه ببقاء الخير وينبه إلى زوال الشر مهما قوي نفوذه أحياناً ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ

وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء: ٨١) والله يتولى النصر على الشر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء: ١٨) ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ (الشورى: ٢٤). ومن الصراعات: صراع الحق والأهواء وانتصاره عليها ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ... ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وتلك لعمري قاعدة حضارية توسع الآمال وتغذي الطموحات الإسلامية في النصر المؤزر للحق وأهله، وفي مقدمتها مسئولية الدعاة والعلماء في بيان الحق خالصاً ناصعاً ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٤٢).

وصراع الحق والسحر ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ... ﴾ (يونس: ٧٧).

والعلماء والمؤمنون أهل الحق: فهم أعرف الناس به وأولاهم بحمل لوائه وأقدرهم على كشف زيوفه، وعرضه مبرءاً واضحاً ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ... ﴾ (سبأ: ٦). ثم إنهم يتواصون به، ويتناصحون في إعلائه وتحقيقه، ألم يصفهم الله بقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ٣)؟.

وأهل الباطل يجادلون به، ويخاصمون من أجله، لتكون لهم الغلبة على حق العلماء والمؤمنين، ولكن الله يحق الحق بكلماته ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ... ﴾ (غافر: ٥).

و ــ إن وفرة هذه المادة لفظاً ومعنى تتشعب في نواح كثيرة ومجالات جمّة، فالحق يرتبط بالعلم والعقل والصدق والخلق والنصر إلى جانب ارتباطه بالإلٰهيات والنبوات والشرائع...

وهذا يلهم بجمال مبدئي روحي، وجلال عقلي فكري يحرص القرآن عليه أكثر من حرصه على جماليات أخرى.

مجالات ذوقية مختلفة:

ذاقت ـ ذاقا ـ ذاقوا ـ يذوقون ـ ذق ـ ذوقوا ـ أذاقه ـ أذقناك ـ فلنذيقن ـ ذائقة ـ ذائقون... من أوسع المواد الجمالية وأكثرها تشعباً، فهي تأخذ مكانها من آيات الكتاب الحكيم في ثلاثة وستين موضعاً. مما يلفت النظر ويسترعي الانتباه، ويدفع إلى التأمل عموماً والتأمل الجمالي خصوصاً.

والذوق في الأصل حسّ ينشأ من تنبيه أعضاء خاصة تنتشر في اللسان وما جاوره، وحاستا الذوق والشم متشابكتان ويتممان بعضهما، ولحاسة الذوق أهمية حيوية وبخاصة بالنسبة للحيوان...

وإذا اختصّ بالمطعومات حقيقة باختبار الشيء من جهة الطعم فإنه بالمجاز يدل على حسن الذوق للشعر إذا كان صاحبه مطبوعاً عليه كما ذكره الزمخشري في الأساس، واستشهد عليه بالحديث: إن الله يبغض الذّواقين والذوّاقات. أي: كلما تزوج أو تزوجت مدّ عينه، أو مدّت عينها إلى أخرى أو آخر.

فالذوق يشمل معنيين: الاختبار مثل: ذاق الطعام: اختبر طعمه، والإحساس مثل: ذاقته يدي: أحسسته. وهو مجازي لأن الذوق المادي كما أشرت: حاسة تميز خواص المطعومات، والذوق المعنوي المجازي: حاسة أو إحساس معنوي ـ في الأدب والفن ـ يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر، حتى إنه يقال: حسن الذوق للشعر فهّامة له خبير بنقده، كما صرح به المعجم الوسيط.

فالجماليات لا بد لها من ذوّاقة يختبرها بالمقاييس الجمالية وبالإحساس الذوقي معاً.

وأشار الرازي إلى معنى الإحساس عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦)، وقال: المقصود من ذكر الذوق الإخبار بأن إحساسهم بذلك العذاب في كل حال يكون كإحساس الذائق المذوق، من حيث إنه لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق.

ويصح هذا المعنى في قوله: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ . .﴾ (التغابن: ٥) و(الحشر: ١٥).

وإيثار القرآن لفظة (الذوق) له دلالته البلاغية في ذوقية العذاب تهكماً بهم وتبكيتاً لهم.

وهذا يشعر بتناول أوسع للمفردة الفنية.

ويمكن بعد التتبع أن نستخلص الدلالات التالية:

١ ـ الذوق المحسوس المرغوب به: مثل تذوق طعام محبب فيه من الإغراء ما يدعو إلى تناوله على الرغم من المخالفات الشرعية أحياناً، يقول الله تعالى عن آدم وحواء: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا . .﴾ (الأعراف: ٢٢)، ويقول في تذوق الذهب والفضة المكنوزتين ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٥). وهل من لهف أشد وإقبال أعظم من الغمس في حسن النقدين وبهائمها والتلذذ بهما؟ إنه ذوق محبب لذائقه ولكن عاقبته الوخيمة تنسيه تلك اللذاذات والمتع.

والكفار يتمنون الخلاص من عذاب جهنم ولكن الله يقول: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبأ: ٢٤).

٢ ـ الذوق المحسوس المكروه: مثل أصناف العذاب وألوان الجوع

والخوف التي يجازى بها الجاحدون في الدنيا والآخرة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ...﴾ (النحل: ٩٤).

ويبدو أن قوم لوط من سائر المعاندين نالوا العذاب في حالين: أحدهما خاص بالمراودين الذين طمس الله على أعينهم ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٧)، وثانيهما: عام حين ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٨ - ٣٩).

يقول الرازي: نقول: ذق فعلك: أي مجازاة فعلك وموجبه، ويقال: ذق الألم على فعلك.

وصرح بعذاب الدنيا بقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ (الزمر: ٢٦).

وفي الآخرة مذاقات لأصناف من العذاب، فهو أليم وحريق وكبير وسعير وشديد، وغليظ وحميم وغساق... وعذاب الخزي وعذاب أكبر. وعذاب الخلد والسوء، يشمل عذاباً مادياً ومعنوياً، وكل ذلك مما يذوقه أهله، وقومه بسبب تكذيبهم وكفرهم وشركهم وبما كانوا يكسبون.

فهو وصف قرآني أو إضافة (التذوق) إلى صفات وأشياء يصعب على الحس العادي أن يقبلها أو يستسيغها عادة.

إنه تذوق العذاب، والموت، والعمل الحرام، والجوع، والخوف، والبؤس بالإضافة إلى تلك الصفات (الجهنمية) التي ينالها ذائقوها مرارة وغصصاً وآلاماً.

٣ ــ الذوق المعنوي المحبوب: ومن مجالاته الواسعة النعماء بعد ضراء، والسعادة بعد الشقاء. ولكن مجالاته الأكثر اتساعاً ورحابة تلك الرحمة الشاملة العامة، فإنها وردت في ثمانية مواضع من كتاب الله.

وبمقتضى ذلك فإن هذه الرحمة يفرح بها الإنسان ويسترخي إليها حتى إنه ربما يدعيها لنفسه أحياناً. فالرحمة مذاق محبوب مصدرها الرحمٰن الرحيم ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ . . .﴾ (يونس: ٢١) وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (الروم: ٤٦)، وغيرها، فإنها دائماً من مصدر ألهيّ رحيم.

وإن اشتقاقات (التذوق) وإسناده إلى الرحمة يلهم بسريانها في كل جانب من حياة الناس، فقد كرر القرآن: أذقنا، ويذيق، وأذاق مسنداً إليها الرحمة الخاصة والعامة.

ولكن القرآن خصّ: أذقنا ـ وأذقناه بالرحمة دائماً، وأما أذاق ويذيق فقد أسندت إليها الرحمة وغير الرحمة، وربماكانت الحكمة بالتخصيص في الأولى والتعدد في الثانية هي اتساقها مع التوجه الإلهي والمباشر بضمير المتكلم والتعبير بالغيبة عنها وعن غيرها فيما عدا ذلك.

والرحمة التي فسرت بالفرج بعد الكرب، والمطر بعد المحْل في أحوال خاصة، وقد تكون عامة أو مطلقة هي من مدركات الشاكر الطائع الذي ينبغي له أن ينعم بها ويرتاح إليها فترفرف بأجنحتها على حياته، وهو فرح بها راض بنصيبه منها مقدر نعماء الله عليه. فهي من أجمل المفردات للتعبير عن أجمل الحالات والأوضاع.

إن البائس الذي يتوقع مزيداً من البؤس، والمحروم الذي ينتظر استمرار الحرمان يفرج عنه برحمات الله الرحمٰن فتنفس كربته ويزال بؤسه فلا ينبغي له البأس والكفران أبداً ما دامت هذه الرحمات يذوقها الإنسان.

٤ ـ الذوق المعنوي المكروه: ويقصد بالذوق هنا كل ما يحسّ أو لا يحسّ به من سوء الأعمال والفتنة والوبال، والخزي والبأس.

إن تذوقها (التخييلي) يقربها من المعنويات وإن كان بعضها في الأصل من الماديات المحسّة.

فقد بين الله عاقبة القرى العاتية عن أمر ربها ورسله فقال: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٩) فهو ذوق وبال، وعاقبته الخسارة.

ومثلها ما بينه من عاقبة يهود بني قينقاع في المدينة حينذاك ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ (الحشر: ١٥) فهي عاقبة أمرهم بما أنزل الله بهم من العقوبة.

ولا تفترق آية (التغابن: ٥) و (المائدة: ٩٥) عنها بكثير.

والعمل أو عاقبة العمل ونتيجته مما يذاق أيضاً ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٥) ومثله: تذوق عذاب النار للظالمين والكافرين في آيات أخرى.

والفتنة التي فسرها العلماء بالعذاب أيضاً مما يحسه الخراصون المتكهنون المرتابون ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات: ١٣، ١٤)، فهي عذابهم وتحريقهم بها وهي مما يذاق أيضاً حتى يكتمل الإحساس به على الدوام.

أما (الخزي) فيصح أن يقترب من الإحساس المعنوي كما صرحت به الآية ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٦).

ومثله (البأس) الذي وإن أمكن أن يتمثل في ظواهر مادية فإن دلالته اللغوية الأصلية ترجّح انصرافه إلى المعنويات وليس إلى المحسوسات ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ

بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ . . . ﴾ (الأنعام: ٦٥).

فقد فسّر به صنوف العذاب كالرجم والطوفان والخسف والاختلاف في الأهواء، والإصابة بالسيوف وقتل بعضهم بعضاً. . .

إنه تذوق كريه لا يستسيغه الناس ولا يقبلونه فكيف ـ وهو المكروه المنبوذ ـ يقبله الكافرون ويتذوقونه؟ إنه ولا ريب ارتكاس في الفطر البشرية.

٥ ـ **ذائقة الموت**: الموت قدر النفوس الثابت، وحقيقة كونية راسخة في الوجود، وهو في عرف القرآن مما يذاق أيضاً: وهذا الاشتقاق الفريد (ذائقة) من أجمل الألفاظ القرآنية لا من حيث مبناها وحسب وإنما من حيث دلالتها على الفاعل الذائق أيضاً.

فكل نفس حاضرة مكلفة تذوق الموت حتى أولئك الملائكة تموت مثل الإنسان لأن لها نفوساً.

وقد وردت هذه اللفظة (ذائقة) في ثلاث آيات:

أ ـ ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ . . . ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

قال الرازي عند تفسير الآية: اعلم أن المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وهو تقرير لحقيقة ثابتة يراد منها التنبيه إلى ما بعدها وهي: وفاء الناس أجورهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالموت مرحلة لها ما بعدها.

ب ـ ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

قال الرازي وهو يمسها جمالياً: الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق، بل الذوق إدراك

خاص فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك...

ج ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧).

ونبه الرازي إلى العلاقة بينها وما سبقها فقال: لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان فقال لهم: إن ما تكرهون لا بد من وقوعه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾... ثم لفت النظر إلى وجه دقيق في المعنى وفيه وجه أرق وأدق، وهو أن الله تعالى قال: كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت، ثم إلى الله ترجع فلا تموت... ثم يقول: فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقته... فإذاً التعلق بالله يريح من الموت... ويصرح المفسرون والبلاغيون هنا بـ(مجازية) هذه اللفظة ويجرون عليها الاستعارة المكنية. حيث شبه الله الموت ـ العذاب ـ... بشيء مُرٍّ يذاق، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإذاقة، فإثباتها تخييل.

وفيما عدا «ذائقة الموت» السابقات لم ينسب القرآن «الموت» في هذه المادة إلا إلى قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ...﴾ (الدخان: ٥٦).

ويمكن استنتاج «فنية» هذ المفردة في أنها تستوعب «إدراكاً معيناً» لألوان كثيرة من الآلام البدنية والنفسية يصعب إدراكها من غير تذوقها وكأنها المطعوم المذاق.

وإن حالات الإنسان عند الموت وسكراته تدرك النفوس تماماً مهما اختلفت صورها وأشكالها، فيستعذبها المؤمن لأنها طريق إلى لقاء الله، ويهابها الجحود لأنها تبقيه في آلامها وشدتها محروماً من آماله وأشواقه التي تخفف عنه الكثير. ومن ثم تؤول به إلى أنواع من العذاب الأخروي الأليم.

والصورة الجمالية هنا، فنيّاً، قادرة على تحريك المشاعر وتثمير الصالحات

لأن تستعد كل نفس حتى تذوق الموت ثم ترجع إلى الله، فتوفى أجورها.

٦ ـ الموافقة الذوقية: وإذا أقر الكافرون بأنهم ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ (الصافات: ٣١) و﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ (الصافات: ٣٨). فإن إعلان الله لهم أنهم سيذوقون عذابه بعد اختبار نفوسهم في الدنيا، وإظهار موقفها من تذوقها رحمة الله الواسعة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٥٠). فواضح من هذه الآية: إذاقة الرحمة في أولها، وإذاقة العذاب الغليظ في آخرها، وهي موافقة لفظية تدل على استيعاب «الإذاقة» كلاً من الحالين المحبوبة والمكروهة.

وهذا يعني أن جمالية هذه المفردة إنما تقع في إطار «الفنية» التي تشمل القبح والجمال معاً وقد أوحت بظلها الفني الجميل.

خصائص في المفردات القرآنية:

مما سبق نستنتج الخصائص اللفظية التالية:

١ ـ المفرداتُ هي المادّة الأسَاسيّة للإعجاز القرآني وجماليّاته، في الصورة والحوار والقصة والحكمة، والتشريع والتوجيه الخلقي والتربوي.

٢ ـ المفردات مُنتقاةٌ ومختارةٌ لفظاً ودلالة وجرساً، وصَفاؤها وعذوبتها، وظلالها من أخص صفاتها وسماتها.

٣ ـ أضْفى القرآن الكريم على المفردات اتجاهاته الفكريّة الجديدة، وحمّلها من الدّلالات التي (تجددت) معها اللفظة العربية معنى ومبنى.

٤ ـ أكثر القرآنُ من المفردات الرُّوحية والمعنوية والفكرية والجمالية والكونية الكلية والإنسانية العامة مما لم تألفه العربية من قبل.

٥ ــ توسَّع في استعمال المفردة إلى أقصى طاقاتها، واستوفى دلالات جديدة باستخدامها في مجالات متعددة وأحياناً متعارضة.

٦ ــ نسّق بين اللفظة وأختها في التركيب الواحد، وبينها وبين الصورة الفنية في المشهد الحي، وبينها وبين الألفاظ الأخرى في التناسب الجرسي والترتيلي المتفرد.

* * *

ألوان من جماليات التركيب القرآني

تراكيب رقمية:

في القرآن الكريم أرقام مختلفة تتفاوت من الآحاد والعشرات والمئات والألوف إلى عشرات الألوف.

وهذه وإن كانت بلغة الحسابات والاقتصاد جافة فإن عرضها القرآني يجعلها تتألق بجمال عددي نوعي في سياق الجملة القرآنية التي تزيد من بهائه وروائه.

ويرجع ذلك إلى طريقة القرآن في استخدامه وعرضه الذي يراعي فيه سياق الآية وسباقها وفاصلتها وإيقاعها واعتبارات صوتية متعددة. فالأرقام الآحاد والعشرات تكتسي في التركيب القرآني جمالاً في النسق والجرس. خذ لذلك الرقم (واحد) ومؤنثه. فقد ورد ما يزيد عن (٦٠) موضعاً تنوعت معانيه، وتلونت عروضه من الإيمان بأحدية الله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، إلى وحدة الأمة المسلمة منذ القدم ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ...﴾ (البقرة: ٢١٣)، إلى وحدة الأصل البشري ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...﴾ (النساء: ١) إلى طلب المشركين أن ينزل القرآن مرة أو جملة واحدة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ..﴾ (الفرقان: ٣٢) إلى الصيحة والزجرة الواحدة يوم القيامة...

وإلى استعمالات أخرى. . . ولكن أروعها، فكرياً وجمالياً «الأحدية» و«الوترية» في أوائل سورتي الإخلاص والفجر.

والرقم (اثنان) ومشتقاته زاد على (١٠) مرات. أقتصر منه على مثالين: أولهما: في صحبة أبي بكر لرسول الله ﷺ في غار ثور ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ...﴾ (التوبة: ٤٠) والزوجية الإثنينية في الأنعام ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٣) ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣) ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٤).

والرقم «ثلاثة» ورد في القرآن مع مشتقاته أكثر من (٢٠) مرة، في بيان أوقات الاستئذان بالدخول وشعب الظلال في جهنم. والأنصباء في الميراث وتعدد الزوجات والطلاق، ومدد الطمث والطهر. . .

ومن سياق هذا الرقم خلق الملائكة بأجنحتها العظيمة ﴿... جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ...﴾ (فاطر: ١) وإنكار عقيدة النصارى في التثليث ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ...﴾ (المائدة: ٧٣). وهكذا في سائر أرقام الآحاد. . .

ولكن في الرقم «أربعة» نظام شهادات اللعان، وأنواع الحيوان الذي يمشي على أربع، والطير الأربعة في معجزة الخلق، والأشهر الحرم، ومنها: تقدير أقوات الخلق ﴿... وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠).

والله رابع المتناجين يعلم نجواهم وسرهم ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ...﴾ (المجادلة: ٧).

ومن أكثرها وروداً الرقمان «سبعة» و«عشرة».

فقد ورد الأول حوالي (٢٤) مرة بينما ورد الثاني حوالي (١٦) مرة. . .

وأكثر ما ورد الأول في خلق السموات والأرض ثم في أبواب جهنم. . . وأخصها سورة الفاتحة التي قدمها الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي . . .﴾ (الحجر: ٨٧). وعظمة علم الله وسعة كلماته ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . . .﴾ (لقمان: ٢٧).

أما الرقم «عشرة» فقد ورد إلى جانب معان وقضايا هامة: منها معجزات موسى عليه السلام في تفجير الينابيع، وصدقة التطوع، وتحدي الكفار أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن، والليالي العشر المقسم بها وكفارة اليمين المنعقدة. . .

وكذلك في تعداد الأيام نهارها ولياليها: ففي هلاك (عاد) بالريح الصرصر ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٧)، إنها أرقام مدمرة تثير الرعب في مصارع القوم ومصائرهم.

والرقم مئة ومضاعفاته كما سبق، ورد في القرآن (١٠) مرات في أروع السياق وأجمل الذكر، وأقدس الموضوعات. . . ففي صدقة التطوع والإنفاق قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ . . .﴾ (البقرة: ٢٦١).

والصبر على الجهاد ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ. . .﴾ (الأنفال: ٦٦).

وكذلك في حد الزنا ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ . . .﴾ (النور: ٢).

ويذكر الرقم (٣٠٩) كما يلي: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥)[1]. في اتساق جميل بهي مع الفاصلة القرآنية

(١) انظر تعليقاً عليه وعلى آيات الحاقة السابقة: من أساليب البيان في القرآن الكريم: =

السابقة واللاحقة.

وربما كان الرقم (١٠٠٠) ومضاعفاته من أشدها هولاً وجلالاً وهيبة.

فيوم الله يختلف عن أيام الناس فهو كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . .﴾ (الحج : ٤٧).

والروح والملائكة تصعد إلى الله في أيام طوال جداً ﴿تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج : ٤).

والرقم الألف ونواقصه ومضاعفاته يثير ألواناً من المشاعر العجيبة المفرحة حيناً والمؤلمة حيناً آخر.

فنوح عليه السلام لبث يدعو قومه إلى التوحيد (٩٥٠) سنة ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت : ١٤) إنه عمر مديد بلغ ألفاً إلا خمسين عاماً ولم يقل خمسين عاماً وتسع مئة مثلاً لئلا يؤثر ذلك في إيقاع الآية وفاصلتها.

ويونس عليه السلام أرسله الله إلى أكثر من مئة ألف إنسان ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الصافات : ١٤٧ ، ١٤٨). هم أكثر أو أزيد من مئة ألف ولكن لفظة (أو) أضفت على الرقم الأول والثاني جمال الفاصلة في حرف النون...

وهكذا وردت أرقام «الألف» ومضاعفاتها في أكثر من (١٤) مرة لم

= ٣٥، محمد علي أبو حمدة. جمعية عمال المطابع التعاونية ط/ ١ ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

يخفف واحدها شيئاً من جلالية التركيب، وإنما كانت الأذن تقع دائماً على سماعه وترداده، والقلب على فقهه وفهمه في نمط من القدرة الفائقة والخلق الفطري، والعمل المسئول.

حتى إن بعضها قد اقترن بمعجزات النصر الإلهي في أعظم غزوة من غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام «بدر الكبرى» ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، وكذلك قوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ . . .﴾ (الأنفال: ٦٦).

وحسب هذا الرقم تألقاً اقترانه بليلة القدر ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ . . .﴾ (القدر: ٣).

ويطول بنا المقام إن استعرضنا الأرقام العشرات والعقود والمئين، والألوف، ومشتقاتها ومضاعفاتها. . .

ويمكن أن نستنتج من إيراد الرقم أموراً منها:

١ ـ الرقم ضبط للزمن والحال والخلق والأشياء وقد يقصد به التكثير أحياناً.

٢ ـ تلونت عروض الرقم في القرآن بألوان شتى فقد يلحق الرقم الآحادي أو وصفه، العشرات والمئات والألوف لسبب جمالي فني يتعلق بالفاصلة القرآنية وبالقدرة الفائقة، وبالنسق المعجز.

٣ ـ كانت أرقام معينة موضع دراسة جمالية حديثة مثل: الرقم (١٩)، إلى جانب دراستها لتقدير الأشهر والأعياد الإسلامية في التقويم الهجري والتاريخ القديم وأحداثه العالمية.

وفي كل نتيجة يضيف الرقم في الصورة أو التركيب القرآني لمسة جمالية لها وقعها في الأذن والوجدان.

تراكيب تصنيفية:

وهي تلك التراكيب التي تعتمد على تعداد الأشخاص والأشياء والأفكار والمعلومات وتصنفها عددياً في جداول خاصة.

وإذا شملت التراكيب الرقمية أعداداً مختلفة وأرقاماً متنوعة تجاوزت وظيفتها الحسابية والاقتصادية إلى عروض قرآنية بديعة، فإن التراكيب التعدادية من وظيفة البيانات والقوائم التي تنظم وتفصل وترتبط بالجداول الرقمية والحسابية التي لا بد من أن تضيف إلى هذه المهمة وظيفة جمالية في نسقها الفني القرآني، وربما كانت سورة (الواقعة) المكية من أبرز السور التي تصنف الناس ومصائرهم إلى أزواج ثلاثة: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون.

وكذلك فإن الآيات الأولى من (البقرة) المدنية، تصنف الناس إلى: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وتصف كلاً منهم بأدقّ الصفات النفسية والعقلية والشعورية كنماذج حية لمجموعات ضخمة من البشر متكررة في كل زمان ومكان، يرسمها القرآن صوراً واضحة كاملة نابضة بالحياة، دقيقة السمات جميلة النسق والإيقاع.

ولكن تراكيب أخرى تبرز التعدادية بشكل مفصل يقترب من الترقيم الحسابي. سنعرض لنماذج منه:

● في إشراقة الفضائل الإسلامية الكبرى وعتامة المفاسد تصنف الآيات عدداً منها بين سابقة وخاتمة تضفي عليها سموها وإشراقها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ . . . ﴾ (النحل: ٩٠) فالفضائل هنا مما يأمر به الله، ومما ينهى عن أضدادها، وفي هذا عظة بالغة للذاكرين[1].

---

(١) وانظر في إيجازها وإعجازها: الإتقان: ٢/ ٥٤ للسيوطي.

● في تحريم الخبائث من المطاعم والمعبودات ضمت آية واحدة أحد عشر صنفاً من هذه المحرمات وقد أطّرت في مقدمتها بأنها من محرمات الله، وفي خاتمتها بتمام الدين وكمال الإسلام ونعمة الشريعة... ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ... ﴾ (المائدة: ٣).

إنها مما حرمه الله، فصّل بعضها في إطار الكمال والرضا والمغفرة والرحمة.

● وفي تعداد الأنبياء ووحدة رسالتهم وملتهم ضمت آية واحدة كثيراً منهم، ففي آية الأحزاب السّابعة خمسة أنبياء، وفي آية الشورى (١٣) ستة من الأنبياء وأقوامهم وكذلك في آيات أخرى...

وفي سورة النساء الآية (١٦٣) آية واحدة ذكرت ثلاثة عشر نبياً مع شيء من كتبهم وصحفهم.

أما التجمع النبوي فقد احتضنته أربع آيات من سورة الأنعام حتى بلغ عددهم سبعة عشر نبياً مع ذكر آبائهم وذرياتهم وإخوانهم يقول تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٧).

إن جمالية التعداد هنا اقترانه بمعان شفافة وروحية شاملة، وإحسان وارف، واجتباء وهداية إلى صراط مستقيم. وكأن الامتداد الزمني في تاريخ الرسل الطويل يتسق مع طول الآيات وامتدادها بالنسبة إلى تصنيفات وجداول أخرى.

● وفي تعداد أركان الإيمان تباعاً في آية واحدة أو جزءٍ منها ذكر خمسة أركان. يقول الله: ﴿. . . وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦).

وما أروع تصنيف هذه الأركان بعد خطاب الله: يا أيها الذين آمنوا. . . وبعد أمره بالإيمان بها: آمِنوا بالله ورسوله. . . وما أرهب خاتمة الآية فيما بعد، في ضلال الكافرين بها ضلالاً بعيداً . . .

إن دعائم الإيمان مقومات عقلية وعاطفية وسلوكية، وأحرى بالمؤمنين أن يلتزموا بها ويقوموا بما يرتبط بها، فهي من الوجهة الوجدانية تحقيق للحاجات الإيمانية الجمالية، وتصورات عميقة الأبعاد والآفاق في الوجود الإنساني المكرم.

● وفي الأصناف الثمانية الذين يستحقون الزكاة جمعتهم آية واحدة على نسق منظم يكسوها مسحة جمالية معنوية ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

فإلى جانب التصنيف الجامع لفئات مختلفة من المجتمع ومصالح هامة في البناء الاجتماعي فإن السامع والقارىء لا يمل من تردادها، ذلك لأن المؤمن حين يقدر نعمة التكافل الاجتماعي في إزالة الفقر والجهل والمرض والضعف والبطالة والعبودية البشرية، فإنه يتصور تحقيقاً أن الكفاية والعدالة ترفرفان على أبناء المجتمع الإسلامي الذين يعيشون إخوة في العقيدة والعبادة قبل أن يعيشوا إخوة الدم والنسب.

وإن مشاهد البؤس والبؤساء وحياة الخذلان والتخاذلين، ومعيشة البطالة والمتبطلين نذير شؤم في البناء الحضاري لا من حيث الصيغة الاجتماعية

وحسب وإنما من الوجهة الجمالية التي لا بد أن ترتفع بالحياة الضنكة العسرة فوق الضرورات المعاشية. . .

● ومن أروع القضايا المتعددة وأرسخها في تصورات المسلم وألصقها بالجماليات الكونية العلوية والأرضية ما احتوته آية واحدة هي قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . . .﴾ (البقرة: ١٦٤).

فقد عددت عشر آيات للدلالة على وحدانية الله وقدرته وحكمته ونعمته. . . ومع هذا التعداد برزت كونية ضخمة من الخلق والصنع والبث والتصريف والإحياء. . .

فقد برزت هذه الآيات العشر بضخامة مظهرها ودقة تكوينها، وانتظام سيرها، وتكامل منافعها لمن يرى بحاسة عينه وعقله البسيط ولمن يراها ببصيرته الثاقبة وعلمه الواسع وفكره العلمي، ولكنها على كل حال آيات عظيمة الجلال لمن يتفكر بخلقها وانتصابها وحركتها وتوازنها وتناسبها، وانسجامها. . .

إنها في مجال العقل والفكر والوجدان غذاء عقلي وفكري ووجداني يتملاها العقل والقلب تأملاً ونظراً وتلاوة.

فهل هناك عروض تتسق فيها جماليات التعدد مثل هذه العروض؟ وهل تستطع وسيلة جمالية بالرسم أو الأدب أو أي فن أن ترسم أو تعبر عنها بمثل هذه الروعة والبهاء؟.

إن التركيب التعددي جمالياً كان أو جلالياً يبلغ أوج الفن التعبيري الذي تلتحم فيه أبعاده الفكرية والإصلاحية والجمالية في نمط فذ من النثر الفني المعجز.

تراكيـب مغفلـة:

وإلى جانب تلك التراكيب المضبوطة بالترقيم والتعداد والتفصيل فإن معظم الجمل القرآنية مغفلة من الأسماء التاريخية والمعاصرة لنزول القرآن كأسماء الأعلام، والأمكنة والأحداث سوى ما يتصل بالرسل وأقوامهم. والتي يبحث عنها المفسرون في الروايات المختلفة، ويهتم الأدباء بها عادة في القصة والرواية والبحث الأدبي.

وفي هذا أكثر من أمارة أدبية على إنسانية القرآن الفنية باعتباره أعظم أثر فني في الوجود.

والاتجاه القرآني المفضل هو تسمية العلَم والمكان والشيء بصفته المميزة التي يمكن أن تطلق على (عموم) الأعلام والأمكنة والأشياء التي تتماثل في السمات والشيات.

مثلاً نجد: حاضرة البحر ـ مجمع البحرين ـ ملك الموت ـ النافخ في الصور ـ أصحاب القرية ورسلها والمؤمن الساعي إليهم ـ الحواريون ـ الأسباط ـ زوجة آدم ـ المجادلة ـ أم المؤمنين الواهبة نفسها ـ ثاني اثنين ـ أهل البيت ـ آل إبراهيم ـ فتية الكهف ـ موقعه ـ مكان وفاتهم ـ ذو القرنين ـ فتى موسى ـ معلمه العبد الصالح ـ الأخَوان الفقير والغني في سورة الكهف.

وأمثال هذا هو الغالب في الاتجاه القرآني.

ولكنا لا نعدم تركيزاً عجيباً على أعلام وأمكنة وأحداث معينة يمكن أن نستنتج من إعلانها والتصريح بها حِكماً دينية وجمالية متنوعة إلى جانب الدقة في عرض الأحداث والأسماء.

أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

● من الأعلام: طالوت ـ جالوت ـ هاروت ـ ماروت ـ يأجوج ومأجوج ـ أبو لهب ـ قارون ـ آزر ـ هامان ـ فرعون... وهم أئمة الكفر.

و: آدم ـ ذو القرنين ـ عمران ـ عزير ـ لقمان ـ ومريم ـ زيد. . . وهم من المؤمنين.

● ومن القبائل والأمم: قريش ـ الأحزاب ـ الروم ـ العرب ـ عاد ـ إرم ـ يأجوج ومأجوج ـ عاد ـ ثمود ـ قوم تبع ـ أصحاب الرس.

● ومن أصنامها: ود ـ سواع ـ يغوث ـ نسر وهي أصنام قوم نوح، واللات والعزى ومناة: أصنام قريش، وبعل صنم قوم إلياس. . .

● ومن الملائكة: جبريل ـ ميكال ـ رقيب ـ عتيد.

● ومن الأمكنة: بابل ـ سبأ ـ بكة ـ مكة ـ المدينة ـ عرفات ـ المشعر الحرام ـ حنين ـ بدر ـ أحد ـ المسجد الحرام ـ المسجد الأقصى ـ مصر ـ الحِجر ـ الطور ـ سبأ ـ الأحقاف ـ طوى ـ الجودي ـ الكهف.

وإذاً فإن تحديد الأشخاص والأزمنة والأمكنة في القصة القرآنية وتعيين الأسماء والأحداث في أبرز المسائل الإنسانية عبر التاريخ العريق وخلال متنزل القرآن، يعين على فهم هذه القصة كأنها ماثلة للعيان، ويبعث في المسائل الإنسانية الحياة المتجددة التي لا تحدها الأسماء ولا السنون، فيعرف الحدث بحدوده والشخص بسماته والتاريخ بأبعاده الزمنية والمكانية والشخصية. حتى وإن عدد القرآن أو حدد الأسماء والكنى والألقاب فإن صفة العموم هي ما يستنتجه الباحث، وسمة الروح الإنسانية هي ما يعتبره المتأمل في تشريعه وتوجيهه وتطلعاته الفنية (فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) كما يقولون.

ولا تعوزنا الأمثلة والنماذج، فمعظم الآي الحكيم في هذا الاتجاه العام الذي يجعل ألفاظه وتراكيبه أكثر إيناساً في دخولها القلب وتأثيرها في النفس والتصاقها بالذاكرة.

فالرسول الذي يعاتبه الله في آيات كثيرة وأحياناً يلحف في هذا العتاب لا يصرح بالأسماء الذين عوتب من أجلهم. . . فهو يقول عن المتخلفين ﴿ عَفَا ٱللَّهُ

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة: ٤٣).

إنـه دعاء جميـل من رب رحيم، وتوجيـه كريم لتبيـان الصادقين والكـاذبين متجاوزاً أسماء الثلاثة وغيرهم ممن تخلفوا عن غزوة تبوك. فليس في ذكرهم فائدة مرجوة. ونبهـه إلى الالتزام بـالمؤمنين على فقرهم وبؤسهم ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨).

أنه أمر بملازمة المؤمنين الموصوفين بالإخلاص، ونهي عن طاعة المفرطين الغافلين من غير تصريح بأسماء الصحابة البؤساء ولا بأسماء الكافرين المتعالين.

والتعبير القرآني المعاتب للرسول والمعلن لفضائل صحابته لا يأمر وينهى هكذا وإنما يريد من الرسول إعلاء القيم الروحية وأصحابها وإحباط الكفر وأهله. مهما استعلوا بأموالهم وأحسابهم وسلطانهم...

فالصبر فضيلة نفسية أكدتها الآية فقالت: اصبر نفسك، والمعوّل عليه هو حبس النفس عن النقائص ويقتضي ذلك عملاً عفاً وسلوكاً صابراً.

والغداة والعشي: يقصد بها الأوقات كلها، وفيهما من الجمال الحسي ما لا يوجد في أية لفظة أخرى كالأزمان والأوقات...

يريدون وجهه: يخلصون له الدعاء والعمل. فما أكرم وجه الله وما أبر الإخلاص إليه... وما أروع صلة المؤمنين وإرادتهم وجه الله تعالى، **تريد زينة الحياة الدنيا**: فقد أثبت الله للدنيا زينة كما أثبتها في آيات عديدة، وعلى هذا فالمذموم من زينة الحياة الدنيا هي تلك التي تبعد عن القيم وتغفل عن المثل وتنأى بالمؤمنين الموحدين.

أغفلنا قلبه عن ذكرنا: إنها غفلة القلب عن الله جعلتهم يتكبرون ويتشامخون ويتبعون أهواءهم المفرطة. . .

إنها سلسلة مترابطة متلاحمة من التراكيب القرآنية التي تضفي على المبادىء والقيم روائع البيان وعموميات المعاني لتصنف مثل هذه المشاهد بأحداثها وأشخاصها وأبعادها المكانية والزمانية الخاصة، في آفاق إنسانية خالدة.

ومثل آخر نجده في «أصحاب القرية» من سورة يس (١٣ ـ ٢٩) تزدحم فيها أسمى المعاني والتضحيات وأصدق الدعوات في مقابل التكذيب والتطير. . . إنه صراع الحق وأهله والباطل وأصحابه.

فالحواريون أعلنوا التوحيد في مدينة (إنطاكية) ولم يبالوا بالقتل في سبيل دعوتهم، وحين جاءهم (حبيب) ـ على ما ذكره المفسرون ـ من أقصى المدينة يثبت دعوتهم ويقوّي بيانهم، كان ذلك مثلاً رائعاً في التأييد والنصرة في كل زمان ومكان. . .

وقد أغفل القرآن أسماء الحواريين، والرجل المؤمن الساعي والقرية ليعيش الإيمان والمؤمنون في رحابة الحياة الإنسانية الكبرى، وليستنتج المسلمون فيما بعد أسمىٰ التوجيهات في بناء الدعوة وطرقها وثباتها، والجهاد في سبيلها.

ومما يساعد على هذه الأدبية الإنسانية ما اشتملت عليه القصة من تراكيب وألفاظ مثل: فعززنا بثالث، فقالوا إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين. . . إنا تطيرنا بكم. . . طائركم معكم ـ ما لي لا أعبد الذي فطرني. . .

إنها تراكيب قصيرة معبرة عن نوازع الخير والشر وانفعالات النفوس، ومجابهة الأضداد، زينت بالفاصلة (النون) المسبوقة بالواو والياء ليبلغ إيقاعها المؤثر أعماق الأفئدة حتى تلين إلى ذكر الله وما نزل من الحق. فهو مَثل أمر

رسوله أن يضربه للكافرين ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، مثل بعيد في التاريخ بعيد في المكان، واحد في الدعوة والتبليغ.

تراكيب سائرة وحكيمة:

وهي الجمل القرآنية التي جرت مجرى المثل فإنها تلهم مبادىء عامة، بما تتضمنه من حكم نبيلة وفضائل كلية، وتمتاز بألفاظها الموجزة الموحية التي تستوعب معانٍ كثيرة.

وإنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، (ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة)[1]. ومعظم الآيات تصلح أن تكون مثلاً سائراً ينطبق على مواقع كثيرة وحالات متعددة. فهي إذاً تمتاز بعمومها وشمولها. والأمثال في القرآن لون من ألوان الهداية الإلهية تغري النفوس على الخير أو تحضها على البر، أو تمنعها من الإثم، أو تدفعها إلى فضيلة... وتناولت الإيمان، والكفر، وفضحت النفاق، وحضت على الإنفاق، ونادت بالخير، ونددت بالشر، وصورت الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ومثلت للحق والباطل، واشتملت على بيان بتفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وأبرزت المعقول في صورة مجسمة، وألبست المعنوي ثوب المحسوس، وفصلت المجمل، وأوضحت المبهم، لتهذب الطبائع وتقلم الغرائز الشريرة، وتخفف من غلواء النفوس، وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها.

---

(١) الإتقان: ٢/١٣٢.

ومن جماليات المثل ما نقل عن النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة[1].

ومن الأمثال:

١ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾.

الباطل ضعيف لا بد أن يؤول إلى زوال.

٢ ـ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الحق ثابت خالد مهما تكالب عليه الناس.

٣ ـ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

الخير لا ينشأ عنه إلا الخير.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

الشر لا ينضح إلا بالشر.

٥ ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

القوة العظمى وحدها تكشف السوء والهموم.

٦ ـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

الآن ظهر الحق ودفع الباطل.

٧ ـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

لا يليق أن يقابل الفضل بالسوء.

---

(١) مختصر: الأمثال في القرآن: ٧ ـ ٩، محمود بن الشريف. دار عكاظ ط/٢ والإتقان السابق.

٨ ـ ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾.
لا يتساوى الخير والشر والحق والباطل.

٩ ـ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾.
لا مسئولية بعد الآن (لا عذر بعد البيان).

١٠ ـ ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾.
قوة الخصم ضعف.

ونوه (الثعالبي) بجماليات الأمثال ومزاياها بأنها تجمع الإعجاب، والإعجاز، والإيجاز: وساق عدداً منها[1]:

ـ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾.
من يضمر لغيره شراً يعود عليه.

ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾.
النفس تؤاخذ بما تفعل، فكل إنسان مجزي على أعماله.

ـ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾.
كل شيء في الدنيا يزول ويفنى فلا يدوم غير الله.

ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾.
لا مهرب لأحد من الموت.

ـ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾.
كل شيء يتقلب وينتقل لا بد له في النهاية من مستقر، فلكل شيء منتهى ومثبت.

ـ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾.
كل إنسان يعمل ما يشابهه ويضارعه.

---

(١) بتصرف من الإعجاز والإيجاز: ١٦. أبو منصور الثعالبي. دار البيان (بغداد)، دار صعب (بيروت). وأخذ تفسيرهـا من الحاشية بتصرف طفيف.

- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

لا تؤاخذ نفس إلا بما جنته ولا تؤاخذ عنها غيرها.

- ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾.

يظنون أي صارخ يطلبهم.

- ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

يظنون أن يمدحوا على صنيعهم.

أمثال مقارنة:

وهي تلهم بقوة الحافظة والاستحضار لدى العلماء، وغنى القرآن بالأمثال السائرة الحكيمة.

ومن طريف الروايات في هذه الأمثال ما نقله الماوردي قال: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل.

فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: خير الأمور أوسطها؟ قال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾، وآيات أخرى. قلت: فهل تجد في كتاب الله: من جهل شيئاً عاداه؟.

قال: نعم في موضعين: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا ﴾، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: احذر شر من أحسنت إليه؟.

قال: نعم، ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: ليس الخبر كالعيان؟.

قال: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قلت: فهل تجد: في الحركات البركات؟.

قال: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قلت: فهل تجد: كما تدين تدان؟.

قال: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: حين تقلي تدري؟.

قال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قلت: فهل تجد فيه: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟.

قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

قلت: فهل تجد فيه: من أعان ظالماً سلط عليه؟.

قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: لا تلد الحية إلا حيية؟.

قال: قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

قلت: فهل تجد فيه: للحيطان آذان؟.

قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

قلت: فهل تجد فيه: الجاهل مرزوق والعالم محروم؟.

قال: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

قال: فهل تجد فيه: الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً؟.

قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾(١).

تراكيب جدلية حوارية:

فلا تكاد سورة من طوال المفصل ومتوسطه تخلو من مشهد حواري أو جدلي بين الله وعباده أو بين الرسول وقومه، أو بين الناس بعضهم مع بعض، حتى بين الإنسان ونفسه في كثير من الأحيان.

فأسلوب الحوار الذي يبعثُ الحياة والحركة في النص أو المشهد ويحقق مغزاه التربوي هو الأسلوب القرآني المفضل في كثير من القضايا المطروحة.

وقد كان أسلوباً مفضلاً لدى كثير من الأمم السابقة في غرس المفاهيم الفكرية والخلقية والعلمية، وما يزال المسرح والكتاب عموماً والأدبي خصوصاً يستخدمه للوصول إلى أقصى النجاحات المطلوبة.

وإن البيان الذي يشتمل على طرق (حواريّة) (تتناظر) فيه أكثر من فئة أو فريق يظهر أدباً نفسياً رفيعاً قد لا يوجد مثله في (الجدال) المغالب والخصومات الكلامية واللدد العنيف، وإن جمعت بعض الآيات بينهما في مثل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

(١) الإتقان: ٢/١٣٢ - ١٣٣.

﴿... مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ . . .﴾ (المجادلة: ١، ٤).

ولكن البيان القصصي خاصة يقوم معظمه على الحوار في أحداثه وحوادثه، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم، والصراع في تاريخ الفكر الديني عموماً وما يلحق به من المناظرات بين المؤمنين بعضهم مع بعض، وبين المنافقين والكافرين. . .

وإذا أكثر القرآن من المشاهد الحوارية ليعطي أدباً حياً مؤثراً فإن العرب وهم خصمون لد أحوج ما يكونون إلى هذا الأسلوب لا لمطابقة أحوالهم وآدابهم وحسب وإنما للدلالة على وجه ظاهر من وجوه الإعجاز البياني.

وأجل أنواعه وأرهبها وأعظمها وقعاً في النفوس تلك التحاورات بين الله وعباده التي تشمل الخطاب القصير والحوار الطويل في مسائل الألوهية والبشرية ومصائر الناس في الدنيا ومشاهدهم في الآخرة.

ولا يقتصر الجدل أو الحوار على بني البشر وحدهم وإنما يشمل الملائكة المقربين والشياطين المبعدين، كما يشمل أحياناً الجمادات من الطبيعة التي تنطق وتخاطب، في جماليات مشخصة تضفي عليها الحياة والحركة.

صور من الجدل القرآني وإيحاءاته الجمالية:

● **توجيهات إلٰهية:** فالله يوجه رسوله والمؤمنين إلى الدعوة الحكيمة، والجدال بالأحسن في جملة قرآنية موجزة اللفظ، عميقة المعنى شاملة الأبعاد والنشاطات ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، فهي دعوة، وحكمة، وموعظة وجدال. . .

ومن هذه الآية وغيرها استنتج العلماء ما يعرف: بأدب البحث

والمناظرة، والدعوة، وطرقها وأساليبها.

كما يوجه المؤمنين إلى الجدال بـالأحسن في القول والبـرهان ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ويوجههم إلى استهداف الحقائق بالبراهين الصحيحة عن علم ومعرفة.

● **قدم المجادلة في القرآن**: فقد نوه القرآن بالحوار بينه وبين ملائكته قبل خلق آدم ثم السجود له بعد خلقه وتعليمه. وجدل بين آدم وإبليس. وآدم وزوجه، وولديهما: قابيل وهابيل..

فمن التراكيب الموحية بالجمال قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ... وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ... وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ.. وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا.. فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾[1].

ومن نبأ ابني آدم ـ قال: إنما يتقبل الله من المتقين ـ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ـ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ـ كيف يواري سوأة أخيه ـ قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب[2]....

إنها تراكيب واضحة مفهمة مؤثرة تميزت بانتقاء ألفاظها، وبإيحاءاتها الفنية الحية، تهتم بـالحكمة والعلم الإلهي المطلق، وتبرز ضـآلـة حجم المعرفـة لغيره، وتعلن بداية الصراع بين الخير والشر واستمراره، وتنبه إلى الأطماع البشرية، في مقدرة أدبية بيانية فذة.

● **حوار تعليمي خاص**: فالحوار قوام النجاح في أية مادة درسية علمية أو أدبية، وهو أغنى أسلوب تربوي وأيسره في إيصال الحقائق الفكرية إلى الطلاب.

---

(١) انظر الآيات في سورة البقرة: ٣٠ ـ ٣٩.
(٢) الآيات في سورة المائدة: ٢٧ ـ ٣١.

وفي القرآن نماذج من الحوار التعليمي، أخصه: ما جرى بين المعلم «الرجل الصالح» وبين «موسى وفتاه»، فقد أوضح الحوار الغرض التعليمي منه فقال عن المعلم والطالب «وعلمناه من لدنا علماً» فالله المعلم والرجل الصالح المتعلم، والمادة العلمية هي علم لدنيّ من الله تعالى.

وكذلك في قول موسى الطالب لمعلمه ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وفي نهاية الجولة التعليمية التي اتخذت أسلوب الحوار قال المعلم الرجل: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. إنها قصة حوارية رائدة في العملية التعليمية الناجحة.

ومن التراكيب الملهمة بالجمال: مجمع البحرين ـ اتخذ سبيله في البحر سرباً ـ لقينا من سفرنا هذا نصباً ـ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ـ لقد جئت شيئاً إمراً ـ لا ترهقني من أمري عسراً ـ فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه ـ يأخذ كل سفينة غصباً ـ خشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ـ خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ـ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك[1]...

فهي قصة مشحونة بأجمل التراكيب وأكثرها إثارة للعقل والعاطفة، وأعمقها بالأحداث الغريبة العجيبة، والنتائج الباهرة تلونت تراكيبها بين الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، والإيجاز والإطناب، واختارت أصفى الألفاظ وأجمل الكلمات وأفصحها للتعبير عن حوار علمي حي متسع الأبعاد والآفاق، قائم على المحسات والغيبيات، والمقدمات والنتائج، معتمد على الشخصيات في سماتها الفكرية والشعورية، وهي في رقابة الله وحكمته وتدبيره...

● **حوار عقدي:** فقد كثرت الحوارات العقدية عبر الحياة الإنسانية

---

(١) الآيات في الكهف: ٦٠ ـ ٨٢.

المديدة ومضت تتغلغل في القرون والحقب اللاحقة. وفي مقدمتها الحوارات العنيفة بين الأنبياء وأقوامهم حيث كانت لها أغراض دعوية وتربويـة وعقلية وجمالية. . .

ولكننا سنعرض لحوار خاص وقع بين مؤمن من آل فرعون وقومه، وفي مقدمتهم الملك الأكبر الذي كان يعلن أنه الرب الأعلى. . .

ـ هو قبطي في أصح الأقوال يناقش الطغيان والجبروت، ويعلن الحق ويهدد بالآخرة ويدافع عن موسى وقومه المهددين بالقتل والتشريد والتعذيب ويدعوهم للعبرة من تاريخ المكذبين: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ويذكرهم بسيـر الأنبياء المـرسلين وبراهينهم ومعجـزاتهم. . . ويخوفهم من مصائرهم الدنيوية والأخروية.

ـ ولكن فرعون تطاول وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً ليطلع على الله ويبارزه ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧).

ـ ويعود الحوار إلى الرجل المؤمن ثانية فيطلب من قومه أن يتركـوا فرعون وعمله ويتبعوه يهديهم «سبل الرشاد»، فالحياة متعة زائلة والآخرة دار القرار، والإنسان مجزي بعمله ذكراً أو أنثى. . .

ـ ثم يستنكر متعجباً من قومه فيقول: ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤١ ـ ٤٤).

ـ وأخيراً يحكم الله بين المتجادلين ويصرح بعاقبتهم فيمنع المؤمن من مكر الكافرين، ويعاقبهم في البرزخ مقدمة لعقوبتهم الدائمة في الآخرة ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٥)[1].

إنه حوار (جامع) لأطراف متعارضة متباينة: المؤمن من آل فرعون في جانب ومعه الله يؤيده ويدفع عنه، وقومه في جانب آخر ومعهم فرعون بجبروته وسلطانه وبطانته.

و «جامع» للربوبية المزيفة والإيمان الراسخ في صراع عقدي بين الحق والباطل والتوحيد والشرك.

و «جامع» لأنواع من الترغيب والترهيب من التاريخ القديم والقريب وعاقبة المؤمنين والمكذبين.

و «جامع» لألوان من البراهين والتأثيرات العقلية والعاطفية والسلوكية المؤثرة في العقل والعاطفة والسلوك.

و «جامع» لأحداث جسيمة وقعت في الدنيا وأحداث أضخم ستقع في الآخرة.

إنه من «أجمع» المشاهد الحوارية في القرآن وأغناها بالانفعالات النفسية التي نستلهمها من معظم التراكيب والجمل مثل: قال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ـ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات ـ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين ـ يوم الأحزاب ـ يوم التناد ـ ما لكم من الله من عاصم ـ كبر مقتاً عند الله ـ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ـ زين لفرعون سوء عمله ـ والآخرة دار

---

(١) الآيات جميعها من سورة غافر: ٤١ ـ ٤٥.

القرار ـ لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ـ أفوض أمري إلى الله ـ فوقـاه الله سيئات ما مكروا.

إنها في «جمعهـا» السابق تؤثر في منطق العقل والوجدان لما تتضمنه من براهين مقنعة، وأفكار ومعان عامة وخالدة، وإيحـاءات وظلال وجدانية وارفة، تتفيؤها النفس، وتتملاها الروح، إنها ظلال الإيمان الوارفة في مقابل الطغيان والمراوغة والاستهتار والسخرية، والسلطان الجائر المتعسف.

ولذا فإن النص أو المشهد عموماً زاخر بنشاط فكري ودعوي وبوسائل وطرق ناجحة للنشاط الفكري والدعوي صالحة لكل زمان ومكان وجيل.

وقد صيغت بتراكيب قوية الجرس شديدة الوقع تنم عن أرق المشاعر والانفعالات الوجدانية المتعالية المنتفخة، تترافق أو تتقابل مع تراكيب أخرى لطيفة الجرس خفيفة الوقع، مع وضوح الفكر، وقوة المبدأ، ونصاعة الحق.

وهذه التراكيب الرصينة المعبـرة اتسقت بأفصـح الألفاظ وأبلغهـا إلى النفوس والقلوب في إيقاع ثابت، وجرس قـوي يوحي بـالصراع الشـديد، والمنازعات الفاصلة، ومن ثم فإنها تنتهي باستعـلاء الحق وثباتـه ورسوخـه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً..﴾.

● **حوار قيمي**: وقد جرى بين رجلين أحدهما يصوّر أن قيمة الإنسان والحياة محصورة بالمال الكثير والجني الوفير والعشيرة القوية، وكل ما يتصل بالأحوال المادية القريبة والبعيدة، وآخر يصوّر أن القيمة الحقيقية هي قيمة روحية ربانية، فهي الباقية الدائمة وما عداها متعة زائلة وظل مستعار(1).

ـ فالرجل الغني يعتز بغناه وجنّتيه وعشيرته، ولا يبالي بأي شيء آخر.

ـ والفقير يعتز باتصاله بالله ويأمل بما عنده من خير الدنيا والآخرة.

---

(١) الآيات في سورة الكهف: ٣٢ ـ ٤٣.

ـ والنتيجة هي أنه أحيط بثمر الرجل الغني وندم على تصوره المادي ولات ساعة مندم.

وإذا استعرضنا النص أو المشهد فإننا نجده زاخراً بالتراكيب الوصفية والتحليلية والفكرية:

فمن التراكيب الوصفية الموحية: وحففناهما بنخل ـ آتت كلها ـ فجرنا خلالهما نهراً ـ أحيط بثمره ـ وهي خاوية على عروشها ـ يصبح ماؤها غوراً ـ تصبح صعيداً زلقاً... فهي أجمل ما توصف به الطبيعة في جنات الأرض.

ومن التراكيب التحليلية: ظالم لنفسه ـ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ـ ما أظن أن تبيد هذه أبداً ـ لأجدنّ خيراً منها منقلباً... فهي تبيان دقيق لأحوال نفسية ومعاشية وسلوكية..

ومن التراكيب الفكرية: ما أظن الساعة قائمة ـ أكفرت بالذي خلقك من تراب... لا أشرك بربي أحداً ـ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ـ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ـ هنالك الولاية لله الحق... فهي إنكار وجحود للقيم الدينية... وهذه التراكيب التي تحمل قيماً نظرية وعملية، أبدع منها الحوار مادة حية شائقة مهما كان بعدها التصوري، وأضفى عليها من البيان المؤثر ما جعل روعة القيم الحقيقية تخلد على الأيام، وإن كثر الباطل وأشياعه، وزيف قيماً موهومة أخرى ومرفوضة. إنه أدب خالد في جوهره الفكري التصوري فلا يكاد مجتمع يخلو من مثل هذا المشهد الإنساني، وهو أدب سام ملتزم بالفكر القيمي، والتطلعات الروحية يدعو له من خلال حواره الحي الممتع، إنه أدب القرآن الذي أراد أن يتأدب به المسلمون في نفوسهم وأن يتذوقوه بوجداناتهم، وأن يزينوا قلوبهم بجمال آيه وتراكيبه.

● **امرأة تجادل الرسول ﷺ للحافظ على بيتها**: كانت خولة بنت ثعلبة الخزرجية قد تزوجت بأوس بن الصامت وهي في صباها وشبابها، وعاشا عمراً طويلاً تقدمت بهما السن... وفي وقت نزق وغضب حرمها على نفسه

كما حرمت أمه عليه، وكان الظهار من أشد الطلاق في الجاهلية حيث كان يوجب الفرقة المؤبدة...

يقول أوس وقد كبرت سنه و(ساء خلقه) لزوجه: أنت علي كظهر أمي.

تقول الزوجة: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه...

ثم خرجت إلى الرسول فذكرت له ما لقيت منه وجعلت تشكو إليه ما تلقاه من (سوء خلقه).

يقول الرسول ﷺ: يا خويلة: ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه.

تقول المرأة: إن أوساً ظاهر مني، وإنّا إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه.

يقول الرسول ﷺ: ما أعلمك إلا قد حرمت عليه...

تقول المرأة: أشكو إلى الله ما نزل بي.

يقول الرسول ﷺ بعد أن نزل عليه الوحي: أين المرأة، وقرأ عليها وعلى زوجها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)[١].

وبقيت المجادَلة اسماً على السورة كلها تذكّر بهذه القصة الفريدة وحوارها العجيب.

وفي النص القصير ما يدل على حوار، وشكوى، واستعطاف من المرأة الوفية، من غير أن يصرّح بأسلوب الحوار والجدل، ومن غير أن يعلن ما دار

(١) من مجموعة روايات في تفسير ابن كثير. وجملة (ساء خلقه) من كلام خولة وفي أصل الحديث.

بينها وبين زوجها، أو بينها وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، وتبدو شخصية المجادلة من خلال النص أنها عاقلة حصيفة مؤمنة محافظة على بيتها.

والتعبيران: تجادلك في زوجها، وتشتكي إلى الله، يدلان على هذا الحوار المشفق المخوف من عاقبته.

أما التعابير الأخرى مثل: الذين يظاهرون منكم من نسائهم، ما هن أمهاتهم... ثم الحكم بتحرير رقبة إن وجدت، وإلا فالصيام،... وإلاّ فالإطعام.... فهي الجواب الربّاني الأخير الذي بلغه الرسول للمرأة وزوجها.

ويضاف لما سبق تراكيب منفرة مرهبة مثل: ما هنّ أمهاتهم - إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً - والله بما تعملون خبير - وللكافرين عذاب أليم.

وتراكيب عفة ومرغبة مثل: من قبل أن يتماسا - إن الله لعفو غفور - ذلكم توعظون به - ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله...

إنه مشهد رائع يربط الحوار الأرضي بالله الذي سمع قول المرأة وجدالها وحرصها على زوجها وولدها...

وهو يشعر برحمة الله وعفوه عن المسيء الغضوب ويفتح أمامه أبواب العودة إلى الرشد والاستقرار بعد أن أوصدته الجاهلية بالفراق الدائم، ويضع له ولأمثاله الجزاء علاجاً رادعاً يحقق المنافع للجميع...

ومزية التراكيب هنا وضوحها وتفصيلها وردعها، وخلوها من الصور الفنية ودقتها في البيان، وروعتها في التأثير...

وجدليات أخرى لا يتسع المقام لها مثل: جدليات فرعون مع السحرة[1]، والأنبياء وأقوامهم وذويهم... ومنها جدال الرسول عليه الصلاة

(١) مثلًا: في سورة طه: ٦٠ - ٧٦.

والسلام مع قومه في قضايا التوحيد، والبعث، والقدر، والنبوة، والوحي، والقرآن، والنفاق، والإيمان، والفضائل[1]...

أما حوار الله مع نبيه عيسى[2] ومحمد عليهما السلام[3]، وحواره مع الجاحدين... وحواره مع العباد يوم القيامة[4] فهي المثل الأعلى في بيان كرامة الإنسان والحرص على هدايته واستخدام قدراته للوصول إلى الحق المبين.

جمالية التشابه والتكرار:

وهي مسألة ترتبط بالإعجاز القرآني بقدر ارتباطها بالدقة في مراعاة المعاني والاعتبارات والكيفيات المختلفة من موسيقى اللغة وإيقاعها المتهادي على مناط الذوق من النفوس التي تجد من الحبور والارتياح والتأثر ما لا تجده في الأسلوب المغفل منه.

وهو بلا ريب مقياس جمالي يضفي على السياق حسن التأكيد والدقة والإيقاع، تتفق فيه الآراء والأذواق والطبائع ولا يمكن لها إنكار بهائه وحسنه.

ومن سذاجة الفهم وبساطة التأمل أن يمر الدارس على هذه التراكيب ولا يزنها بميزان جمالي ضمن مجموعة الآيات السابقة أو من خلال السورة التي تتضمنها، فإنها على قلتها تشكل اتجاهاً فنياً مقصوداً له سماته وخصائصه.

---

(١) مثلاً: سورة الجاثية: ٢٤ ـ ٢٨، والإسراء: ٤١ ـ ٥٢، والبقرة، ولقمان...، وسورة الأنعام: ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) سورة المائدة: ٧٥.

(٣) معظم السور القصيرة: مثل الضحى، الشرح، الكوثر...

(٤) مثلاً في سورة يونس: ٣١ ـ ٣٥. وانظر: استخراج الجدل من القرآن الكريم: عبدالرحمٰن بن نجم الحنبلي المعروف بابن الحنبلي ت. د. زاهر الألمعي ط/ ٢، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م

والتكرار التام قليل في القرآن لا يتجاوز[1] سوراً ستاً، مثل: الرحمن، التكاثر. أما الكثرة الكثيرة فهي تكرار في كلمة وأحياناً (معدلة) أو في تركيب يزاد فيه أو ينقص منه حسب الحاجة الفكرية والجمالية في اللفظ والمعنى والإيقاع. فتتشابه الألفاظ والتراكيب.

أقول هذا مع حسن الظن أن هذا من السذاجة والبساطة في الفهم والتأمل، ولكن بعض الدراسات المغرضة تفسر التكرار تفسيراً تبدو فيه أمارات الافتراء والطعن أكثر مما تبدو فيه أمارات الدرس والبحث.

وفي مقدمة البدهيات لا بد من أن ننبه إلى الارتباط العام بين الفاصلة القرآنية والتركيب المتكرر الذي يعتبر مثله وفي غير القرآن (لازمة) إيقاعية بالنسبة لما قبله، بغض النظر عن الأغراض المعنوية والجمالية الأخرى.

ولذا فقد عني علماؤنا المفسرون والبلاغيون بهذا الجانب وأبرزوا أسراره اللفظية والمعنوية وأدخلوه في الإعجاز البياني...

يقول الكرماني في مقدمة كتابه: أسرار التكرار في القرآن: هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان... وأبيّن السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها،... والحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى... ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها...

والمتشابهات أو المكررات قد تكون لفظة واحدة مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقد كرر «إياك» (لقطع الاشتراك، ولو حذف لم يدل

(١) المصدر السابق: ٢٠ يقول الكرماني: وسميت هذا الكتاب: البرهان في متشابه القرآن. ت: عبدالقادر أحمد عطا ط/٣ دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م.

على التقديم، لأنك لو قلت: «إياك نعبد ونستعين»، لم يظهر أن التقدير: «إياك نعبد وإياك نستعين»، أم: «إياك نعبد ونستعينك»، فكرر)[1]، ومثله تكرار (كلا) في سورة التكاثر فهي للردع والزجر في كل موضع فيها.

وهذه لا تدخل ضمن الإيقاع الجرسي في النص الواحد أو المشهد المعين.

وقد يكون التكرار آية أو جزءاً منها كما سيتضح ذلك بالأمثلة، وحينئذ تبرز قيمتها الفنية الإعجازية.

ومن الملاحظ أن جمال التكرار والتشابه يتوزع في ثلاث نواحٍ:

أولاها: في التركيب نفسه من حيث بلاغته وعرضه الفني منفرداً.

وثانيتها: في النسق القرآني الذي يعد جزءاً أساسياً من النص أو السورة.

وثالثتها: في الإلحاح على جملة طويلة أو جزء منها في سورة واحدة أو عدد منها.

ونعرض فيما يلي نماذج متنوعة:

١ ــ قال الكرماني[2]: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة)، كرره ثلاث مرات، وختم الأولى بقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (٤٤)، والثانية بقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (٤٥)، والثالثة بقوله: فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (٤٧)، قيل: لأن الأولى نزلت في حكام المسلمين، والثانية في حكام اليهود، والثالثة في حكام النصارى، وقيل:

(١) ص: ٦٣، من السابق.

(٢) ص: ٦٣، من السابق.

الكافر والفاسق والظالم كلها بمعنى واحد، وهو الكفر، عبر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب سورة التكرار. . . وأقوال أخرى. ولكن إذا تأملنا في هذه التراكيب لا نجد تكراراً سوى ما يتعلق بالجزء الأول أي فعل الشرط وهو: ومن لم يحكم بما أنزل الله. أما الجزء الثاني أو جواب الشرط فلا يقع في لفظه تكرار. ففي الأول (كافرون) لجحودهم وإنكارهم، وفي الثانية (ظالمون) لعدم تطبيقهم الشريعة على الناس بالتساوي أو الحكم بغير الشريعة، وفي الثالثة (فاسقون) لخروجهم عن وجوب الحكم بما أنزل الله. . . وكل منها متناسق مع آيتها.

ونستنتج منها شيئين:

الأول: المبدأ الكلي في موقف الحكام من الشريعة قد أوجزته هذه الآيات الثلاث وذلك بربط الجزاء بفعل الشرط، والتنبيه إلى أن الشريعة مما «أنزل الله»، يجب الحكم بها والتحاكم إليها، وأن التخلف عن ذلك يؤدي إلى انحراف تشريعي وحكمي.

الثاني: أن صفات الكفر والظلم والفسق التي هي من قبائح الأعمال والأحكام تتناسق مع الجحود والحيف والخروج عن طاعة الله الواردة في مطالع الآيات من ناحية، ثم إنها من ناحية ثانية صفات متعاطفة متلاصقة بأولئك الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وفق الأحوال النفسية والتطبيقية. ولا ريب أن فاصلتها (النون) تضفي على المعنى تأثيراً ووقعاً في النفس لا يتوفر لو خلت منها.

٢ ـ في صفات الله تعالى: في سورة (الأحزاب) قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤)، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ (٥٢)، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢٥)، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١). . .

ويعلل الكرماني ذلك بقوله: وهذا من باب الإعراب، وإنما نصب

لدخول (كان) على الجملة، فتفردت السورة به، وحسن دخول (كان) عليها، مراعاة لفواصل الآي. والله أعلم[1].

ويلاحظ أن الكرماني ينبّه إلى جمال الآيات إيقاعاً باعتبار توافقها في الإعـراب والفواصـل وليس التكرار عـاملاً رئيسـاً فيها. ومـع وضـوح هـذه الملاحظة اللفظية فإن خاتمة كل منها تتلاءم في جمال معناها مع مقدمتها. فالأولى تتمة لحرمة بيوت النبي وأمهات المؤمنين، فالله لطيف بهن خبير بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، والثانية في الموضـوع نفسه فـالله رقيب عليهن وعلى الرسول فلا يحل له من النساء من بعـد، وفي الرابعـة تناسب مع تخيير الرسول زوجاتـه ممن يؤوي منهن ومن يؤخر، فهـو وحده العالم بالقلوب الحليم عند أخطاء العباد. أما الثالثة فيختلف موضوعها الذي يتحدث عن (الأحزاب) ورد الكافرين بغيظهم قدرة من الله وعزة منه.

ويصح أن نتبيّن أن تلاحم الجمال اللفظي والمعنوي أبرز ألـواناً من الجماليات وإن اختلفت المعاني والموضوعات.

٣ ـ وقد يحدث التكرير في آيتين متواليتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ... وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٣١ ـ ١٣٢). وذلك الإيمان بغنى الله عن عبادة العـابد، في قلوب النـاس، ليقبلوا على العبادة مؤمنين بأنها لخيرهم وحدهم، بـل قد يكـون التكريـر في الآية الـواحدة، وذلك لتثبيت المكرر في النفس، كمـا في قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشـر: ١٨)، وقوله تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ

---

(١) ص: ١٧٣.

﴿وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)[1].

٤ ـ وفي سورة الشعراء، كررت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثماني مرات وكانت متمكنة من موضعها في كل مكان حلت فيه، فقد جاءت في هذه السورة أولاً، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى الأرض، أو ليس فيما تنبته من كل زوج بهيج ما يثير في النفوس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحييها؟ واستمع إليه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٧ ـ ٩).

ويكرر الآية في موضع آخر، تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى ونجاته، وغرق فرعون، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه، فهي جديرة بتسجيلها والإشارة إليها. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨).

وكررت تلك الآية ست مرات أخرى (في السورة نفسها) عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كتصوير جند إبليس، وقد كبكبوا في جهنم، وأخذوا يختصمون فيما بينهم، ويقررون أنهم كانوا في ضلالة وعمى، ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه، أو ليس في ذلك من العظة ما ينهى عن مثل هذا المصير؟.

---

(١) د. بدوي. السابق.

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب، لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تتلقى منه العظات والعبر، وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول، يحسنُ الوقوف عندها والتريث لتدبرها، وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ.

وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن[1].

٥ ـ في إشاعة السلام على الأنبياء: كررت آيات الصفات (السلام) في خمسة أنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وهارون والياس فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الصافات: ٧٩) وبعده ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (١٠٩)، ثم ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (١٢٠) وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ (١٣٠) فيمن جعله لغة في (إلياس).. يقول الكرماني: ولم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إلياس «سلام» لأنه لما قال: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (١٣٣)، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (١٣٩) وكذلك ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (١٢٣) فقد قال: سلام على كل واحد منهم، لقوله في آخر السورة: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (١٨١)[2].

وأضيف إلى ما سبق، حكمة هي إشاعة (السلام) نصاً لكل نبي من الأنبياء الخمسة ثم إجماله في سائرهم، وإن في (تكرار) السلام الإلهي جمالاً معنوياً هو طمأنينة النفس وحبور القلب في كل مرة وآية، مما لا يوجد مثله في حالة عدم التكرار، وإن نوعين من السلام مجملاً ومفصلاً ينبه الذهن إلى

(١) د. بدوي. السابق: ١٥٣، ١٥٤.
(٢) السابق ص: ١٨٠.

تعقب هذا السلام في كل حالة حتى يحْصلَ عليه في خاتمة السورة. وعندئذ تهدأ الصدور وتثلج القلوب ويشيع فيها (السلام).

٦ ــ في تثبيت القدرة والنعم والآلاء الإلهية: وظهر ذلك بوضوح في سورة (الرحمن) وفي قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث كرر الآية (٣١) مرة، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقيبها لأن في صرفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعدّ أكبر النعماء، وبعد هذه السبعة، ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنَّةِ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة...[1].

وإذاً فقد كررت هذه الآية في ثلاثة مواضع أو في قضية واحدة ثم في مصائر الناس الثلاثة:

أ ــ في الإيمان بالخالق القادر الحكيم بديع السموات والأرض الباقي بعد فناء عباده ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

ب ــ في التحذير من النار وعقوبتها ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ج ــ في الترغيب بثواب الله ودخول الجنتين وما أعد الله فيها من النعيم المقيم ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ويتبعهما جنتان أخريان دون الجنتين السابقيتين. وانتهت السورة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

---

(١) الكرماني: ١٩٨. وانظر الظلال في تفسيرها.

وإن آية واحدة يصلح تكرارها في موضوعات متعددة ومتعارضة أحياناً تحمل سؤالاً للتسجيل والإقرار والإشهاد من جانب، والإنكار في التكذيب من جانب آخر فلا أحد يملك أن يكذب بـآلاء الله في هذه المقـامات جميعهـا. إنها تخاطب الإنس والجان بهذا التكرار المؤثر عقب نعم الله وعذابه وجناته، لم تدرك أي سورة أخرى مثلها، فهي (ملازمة) لكل نعمة ونقمة ومصير تزينها وتجملها وتتفاعل في الضمائر والقلوب.

ولقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

وفي حديث جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً، لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا شيء من نعمـك ربنا نكـذبك فلك الحمد[2].

ثم أليست هي (عروس القرآن) كما ورد في حديث علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن»[3].

٧ ـ وتجد الآية التي كررت في سورة القمـر، وهي قولـه سبحانـه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠) منبهة في كل موضع وردت فيه، إلى أن ما سيأتي بعدئذ مما عني القـرآن

---

(١) ساقه الشوكاني في أول تفسير الرحمٰن.
(٢) المصدر السابق وقال: قال الترمذي بعد إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، وانظره في الحاكم وتخريج الذهبي له. وكذلك في الزوائد للهيثمي عند تفسير (الرحمٰن).
(٣) الشوكاني .السابق وقال: أخرجه البيهقي في الشعب.

بالحديث عنه، تذكرة وعظة، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادىء والتدبر والإذكار.

وكررت في سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وإذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، وتصفه، فلا جرم كرر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من الله يدل على قدرة، يحيي بها الناس بعد موتهم، وفي هذا التكرير ما يوحي بالرهبة، ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب(١).

٨ ـ في سورة (الكافرون): يقول الكرماني: هذا التكرار اختصار، وهو إعجاز لأن الله نفى عن نبيّه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات، فذكر لفظ الحال، لأن الحال هو الزمان الموجود، واسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأزمنة الثلاثة، واقتصر من الماضي على المسند إليهم فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، ولأن اسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيين. واقتصر المستقبل على لفظ المسند إليه فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ وكان أسماء الفاعلين بمعنى المستقبل(٢).

فالحكمة في التكرار المختصر المعجز أو المتشابه في الاشتقاق اللفظي نفيان: نفي الشرك عن الرسول ونفي التوحيد عن الكافرين في جميع الأحوال والأوقات، واستعان (الكرماني) بدلالة الأزمنة في الأفعال وأسماء الفاعلين على ذلك، وعلى هذا فهو تكرار لفظي ذو دلالة معنوية متكاملة.

---

(١) التكرار من سورة القمر والمرسلات. من: بلاغة القرآن: ١٥٥ د. بدوي مع تغيير في الترتيب.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٢٦.

وبينما تركز دراسة في (الظلال) على حسم الشبهة في (المفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق ـ وقد ـ نزلت هذه السورة بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك. . .) فإن ابن كثير يطلق على السورة سورة (البراءة) من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، وينقل أقوال أربعة من العلماء، وآخرهم ابن تيمية الذي يفرق في المعنى بين الآيات المتكررة، ويقول: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الإسمية آكد. . . ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. . .[1].

وإذا كان ثمة ما أضيفه فهو أن كل آية منها تصح أن تكون حكمة منفردة وموقفاً قائماً بذاته سواء كان ذلك في نفي الفعل أو نفي الإمكان، وإن في تكرار الحكمة أو الموقف المعلن استغراقاً في التوحيد الخالص مهما كانت المساومات المرغبة والمرهبة. وكأنها (ترتيلٌ) علوي يوجه إلى الرسول والمسلمين يحلو فيه تكرار اللفظ لتثبيت معناه. وإذا كان الرسول ﷺ يكثر من قراءتها ويوجه إلى ذلك كما جاء في الروايات الصحيحة فإن (التّنغيم) القرآني المرتل سيبلغ مداه في النفس والسلوك.

(ويوحي التكرير ـ أيضاً ـ باليأس، إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عن دينه، إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة، فليتدبروا أمرهم بينهم ملياً، ليروا سر هذا الإصرار من محمد فعساهم يدركون أن هذا السر هو أن الرسول

(١) انظر الأحاديث في فضلها في تفسير ابن كثير. وتفصيل الكلام عليها في الفتاوى ١٦/٥٥١ وما بعد.

على حق فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق)[1].

٩ ــ في سورة (الناس): يقول الكرماني: كرر (الناس) خمس مرات. . . قيل: كرر تبجيلاً لهم على ما سبق، وقيل: كرر لانفصال كل آية من الأخرى لعدم العطف، وقيل: المراد بالأول: الأطفال، ومعنى الربوبية يدل عليه، وبالثاني: الشبان، ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه، وبالثالث الشّيوخ، ولفظ: إله، المنبىء عن العبادة يدل عليه، وبالرابع: الصالحون والأبرار، والشيطان يولع بإغوائهم، وبالخامس: المفسدون والأشرار، وعطفه على المتعوذ منهم يدل على ذلك.

هذه الأقوال أو الاستنتاجات لا يضيق القرآن بها جميعاً، حين يقتصر التكرار على لفظة (الناس) وحدها، والمراد منها بالنظر إلى سياقها.

يقول ابن كثير: هذه ثلاثة صفات: الربوبية، والملك، والإلٰهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلٰهه. . .

ويضاف إليه أن التكرار وقع أيضاً في حرف (س) عشر مرات سواء كانت (لفظته) ضمن الآية أو في فاصلتها، وهو حرف (همس) كما عرف في التجويد، قادر على إشاعة جو الهمس والوسوسة والخنس في السورة جميعاً.

فالخناس صفة الوسواس تدل على تخفيه واختبائه ودبيبه في صدور الجنة والناس يستعاذ منه بـ «رب الناس. ملك الناس. إله الناس. . .» وهي استعاذة بالأقوى والأقدر والأنفع لأن المستعاذ به وهو الرب الإله، الملك، قادر على الإعاذة والحماية مهما كان الإنسان واهناً وضعيفاً، فإنه يقدر بقدرة الله، ويقوي بقوته، ويحتمي بحماه، وحينئذ ينقلب وهن الإنسان قوة وضعفه شدة وعزماً. ومع هذا المعنى ترسم إيقاعات (الناس) في جو السورة

---

(١) د. بدوي. السابق.

لوناً جمالياً فريداً لا نعهده في سورة أخرى بمثل هذا التحسس الوجداني العقدي الفكري.

وسواء كانت السورة مكية النزول أو مدنية فإن السمة الجمالية التي تكسوها تدل على (ظاهرة) الجمال الفني في القرآن جميعه ما كان منه مكياً أو مدنياً، وتدل على أن لكل تركيب أو سورة لونه المميز والمتناسق مع موضوعه وجوه وإيقاعه.

في صور التركيب وجمالياته:

إن الاتجاه أو الأسلوب التصويري في القرآن سمة بارزة في التعبير عن موضوعات وأغراض شتى، والإعجاز التصويري أقوى وأوضح وجه من وجوه إعجاز القرآن البياني.

فالصورة القرآنية المنتزعة من الطبيعة والإنسان خاصة، هي الأغلب في المنزع الفني الذي يتشبع منه التركيب أو الجملة القرآنية، فهي تعمل على رسم لوحات متدفقة بالحياة، ومشاهد تتسق فيها الشخصيات والأحداث في أداء وبيان متميزين.

ويبدو أن جمالية هذا النوع من التركيب يتمثل في ناحيتين: الدقة الفنية، ومدى القدرة على التأثير والفعالية.

١ ــ الدقة الفنية التصويرية:

فالتعبير (الصوري) الرائع الذي يختار له القرآن المصدر والمادة والألفاظ ونوعية الصورة يكسبه توضيحاً وتفصيلاً ودقة محكمة في أبعادها وجوانبها.

وما يزال علم البيان خاصة أوفى أنواع البلاغة في جلاء المعرفة البيانية الصورية التي كانت أداة القرآن المفضلة ووسيلته التي يحرص على جلائها ودقتها.

وما يزال علم الجمال أقدر على تبيان القيمة الجمالية في الصور الفنية، فكانت على زخمها وتنوعها وعمقها، وشمولها واختيار مناحيها، آية في بيان الإعجاز القرآني، والكشف عن جمالياته، وإظهار ألوان من تراكيبه وجمله الفنية.

وبادىء ذي بدء (يجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل.

وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وصوتيات السياق في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال، والفكر والوجدان.

وهو تصوير يوحي بالمشاعر والوجدانات)[1].

ومن ملامح التصوير القرآني:

● العمق في رسم المعنويات بالصور المحسة: إن تصوير الأمور النفسية والعقدية والخلقية ومعاني الإنكار والاستحالة... بالصور المادية تلقي عليها إشعاعات تجلو غامضها وتوضح معناها وتقربها إلى الأفهام...

فالقرآن (يمثل[2] وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله وهناً لن يفيدهم فائدة ما، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً، وهو لا يجدي، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبذل جهده في التنظيم، وهو لا يبني سوى أوهن البيوت وأضعفها، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي، فزادته وضوحاً وتأثيراً قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ٣٧.

(٢) د. أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: ١٩٣، والأمثلة الآتية مقتبسة من كتابه.

﴿ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١).

وها هو ذا يريد أن يحدثنا عن أعمال الكفرة، وأنها لا غناء فيها، ولا ثمرة ترجى منها، فهي كعدمها فوجد في الرماد الدقيق، الذي لا تبقي عليه الريح العاصفة، صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه، فقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٨).

● الصورة ليست عنصراً إضافياً في الجملة ولا ثانوياً فيها، وليست تزييناً أدبياً أو زخرفاً من القول وإنما هي أساس لفظي ومعنوي لا يستقيم المعنى بغيرها، وإذا زالت اختل المعنى أو انهار، فالتشبيه (يأتي ضرورة في الجملة يتطلبه المعنى، ليصبح واضحاً قوياً، وتأمل قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٨)، تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه، إنما نقلها إليك التشبيه في صورة قوية مؤثرة. كما تدرك شدة الفزع والرهبة التي ألمّت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، تدرك ذلك من قوله سبحانه: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٦). إنه سوق إلى الموت ينظرون إلى وسائله بعد أن ماتت قلوبهم وعقولهم عن تقبل الحق الذي يجادلون فيه.

● قيود وصفات في الصورة: تزيدها وضوحاً إذ تحدد أبعادها وتدقق صفاتها، خذ لذلك مثلاً:

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾ (المدثر: ٤٩ - ٥١) فربما بدا أنه يكفي في تصوير

إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير، ولكنه في دقته لا يكتفي بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجري خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها، أوَلا ترى في صورة هذه الحمر، وهي تجد في هربها، لا تلوي على شيء، تبغي الفرار من أسد يجري وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم، معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة، لا يلوون على شيء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية؟.

ومن ذلك وصفه الخشب بأنها مسندة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤) فهي ليست خشباً قائمة في أشجارها لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع، وليست موضوعة في جدار، لأنها حينئذ تؤدي عملاً، وتشعر بمدى فائدتها، وليست متخذاً منها أبواب ونوافذ، لما فيها من الحسن والزخرف والجمال، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال، وتوحي بالغفلة والاستسلام والبلاهة.

● انتقاء اللفظة الموحية المعبرة: فمن خصائص التشبيه القرآني المقدرة الفائقة في اختيار **ألفاظه الدقيقة** المصورة الموحية، تجد ذلك في كل تشبيه قرآني، وحسبي أن أشير هنا إلى بعض أمثلة لهذا الاختيار.

نجد القرآن قد شبّه بالجبال في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢)، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الشورى: ٣٢) ولكنك تراه قد آثر كلمة الجبال عند الموج، لما أنها توحي بالضخامة والجلال معاً.

أما عند وصف السفن فقد آثر كلمة الأعلام، جمع علم بمعنى جبل،

وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة، ولما كان من معاني العلم الراية التي تستخدم للزينة والتجميل، كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء.

وشبّه القرآن الموج في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢)، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان: ٣٢). وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً، تستطيع كلمة الجبال أن توحي به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة، وينسونه لدى الرخاء، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرءوس، هنالك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس، وتبلغ القلوب الحناجر، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق.

٢" ـ القدرة على التأثير والفعالية:

وهي ما تهدف إليه الصورة القرآنية في تأثيرها على الوجدان والعواطف باعتبار أنها نابعة من جمال الصورة ودقتها وإيحاءاتها وملاءمتها لمقتضى الحال، وكذلك من بيانها الرائع الذي لا تملك النفس تجاهه سوى الإعجاب والانبهار وتتمم أثرها الجمالي فتتغلغل في مسارب الفكر والوجدان وتضفي عليهما لذة فنية رائعة.

فليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن، ولكنه الحس والنفس معاً، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى.

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمي أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس، تجد ذلك في قوله سبحانه يصف سفينة نوح: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢) ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصور في الوقت نفسه، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج، من رهبة وجلال معاً، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال. وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة: ٥) فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال، وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩) فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل، لا يزال يتنقل في منازله، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً ـ يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً محدودباً لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأمره، أَوَلا ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم، ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً. وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٣، ٣٤)، فالقصر وهو الشجر الضخم، والجمالة الصفر توحي إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً، وصور لنفسك شرراً في مثل هذا الحجم من الضخامة يطير.

ويرمي أحياناً إلى اشتراك الطرفين في صفة محسوسة، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذي له تلك الصفة، وحسبي أن أورد هنا آيات ثلاثة تتبين فيها هذا الذي أشرنا إليه. فالقرآن قد شبّه نساء الجنة،

فقال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمٰن: ٥٦ - ٥٨) وقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٨، ٤٩) وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣)، فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان، ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، أَوَلا ترى في هذا الكنّ أيضاً صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب.

فالصورة القرآنية نموذج حي فعّال للتأثير على النفس وعموماً فإن قيمتها ليست في كونها مطابقة وجميلة وحسب وإنما في كونها مؤثرة عميقة الأثر، وقد قالوا:

ما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه، لأنه يزيد الحياة حياة، كما تزيد المرآة النور نوراً. . . .

وصفوة القول إن المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً، ووجداناً تعود إليه المحسسات فذلك شعر الطبع الحي والحقيقة الجوهرية[1]. . . .

(١) القرآن والصورة البيانية: ١١، د. عبدالرحمٰن حسين. وانظر: النقد الأدبي

إن القرآن الكريم (يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس)[1].

وهكذا كان أثر القرآن بليغاً في كثير من الجاهليين حين تذوقوا بيانه وتأملوا في آياته فأسلم من أسلم، وظل على عناده من أبى واستكبر.... وما يزال هذا الأثر نابضاً بالحياة قوي الفعالية ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. (ق: ٣٧).

نموذج من التذوق الجمالي للجرجاني:

إن دراسة التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من فنون البلاغة دفع بكثير من أئمة البيان إلى تجاوز الأسلوب الدرسي ليتذوقوا صور الجمل القرآنية، ويدوّنوا انطباعاتهم الانبهارية حولها ويكشفوا عن أسرارها الجمالية.

وفي مقدمة هؤلاء الجرجاني في مناقشة الإعجاز القرآني الذي هو كامن في أسلوب القرآن ونظمه وليس في مفرداته وألفاظه....

يقول[2]: وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٤٤) فتجلى لك الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية؛ والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن

= الحديث: ٤٥٢، د. غنيمي هلال، والأسس الجمالية في النقد العربي: ٢١٢، د. عز الدين إسماعيل، وفن الشعر: ١٠٥، ١١٠، د. مندور.

(١) سيد قطب في: التصوير الفني: ١٤٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٦، ٢٧.

يستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينهما، وحصل من مجموعها.

إن شككت ـ أي في أن لارتباط الكلمات في الآية الكريمة من فضل في هذه المزايا التي تجدها فيها ـ فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟.

قل: «ابلعي» أو اعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة ـ في الآية ـ أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ «يا» دون أي نحو «يا أيتها الأرض»، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال «ابلعي الماء»، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها ـ نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم قيل: «وغيض الماء» فجعل الفعل على صيغة «فُعِل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله: «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو: «استوت على الجودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» في الفاتحة.

ثم يقول: أفترى في شيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب؟.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ (مريم: ٤) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها، وهكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجميلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة؛ ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما

يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كان لأجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة. وذلك أننا نعلم أن «اشتعل» للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ...

يبيّن أن الشرف كان لأنه سلك هذا المسلك، وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ وتسنده إلى الشيب صريحاً، فتقول: «اشتعل شيبُ الرأس» و«اشتعل الشيبُ في الرأس» ثم تنظر، هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان في «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية من هذا الوجه تلك البينونة؟.

قلت: فإن السبب أن تفيد ـ مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو الأصل ـ الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، ووِزان ذلك أن تقول: اشتعل البيت ناراً، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفه ووسطه، وتقول: اشتعلت النار في البيت، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانباً منه...[1].

تراكيب علمية.. أدبية:

فمن المعهود أن للعلم أسلوباً وللأدب أسلوباً آخر، ولكل منهما خصائصه البيانية ومصطلحاته الفنية ورجاله الدارسين.

---

(١) الدلائل السابق: ٧٤ ـ ٧٦.

وقلما يجتمعان في أسلوب واحد أو تطغى خصائص العلمية على الأدبية مع وضوحها، وبالعكس، وإذا وجدا عند شخص فإن هذا يعد من مناقبه البيانية والعلمية معاً.

وأحرص ما يحرص عليه العلم أن يقدم بالبيان الواضح والعبارة المفهمة والتركيب المشرق، فهذا يخفف من جدية العلم، ويلون آفاقه بألوان جذابة تشد إليه الخاصة والعامة.

وأحرص ما يحرص عليه الأدب أن يتجنب التهويمات الحالمة والمبالغات فوق الخيال، حتى لا يصبح مضاداً للعلم ولخصائصه المعرفية والأسلوبية، ومن ثم يلتزم بالمعارف الهامة التي تغنيه وتعليه.

والمشكلة الأسلوبية القائمة بين الأدب والعلم ينبغي أن تخف حدّتها وتتضاءل الفروق فيما بينهما حتى نصل إلى إبراز المعاني و (الأغراض) الأدبية بأسلوب علمي أو شبه علمي، وأن نحقق إيضاح العلوم بالأسلوب الأدبي الشائق.

والقرآن بيان رائع لجميع القضايا الفكرية والعلمية والتشريعية والخلقية التي عرض لها، فقد أكسبته هذه غنى في المضمون كما أكسبها رونقاً وبهاءً في الأسلوب والتعبير، تستوي في ذلك الحقائق العلمية النظرية والتطبيقية.

● **فالحقائق الكونية القرآنية**: عرضت في أروع بيان وأسلوب، وكان لها تأثير كبير في دفع علماء المسلمين إلى التعرف على أسرارها مثل ما بلغ تأثيرها العظيم في (شعبية) المعارف العلمية بين عامة المسلمين، وتعرفوا من ورائها إلى الحكمة والقدرة والعلم والوحدانية في المعطيات القرآنية المتنوعة.

والإعجاز العلمي القرآني تتنامى معارفه وتتسع آفاقه يوماً بعد يوم، وقد قدمت دعوات، وكتبت مؤلفات كثيرة في ذلك لا يخلو بعضها من تأويل بعيد

عن اللفظة العربية وضعاً واستعمالاً مثل بعدها عن واقع العرب وبيئتهم ومعارفهم. . . .

ولكن القرآن يبقى دائماً بخلود مضامينه ومصداقية حقائقه لا يقتصر على الجيل الأول والبيئة المحددة وقد تأثر بروحه العلمية المسلمون فكانوا رواد العالم في الحضارة والتقدم العلمي.

فالآيات التي تتحدث عن أدق التكوين الإنساني وأهمها، وضرورة الماء لكل حي، وسنة الزوجية، وأسرار الخلية وحفظ الحياة والأحياء من الغزو الكوني، وحركة الأفلاك والنجوم والشموس، وخواص الطبيعة من الرياح والأمطار والبحار، والإعجاز في البنان، وغير ذلك، من الحقائق التي تقيم (مكونات) العلمية القرآنية في أجمل الأساليب والبيان من ناحية وتعلن إبطال (الصدفة) في تدبير الكون ونظامه من ناحية أخرى.

ومزيتها العظمى هي ارتباطها (بقيم الإيمان) ضمناً وصراحةً كما سيأتي الحديث عليه. . . . ونسوق هنا الأمثلة التالية:

١ ـ في تكوين السحب والرياح والأمطار:

إن ماء المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات يتبخر بفعل الطاقة الشمسية ويصبح غازاً مثل الهواء وتحمل الرياح هذا الغاز الساخن وتصعد به إلى الطبقات الجوية العليا. . . . وحين يلتقي بأجسام باردة من جبال مرتفعة ورياح باردة يعود إلى ميوعته ويهطل بشكل قطرات مختلفة الحجم والمقدار بعد أن يمر بمراحل التكوين الخاص. . . . وربما حملت الرياح السحب الممطرة والتقت بسحاب أو سحب أخرى فتراكمت فيما بينها ونشأ البرق والرعد فإذا اشتدت البرودة الجوية تضخمت القطرات في شكل ثلوج وبرد. . . .

يقول الله تعالى في هذه الظاهرة العلمية الطبيعية المتكررة ﴿أَلَمْ تَرَ

أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (النور: ٤٣). فالمطر سر من أسرار الله في الطبيعة ينزل بالقوانين الإلهية التي أودعها في الجو والسحب، فهناك سحب لا يسقط منها مطر ولو نشأ الرعد فيها، وهناك سحب صغيرة تنشأ عنها أمطار غزيرة بدون برق ورعد....

يقول هنري ديسانس الأستاذ بكلية العلوم بفرنسا في كتابه: «التحكم في المناخ»: وبدون سحاب فإن الحياة على الأرض ليست ممكنة أبداً، فإن السحب هي التي توزع الماء العذب على القارات، ويغذي المطر والثلج والبرد كلاً من العيون والوديان والأنهار والمياه الجوفية، ويتواصل نزول المطر من السحاب على الأرض منذ مليارات السنين، ولكن علم الإنسان بأجمعه غير قادر على أن يوضح سر هذا المطر[1].

٢ ـ الشمس والمعجزة القرآنية:

لم يتكرر نجم في القرآن مثل ما تكرر نجما الشمس والقمر، وكانت الشمس أكثر منه وروداً، فقد ذكرت في القرآن (٣٢) مرة بينما ورد القمر (٢٦) مرة مقترناً مع آية الشمس العظيمة.

ويضاف لما سبق شيئان: الأول: تعيين سورة خاصة باسم الشمس، والثاني: قسم الله بهما مجتمعين ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا...﴾ (الشمس: ١ - ٢)، والقمر منفرداً ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٨، ١٩).

---

(١) الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي: ١٢٣. وانظر مصدره في الحاشية.

ولكننا سنخصص طرفاً من الكلام عن الشمس ضمن ورودها في القرآن في جماليات علمية وأدبية. مع شيء من الموازنة وموقعها في علم الفلك... فماذا يقول علم الفلك؟ وما الفرق بين أسلوب المعلومات التي يقدمها وأسلوب المعلومات القرآنية؟.

فلغة العلم تقول: الشمس كتلة من الغازات الملتهبة في مركز المجموعة الشمسية، وتعتبر نجماً متوسط الحجم، ولكن قرصها يبدو كبيراً لقربها من الأرض، وقوة جاذبيتها تحفظ الكواكب والمذنبات وغيرها في مسارات محددة، وضوؤها مصدر الحياة والطاقة المختزنة في الأطعمة والفحم وهي تبعد في المتوسط حوالي ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل عن الأرض، ويبلغ قطرها ٨٦٥,٤٠٠ ميل تقريباً، وحجمها ١,٣٠٠,٠٠٠ ضعف حجم الأرض وكتلتها ٢٣٢,٠٠٠ كتلة الأرض، أو ٧٠٠ مرة ضعف كتلة باقي أفراد المجموعة الشمسية، والجاذبية على سطحها ٢٨ ضعف جاذبية الأرض وكثافتها ١/٤ كثافة الأرض.... وقد أثبتت دراسة خطوط الطيف وجود ثلثي العناصر الأرضية فيها، أما مصدر الطاقة الشمسية فلم يصل العلماء إلى حقيقة واحدة منها....

والشمس نجم مضيء بذاته لأنه كرة ضخمة جداً من الغازات المتوهجة التي من أهم مكوّناتها:

- الهيدروجين ٩٠٪.
- الهيليوم ٨٪.
- غازات أخرى.

ووجد أن أشعة الشمس تنحل إلى سبعة ألوان وهي ألوان الطيف أو ألوان قوس قزح، وما يصل إلينا من أشعتها هو ١/٢٠٠٠ مليون من جملة ما تشعه، وهي نجم متزن يعطي كمية ثابتة من الطاقة.... وتدور حول محورها من الشرق إلى الغرب، ولكن بسبب طبيعتها الغازية تختلف مدة الدوران من

٢٥ يوماً عند خط الإستواء إلى ٣٥ يوماً عند القطبين، والسطح المضيء منها يسمى المنطقة الضوئية، أما عند الكسوف الكلي فتظهر الطبقة الصبغية يحيط بها الإكليل الشمسي. . .[1].

أما لغة القرآن فهي البيان العلوي الذي يجمع بين الحقائق العلمية (المناسبة) والجلال الإلهي في الخلق والتقدير والتسخير. . . .

ويربط الشمس والنجوم جميعها بالقدرة الربانية وإحكام الصنع والحكمة الإلهية والخلق العظيم. . . .

مثلًا: لنأخذ هذه الآيات التي تفهم أن الله جعل الشمس نجماً مضيئاً بذاته أي سراجاً وهاجاً ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا. . . .﴾ (النبأ: ١٢، ١٣)، فأعظم وأبرز صفة لها أنها كتلة وهّاجة مضيئة مسؤولة عن التمثل الضوئي للنبات وقيام الحياة على الأرض، ومصدر غني للطاقة بذاتها، وبأنواع الطاقة التي نستخرجها من الفحم والنفط. . . فهي مصدر الضوء والطاقة وهي حقيقة علمية كونية كبرى. فالقرآن لم يصرح بها ولكنه يربطها بالخالق الذي ينبغي السجود له وحده ولا يمكن أن ترقى بحال إلى أن يسجد لها وتتخذ معبوداً بعد أن كانت من المخلوقين العابدين ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصّلت: ٣٧).

ومع ذلك فالقرآن قدر أهمية الشمس ومنزلتها كجرم هائل ومخلوق نافع فسخّره للإنسان وأقسم به في سورة سماها باسمها ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا. . . .﴾ (الشمس: ١، ٢) قسم عظيم كبير والمقسم أعظم

(١) انظر: الموسوعة العربية الميسرة.

وأكبر. . . . أما المقسم عليه فهو الغاية العظمى من خلقها وتسخيرها، إنه قسم على أن الفائز من زكى نفسه وطهرها، وأعلاها بالتقوى والأعمال الصالحة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا. . . .﴾ (الشمس: ٩).

أي جمال هذا أن يربط القرآن بين حقائق العلم الكوني وانبهاره ويعرض ذلك كله بالبيان القرآني المعجز في جلالية اللفظية والتركيب. ومثلها وظيفة أو سمة قرآنية أخرى للشمس هي ثبات طاقتها واستقرار إشعاعها كما تقدم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ (إبراهيم: ٣٣) وهذا التركيب الموجز يمكن أن يغني بحثاً فلكياً عامراً بالأرقام والمعادلات الرياضية، إلى جانب فكرة التسخير للمصالح البشرية للذين ينتفعون بآثارها وفق السنن الكونية النظامية.

ومن هذه السنن جريانها ودورانها في نظام ثابت وجاذبية مقدرة لا تتخلف، وإن تخلفت حدثت زلازل وبراكين وهزات كونية هائلة لا يعلم عاقبتها إلّا الله ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠). وإذا فصلنا هذه الآية إلى تراكيبها فإن كل واحد منها يشكل قانوناً كونياً يدل على العظمة الربانية والجلال الإلٰهي.

ومثلها وظيفة الحساب الشمسي، فقد نوّه الله به بقوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦) وقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمٰن: ٥) فالشمس بحجمها وحركتها وبعدها عن الأرض وعن مجموعتها محسوبة المقادير كامل الدقة بالنسبة إلى الأجرام السماوية وآثارها في الأرض، فلو أنها كانت أقرب إلينا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً، ولو كانت أبعد منا لتجمدت أو لمات كل ما على الأرض من حياة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

ثم إنها محل حساب تتعلق به مصالح العباد فقد عرفت منها الأشهر الشمسية أو ما يسمى بالتقويم الشمسي الذي يقدر السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية ثم اصطلح ما يسمى بالسنة الكبيسة ومقدارها ٣٦٦ يوماً كل ثلاث سنوات. . . .

وآية الظلال والخلق. . . .

ومثلها آيات الخلق المبدع والدلائل على وجود الخالق. . . .

إن المسائل العلمية عموماً تجلت في البيان القرآني، بروعة القدرة وحكمة الصنع وأمارة الخلق، وآية النظام ودقة العلم، وإذا تابع الإنسان تأملاته الفكرية ومعارفه العلمية فإنه يزداد إيماناً ويقيناً بالأسرار الكونية والدقائق الخلقية.

والقرآن عرض ذلك كله في إيجاز جامع وبيان فذّ منبهاً العقل والوجدان إلى آيات الجلال والجمال.

● تشريع القرآن:

وللقرآن بيانه الخاص في تناول المسائل التشريعية المتنوعة: كالأحوال الشخصية والمعاملات والجهاد، والتشريع الجنائي فلا يماثل الدساتير أو القوانين في لغتها المعقدة الجافة ولا في تبويبها وتصنيفها المعتاد، ولا في تقنينها المسائل والقضايا المختلفة، وسأقتصر على نوعين منه:

أولا: تشريع المعاملات:

وهو ركن أساسي في بيان الحلال والحرام في التعامل المختلف بين الناس وفي مقدمته الجانب المالي الاقتصادي الذي أخذ أهمية خاصة فيها، ودلّ بذلك على أن للإسلام منهجه المالي والاقتصادي المتميز من ضمن المناهج الذي نظم بها الحياة الدنيا والآخرة. . . وسأكتفي بذكر ثلاث مسائل في المعاملات مترابطة فيما بينها قرآناً وسنة وفقهاً هي: البيع، والربا،

والدِّين. وذلك من خلال الآيات التشريعية التي تربط هذه المسائل بالمؤثرات النفسية والخلقية، والزاجرات الواعظة والمرغبات الحاثة في بيان قرآني لم يعرف له مثيل في التصنيف الفقهي أو القانوني العام.

١" ـ **البيع**: وعرّفه ابن قدامة بأنه مبادلة المال بالمال تمليكاً وتملكاً، وأجمع المسلمون على جوازه، والحكمة تقتضيه، لأن حاجة الإنسان تتعلق بما في يد صاحبه، وصاحبه لا يبذله بغير عوض، ففي شرع البيع وتجويزه شرع طريق إلى وصول كل واحد منهما إلى غرضه، ودفع حاجته[1].

والقرآن يصوّر اعتراض المشركين على مشروعية البيع، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ...﴾ (البقرة: ٢٧٥) وقد كان الربا فاشياً فيهم متحكماً بأموالهم، فأبطل الله اعتراضهم وبيّن أن البيع تشريع الله الحلال ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، وعدَّ الربا من المواعظ الزاجرة التي ينبغي الانتهاء عما سلف منه: فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فالبيع الحلال الذي دعا إليه القرآن ضمن تحريم الربا هو فضل من الله في آية ثانية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨) وفي مقدمة البيوع الإسلامية: التجارات المشروعة التي تساهم بشكل فعّال في النمو الاقتصادي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

إن تشريع البيع والتجارة وارد هنا ضمن استثناء منقطع لأكل الأموال بالباطل،

(١) المغني: ٣/٥٦٠.

فلبيان أن التعامل الاقتصادي النافع لا يمكن أن يعد مثل الغصب والسرقة والربا والقمار والظلم.... وغيرها من التعامل بالباطل.

إنه تعامل اقتصادي يكتسي بصفة التعاون بين الفرقاء، ولا بد من أن ينظم وفق تشريع يجمع بين الخُلقية والتشريعية النظامية حتى تلتحم حكمة الحاجة مع (العنصر الأخلاقي) الذي ينبغي أن يلتزم به المسلمون، ولذا فقد زجر القرآن العدوان والظلم عقب التجارة بقوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ٣٠).

أضف إلى هذا التنويه برحلات قريش التجارية إلى الشام واليمن في الشتاء والصيف، والتعقيب على ذلك بطلب التوحيد منهم لرب البيت العتيق ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.

ومثل هذا التشريع وإن كان لا يتطلب مزيداً من المرغبات النفسية والخلقية بسبب حاجة الناس إليه فإن الانحراف عن أخلاقياته من المنهيات التي حذر الله منها في العديد من آياته مثل الربا الذي نتحدث عنه.

٢" ـ **الربا**: وهو (الزيادة في أشياء مخصوصة)[1] من أشد التعامل المحرم في الإسلام بالكتاب والسنة والإجماع، والربا أصبح أساساً بل ومنهجاً في الاقتصاد العالمي الرأسمالي والشيوعي، كما كان تعاملاً واسعاً في الجاهلية، واليهود أكثر الناس وأحرصهم عليه منذ قديم الزمان.

وقد شدّد القرآن في تحريمه[2] لما فيه من استغلال الحاجات والإثراء الفاحش والتحكم في الاقتصاد بطرق غير مشروعة، وكانت آيات القرآن وما زالت أرهب النصوص المقدسة والوضعية وأكثرها إفزاعاً للمرابين، بينما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الآيات من سورة البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٨١.

رغبت آياته بالإنفاق والصدقة وإرجاء المعسر والتخفيف عنه والحث على العمل الشريف تحقيقاً للتكافل الاجتماعي في صوره المادية والنفسية.

فمن التراكيب الزاجرة صورة المرابي المتخبط من المس ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ففيها تشنيع على آكلي الربا بعرضه المنفِّر لما يرافقه من قبح وشناعة نفسيته، وفساد وإهْدار، القيم الروحية المطمئنة.

إنهم لا يقومون ولا يتحركون إلا مثل الممسوسين القلقين الذين يتخبطون في حياتهم ويضطربون في تصرفاتهم مهما أثروا بالأموال وازدادوا بها أكلاً وتصرفاً.

وإن سيطرة التعامل الربوي في أي زمن تشيع مثل هذا التخبط والاضطراب والتخوف، وكثيراً ما أنتجت الأمراض العصبية والخلقية التي تنتهي بصاحبها إلى مس من الجنون وحرص لاهث على ضياع القيم الروحية والخلقية بسبب التكالب على الفوائد المحرمة.

والصورة البيانية القرآنية المرعبة للمرابي متطابقة مع الحقيقة النفسية والواقعة للإنسان الذي يتعامل بالربا، فيحقق مزيداً من الاستغلال الرأسمالي على حساب الجهود البشرية المكثفة، والتمويل الجانح الأناني.

ولا يمكن أن يخفف من بلاء الربا ونتائجه الاقتصادية والروحية والنفسية ما كان يقوله المرابون قديماً وحديثاً ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ إذ شتان بين عائدات البيع المشروع وعملياته التجارية التي تقتضي مهارة وجهداً شخصياً تجري في أمور طبيعية تحقق المنافع للفرد والمجتمع، وبين الربا الذي لا يخطو أية خطوة إلا بضمان الربح الحرام والتحكم في النظام الاقتصادي لمصلحة فرد أو جماعة محددة مهما أفسدت أو ضيعت.

ويزيد هنا تشنيع القرآن على المرابي تعبيره (بالأكل)، وكما ورد ذلك

في كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة. فالتعامل به لا يخص الناحية الماليه وحدها وإنما تسري مفاسده إلى النفس البشرية كما يسري الأكل إليها فيحطمها تحطيماً.

وكذلك قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تتمم الزجر القارع والتهديد الشديد، ولكنها تفتح باب التوبة والإقلاع بشروط ومواصفات فمن اتعظ بذلك فله رأس ماله وما سلف من تعامله الربوي، ولكن من عاد فإن انتقام الله لاحق به فهو من أصحاب النار خالداً فيها.

وهو تهديد أوّلي يحرك مشاعر التخوف ويعمقه في القلوب لكي ترتدع وتنزجر.

ويبلغ القرآن ذروتي التهديد في بُعد يحرص عليه المرابي أكثر من أي بُعد آخر، وهو النماء الفاحش للأموال الربوية والتكثير المحرم فهو عند الله مال غير مبارك لأنه يذهب ببركته وقد يتلفه كله ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

وهو تعبير مؤثر في جانبيه السلبي بالمحق والإيجابي بزيادة الخير والبركة في الصدقات. . . . ولكن جو المحق والأثرة السائد يقتضي أن يعقب القرآن بكراهية الله للذين يحلون الربا وكفرهم وتأثيمهم، فالاعتبار العمليّ هو المعول عليه في مثل هذا التعامل الآثم.

والذروة الأخرى في الحرب المعلنة من الله ورسوله وقد أعلنه رسول الله ﷺ على آل المغيرة في مكة المكرمة إذا لم يذروا الربا والتعامل فيه. ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

إنها حرب رهيبة مفزعة معروفة العاقبة تجاه الإنسان الممسوس المتخبط، حرب تدمر الاقتصاد والنفوس، وتطغى على السعادة والرخاء وتقضي

على الظلم والجشع والطغيان، وكثيراً ما كان يولد الاستعمار العسكري والغزو الفكري. فهل في العربية أو غيرها تعبير زاجر قارع مثل إعلان الحرب الإلٰهية؟ وهل يمكن للطمأنينة والاستقرار أن يشيع في أمة آذنها الله بهذه الحرب المعنوية والمادية؟.

ومن التّراكيب الحاثّة بإيحَاءاتها وظلالها في الربا نفسه: النداء الإلٰهي للمؤمنين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ....﴾ ثم قبول توبة المرابي إن اكتفى برأس ماله وحده من غير أن يَظلم أو يُظلم ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وأخيراً إثارة المشاعر النفسية في تقوى الله والرجوع إليه وإيفائه ما كسب ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وهذه المعاني الثلاثة السمحة في تعبيرها، الموحية بظلال المحبة والرضا المقترنة بعنفوان القدرة والغضب تسمح للناس أن ينطلقوا في تعاملهم من منطلقات الإيمان والتقوى والتوبة والرجوع إلى الله والوفاء بالحساب في العدل الإلٰهي يوم الحساب. إنها تراكيب في غاية الدقة والاتساق اللفظي والمعنوي.

فالمؤمن يردعه إيمانه وتقواه عن الربا وإن فعله حيناً فإن الإيمان والتقوى يدفعانه إلى التوبة والقناعة بماله الحلال وحده.... وليس الأمر قاصراً على دنياه وإنما لا بد من أن يلحظ أو يتأمل آخرته فيتقي يوم رجوعه إليه حيث يتم فيه عرض الكسب والجزاء والعمل والحساب تماماً كما كان يقوم به في دنياه....

وتراكيب أخرى في النص نفسه تعلن مباركة الله للصدقات وإنمائها بصراحة حاثة، وظلال وارفة ندية.

ولفظة (يربي) في موضوع (الربا) تصريح بأن الإكثار والزيادة محققة

مما (يربيه) الله من الصدقات وتدفع المرابي المستغل إلى أن يتشوف إلى (نماء) الله في صدقاته ومحقه سواه..

وفي نصّ آخر: يتخذ القرآن الأسلوب ذاته في المؤثرات النفسية بالترغيب والترهيب.... ونوجز الكلام عليها:

● فهو يصور جشعهم الواقعي في أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وكأنه مرض يتفاقم شره يوماً بعد يوم وكمية بعد كمية... ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢).

وهذا هو التاريخ والواقع ينبئآن بالشر المستطير، فقد عرف أن دولاً إسلامية عجزت عن سداد فوائد ديونها المتراكبة والتي أصبحت أضعافاً مضاعفة من رأس المال ففتحت على نفسها باباً واسعاً للاستعمار العسكري والفكري....

وما تزال دول إسلامية وغير إسلامية تئن من مضاعفة الفوائد والديون وتستجدي الدول المرابية أو الدائنة لجدولة استحقاقاتها أو التخفيف عنها. فقد بلغت تلك الديون في بعضها ١٠٠٠٪ أو تزيد.

وواضح أن تحريم الربا واقع بين الخطاب الإيماني في مقدمته والتعقيب عليه بالمؤثرات النفسية من المرغبات ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والزاجرات ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ ثم الأمر بطاعة الله والرسول والمسارعة إلى مغفرة الله والجنة، وأخيراً الحض على الإنفاق في السراء والضراء...

● وإثارة مسألة الربا وتحريمه سبقت العهد المدني فقد نبَّهت الآيات المكية إلى الزجر عنه ولكن بيان القرآن وضعه ضمن مسألتي (التكافل

الاجتماعي) والإيمان بأنَّ (الرازق) هو الله بسطاً وقلة ومنعاً، يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم: ٣٧ - ٣٩).

فإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حق لهم وليس منّة وتفضلاً سواء كان بطريق الزكاة أو بطريق الإنفاق الواجب. وما دام ذلك كذلك كان مثل هذا التكافل الاجتماعي (حقّاً) و (واجباً). ليس لاختيار الإنسان في الالتزام به دخل سوى ما يؤكده الله على مضاعفة الأجر وارتقاء الحياة المعاشية والأخلاقية بين المسلمين.

والمال الذي ينمو عند الناس بالتعامل المادي ومنه الربا لا يزيد عند الله وإن كان مظهره المادي في زيادة مطردة، أما المال الذي يزكى به فهو المضعف عند الله ما دام يريد به صاحبه وجهه ورضاه.

إن القرآن يطرح للناس (قيمة) مالية جديدة لم يعرفوها سابقاً ولا لاحقاً فنمو المال وقلّته ليس نتيجة للتعامل الاقتصادي المتقدم وحده وإنما هو نتيجة لتوزيعه في فئات اجتماعية محتاجة إليه حتى يزكو عند الله مثل ما زكا عند الناس وأفادوا منه.

أما التراكيب الموحية بالجمال: المعنوي واللفظي، فالآيات غنية بها، ولو أننا قرأنا النص مقطّعاً لأدركنا ذلك، وأشير إلى أبرزها: يريدون وجه الله - أولئك هم المفلحون - فلا يربو عند الله - فأولئك هم المضعفون. . .

● والأقدم من ذلك ما بينته الآيات من صفات اليهود الربوية، فللربا تاريخ عريق في التعامل اليهودي قبل البعثة وأثناءها واليهود يتوهمون أنهم غير مذنبين بالمراباة مع العرب وغيرهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ

سَبِيلٌ . . . ﴾ . (آل عمران: ٧٥).

وواضح هنا إبراز صفة الأمية بالعرب لا لأن غالبيتهم أميون وحسب، وإنما لتمرير التحايل أو التلاعب اليهودي في كتابة الدين مقداراً وأجلاً وصفة مع العرب الأميين.

ولا ريب أن الجشع والحرص على الإثراء المحرم دافع كبير على التعامل بالربا الذي اشتهروا به عبر الأجيال مستغلين الأزمات الاقتصادية العالمية، والضرورات الفردية.

وهذه الصفة السرطانية النامية تحدث القرآن عنها ضمن صفاتهم القديمة الحديثة ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠، ١٦١).

● إن الآية تصرح بتحريم الربا في الشريعة اليهودية كتحريم الظلم والصد عن سبيل الله وأكلهم أموال الناس بالباطل. . .

فالله يعلن أنهم قد نهوا عن الربا ولكنهم يأخذونه، ويفضلون أخذه من غيرهم وبخاصة من العرب الأميين. . .

وتحرير الاقتصاد من الربا عموماً والربا اليهودي خصوصاً يؤذن بقيام مجتمع إسلامي راشد في حياته المادية والمعنوية، فاليهود وجميع المتعاملين بالربا موصوفون بالكفر وقد أعد الله للكافرين عذاباً أليماً.

مما سبق نستنتج أن تشريع الربا اكتسى بالأخلاقية الرادعة التي يقصد منه تقنين فقهي بقدر ما قصد منه تربية الفرد والمجتمع على نظام خلو منه متحرر من أثقاله ومشكلاته.

٣" ـ **المداينة**: وآيتها أطول الآيات وأكثرها تفصيلاً وإيضاحاً[١]، وفيها مسائل عن التجارة والبيع والرهن والإشهاد والكتابة. . . .

والدَّين ضرورة اقتصادية ومالية قد ينشأ عنه مشكلات سياسية واجتماعية وفكرية، وهو قضية العالم الكبرى اليوم كما كانت قضيته الحساسة في العالم القديم.

وغالباً ما يقع بين غني وفقير أو أقل غنى وفقراً، وقوي وضعيف أو أقل قوة وضعفاً، ويستغل في كثير من الأحيان لمصالح شخصية وقومية وأطماع مادية وفكرية.

وقد عرضت آية المداينة بطولها قضية الدين وما يلحق به أو يستلزمه، بأسلوب التوجيه والإرشاد، وأمرت المتعاملين بمعاملات مؤجلة كتابته مقداراً وأجلاً ونوعاً، ثم نظمت أمور الدائن والمدين وكتابة الدين والإشهاد عليه، ووثقته بالإجراءات الظاهرة أو بالأمانة، واستثنت التجارة المنجزة في عدم كتابتها ولكن مع الإشهاد عليها.

وكذلك صرحت في الآية الثانية بالرهن المقبوضة ضماناً واستيثاقاً إلا في حالات الأمن بين المتداينين. . .

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله[٢].

والتأمل في هذه الآية يلهم أموراً كثيرة. منها:

١ ـ التصريح بالحكمة في كتابة الدين والإشهاد عليه مهما كان مقداره ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ . . .﴾ ﴿أَن تَضِلَّ

(١) هي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، والآية بعدها أيضاً.

(٢) الحديث في تفسير ابن كثير وهو من الصحاح.

﴿... إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ . . .

٢ ـ سياق الآية وسباقها، فقد سبقها آيات الربا المحرم والطلب في إنظار المعسر أو التصدق عليه، وتبعها آيات التكليف الشرعي بما يطاق وهي خاتمة (البقرة) التي ورد في خصوصيتها أحاديث متعددة.

٣ ـ ربط وثيقة الدين بالمؤثرات الإيمانية حتى تحفظ الحقوق في القلوب ولا يدخلها تحايل أو تلاعب. . . .

فالخطاب في أولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ يثير عاطفة الإيمان القوية.

والكاتب يكتب كما علمه الله. . . فالله قد علمه الكتابة بما خلق من قدرات التعلم.

والدائن يملي الحق ويتقي الله ربه. . . . . ويبعث فيه التقوى له بقول الدين كما هو من غير زيادة ولا استغلال.

والجميع يتقون الله، وهو يعلمهم، والله بكل شيء عليم. فلا يتصرفون إلا في إطار التقوى وعلم الله تعالى بكل شيء.

والمدين يؤدي ما عليه من الدين وليتق الله ربه. فيسدد دينه كاملاً من غير أن ينقص منه شيئاً بدافع التقوى، ولا يضار كاتب ولا شهيد فإن المضارة فسوق وخروج عن طاعة الله.

والشاهد يدلي بشهادته ولا يكتمها، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم. فهو يؤدي الشهادة على وجهها ليسلم قلبه من الإثم وينجو من عقوبة الله.

٤ ـ وعقب آية الدين تصريح بأن المال لله، فله ما في السموات والأرض، وإعلان بأن الله يعلم الظاهر والخفي ويحاسب على ذلك. وهو تعقيب ضروري يوجه الدائن والمدين وجميع ما يتعلق بهما إلى إنجاح عملية

الدين وتحريك القوى الاقتصادية على أفضل وجه يحقق الخير والنفع وإيصال الحقوق وانتظام التعامل النظيف.

ثانياً: التشريع الجنائي:

لم يعرف مجتمع من المجتمعات سلم من التعديات الجنائية والمحافظة على الضرورات الإنسانية مثل ما عرف به المجتمع الإسلامي إبان نزول القرآن وبعده.

فلم ترتكب حوادث التعدي على الأرواح والأموال والأعراض بأرقام كبيرة بل كانت نادرة جداً، ومعدومة بالقياس إلى أي مجتمع آخر. كانت مثل هذه التعديات في النهب والغصب والسلب فاشية وعامة، ضمن المجتمع القبلي أو العشائري.

وكانت الآيات القرآنية تقرع أسماع وقلوب الناس وتحذرهم من مغبة الوقوع في الفساد والإفساد، وتبني مجتمعهم على الطهر والسلام والأمان الذي ينبغي أن يستقر في حياتهم وأحوالهم.

وسنقتصر على مسألتين:

١" ـ **تشريع القذف**: وهو رمي المحصنات[1] بالفاحشة من غير دليل شرعي، والقاذف مجرد من الحصانة المدنية غير مقبول الشهاد فاسق... وكفى بذلك زجراً وردعاً. وقد فصّله القرآن بعض الشيء فللزوج اللعان ثم التفريق ولغيره الجلد ثمانون جلدة ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٤، ٥).

---

(١) أجمع المسلمون على أن المحصنات والمحصنين سواء، وكذلك الإجماع في المراد من (الرمي). وانظر تفصيل الحكم في كتب الفقه.

وقد لعنوا في آية أخرى في الدنيا والآخرة وتشهد عليهم أعضاؤهم ويوفيهم حسابهم يوم الحساب والجزاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٣ ـ ٢٥).

ولا بد من أن نلحظ أن (القذف) كغيره من مسائل التشريع وقع في المجتمع المسلم، وهي أمور عملية معاينة حية نزل حكمها إبان أو عقب حدوثها.

فقد جاءت مسألة القذف مقدمة لقصة الإفك وخاتمة لها، فالآيات الأولى قدمت للقصة الشائنة، والآية الأخيرة ختمت أحداثها بالزواجر البيانية والعقوبات المعنوية.

وقد تجمع في الآية الأخيرة من المؤثرات النفسية ما لم يتجمع في سائر الآيات. وهل هناك أخوف من اللعن الأبدي والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة؟ إن القاذف تشهد عليه نفسه وتتهمه أعضاؤه فهل يمكن أن ينكر شهادتها أو ينكر البدن أعضاءه؟.

إنه مشهد مؤثر أخّاذ، فريد في رهبته وبشاعته.

ومن الأسرار البيانية أن تركيب (يرمون المحصنات) في الآيات لم يصرح بـ (الزنا) ولا بغيره، وإن أجمع العلماء على أنه المراد. . . .

وأن (الرمي) حركة مادية شديدة في الأصل (ومن المجاز ـ قولنا ـ: رماه بالفاحشة)[1]، (وفي التعبير عن التفوه بما قالوا في حقهن بالرمي المنبىء عن

---

(١) أساس البلاغة.

صلابة الآلة، وإيلام المرمي، وبعده عن الرامي، إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب. . .)[1].

ولفظة (المحصنات) تدل على نزاهتهن بالوضع اللغوي فهن العفائف عما رمين به. ووصفهن (بالغافلات) في الآية الأخيرة، (بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها أصلاً ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات، أي السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء - وكذلك - المؤمنات: المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات، والمحظورات وغيرها، إيماناً حقيقياً تفصيلياً. . .)[2].

● ٢" ـ **في قتل الأولاد**: إن للدماء حرمة عظيمة في الإسلام لا تعدلها حرمة أخرى، والعمل على حياتها إحياء للناس جميعاً فما بالنا بحياة فلذات الأكباد من بنين وبنات؟.

وعمدت بعض القبائل على وأد بناتها وقتل أبنائها خشية العار والفقر أو بسبب العار والفقر. . وهو انحراف بالفطر الأبوية لا يمكن أن يكون عند جميع القبائل والآباء.

١ ـ التزيين الشيطاني: فقد زيّنت الشياطين لكثير من المشركين قتل أولادهم فأمرتهم أن يهلكوهم وأن يخلطوا عليهم دينهم ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٧).

وبعد ثلاث آيات يعلن القرآن خسران قتَلَة الأولاد سفهاً فإنهم ضلوا ولم يهتدوا ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ

---

(١)، (٢) أبو السعود في تفسيره.

ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠).

٢ ـ القتل من إملاق: إن ضيق ذات اليد دفعَ بعضهم إلى قتل ولده، فلم يجد ما يأكله فكيف يطعم ولده ما دامت (قيمة) التضحية معدومة عنده؟ إنه لا يؤمن أن وفرة الرزق وقلَّته من الله فلا يقلله معيشة ولد ولا يكثره فقدانه. فالله يرزق الوالد والولد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

٣ ـ القتل خشية الإملاق: إنهم الآن ليسوا فقراء وإنما يخشون الفقر أو أن يكون الولد سبباً فيه، وفي هذه الحالة إن قتله جريمة كبيرة تتضاعف بشاعتها ويعظم قبحها، ذلك لأن الله تكفل برزقهم قبل رزق آبائهم، فكيف يعمدون إلى قتلهم ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١).

٤ ـ القتل بالوأد: وهو المقصود بالقتل السابق في تصوير نفسي حاقد يحتقر حياته وما بشِّر به من ولادة الأنثى، ويحيِّره ضعفها هل هو موقف الإبقاء على حياة الهون أم إهلاكها وهي حية تتنسم الحياة، وكلاهما موقف مزر بإنسانية النفس وانحراف العاطفة الأبوية. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩)(١).

إن هاتين الآيتين تظهران الحالة النفسية المرهقة الغضوبة المغتمّة الحزينة، وحركة الاختفاء من القوم من سوء ما بشر به، والحيرة فيما يصير إليه ولده وصفت أدق وأعمق تعبير ووصف، ورسمت بسياقهما صورة منكرة لعادات الجاهلية وسوء حكمها في ألفاظ موحية بظلالها قوية بدلالاتها.

---

(١) وقريب منها آية الزخرف: ١٧.

سمات في لغة التشريع القرآني:

أشرت إلى شيء من صفات الطلاوة والدقة التي تميّزت بها اللغة التشريعية في القرآن وأهمية ذلك في القدرة على البيان التشريعي في التغيير الاجتماعي والسلوكي العام. ومن خلال الآيات والتراكيب القرآنية التي قدمتها كنماذج للبيان القرآني المتميز يمكن القول: إن التشريع القرآني المستقل لم يزد على (٥٠٠) آية، أما الأحكام التي يمكن استنتاجها من القصص القرآني ومن التشريع السماوي للديانات السماوية السابقة فيه، فهي تشمل معظم الآيات القرآنية، وذلك بمقتضى القواعد الأصولية التي منها: تشريع من قبلنا هل هو تشريع لنا...؟.

وعلى هذا فإن التشريع القرآني يؤخذ به من أغراض قرآنية متعددة: من المشهد الدنيوي، والحوار الأخروي وقصص الأنبياء وغيرهم من الرجال الصالحين وأقوامهم، وأخيراً من سيرة الرسول ﷺ في القرآن، وبخاصة ذلك التشريع العالمي الذي ينبه إلى العلاقات الخارجية بالدولة الإسلامية، وتنظيم المعاهدات وإبرام الاتفاقات الدولية....

وهذه وغيرها كانت مصادر ثرة للفقه الإسلامي استنتج المفسرون والفقهاء منها مسائل عملية وعقدية وعبادية كما استنتج علماء الأصول من مجموعها الأدلة التشريعية الفرعية.

ولذا فإن لغة التشريع تتصف بالصفات التالية:

١ ــ إن التركيب اللغوي يأخذ أحياناً أسلوب القصة أو الحوار أو المشهد وما يستلزمه من خصائص أسلوبية في اختيار الصور الفنية التي تتسق مع الغرض الهام للنص.

٢ ــ وضوح البيان ودقته والوصول إلى المعاني من أقرب الألفاظ المنتقاة، والتراكيب الموجزة أو المفصلة حسب المسائل المعالجة.

٣ ــ يغلب على لغة التشريع المستقل طول الآية عن نظائرها، وهدوء جرسها وإيقاعها ونفسها المديد الذي يزيد البيان القرآني وضوحاً وجلاءً.

٤ ــ وخلوّه من الصور الفنية وألوان البديع والتزيين اللفظي عموماً ما عدا التراكيب التي هي جزء من مشهد أو حوار أو قصة كما سبق، وبالمقابل غناه بالمؤثرات النفسية بالترغيب والترهيب وبخاصة في مقدمة الآية وخاتمتها.

٥ ــ الجمع بين اللغة الشخصية، أو الكلام عن إنسان أو فئة معينة، وبين دلالة التعميم المعنوية التي تستفاد من النماذج البشرية المطروحة. مثلاً: خطابات الله للرسول ﷺ وذكر اسم زيد، وأسماء الحوادث والأمكنة والأشخاص....

٦ ــ اختيار الألفاظ والتراكيب الملهمة بالحياة والقادرة على التأثير مهما كانت صلتها بالتاريخ المغْرق أو المعاصر للتنزيل. والواقعة موقعها المتعين الذي يصعب الاستبدال بها لفظة أو تركيباً آخر.

٧ ــ الابتعاد عن الألفاظ والتراكيب المبتذلة والمعقدة أو المتكلفة والموهمة والمصنفة تصنيفاً قانونياً وانتقاء أدقها معنى، وأوضحها بياناً، وأصفاها لفظاً وتعبيراً، وأحكمها تلاؤماً وانسجاماً.

٨ ــ تحملها ظلالاً من الصراع التشريعي والعقدي، والمعاناة الطويلة في قيام المجتمع المسلم الذي عزف عن أعراف الجاهلية والتمس حياته من مناهل التشريع القرآني في لغته المتميّزة.

يقول (الظلال) في مقدمة تفسير آية المداينة:....وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب، أمامَ التعبير التشريعي في القرآن ـ حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل، عميق الإيحاء، قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية، وحيث كل المؤثرات

المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب، فينفي هذه المؤثرات كلها، ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها.... ثم يقول: إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد....

ولكن فنية النظم والتركيب لا بد أن تهبط جمالياً لدى الفقهاء والقانونيين حين يستخدمون اللغة والمصطلحات الخاصة بهم. أما القرآن فقد تآلفت تراكيبه التشريعية بياناً رفيعاً ودقة علمية وطلاوة جميلة.

يقول الرافعي(1): ... وعلى أنا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطى الكلام في باب الشرع، وتقرير النظر، وتبيين الأحكام، ونصب الأدلة، وإقامة الأصول، والاحتجاج لها، والرد على خلافها، إلا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب، وأنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر، والأسلوب الرائع، والصنعة المحكمة، والبيان العجيب، والمعرض الحسن، فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعاني، وقفت ثمة على شيء كثير من اللفظ المستكره والمعنى المستغلق، والسياق المضطرب، والأسلوب المتهافت، والعبارات المبتذلة...

ويعلل ذلك بقوله: وإنما وقع للبلغاء هذا النقص من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن، ولا هذه الروح مما تُطوعه قوى الخلق... ثم يقول: وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز.

---

(1) في إعجاز القرآن: ٢٨٠ ط/٨ المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.

جماليات في التناسق القرآني

التناسـق مفهومـاً:

يقصد بالتناسق: التناسب بين المفردات والآيات والسور القرآنية تناسباً لفظياً ومعنوياً في التركيب القرآني وفواصله، حتى يجعل منه نسيجاً واحداً أو بناء متحد الأركان والأبعاد والجماليات.

ويقصد بالتناسب اللفظي ما تقع عليه الأذن والنفس من جـرس صـوتي يشيع في ألفاظه وآيه، وبالمعنوي: الاتساق في المعنى والصورة في التركيب الواحد، وبينه وبين سائر التراكيب، والسورة الواحدة والسور الأخرى... وينوه العلماء والبلاغيون بوحدة البناء القرآني من حيث مفرداتـه وتراكيبـه وسوره ويعتبرون ذلك إعجازاً بيانياً واضح المعالم قوي الأسر بالغ الإعجاب ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وإن توزيع القرآن فيما يزيد عن (٧٧) ألف مفردة وتنزيله خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياة البعثة النبوية لا يقلل من الإشادة بـالاتساق الفني والانسجام التركيبي واللفظي بين أجزائه.

وكذلك فإن تقابل الموضوعات القرآنية وتضادها ضمن سورة واحدة، وتعدد هذه الموضوعات في طوال السور ومتوسطه خاصة لم يضعف من متابعة الأسرار الظاهرة والخفية في ربط المفردات القرآنية بعضها ببعض في وحدة (فنية) سامية الأداء، رفيعة المعاني رائعة العطاء، علوية المصدر.

إنه المعجزة البيانية التي اكتملت فيه جمال النبـرة اللفظيـة وجـرسـه

الفريدة بـالجمال الفكـري المعنوي، والجمـال الخلقي السائـد في الكلمة الموحية والقصة المؤثرة والتشريع الخالد. . . .

فأعمق القضايا العقلية والمسائل المبدئية، وأكثرها تعقيـداً وتشابكـاً، وأوسعها شمولاً وعموماً تعرض بأجلى التراكيب في القرآن وبأوضح الألفاظ في آيه وسوره.

وأروع الألفاظ والأساليب وأغنى المفردات والجمل وأنصع الكلمات وأصفاها وأبدع الصور والمشاهد تلتزم بالفكـر القرآني الهـادف وبالمبـدئية الراقية، والأغراض المعنوية البانية.

وإذا كانت هذه وعاء جميلاً وجذاباً لمثل هذه الأفكار والمبادىء فإن أي التحام لا يمكن أن يقع بالصيغة والمنهج والأسلوب الذي وقع في القرآن.

فالكمال المعنوي والصيغة اللفظية، اتّسقا مفردةً أو تركيباً أو آية قرآنية، وكانا ومـا زالا المعجزة البيـانية الـرائعة وأفْحمت العـرب الأبيناء وجعلتهم يستلهمون من أفكاره وأسلوبه ما يغني أفكارهم وأساليبهم.

وإن الدراسات الفنية والبلاغية عبر القرون الطويلة وحتى الزمن الحاضر تجلّي مزيداً من الأسرار القرآنيـة اللفظيـة والمعنويـة الجامعـة، وتقيم على مستوى العرب والمسلمين والإنسانية أقـوى المناهـج النظاميـة وأعدل القيم الفكرية والخلقية وأنسب الحاجات الاجتماعية والإنسانية. إنه كلمات الله وكتابه وبيانه ودستوره ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

التناسب وعلم الجمال

أولاً: التناسب هو الجمال:

يقـول أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق م)، في: رسـالة في الجمـال: يكمن الجمال في التنسيق البنائي لعالم مواجه في مظهره الأكمل، وهو بهذا يقترب

من مقياس أفلاطون الذي يعني به: الانسجام والمقياس. . . . ولكن أرسطو أكثر تحديداً له حيث يعينه في: النسق والمقدار.

وفي كلا المفهومين للجمال تسام له عن المفاهيم المتدنية المنحطة، ويبلغ أفلاطون الذروة في السمو الجمالي فيقول: الجمال هو بهاء الحق والخير. . . بينما ينبه أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) إلى تحديد الجمال بالعدد والصور الخالصة والنظام، فجمال الكائنات في تناسبها وقياسها، ويعلل ذلك بقوله: لأن الحياة صورة، والصورة جمال. . . .

ويشير فيما بعد توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) إلى الجمال في أنه: انسجام شيء مستحب، وإلى الاكتفاء الأقصى، والانشراح الكامل للذوق والعقل على السواء.

ويربط هؤلاء الفلاسفة اليونان الجمال والحب بالجمال والحب المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، ولذا يسمي الفلاسفة الجماليون عصرهم بالعصر الاعتقادي.

ويتدرج أفلاطون حوالي (٤٢٧ - ٣٤٧ ق م)، في الحب أو الجمال الاعتقادي بمراحل مادية حتى يصل إلى الجماليات الروحية، وذلك أن المبتدىء يحاول أولاً أن يحب جسداً جميلاً، ومن ثم أن يستلهم هذا الحب ليحب جميع الأجساد الجميلة، ويستشعر العاشق فيما بعد، بطلان حب مقتصر على الأشكال المحسوسة وانجذابه بروح من يحب، وعندما تتجلى له ضآلة قيمة هذا الغشاء الجسدي، يدرك أن عليه الرفع عن الأشكال المحسوسة لبلوغ المشاغل الروحية: أي السلوك الإنساني، وليس هذا شيئاً بعد فينبغي له أن يتجاوز حب الحكمة الأخلاقية نفسه إلى الحكمة المطلقة. . . . وتبدو الغاية النهائية كأنها ثمرة كشف، فينجلي السر أخيراً مضاءً أمام المحب الذي تيسر له أن ينتظر حتى ذلك الحين. . . . وهنا نحظى برؤية الجمال المطلق، السني، الشامل بذاته وفي ذاته، ونلامس أنموذج النماذج، ومثال المثل. . . .

فانطلاقاً من الجمال يكون كل ما هو جميل، جميلاً، وهذا يعني انعكاس الجمال المطلق على الجماليات المحسوسة والمادية التي يستطيع الفنانون تمثيله بفردياتهم الجزئية والمحابية في أعمال جمالية.

ويمكن تلخيص هذه المراحل: حب الأشكال المحسوسة، وحب النفوس، واكتساب العلم، وبلوغ المثل الأعلى، وبعبارة أخرى: فإن وجوه الجمال أربعة هي: الجسدي، الأخلاقي، الذهني، المطلق. . . .

وهذا يعني: أن الأجسام البدائية تتوضّع في خشونتها في الأسفل، وبعدها: الأفعال والتصرفات والحوادث والحركات في كل ما تسمو به على الجسم، وتليها النفوس الحقيقية، فجواهر الأجسام، فجواهر الأفعال، فجواهر النفوس. . . . وفوق هذه الجواهر تكمن المعارف الخالصة النظرية، الذهنية المتخلصة من كل قرينة أخلاقية، وتنبثق في النهاية، الصور المتوجة بالمثل الأصيلة التي يسميها المحدثون: القيم، فيتحصل لنا بهذه الطريقة مثلٌ ثلاثة: الحق، والخير، والجمال. . . . .

ويؤكد كل من أفلاطون وسقراط في معظم كتبهما ونظرياتهما على هذه التطلعات الروحية التي تستلهم جمالها من الجمال المطلق (الله). . . .

ويتربع (الشعر) المرتبة الأولى في التفكير الأفلاطوني بشرط أن تتحد فيه الفنية إلى نوع من الإلهام السامي، والفلسفة تشكل النبع الأعلى الأشد خصباً وإغناءً للشعر، وتلعب الموسيقى الصوتية والآلية دوراً جوهرياً في الدولة. . . وكذلك فإن أرسطو خلفه يوضح أن الجمال لا يطلب من الحقيقة الواقعية الراهنة، ولا من عرضية الحاضر الأبدي، لأن الجمال أسمى من الحقيقة، والشعر ألصق بالحقيقة من التاريخ. . . وإن جمال البث الشعري العامر المنتظم، المنسق، واستيعاب الشاعر العميق، المباشر الحدسي يجعلان من الشعر أولى المعارف. ثم يتحدث عن الجمال الموسيقي باعتباره فناً جمالياً متقدماً.

ومهما يكن من أمر فإن (الذوق) وحده هو الذي يكشف عن هذه الجماليات ويتعرف إليها ويقدرها قدرها[1].

وإذا كان لا بد من تعقيب على ما سبق فنقول:

١ ـ السمو بالجمال المادي أو الأرضي إلى الجمال الروحي والمعرفة النفسية ثم التعرف على جماليات الخالق والاطمئنان إليه والسعادة والتلذذ بمعرفته مسألة أفلاطونية وأرسطاليسية لا تعاب من الوجهة الجمالية الحقة والذوقية الصادقة.

٢ ـ إن الموجودات الأرضية بما فيها الإنسان مظهر من الجماليات الإلٰهية التي نتأمل فيها التناسق في الخلق، والتناسب في الصنع، والإبداع في التكوين، مما يتذوقه الإدراك والوجدان، وهي ليست مسألة كهنوتية وإنما هي مسألة دينية وفلسفية تتصل أعمق الاتصال بالخالق ذي الجلال والجمال المتصف بالأسماء الحسنى.

٣ ـ ولكن المراحل التي يتدرج فيها الإنسان للوصول إلى الجمال المطلق هي أقرب إلى الفلسفة الأفلاطونية منها إلى الحياة الواقعية، فكثير من الناس لا يمر بهذه المراحل الدنيا إلى العليا، والبعض الآخر قد يقف عند مرحلة قبل أخرى، وبخاصة أولئك الذي يتمسحون بالنظرية الأفلاطونية الجمالية فيبقون في مراحلها الدنيا ولا يقدرون على السمو إلى الأعلى.

٤ ـ ويتفق كثير من الجماليين وفلاسفتهم أن النظرية الأفلاطونية هي أقرب إلى التوهم والخيال، ويتساءل بعضهم عن الفكرة التي تكونها بشكل ملموس عن الجمال ذاته، ويعتبرونها مجرد (تبجح عبر المطلق) و (شيء من العبث) و (زهو بالغ الخيال) وذلك حين نريد أن نتمثل صورة (الله)، لأن فكرة الجمال في ذاته، تختلط تماماً بهذه الصورة الإلٰهية.

---

(١) المقتبسات في التعاريف والمراحل من: علم الجمال: الفصل الأول: ١٩. وفي هويسمان.

٥ ـ وإذا بدا أن شبهاً ما بين النظرية الأفلاطونية في الجمال وبين مذاهب صوفية متفلسفة في العصور الإسلامية المتأخرة فإن مثل هذه المصدرية يونانية أو هندية تلقي أضواءً كاشفة على جهالة المأخوذين بهذه النظرية وأمثالها من المسلمين، وتوضح التبعية الوجدانية والفكرية للدخيل من الأفكار والوجدانات.

٦ ـ ولا ريب أن الشعر في مقدمة (الفنون الجميلة) لأنه أقرب إلى السمو العاطفي وأدنى إلى الجماليات الروحية، وذلك بشرطيه السابقين.

ولكن ما معنى تحديده بالشعر ما دامت الخواطر والصور الشعرية ماثلة في النثر الفني الرائع؟ قد يكون الشعر متميزاً عن النثر بصور شعرية وموسيقى وإيقاع لا نعثر على نظيره في النثر، ولكن ماذا لو أن نصاً نثرياً تجمعت فيه جماليات الشعر وزادت عليه روعة البيان وسمو الفكر وإيقاعاً وجرساً في النظم كالقرآن الكريم؟.

إن آية واحدة توحي بتتبع الكمال الخلقي والسمو الأدبي في نماذج من القيم والفضائل جمعت ذلك كله، وصيغت بأسلوب متميز مؤثر رابط بالله هي قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(النحل: ٩٠).

إن في الآية تناسباً عددياً وتناسقاً بين القيم وأمر الله ووعظه، ونهيه، وانسجاماً بين أول الآية وفاصلتها، بين أمر الله بها والتذكر الضروري، ثم بين إيقاعها والآيات السابقة واللاحقة وجرسها الصوتي...[1]....

ودلالة التناسب أو التناسق في مفهوم الجمال لا تبدو بهذه السهولة واليسر لدى فلاسفة العصور الوسطى والحديثة. وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

---

(١) انظر شيئاً من جمالياتها في: الإتقان: فصل الإيجاز: ٢/٥٤. للسيوطي.

ثانياً: الجمال نسبي:

ولكن نظرية تضرب صفحاً عن مفهوم التناسب إلى ما عرف بالجمال النسبي الذي قال بـه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) وليبنـز (١٤١٦ ـ ١٧١٦ م) وتزعمه (كانت) (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ م) حتى نسب إليه فكان يسمى: علم الجمال الكانتي، وبمقتضى هذه النظرية فإن للجمال الهندي شفاهاً غليظة ومنتفخة، ولـه أنف مسطح وعـريض، وهو في (البيـرو) ذو آذان كبيرة، وفي البلدان الأخرى: ذو أسنان حمـر أو سود... حتى إن بعض رجـال هذه النـظرية يتساءلون: ما هو الجمال؟ ويجيبون: هذا ما لن يعرف أحد عنه شيئاً، إنه يتغير مع البلدان... ويفلسف (كانت) ذلك بالأساس الجمالي الـذي يكمن في انسجام الفهم والمخيلة بفضل حرية تحرك هذه الأخيرة، وفضلاً عن ذلك فإن العبقرية المبدعة للأفكار الفنية والتي بدونها قد لا يرى النور أيُّ صنيع فني، تكمن هي نفسها في هذه «الدوزنة» المتفردة بين الفهم والمخيلة، ونظريـة الانسجام الذاتي هذه تفسر جميع الخواطر الجمالية لدى (كانت). ويبدو أن الجمال الكانتي ونظريته تعتمد على مصدرية (الذوق) الذاتي، وأن المشهد المذهل ـ مشهد الانسجام الكوني الغريب ـ مرآة لانسجامنا الداخلي الخاص «فالانسجام الكـوني الغريب يمتـد منـا إلى الأشيـاء، ومنها إلينـا... وإن الخاصة الكانتية الحقيقية تكمن في (الذوق) الذي لا يعتبر عنده حكْماً في الشعور وحسب وإنما هو أيضاً شعور بالحكم.... والجميل هو ما يسرنـا بصورة شاملة وبدون توهم....

أقول: وربما اقتبس الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي ذلك فقال:

أيهـا المشتكي وما بـك داء ... كن جميلاً تر الوجود جميـلاً

وقد طغت هذه النظرية على رقعة واسعة من عالمنا المعاصر وفي بعض الفترات.... ولكننا نرى من الضروري التعقيب بما يلي:

١ ـ إن ذوقية أية جماعـة حضرية أو جبلية أو بدوية، في الإحساس

بالجمال يرجع إليها وحدها، فقد لا يقبل بمثله ولا بمثل مقاييسه جماعة أخرى حتى وإن تشابهت البيئات والأجناس واللغات. وهذا تصور واقعي نلاحظه لدى هذه الجماعات المختلفة.

٢ ـ ومع هذا التصور الواقعي نجد أنه لا بد من حد أدنى للجمال النسبي عند هذه الجماعة أو تلك فإذا انحرفت أو تضخمت فوق المستوى الأدنى فإن ذلك يعد قبحاً ودمامة، وعلى هذا فإن لكل جماعة تصوراً للجمال وآخر للقبح...

٣ ـ إن الذوق الإنساني العام يتذوق (التناسب) في كل موجود مادي وفكري، وإن حداً أدنى يعد جمالاً عند جميع الشعوب وعامة الناس، وما دونه فهو القباحة، وهذا يعني التعرض بالإنكار على الجمال المطلق الذي عرفه فلاسفة اليونان الاعتقاديون...

وكذلك اعتبار (القيم) الفكرية والخلقية متأرجحة في إطار نسبي ذوقي وشخصي. وربما يمس هذا من قريب أو بعيد الإعجاز القرآني باعتباره بياناً فذاً لا يمكن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، وكذلك الآثار الفنية العالمية الأخرى.

ثالثاً: الجمال الفكري والمادي:

فالجمال في رأي هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) هو بروز الفكرة المحسوس، والفكرة هي مضمون الفن، والتصوير المحسوس التخييلي شكله، وهو ينشد عقلانية الواقع الداخلية، ويصل إلى مستوى الذهن المطلق، والمراحل التي تشكل معالم الفكر البشري في طلب المطلق هي: الفن والدين والفلسفة... ويدَّعي أن الفن مَرَّ بمراحل ثلاث عبر القرون القديمة: الرمزية وتحققت في الفن المعماري، والكلاسيكية وشاعت في النحت، أما الرومانتيكيّة فقد انتشرت في فنون الرسم والموسيقى والشعر...

وشدد هيغل على صفة الفن الذهنية الذي بيّن أن شأنه في ذلك شأن الدين والفلسفة، وهيغل الذي يعلي من شأن الفكر يجعل الدين والفلسفة في مرحلة دونية وفي صراع دائم مع الفلسفة.

وهكذا فإنه يعلن (موت) الفن وعداءه للدين حسب قول (كروتشه) فالفن في أسمى تخصيص له إنما هو بالنسبة لنا ماضٍ وسيظل ماضياً، وستتمكن الماركسية المعروفة بأيدلوجيتها الملحدة والمادية، وبفضل هيغل أحد زعمائها المتسترين أن تسيطر على الخصائص المادية أو المصالح السياسية. . . . حتى قال كروتشيه هذا: إن كل جمالية (هيغل) تتلخص في إطراء جنائزي للفن.

بينما يركز (شوبنهور) (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) فيلسوف الألم، على أن لكل شيء جماله الخاص غير أن هناك تدرجاً يقودنا من المادة إلى الحياة، ومن الكائنات الحية إلى الإنسان، فإن الجمال البشري يمثل التوضيح الأكمل على مستوى أسمى درجة يتيسر له بلوغها. . . . ويحتل الشعر عنده مكانة فوق الفنون التصويرية جميعها، لأن موضوعه الخاص هو فكرة الإنسان. . . . (فالاتجاه المادي والتطوري متغلغل في الجمالية حتى تصل إلى كمالها في الإنسان). . .

وهذان الفيلسوفان اللذان يتمحوران حول الإنسان حتى يعتبرانه مركز الكون ينحدران به وبفنه وجمالياته إلى المستويات المادية، تارة بجعل فنه (دونياً) حيث تنشط الماركسية المادية، وتارة أخرى بتدرج الإنسان من المادة أو الكائنات الحية السفلى.

إن هذه النظرات المغرقة في المادية الصرفة أو المادية الجدلية فيما بعد تزيل من حسابها الجماليات الدينية فكرية مبدئية كانت أو جامعة للفكر والبيان الأدبي، وتسقط ذلك كله في أتون الماديات حتى وإن قالت ببروز الأفكار المحسوسة أحياناً.

وهو انحراف كبير وورم سرطاني في تأليه الإنسان من ناحية وماديته

الطاغية من ناحية ثانية، أعلن العالم عن خسرانه وإفلاسه وتطلعاته الروحية وهو غارق في المادية.

رابعاً: الجمال مادي وآفاق روحية:

وعلى الرغم من طغيان المادة والزخم الصناعي، ونشوء جماليات سفلية تتمثل في (انتاج الصناعات الفنية) فإن مؤلفات كثيرة تشيد بعودة الجمال والفن إلى إطارهما الروحي.

وإذا كان سريان الاتجاه المادي الجمالي وأحياناً الانطباعي المنحط عاماً ثم تقليص الروح الجمالية التي تألّقت في العصور السابقة وبقيت آثارها الفنية الخالدة حتى اليوم، فإن تطلعات جمالي الروحية تتنامى وقتاً بعد وقت، وتحاول العودة إلى مفاهيم جمالية قديمة ولكن بنتاج فني حديث وآثار جامعة بين القديم والجديد مستفيدة من التقدم التقني المتسارع.

وفي مقدمة الجماليين (بول سوريو) في كتابه: الجمال العقلي، كان أستاذاً في جامعتي ليل ونانسي قبل عام ١٩١٨ ثم السوربون، و(جون وسكين) (١٨١٩ - ١٩٠٠) المعجب بالآثار القديمة والمشغوف بالجمال الذي يعده كشف المدركات الإلهية، وهو شعور خاص يحملنا على الوقوع في الذهول أمام شيء طبيعي لا تكفيه الحساسية أو الفهم العابر... وهذا يعني إدراكاً تصوّفياً ونظرة غائية للطبيعة....

ونمرّ أمام (نيتشه) المتشائم الذي يعتبر قسماً كبيراً من تفكيره الفلسفي ضمن نظرية التشاؤم الجمالي الرومانسي، إلى ألمع شخصية حديثة سبقت الإشارة إليها وهو (كروتشيه) (١٨٦٦ - ١٩٥٢) الذي (يعتبر أكبر جمالي أجنبي في القرن العشرين)... وقد بين طول حياته المديدة الموسومة بنشر العديد من المؤلفات أن علم الجمال هو (علم اللغة العام) أو (علم التعبير) بفضل توازٍ (جمالي - نحوي) ويقول: ينبغي على علم اللغة أن يذوب في علم الجمال عند مستوى من التحضير العلمي، وإنه ليذوب فيه بالفعل دون إبقاء رسوبات...

وتترافق معه نظرتان جماليتان مع اللمعات الروحية الاستثنائية: نفسانية الفنون التصويرية، والاجتماعية الجمالية، وهما من التراث الجمالي الفرنسي غالباً.

علماء المسلمين والتناسب:

عنيت طائفة من علماء المسلمين وأدبائهم بالتناسب القرآني باعتباره يتصل بالتفسير وبالبلاغة معاً. واتخذوه علماً منفرداً، أو تابعاً للتفسير وفنون البلاغة.

وفي كل دراسة متأملة يتابع العلماء والأدباء الكشف عن أبعاد الاتجاه الفني والروح الجمالية من خلال القرآن ويتبينون منه أسراراً إعجازية ترتبط بالجمالية بأوثق رباط.

وبتقدم علم الجمال وميادينه والحاجة إليه تتطور هذه الدراسات لتبرز العناصر الجمالية والصور الفنية القرآنية الرائعة التي تتفوق بالأفكار والظلال، والمؤثرات الفنية المختلفة.

وكان للجرس في اللفظة والتركيب أثر كبير في إبراز الآيات القرآنية جمالياً، وقد سرى فيها الجرس الصوتي المتناسق، وأشار إليه علماؤنا الأقدمون ضمن الخصائص الجمالية، ونوّهوا بها، أو بكثير منها في دراستهم.

يقول ابن القيم: التناسب وهو: ترتيب المعاني التي تتلاءم ولا تتنافر. ثم يقول: والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه، ولا تباين.... [1].

ونوجز الكلام على أشهرهم[2]:

---

(١) الفوائد إلى علوم القرآن: ٢٨٧.

(٢) اختصرت ترجمتهم من كتب التراجم ومن: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. د. محمد أحمد يوسف القاسم ط/١ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. دار المطبوعات الدولية، القاهرة.

١ ـ عبدالله بن زياد النيسابوري (ولد ٢٨٨ هـ)، أول من تكلم في استخراج المناسبات. . . ونقل عنه، أنه إذا قرىء عليه الآية كان يقول: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

٢ ـ الفخر الرازي أبو عبدالله محمد بن عمر (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) في تفسيره: مفاتيح الغيب. . . الذي حوى خلاصة من علوم عصره، ويقول عند قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ. . .﴾ إن القرآن هكذا رتّب على حد ما أنزله الله تعالى على رسوله بخلاف قول كثير من أهل الحديث، إنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان، فلذلك صح التحدي مرة بسورة، ومرة بكل القرآن. . . ولا تكاد آية أو آيات أو سورة في تفسيره إلا ويشير إلى مناسبتها وارتباطها.

٣ ـ **برهان الدين إبراهيم البقاعي** (ولد ٨٠٩ ـ هـ) في البقاع، وكتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الذي ضمنه من معارفه الكبيرة في أصول العربية، يقول في أهمية المناسبة: للإعجاز طريقان: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب. . . ثم يذكر أنه لا وقف تام في كتاب الله، ولا على آخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فهي متصلة بالفاتحة كاتصالها بالفلق، بل أشد[(١)].

٤ ـ **جلال الدين السيوطي: عبدالرحمن بن محمد** (ولد ٨٤٩ هـ) خزانة العلم والأدب واللغة، والحديث في جمع موسوعي كبير، في (٥٠٠) كتاب، وكتابه: تناسق الدرر في تناسب السور (مخطوط) يتحدث فيه عن تناسب السور فقط كما هو ظاهر من عنوانه، وذكر شيئاً منه في كتابه: الإتقان في علوم القرآن. يقول في المقدمة: وكنت أولاً سميته (نتائج الفكر في تناسب

---

(١) المقدمة ملخصاً.

السور) لكونه من منتجات فكري، كما أشرت إليه، ثم عدلت وسميته (تناسق الدرر في تناسب السور) لأنه أنسب بالمبنى وأزيد بالجناس. ويرى السيوطي أن ترتيب القرآن توقيفي في السور والآيات ما عدا سورتي (الأنفال والتوبة)، ويقول في المقدمة: واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية. . . .

٥ ـ عبدالله محمد الصديق الغماري: معاصر، في كتابه: جواهر البيان في تناسب سور القرآن (١٧٠) صفحة، ويذكر أن ربط السورة بالسورة يتناول جهات ثلاث: تناسبهما في الموضوع وهو الأصل، وتناسب بين فاتحة السورة والتي قبلها كالحواميم، وتناسب فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها مثل: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ . . . وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾. ويوجد نوع رابع وهو: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها[1]. وكتب أخرى اهتمت بالتفسير قبل كل شيء ومعه ربط الآيات والسور، منها: تفسير المنار، وتفسير القرآن الكريم: للشيخ محمود شلتوت، والنبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، وأخيراً: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. د. محمد أحمد يوسف القاسم.

٦ ـ وتبرز في هذه السمة التناسقية شخصية (الرافعي) وكتاباته الثرة عن الأعجاز القرآني، الذي يعزو التناسب فيه إلى (روح التركيب) في النظم القرآني. يقول: . . . وهذه الروح التي أومأنا إليها، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه، وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به

---

(١) ص: ١٧.

من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال، إلى نحوها مما يدور عليه[1].

٧ ـ أما صياغة التناسب ضمن نظرية قرآنية متكاملة وهي التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، فقد أخذ (التناسق الفني) المساحة الكبرى من كتابه ونظريته، وحدد معظمه فيها. وذكر ألواناً ودرجات من التناسق (اهتدى إليها بعض الباحثين من قبل، ومنها ما لم يمسسه أحد حتى الآن. . .) ثم عرض الألوان الأولى، وفصل المواضع الأخرى التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها، وأهمية المفردة القرآنية أحياناً في الاستقلال برسم صورة شاخصة، والمقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات، ويقف طويلاً عند مسألتين: الإيقاع الجرسي المتعدد الأنواع، المتناسق مع الجو البياني وبضمنه الفواصل والقوافي، ثم توافر أدق مظاهر التناسق الفني في الصور والمشاهد، وتقسيم الأجزاء على الرقعة المعروضة، ويتحدث هنا عن ناحيتين: وحدة الرسم بين أجزاء الصورة، ضمن إطارها المتناسب، وفي إيقاعها الخاص، وكذلك عن المدة المقررة لبقاء المشهد سريعاً خاطفاً أو بطيئاً وئيداً، متخذاً اللفظ المخيل للتكرار، أو النسق اللفظي كالتفصيل بعد الإجمال، أو الموازنة بين صورتين متقابلتين، ويختم كلامه بقوله: وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتساق، فمن نظم بديع إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الجرس، إلى افتنان في الإخراج.

وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز[2].

---

(١) إعجاز القرآن: الرافعي: ٢٨٠.

(٢) أكثر (الظلال) من بيان التناسب في السورة الواحدة.

أسباب في التناسب القرآني:

أشرت عند ترجمة أعلام التناسب إلى شيء من الأصول التي كانوا يعتمدونها ويتخذونها منطلقات يستخرجونها من القرآن بدافع تأملاتهم ونظراتهم الأدبية والفنية، ويستخدمون له علوماً شرعية ولغوية حتى أفادوا من دراساتهم الأدبية والفنية لتكوين (نظرية) جمالية عامة لها قواعدها وأبعادها وتأثيراتها ونماذجها الجمالية.

ويغلب على هذه الدواعي ارتباطها بالذوقية الفردية أكثر من تقنين علمي قانوني ورياضي، وذلك على الرغم مما وصفه بعضهم بعلم المناسبة، فالمسائل الفنية عموماً والأدبية خصوصاً تخضع لمنطق الوجدان وذوقه الذي لا يعتبر ملكة أو قدرة مبدعة إلا بالشفافية النفسية والرهافة الشعورية الخلْقية، وقد زودت بالمعارف واغتنت بالثقافة العامة والخاصة.

فالتناسب أو المناسبة مثل التناسق بين أجزاء الكلام واتساقه وربط بعضه ببعض برابط معنوي ولفظي...

وسأوجز ما أوجزه السيوطي في كتابه: الاتقان، ثم أعقب على كلامه... فقد ذكر أن العلماء يعنون به للكشف عن رابط عام بين الآي أو رابط خاص: عقلي أو حسي أو خيالي، أو غيره من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب أو المسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه، ثم يقول: وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف، ويشبّهه عندئذ بالبناء المحكم المتلائم الأجزاء... ثم يقسم التناسب إلى:

١ ـ ظاهر الارتباط ويفسره بأن كلمه متعلق بعضه ببعض، ولا بد له من إتمام، ويقول عنه: إنه واضح، ومثله: إذا كانت الآية الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الأعتراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه... ولوضوحه لا يأتي عليه بأمثلة وشواهد...

٢ ــ خفيّ الارتباط: ويظهر منه أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به، ويقسم هذا النوع إلى:

أ ــ سياق العطف بأي حرف من حروفه (المشركة) في الحكم، وعندئذ فلا بد أن يكون بين المعطوفين جهة جامعة. كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (الحديد: ٤)، وقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، ويعلله بالتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج. وشبه التضاد بين السماء والأرض، ويشْبهه: ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة... ثم يقول: وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي. ويضرب مثلاً بسور كاملة كسورة البقرة والنساء والمائدة.. ولكنه لم يصرح بالمناسبة ولا التناسب فيها.

ب ــ السياق الخالي من العطف: وهذا لا بد له من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي كما قال: قرائن معنوية تؤذن بالربط.. ثم يذكر أسبابه الثلاثة وهي: التنظير، والمضادة، والاستطراد وتوابعه...

١ " ــ **التنظير**: وينسبه إلى الفهم العقلي ويقول: فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ...﴾ (الأنفال: ٥) عقب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾، فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم كارهون، ويقول موضّحاً: والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج، وقد تبيّن في الخروج

---

(١) ٢/١٠٨ - ١١٠.

الخير من الظفر والنصر والغنيمة، وعزّ الإسلام، فكذا يكون فيما فعله من القسمة، فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم.

٢" ـ **المضادّة**: ويكتفي بالتمثيل عليها من غير تعريف، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ . . .﴾(البقرة: ٦) فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن، وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقّب بحديث الكافرين، فبينهما **جامع وهمي**، ويسمّى بالتضادّ من هذا الوجه، ويذكر حكمته بقوله: التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. . .

٣" ـ **الاستطراد**: ويمثل له، بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦) وينقل عن الزمخشري قوله: هذه الآية واردة على سبيل **الاستطراد** عقب ذكر بدوّ السوآت وخصف الورق عليهما (آدم وحواء) إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس. . . وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى. . . ثم يذكر أنواعاً منه:

أ ـ حسن التخلص: ويعرفه: أن ينتقل مما ابتدىء به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما، ويمثل له بسورة الأعراف التي ذكرفيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلاً ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾وجوابه تعالى عنه، ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لأمته بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ. . .﴾ من صفاتهم كيت وكيت، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، وأخذ في صفاته الكريمة، وفضائله. . . ثم ذكر سوراً أخرى مثل: الشعراء والكهف.

ب ـ الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع مفصولاً بهذا كقوله

في سورة (صٓ) بعد ذكر الأشياء: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (الآية: ٤٩) فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى من ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها، ثم لما فرغ قال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (الآية: ٥٥) فذكر النار. . . .

ج ـ حسن المطلب: ونقل عن الزنجاني والطيبي تعريفه: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . .﴾ ثم ذكر آيات أخرى تخفى مناسبتها واختلف المفسرون فيها.

٤″ ـ المناسبة في فواتح السور وخواتمها: ويمثل لها بسورة القصص حيث بدأت بأمر موسى ونصرته وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبي ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعودة إليها لقوله في أول السورة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ. . .﴾، ونقل عن الزمخشري التناسب في سورة (المؤمنون) فقد جاء في فاتحتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم يقول: فشتان بين الفاتحة والخاتمة.

ونقل عن الكرماني مثله في سورة (صٓ) وقال: بدأها بالذكر وختمها به في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي سورة (نٓ) بدأها بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وختمها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

٥″ ـ المناسبة في السّور القرآنية: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظاً في ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ قال الأخفش: اتصالهما من باب ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص: ٨). ونقل عن الكواشي المناسبة بين أول المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ وبين خاتمة (النساء) الذي ذكر الله فيها الأمر بالتوحيد والعدل بين العباد. . . .

وكافتتاح سورة (البقرة) ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وسورة (الفاتحة) قبلها بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب. . . . ثم يذكر لطائف سورة (الكوثر) أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة «فصلّ» أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك» أي لا لإرضاء الناس، وفي مقابلة (منع الماعون): «وانحر» وأراد به التصدق بلحم الأضاحي. . .

وكأنه استنتج فيما بعد أسباباً عامة توضح أن القرآن كله توقيفي: ومنها: سبب الحروف الأولى كما في الحواميم، والثاني: لموافقة السورة لآخر ما قبلها كما سبق بين الفاتحة والبقرة، والثالث: للتوازن في اللفظ كآخر (تبت) وأول (الإخلاص). والرابع: المشابهة بين الجمل في السورتين كـ (الضحى) و(ألم نشرح. . .) ثم ذكر المناسبة بين السور الأربع الطوال: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة).

من لطائف المناسبات وعجائبها:

وينبّه كثير من العلماء إلى التأمل في (المقطعات) من الحروف التي افتتح الله بها بعض السور القرآنية، ويربطون بينها وبين آيات السورة من ناحية وبينها وبين الإعجاز القرآني من ناحية ثانية.

١" ـ **المناسبة بين الحروف والقرآن**: يقول السيوطي: إن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (البقرة) ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ (آل عمران) ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (يونس) ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (طه)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (الشعراء) و (القصص) ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ (يس)، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ (ص)، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (غافر، الجاثية، الأحقاف)، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ (ق).

ويستثنى من ذلك ثلاث سور: (العنكبوت والروم و نٓ)

٢" ـ **المناسبة بين الحروف وسورها**: يقول السيوطي في اختصاص كل واحدة بما بدئت به حتى لم يكن لترد (آلم) موضع (آلر) ولا (حٓم) في موضع (طسٓ): إن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (قٓ) موضع (نٓ) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله. وسورة (قٓ) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول، ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب والسائق، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد، وغير ذلك.

وقد تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها (آلر) مئتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بـ (آلر).

واشتملت سورة (صٓ) على خصومات متعددة: فأولها: خصومة النبي ﷺ مع الكفار، وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنيه وإغوائهم.

و (آلم) جمعت المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها، وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي بدء الميعاد، والوسط الذي هو المعاش، من التشريع بالأوامر والنواهي، وكل سورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة.

وسورة (الأعراف) زيد فيها (الصاد) على (آلم) لما فيها من شرح القصص: قصة آدم فمن بعده من الأنبياء، ولما فيها من ذكر ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ولهذا قال بعضهم معنى (آلمص) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وزيد في الرعد (راء) لأجل قوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولأجل ذكر (الرعد، والبرق) وغيرهما. . . .

تعقيب على نظرية التناسب القرآني:

لم يقدم السيوطي هنا نظرية مبتكرة في قضية التناسب القرآني وإنما كان يمثل الاتجاه العام لدى العلماء، فقد زاد أمثلة ووضح أسباباً وابتكر حكماً وعللاً في المستوى الذي وصلت إليه هذه القضية، ولكنه إذ استوعب المصادر والمعارف فإنه كان أقدر على تصنيف أسبابه وإيضاح نماذجه التي اقتبس بعضها من كتب التفسير والبلاغة والتناسب التي سبقت عصره وعنيت به أعظم العناية.

ولذا فإن من الضروري أن نفيد من استقصائه وإيضاحه وتصنيفه، فقد كان جمّاعة للعلم والمعرفة والآداب والفنون المختلفة، ولكنا نرى إيراد بعض **التنبيهات التي تلقي أضواءً على التناسب لدى السيوطي: في عصره وما قبل عصره.**

١ ــ إن السيوطي وغيره يضعان (التناسب) ضمن (علوم القرآن) أو فرعاً منه، وهو أيضاً (علم) مستقل لدى البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت ٨٥٥ هـ) وغيره، وهذا وإن أوهن ربطه بالإعجاز القرآني حسب تصنيفه وتقسيمه في (الإتقان)، فإن ربطه بالجمالية واضح في: إحكام البناء وتلاحم الأجزاء وتناسبها كما قيل في تعريفه. والعلْمية المستقلة أو التابعة عرفاً تضعف الجانب الذوقي الوجداني في تلمس الجمالية القرآنية باعتبارها (أسباباً) تقنن، ولكن الإشارات الجمالية تلهم أنه لا تعارض بين العلمية والجمالية المتسقتين في التناسب القرآني.

٢ ـ الإشارات إلى التناسب الجرسي لا تكفي لإبرازه جانباً واضحاً في التعبير الفني القرآني سوى ما ذكره السيوطي عن (التوازن اللفظي) بين سورتي (المسد والإخلاص)، ولكنه إذ شرح إلى حد ما الجمال الجرسي في القرآن ضمن كلامه عن الفاصلة القرآنية فإن التركيز على التناسب (المعنوي) أو (الموضوعي) بين الآيات والسور يقلل هنا من أهمية الجرس الصوتي والإيقاع الفاصلي الذي يعتبر ركناً في جمالية القرآن وتناسقه.

٣ ـ التعليلات الواردة في التناسب بين الحروف المقطعة وسائر السور التابعة لها تدل على عمق في الفهم الفني للقرآن الكريم، وحين تتبعها العلماء بصبر كبير فإنهم وجدوا (لطائف) و(عجائب) في تناسب بعضها ببعض، وهو كشف أدبي وعددي أو ما يشبهه متقدم على النظرات الحديثة التي تنوّه بالإعجاز العددي للقرآن الذي لم يكتمل في كثير من صوره[1].

وإن ما آثارته أقلام معاصرة من مثل هذا الإعجاز لم يلتزم بعضه بالأمانة العلمية فنسب ذلك إلى نفسه وحدها وإلى عبقريته الفنية بمفردها، فلم يعترف بأن للمسلمين جولات موفقة في هذا الميدان البكر.

وعلماؤنا الأقدمون اجتازوا فيه مرحلة طيبة موفقة ناجحة. ولكن يصعب أحياناً أن يتم (التطابق) بين العلة أو الحكمة وبين التمثيل أو الشاهد. فمثلاً إذا صح أن معظم كلمات سورة (صٓ) فيها حرف (الصاد) وأن أكثر من مئتي كلمة فيها حروف (الٓر) من سورة (يونس) فكيف نطبق ذلك على سورة

---

(١) نعم نجد معان قرآنية متوازنة العدد مثل: (الدنيا والآخرة) فقد وردت كل منهما ١١٥ مرة، و(الملائكة والشياطين) لكل منهما ٦٨ مرة، ولفظة (اعبدوا) للناس جميعاً وللمسلمين وللأقوام السابقة... والموضوع كما أشرت يستوعب إحصاء ودراسة جماعية وموضوعية في ألوان جمالية مبدعة، ويستحق من الدارسين ـ وقد بدأها بعضهم ـ مزيداً من الجهد والتفرغ.

(مـريم) المفتتحة بقـوله ﴿كهيعص﴾، وسـورة (الشعراء) المفتتحـة بقـولـه ﴿طسٓمٓ﴾، وسورة (الشورى) المفتتحة بقوله ﴿حمٓ﴾ ﴿عسٓقٓ﴾؟.

٤ ــ وأخيراً: فما ذكر من التعليل في قوله ﴿الٓمٓ﴾ حسب مخـارجها وتطبيق ذلك على موضوعات القرآن هو اجتهاد خاص بالسور التي تبدأ بها، وكذلك إكمالها في قوله ﴿الٓمٓصٓ﴾ و ﴿الٓمٓر﴾، فإن سوراً أخرى مثل: (المائدة والأنفال والنساء والتوبة والحج والنور) احتوت على هذه الموضوعات نفسها وربما زاد بعضها أموراً أخرى، ولكنها لم تفتتح بمثل ما افتتحت به السور في الحروف المقطعة السابقة، ثم إننا لسنا جازمين تماماً أن التناسب في سور أخـرى والتي بـدئت بحـروف مقـطعـة مخـالفــة، لم تتضمن تلك الســور الموضوعات نفسها، وتحتاج القضية إلى مزيد من الدرس.

ولكن لا بد لي من أن أنوّه بالنظرة التأملية الجمالية في تناسق القرآن لدى علمائنا، وإبرازها في حدود (علمية) و (سببية) تضفي عليها جمالاً علمياً أو علماً جمالياً في البيان القرآني.

وقد فتحت هذه النظرة الثاقبة آفاقاً جديدة من التناسق الجمـالي في الدراسات الحديثة الأدبية الجادة، فتنوّعت صوره وتلوّنت أبعاده حتى أضحى قاعدة فنية ترى بوضوح في النسيج القرآني المتلاحم، وفي بنائه المحكم.

* * *

القرآن والسنّة يوجّهان إلى التناسب

في مقاصد القرآن الكريم:

القرآن الكريم (حياة) المسلمين و(ذكرهم) و(روحهم) و(نورهم) و(شفاؤهم) و(موعظتهم) و(ذكر مبارك) و(حكمة بالغة).

هو (وحي الله) و(قول فصل) و(بصائر للناس) و(بيان لهم) و(علم حق) و(أحسن الحديث) (بشير، نذير) (مجيد) و(عزيز) و(فرقان).

إنه (كتاب عزيز) و(بلاغ للناس) و(تذكرة) و(العروة الوثقى) و(حبل الله المتين) (قرآن عجب) (في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة).. . .

وأسماء وصفات أخرى تدل بمجموعها على (مقاصده وأهدافه) التي يمكن إجمالها في: (الهداية والتربية القرآنية) (هدى للمتقين) و﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

ويمكن تفريع هذه الهداية المقصد الأعظم إلى: هداية العقائد الصحيحة، وهداية العبادات المشروعة، وهداية الفضائل النفسية والاجتماعية، وهداية النظم والتشريع لجميع نواحي الحياة.

وعلى هذا فإن الهداية تعني تربية الفرد والمجتمع تربية فكرية وشعورية وجسمية ونظامية، وتنشئتهم بشخصية قرآنية مقتدية بالرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن، وبالجيل القرآني تلامذته وتربيته.

وما دامت المقاصد واضحة في القرآن، ومعلنة في آيه فإن (التناسب) مسألة ضرورية لتحقيق هذه المقاصد تحقيقاً تصورياً وعملياً وجمالياً.

إن تحديد أهدافه الكبرى والصغرى يعني بالضرورة أن تتسق (أغراضه) و(معانيه) و (موضوعاته) مع هذه الأهداف، وإلا فكيف يتنزل كتاب معجز من الله خال من التآلف والانسجام مع وضوح الغايات وتحديدها؟.

فالقرآن بناء محكم الأركان شامخ الذرى رحب المجال غزير العطاء، صاغته كلمات الله بجمالية وجلالية فذة، وأدبية فنية رائعة... إنه (نسيج) متآلف متلاحم ينبض بالحياة ويمنح الحياة، ويزخر بالسمو الفكري والخلقي، ويهدي إليه، ويتحدى جميع البشر ببيانه وعلمه وتربيته وتشريعه ووجوه إعجازه.

١ ــ القرآن الكريم ينبه إلى تناسب آيه وسوره:

فتصرح آية مكية بإحكام الآيات القرآنية وبتفصيلها من الله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) فالقرآن وصف بإحكام الآيات وتفصيلها، وواضح أن القرآن لم يصرح بالسور وإن كان يفهم ذلك ضمناً، وهذا يعني بالتأكيد أن الإحكام والتفصيل هنا ينصبّ على الآيات والسور المكية صراحة، ويصح أن يسري ذلك على سائر القرآن وهو (خير ما توصف به الجملة القرآنية، فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهي بحر خضم، ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بـألفاظهـا، لتلقيه في النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهـراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار)[1].

وآية مكية أخرى توضح تشابه القرآن وتـأثيره في القلوب ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(الزمر: ٢٣) فالقرآن يشبه بعضه بعضاً ولا اختلاف فيه ولا تضاد بين آياته.

يقول الرازي: . . . كتاب منزّه عن التناقض. . . ومثل هذا الكتاب إذا خلا من التناقض كان ذلك من المعجزات. . . ثم نقل عن ابن عباس أنه يشبه بعضه بعضاً كما سبق، ثم يعدد وجوه التشابه ويذكر منها: أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضاً، ويؤكد بعضها بعضاً. . . .

وآية مدنية تنبه إلى استواء سور القرآن وآياته، واستقامـة موضـوعاتـه ومعانيه بعضها مع بعض ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(النساء: ٨٢)، والربط بين تدبر القرآن واستوائه يوضح التنبيه القرآني لمواضـع التناسب فيه. وهذا يعني أن القرآن المدني مثل المكي أحكمت آيـاته وتمـاسك بنيـانه، وتوحد نسيجه.

يضـاف إلى مـا سبق أن (نجوماً) قصيرة وطـويلة كـانت تتنـزل على رسول الله ﷺ، وأن سوراً مكية ومدنية من طوال المفصل ومتوسطه وقصيره كانت تنزل دفعة واحدة، مما يدل على وحدتها وتناسـب آيـاتها، فمن غيـر

(١) د. بدوي. السابق: ١٠٥.

المعقول أن ينزل نجم قرآني واحد، وفي موضوع واحد، ولكن في آيات متقطعة. وكذلك فإن من الأسلوب المتنافر أن تتعدد أغراض سورة واحدة ومن ثم تتعارض تعارضاً يؤدي إلى انقطاع صلاتها وانعدام ارتباطها، وقد أنزلها الله دفعة واحدة، فهل يعقل أن تنقطع هذه الصلات والارتباطات بين أغراضها؟.

وقد عدّ السيوطي إحدى عشرة سورة نزلت كل منها مرة واحدة وهي: (الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، وتبت، ولم يكن، والنصر، والمعوذتان) (نزلتا معاً)، ومنه في السور الطوال: (المرسلات، والصف، وأخيراً سورة الأنعام)[1].

وإذا تأملنا في هذه السور نجد المكي يغلب المدني، والسور القصيرة أكثر من الطويلة، وأن (المعوذتين) في موضوع واحد، وأن قصار السور كل منها في قضية محددة، وهذا يعني أيضاً أن طوالها لا بد أن تكون موضوعاتها متناسبة إن تعددت هذه الموضوعات.

وإذا تتبعنا مادة (سورة) في القرآن نجد التصريح بنزولها في العهد المكي والمدني في الطوال والقصار على السواء... وقد وردت هذه المادة تسع مرات صرحت فيها الآيات بنزول (السورة)، وإن كان من المحقق أن بعضها نزل نجوماً.

فالتحدي القرآني يتمثل في سورة واحدة لا يمكن الإتيان بمثلها. ففي آيتين إحداهما مكية والأخرى مدنية تصرح بهذا التحدي. يقول الله في السورة المدنية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣) ويقول في السورة المكية: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

(١) الإتقان: ١/٣٨.

صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٨).

وفي آية واحدة كررت (السورة) مرتين يصرح بـالإحكام في أحـدها ويذكر فيها القتال وموقف مرضى القلوب منه بارتياب الناظـر وغشية الميت ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ (محمد: ٢٠).

وفي مطلع سورة النور يقول الله فيها: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور: ١) إننا نلاحظ الربط بين إنزال هذه السورة وفرضها وبين إنزال الله فيها آيات بينات. فسورة النور وحدة في موضوعها كلها وإن اختلفت مرات النزول. . . فأما قصة الإفك ففيها سبع عشر آية يرجح أنها نزلت دفعة واحدة. . . .

ولكن سورة التوبة وحدها ذكر الله لفظة (السورة) في أربع آيات تبين جميعها مواقف المنافقين من الجهاد والصدقات والأعمال الإسلامية الهامة، ويصرح بعضها بالمنافقين، وبعضها بصفاتهم من الغنى والاستهزاء والرجس والتخوف على الأنفس والأموال ويجمع بينها كلها التصريح بإنزال سـورة فيهم ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾ (٦٤) و ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ (٨٦)، و ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ (١٢٤) و ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ

﴿ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١٢٧).

ومما سبق نستنتج:

١ ــ التحدي بالسورة الواحدة من سور القرآن لا يقع أو لا يمكن أن يقع إلا إذا كانت السورة مكتملة البناء متناسقة الآيات، متآزرة المعاني معجزة البيان وإلا فكيف يصح التحدي في سورة مقطعة متنافرة ضعيفة؟.

٢ ــ إن إطلاق اسم (السورة) على طائفة من القرآن لها بداية وخاتمة قديم منذ العهد المكي واستمر إلى العهد المدني، وهذا يعني وجود سور كاملة سواء نزلت دفعة واحدة كما سبق أو منجمة حسب الوقائع والحاجات.

٣ ــ (السورة) في (التوبة) تتحدث آياتها عن المنافقين الذين نزلت فيهم سورة مستقلة منفردة هي سورة المنافقين وكان نزولها قبل التوبة على الراجح، وعلى هذا فإن التأكيد على إنزال سورة فيهم يدل على السورة الكاملة أو جزء منها.

٤ ــ إن التناسب في آيات السورة الواحدة قد نبّه إليه القرآن بنزول سور كاملة دفعة واحدة أو بتوجيه الأنظار إلى بيان الحكمة من الأحكام التشريعية، أو بالتصريح بنزول سورة أو بعضها في موضوعات التحدي وفرض التشريع ومعالجة الفئات المنحرفة المتظاهرة بالإسلام.

هذا من حيث النظرة العامة للسور والآيات، أما من حيث التدبر في نصوصها فإن كثيراً من الآيات تنبه تصريحاً إلى الحكمة من الحكم، وإلى بيان الحكم في المسألة، أو المسائل. . . .

(تأمل الصلة القوية بين هاتين الآيتين، وهي صلة الربط بين الحكم وحكمته في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. ويصف الكتاب ثم يحبب في اتباعه مبغضاً إلى النفوس صورة منكريه، فيقول: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. ويعقب توحيد الله بدلائل هذا التوحيد في قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾)[1].

ويتضح هذا أكثر في معظم آيات التشريع العقدي والعبادي والمالي والجنائي والخلقي[2] حين نعمم مصطلح التشريع.

٢ ـ توجيه الرسول ﷺ إلى التناسب:

فقد كانت توجيهات الرسول القولية والعملية المباشرة وغير المباشرة تلهم التأمل في تناسق الآيات القرآنية.

---

(١) د. بدوي. السابق: ٢٣٣.

(٢) انظر مثلاً: آيات الصلاة والزكاة، والحج، والصوم، والمداينة، والربا، وتحريم الخمر، وصيد المحرم، وقتل النفس بغير حق...

نقل ابن حجر أنه لا خلاف في أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها ﷺ، ويقول: وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً فالمراد أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها، وتذليلاً للسانه على سردها، فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه[1]، وصرح بعضهم أن ذلك ينافي الإعجاز القرآني.

ونقل أيضاً عن أحمد وأصحاب السنن حديث ابن عباس في عدم الفصل بين سورتي (الأنفال والتوبة)، وعن عثمان قوله: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما ينزل السورة ذات العدد، فإذا نزل عليه الشي - يعني منها - دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا. . . إلى أن يقول: وكانت (الأنفال) قصتها شبيهة بها[2].

وزاد في (المصاحف): وإذا أنزل عليه الآية يقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[3]. . .

إن في تعيين موضع الآية أو الآيات في السورة دليلاً على ترتيب السورة التوقيفي الذي يلهم ربط الآيات بما قبلها ربطاً معنوياً وجمالياً.

وفي الحديث السابق ما يشير إلى هذا الربط المتلائم بين آيات السورة فالرسول يأمر أن يحدد موضع الآيات الجديدة في السورة التي تحتوي على الموضوعات المعينة، وكذلك قول عثمان رضي الله عنه بالشبه بين سورتي (الأنفال والتوبة) حتى إنه لم يفصل بينهما.

(وقال البغوي: . . . . وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو عليه الآن في مصاحفنا بتوقيف

((١)فتح الباري: ٤٠/٩.

(٢)المصدر السابق: ٤٢/٩.

(٣) ص: ٣٩.

جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية: إن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا...)[1].

ومن التوجيهات العملية ما نقله السيوطي من الصحاح والسنن أن رسول الله ﷺ كان يقرأ سوراً عديدة في صلاته كسورة (البقرة، وآل عمران، والنساء)، في حديث حذيفة، و(الأعراف) في صحيح البخاري، أنه قرأها في المغرب، و(قد أفلح)، روى النسائي أنه قرأها... (والروم) روى الطبراني أنه قرأها في الصبح، و(آلم تنزيل)، و(هل أتى على الإنسان)، روى الشيخان أنه كان يقرؤهما في صبح الجمعة، (قٓ)، في صحيح مسلم أنه كان يقرؤها في الخطبة، و(الرحمن)، في المستدرك وغيره، أنه كان يقرؤها مع (ق)، في العيد، و(الجمعة والمنافقون)، في مسلم أنه كان يقرأ بهما في صلاة الجمعة، و(الصف)، في المستدرك، عن عبدالله بن سلام أنه ﷺ قرأها حين أنزلت حتى ختمها في سور شتّى من المفصل[2].

وفي البخاري أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ: (قل هو الله أحد، والمعوذتين)...

إن سوراً عديدة كان الرسول ﷺ يقرأ بها وبخاصة في الصلوات الجهرية، والمسلمون يتابعونه فتترسخ هذه السور في أذهانهم فيحفظونها سماعاً من رسول الله ﷺ، ويتأملون بها في صلواتهم فتزيدهم خشوعاً.

ومن ناحية ثانية فقد كان الرسول ﷺ يختار سوراً معينة يقرأها في أوقات وأيام مخصوصة لما فيها من العظات والعبر التي تتلاءم معها، مثلا: السور التي كان يقرأ بها في (الجمعة) و(العيد)، وفي (الصبح) و(المغرب)، وفيها إشارات إلى وحدة موضوعها أو تناسبها ضمن الإطار الوعظي.

ومن الآيات التي ورد نص في تعيينها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

---

(١) وانظر الإتقان: ١/٢٦٣.

(٢) السابق: ١/٦٢.

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان ابن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذا شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة».

وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا...﴾ قال عثمان لابن الزبير وقد سأله عنها فقال عثمان: يابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه.

وعن عمر من حديث مسلم قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: تكفيك آية (الصيف) التي في آخر سورة (النساء)[1].

وآخر آية نزلت على الرسول ﷺ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدَّين[2].

وكانت صحف الصحابة مرتبة على ذلك، ففي حديث عائشة حين سألها العراقي عن مصحفها قال يوسف بن ماهك: فأخرجت له المصحف وأملت عليه آي السور[3].

وحديث زيد بن ثابت المشهور في جمع الصحف، يقول فيه: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال[4].

---

(١) وأحمد ٣٨/١ مختصراً، وقوله: تكفيك آية الصيف... أي أنها نزلت في الصيف. ابن كثير في تفسيرها.

(٢) ٦٢/١، ٦٤. وانظر تخريجه.

(٣) البخاري: فضائل القرآن. تأليف القرآن: (٤٩٩٣).

(٤) البخاري في المصدر السابق: ٤٩٨٦.

وتدل نصوص أخرى أن الترتيب التوقيفي لم يقتصر على الآيات وحدها وإنما تناول ترتيب السور بعضها مع بعض أيضاً. ففي حديث ابن مسعود كان يقول: في (بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء): إنهم من العتاق الأول، وهن من تلادي[1]. وترتيبها في المصحف هو الترتيب المذكور ذاته.

ونقل ابن حجر عن أحمد وأبي داود وغيرهما عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف، فذكر الحديث، وفيه، فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ علي حزبي من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه قال: فسألنا رسول الله ﷺ: «كيف تحزبون القرآن؟» قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (قٓ) حتى نختم...»[2].

ويقول السيوطي: ومما يدل على أنه توقيفي، كون (الحواميم) رتبت ولاء، وكذا (الطواسين)، ولم ترتب (المسبحات) ولاء، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء، و(طسم) القصص، بـ(طسٓ)، مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت (المسبحات) ولاء، وأخرت (طسٓ) عن القصص... ثم يقول: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا (براءة) و(الأنفال)[3].

ونصوص وأقوال أخرى تنبه إلى الترتيب والتناسق القرآني الذي يقصد منه التأمل في آيه وسوره لتأكيد الإعجاز والكشف عن جماليات التناسق والانسجام بينها.

ونقل السيوطي عن أحمد حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) البخاري في المصدر السابق: ٤٩٩٤.
(٢) فتح الباري: ٤٢/٩.
(٣) الإتقان: ٦٥/١ والجمهور على أن ترتيب السور اجتهادي.

«أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل».

وقال بعض السلف: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس ودبابيج ورياض. فميادينه: ما افتتح بـ(الٓم)، وبساتينه: ما افتتح (الٓمر)، ومقاصيره: الحامدات، وعرائسه: المسبحات، ودبابيجه (آل عمران)، ورياضه: المفصل[1].

إن هذا التصنيف الجمالي يجلّي رواء كل مجموعة لتأملات الجمالية الخاصة، وينوّه بالنظرات الرائعة فيما بينها من التلاحم المعنوي والتناسب الجمالي، ويدل على حسّ مرهف يستوعب أبعاد الحسن في القرآن معنى وبياناً. إنها رؤى عميقة في الأفكار وجمالياتها معاً.

التناسق الصوتي والتناسب اللفظي والترتيلي:

فقد تذوق العرب الألحان بفطرهم، واستعملوا (الحداء) لأسفارهم وتأثروا بالقرآن لما فيه من عمق المعنى وصدقه وحلاوة اللفظ ودقته وطلاوته وإيقاعه. وكان الشعر العربي الموزون المقفى أثمن شيء يحرصون عليه، وأمتع كلام تسمعه آذانهم وتستطيبه قلوبهم، فجعلوا القرآن منه جرساً وإيقاعاً. وانفعلوا بهما مثل ما انفعلوا بمعانيه ومضامينه.

ووصف أدباؤهم الألحان أنها مراد السمع ومرتع النفس، وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس....

ونقل عن أفلاطون قوله، ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم وليس من

(١) الإتقان: ١/٥٨.

أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ويعجبه طنين رأسه.. ولو لم يكن له من فضل الصوت إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد إلّا وفيه معاناة على البدن وتعب على الجوارح لكفى. **وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب**.... حتى إن البهائم لتحنّ إلى الصوت وتعرف فضله.... والنحل أطرب الحيوان كله إلى الغناء وإن أفراخها لستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن[1].

ومن الإحساس الشخصي والتأثر الفردي المبالغ فيه ما كان يخص (شوبنهور) (١٧٨٨ - ١٨٦٠) الموسيقى بقوله: ولكن فوق جميع هذه الصور الفنية التي تعبر عن مثل المادة، والحياة والإنسانية، تكمن صورة الصور، مثال المثل، الفن الذي يمتزج بالكون نفسه: الموسيقى. فالعالم موسيقى مجسّدة، بقدر ما هو إرادة مجسّدة. ويضيف بهذه التأثرية الفردية المغرقة: بأن في الموسيقى شيئاً صميمياً يتأبى على الوصف، وهي لذلك تمرّ بنا كأنها صورة حية مألوفة... إنها بالنسبة لنا مفهومة تماماً، وفي الوقت نفسه غير قابلة للتفسير.... وهي لا تعبر عن المثل فقط بل إنها موازاة لها[2].

وكان ابن الأثير سبق إلى القول: ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل ويميل إليه، ويكره صوت الغراب وينفر منه؟ والألفاظ على هذا المجرى، فلفظ: المزنة أو الديمة حسنة يستلذها السمع، ومألوفة الاستعمال، ولفظة: البعاق يكرهها السمع، وهي نادرة الاستعمال، مع أن الألفاظ الثلاثة من صفات المطر،...

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: الياقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيه: ٤/٨٨.

(٢) دني هويسمان: علم الجمال: ٧٨.

ويقول: ومن يبلغ به جهله ألّا يفرّق بين لفظة: الغصن، ولفظة: العُسْلوج، وبين لفظة: المدامة، ولفظة: الإسْفَنْط، وبين لفظة: السيف، ولفظة: الخنْشَليل، وبين لفظة: الأسد ولفظة: الفدوكس، فلا ينبغي أن يخاطَب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه...

ويقول: كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائعة، يلذها السمع، ولا ينبو عنها الطبع خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع[١].

ولا ريب أن هذا عائد إلى (الاتفاقات الصوتية) بين الحروف والكلمات، ينشأ منها (التجانس) الموسيقي البديع. وكذلك فإن (التوافق) بين هذه الحروف والكلمات تؤدي إلى التناسب فيما بينها تناسباً ملائماً للأذن وللعين، ترتاح له النفس والوجدان

أما إذا (تنافرت) الكلمات والحروف، فلم تعد كل منها ملائمة للأخرى فإن الاضطراب الموسيقي وعدم التسلسل الوزني الرتيب يخل بجماليات الألفاظ والتراكيب.

والإيقاع فرع من التأليف الموسيقي ونسجه، وعرفه أهل الصنعة: نظم حركات الألحان وأزمنة مداتها الصوتية في طرائق موزونة تصاحب اللحن بدقات مختلفة بالكيفية وبالكمية وذلك حفظاً له من التفكك والانطلاق[٢].

ويقولون[٣]: إن الإيقاع على فترات مألوفة متساوية.. ظاهرة مألوفة في طبيعة الإنسان نفسه، فبين ضربات القلب انتظام، وبين وحدات التنفس انتظام. وبين النوم واليقظة انتظام، ومن الواضح أن هذا الإيقاع الفطري فينا هو ما يجعلنا نتوقعه في مدركاتنا، ونستريح إذا وجدناه.. ويصيبنا القلق إذا

---

(١) المثل السائر: منتقاة من: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة.

(٣) الفن الإسلامي: ١٠٨، ١٠٩.

فقدناه.. ومن هنا كان الوزن في الشعر، وكانت «السيمترية» في العمارة والتوازن الإيقاعي في التصوير والموسيقى.. فالإنسان جزء من الطبيعة، وخاضع لقوانينها، وتفاعله مع بيئته، هو المصدر ـ المباشر أو غير المباشر ـ لكل خبرة.. كما أن البيئة هي الأصل الذي تنبعث منه تلك الصدمات والمقاومات والمساعدات والاتزانات التي تكون الصورة حينما تتلاقى مع طاقات الكائن الحي على نحو ملائم.. والخاصية الأولى التي إذا توافرت في العالم المحيط بنا، أمكن قيام الصور الفنية إنما هي الإيقاع Rythm.. وما من شك أننا لو نظرنا إلى ضروب الإيقاع في الطبيعة لوجدنا أنها وثيقة الصلة بشروط بقاء الإنسان نفسه... وهكذا أصبح الإيقاع ضرورة بيولوجية لحياة الإنسان، وأصبح كل عمل يؤديه لا بد أن يكون خاضعاً لنوع من الإيقاع.. فهو في أثناء عمله يقطع ويدق ويسحق وينقر ويشكل، وكلها تمثل سلسلة من الإيقاعات، فيها مشاركة لإيقاعات الطبيعة.. ولا بد أن تكون هناك إيقاعات كبرى هي الإيقاعات الكونية، وإيقاعات صغرى هي الإيقاعات اليومية، وهي جزء من الإيقاع الكبير، تخضع للنظام الرتيب نفسه الذي يميّز هذا الوجود.. ومعنى ذلك أن وراء الإيقاع في كل عمل فني يكمن، كطبقة في أعماق اللاشعور، ذلك النموذج الأصلي لعلاقات الكائن الحي ببيئته.

وإن كل عنصر من عناصر العمل الفني: كالخط واللون والنور والظل وملامس السطوح والحيز.. لا بد أن يحقق نوعاً من الإيقاع في ذاته ومع سائر العناصر الأخرى التي تُكَوِّنُ وحدة العمل الفني.

والإيقاع في الفن الإسلامي يعتمد على التماثل والتناظر والتبادل، كما يعتمد على الخط اللين والهندسي، وتعدد المساحات في توزيعها وتنوعها.. والإيقاع الخطي متراقص يوحي بالمسرة.

ونقلوا عن أرسطو أقدم من تحدث في التناسب الموسيقي والإيقاعي: نحب الإيقاع الموسيقي، لأنه خليط من عناصر متنافرة تتقابل فيما بينها تبعاً

لنسب معينة، وهذه النسب تمتّ بطبيعتها إلى النظام، والنظام مستحب مادياً منا، ويعقب (هويسمان) على قوله: إيقاع، انسجام، قياس أو تناسب، كل ذلك مرده في النهاية إلى النظام[1].

وقد أدرك الجماليون الغربيون قيمة (القرآن) الجمالية من حيث الجرس والإيقاع، ونوّهوا بهذه القيمة في كثير من الأحيان.

يقول سوريو: . . . ويؤلف القرآن مجموعة الآيات التي تحدد الديانة الإسلامية، والتي تعتبر قيمتها الجمالية، من حيث مناخها الغنائي العام، وإيقاعها الموسيقي المؤثر في صلب النشاط الثقافي . . .[2].

وصرّح علماء البلاغة الأقدمون بالتناسب اللفظي الصوتي الفريد في القرآن بحيث أنه لا يمكن أن توضع كلمة بدل اللفظة القرآنية حتى وإن كانت تلك اللفظة من المترادفات في المعنى فإنها لا تؤدي دقة ولا مقدار المعنى ذاته، وتركيب حروفها لا يفي بالغرض الصوتي في سياق الجملة القرآنية ولا تنسجم مع التركيب القرآني في جرسه الداخلية أو الإيقاع المطلوب في فاصلة الآية.

يقول الجاحظ[3]: وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب، أو في موضِع الفقر المدقع، والعجزِ الظاهر؟ والناس لا يذكرون (السَّغَب)، ويذكرون (الجوعَ) في حال القدرة والسلامة.

وكذلك ذِكْرُ (المطر) فلا نجد القرآن يلفِظُ به إلا في موضع الانتقام. والعامةُ، وأكثرُ الخاصَّةِ لا يفْصِلون بين ذكر (المطر)، وذكْرِ الغيث.

---

(١) هويسمان: علم الجمال: ٤٤، ٤٥.

(٢) إتيان سوريد: الجمالية عبر العصور: ١٧٢.

(٣) البيان والتبيين: ١/٤٠.

ولفظُ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذَكَرَ (الأبصار) لم يقلْ: (الأسماع)، وإذا ذكر (سبعَ سموات)، لم يقل: (الأرضين)، ألا تراه لا يجمع (الأرض) على (أرضين)، ولا (السمع) على أسماع؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتَفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال(١).

ونوّه اللغويون والبلاغيون باللفظة القرآنية في دقتها المعنوية والصوتية وبخاصة فى (الترادف) الذي سيأتي جملة منه.

وقد جلى الرافعي فيما تناوله من هذه المفردات ومناسبتها الجرسيّة للجملة القرآنية:

لا جرمَ أن المعنى الواحد يعبَّرُ عنه بألفاظ لا يُجزىءُ واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرطُ الفصاحة؛ لأن لكل لفظ صوتاً ربما أشبه موقعَه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تُساق له الجملة، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه.

فلا بدّ في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تنِدُّ لفظة، ولا تتخلف كلمة؛ ثم استعمال أمسّها رحِماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقاً وماء، ثم اطرادِ ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ثم إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح، وعلى العصمة من السهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتى يجيء ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفَسٍ واحد وقد أديرت معانيها على ألفاظ في لغات العرب المختلفة فلبستْها مرة واحدة، وذلك ولا ريب مما يفوت كل فوتٍ في الصناعة، ولا يدَّعيه من الخلق فرد ولا جماعة.

---

(١) إعجاز القرآن: ٢٥٧، ٢٥٨، مختصراً.

ثم يقول: ولو تدبرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيىء بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذُب ولا تُساغ وربما كانت أوْكسَ النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استُعملت في القرآن رأيتَ لها شأناً عجيباً، ورأيت أصواتَ الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذبَ شيء وأرقه، وجاءت متمكنةً في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة .

وإن جمالية التناسق الكلمي الموسيقي متآلف مع العقل والقلب معاً، ومدى تأثيرها في النفس لأعمق من أي شيء.

وهكذا كان التناسب القرآني في جرسه وإيقاعه معجزة جرسية مثل ما كان في بيانه وتشريعه وآدابه.

وسنفصل الكلام فيه.

خاصية التناسب الترتيلي:

فعلى الرغم من أن القرآن نزل بالعربية وببيانها وعلى أساليب لسانها فإن له قراءة خاصة به، وأحكاماً (تجويدية) يتلى بها وفق الطريقة الثابتة عن رسول الله ﷺ، وهذا ما يعرف بالترتيل أو التجويد الذي يختص بأنه قابل للتنغيم والصوت الحسن اللذين ثبتا للقرآن وحده من سائر النثر العربي الفني.

وبادىء ذي بدء ينبغي أن نتحرر في الترتيل من التلحين على أساس

موسيقي عام يستدعي الإيقاع والدوزنة والمقامات الموسيقية في أية (صيغة) موسيقية، فالظاهرة الموسيقية للقرآن كما قال الرافعي: هي أن كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن، وأصوات حروفها وما منهم من يستطيع أن يغتمز من ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى[1].

وكانت محاولات (مرفوضة) بإخضاع القرآن كله أو نصوص منه إلى (التأليف) الموسيقي على نظام الصيغ الموسيقية والخطط أو (النوتات) في بناء القرآن لحناً موسيقياً بحتاً.

ومثله ما نسمع من (استغراق) بعض القراء في مراعاة الألحان التي كانت تطغى عند التلاوة على أي اعتبار معنوي وإعجازي في القرآن، حتى إنهم كانوا يرتبون الألحان ترتيباً قرآنياً أو يرتبون القرآن ترتيباً لحنياً يفقده روعة الفكر وعظمة المحتوى وسمو المضمون بالقياس إلى طغيان الأسلوب النغمي واللحني عليه.

لقد غفلوا عن أنه علم، وفن، وتدريب، ومدارس أمينة موثوقة. فلحنوا ومططوا وتغالوا فيما لا تجوز فيه المغالاة.

ولكن هذا الطغيان اللحني الموسيقي المرفوض أيضاً لا يمنع من تلاوة القرآن بخاصيته، تلاوة مرتلة مجودة يأتي التنغيم الصوتي طبيعياً ناشئاً عن مخارج الحروف اللينة والثقيلة والمهموسة والقلقلة، تماماً مثل ما ينشأ عن المدود المقدرة بالحركات الصوتية وسائر الأحكام التجويدية في نسبها وتناسبها المقررة من أحوال الميم الساكنة والنون الساكنة والتنوين وما يستلزم

(١) إعجاز القرآن: ٢٤٣ حاشية.

ذلك كله من الغنة والاسترسال أو الضغط والقلب والتماثل، والتقارب، والتخفيف والتسهيل، والقرآن بترتيله المتفرد كان وما يزال يلهم تناسب كلماته وتراكيبه وتناسقها بحيث تأتلف فيما بينها من ناحية وتأتلف مع شيء من التنغيم الصوتي من ناحية أخرى سواء كان ذلك من خلال الكلمة والجملة القرآنية أو في فاصلة الآية وخاتمتها.

يقول الرافعي في هذه المزية الجرسية: فلما قرىء عليهم (العرب) القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً، أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها في دقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، ثم يقول:

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأتَ تُرَتِّلُ قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تُرَاعى فيه أحكامُ القراءةِ وطرُقُ الأداء، فإنك لا بد ظاهرٌ بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكَّرْتَ الكلام وغيَّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردتَه من زينة الأسلوب، وأطفأتَ رواءَه؛ وأنضبت ماءَه، لأنك تزنُه على أوزانٍ لم يتسقْ عليها في كل جهاته. فلا تعد أن تظهِرَ من عيبه ما لم يكن يَعيبه إذا أنت أرسلته في نهْجه وأخذته على جملته.

وحسبُكَ بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد. ولا يتّفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبةِ بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمْس والجهر، والشدّةِ والرخاوة والتفخيم والترقيق؛ والتفشّي والتكرير، وغير ذلك.

ثم يقول: فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة؛ لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغاتُ كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبُهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يَعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبُهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقَت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان؛ وعلى هذا وحده يُؤوَّل الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً، لأنه يجنب هذا الكمالَ اللغوي ما يُعدُّ نقصاً منه إذا لم تجتمع أسبابُ الأداء في أصوات الحروف ومخارجها، وإنما التمامُ الجامع لهذه الأسباب صفاءُ الصوت، وتنوُّع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

ثم يضرب أمثلة منها:

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سريًّاً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً، إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يُجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها، كقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارجِ الحروف ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات؛ إذ تُنطق على أربعة مقاطع، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة الكلمة كلها.

وهذا إنما هو الألفاظ المركبة التي ترجع عند تجريدها من المزيدات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء، لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه، إلا ما كان من اسمٍ عُرِّب ولم يكن في الأصل عربياً: كإبراهيم، وإسماعيل، وطالوت، وجالوت، ونحوها؛ ولا يجيء به مع ذلك إلا أن يَتخلله المدُّ كما ترى؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان.

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضِيزى» من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1] ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أدرْت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءتِ الكلمةُ فاصلة من الفواصل ثم هي في معْرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بَناتٍ لله مع أولادِهم البنات فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ فكانت غرابة اللفظة أشدّ الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصوِّر في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكَّنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأسِ بهذين المدَّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

وإن تعجبْ فعجبٌ نظمُ هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مدٌّ ثقيل، والآخر مدٌّ خفيف، وقد جاءت عقب غنتين

---

(١) جائرة. وانظر كلام ابن الأثير في المثل السائر ١/٢٢٩، وسبقت الإشارة إليها.

في «إذنْ» و«قسمة» وإحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورةً صوتيةً لتقطيع موسيقي. وهذا معنى رابع للثلاثة التي عددناها آنفاً، أما خامس هذه المعاني، فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعةَ على غرابتها، إنما هي أربعة أحرف أيضاً.

ثم الكلماتُ التي يُظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً: كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾[1] فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب. فيظن من لا بصرَ له أنهما كذلك في النظم ويقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته: فإن المراد بالآية الأولى، تصويرُ لين النبي ﷺ لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدّ في «ما» وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخّمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية لا يُبتَدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبُّر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

ونظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر وكأنها صُبَّت على الجملة ـ صبّاً ـ إنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ولم يَستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مُرادِفها: كلفظة (اللُّبّ) فإنها لم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ونحوهما ولم تجيء فيه مفردةً، بل

---

(١) الضمير في «ألقاه» لقميص يوسف، وفي «وجهه» ليعقوب عليهما السلام.

جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثمَّ فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصباً أو رفعاً، أو جراً؛ فأسقطها من نظمه بتة، على سَعَة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة (الجبّ)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة.

وكذلك لفظة (الكوب)، استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع.

و (الأرجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً وترك المفرد ـ وهو الرجا: أي الجانب ـ لعلة لفظه، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى.

وعكس ذلك لفظة (الأرض)؛ فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه؛ ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدةً طويلة، وهي في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ولم يقل: وسبع أرَضين؛ لهذه الجسْأةِ التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً، فتأمَّلْ ـ رعاك الله ـ ذلك الوضعَ البياني، واعتبر مواقع النظم، وانظر هل تتلاحقُ هذه الأسبابُ الدقيقة أو تتيسرُ مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة، أو بتكلفة من القول، وإن استقصى فيه الذرائع، وبالغ الأسباب، وأحكم ما قبله وما وراءه.

ومن الألفاظ لفظة (الآجرّ) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافرٌ متقلقل لا يصلح مع هذا المدِّ في صوت ولا تركيب على قاعدة

نظم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرْمد)[1] وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبحَ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ فانظر، هل تجد في سِرِّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرَع أو أبدعَ من هذا؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملِّكه حسّه ولا يسوِّغه حقيقة نفسه ولا يجنُّ به جنوناً ولا يقول آمنت بالله ربّاً وبمحمد نبياً وبالقرآن معجزة؟[2] وتأمل كيف عبّر عن الآجر بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ﴾ وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً.

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب. ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر؛ فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصَبَ الأرض سلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين...[3].

---

(١) وهو في العامية (الطوب) أي الطين المحرق الذي يبنى به. وانظر ابن الأثير في المثل السائر ١/٢٥٩.

(٢) الجمهور على أن القرآن دليل النبوة، وهو الحق الذي لا ريب فيه ولكن من المتكلمين من لا يرى ذلك، كأبي إسحٰق النظام، فإنه قال: إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوة وعلى هذا الأصل بنى قوله: إن الإعجاز كان بالصرفة ـ كما تقدم في موضعه ـ فما أصح ما نقلناه ثمة من قول الجاحظ فيه: لو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه، كان أمره على الخلاف.

(٣) في التعبير حكمة أخرى جليلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد على الطين تهكماً على فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية، وإعداد الآجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد على الطين، ثم =

وما يشذُّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مَظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة: أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء.

تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ «الطوفان والجراد والدم» وأثقلها «القُمّل والضفادع» فقدم «الطوفان» لمكان المدَّين فيها؛ حتى يأنس اللسان بخفتها؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغُنة فيه؛ ثم جيء بلفظة (الدم) آخراً، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً؛ ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فمهما قلَّبْتَ هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع؛ لو قدّمت أو أخّرتَ لبادرك التهافت والتعثر، ولأعنتكَ أن تجيء منها بنظمٍ فصيح، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطَعَك دون غايتها. ثم لخرجَتِ الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء؛ ليس يظهر أخفُّها من أثقلها؛ فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته(1).

وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقصِ في أمثلته لأنه

= تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء، فكأنه لم يخرج لا بناء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء.

(1) وانظر كلام ابن الأثير في المثل السائر ١/٢١٨، فهو متقارب هنا والأمثلة السابقة.

أمرٌ مُطرد، تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستويَ هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعهِ فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه. . . أهـ.

إن الرافعي ـ وقد أطلنا الاقتباس منه ـ أحسّ بتناسق الترتيل من خلال روحه المؤمنة وكتب عن صوتياته وإيقاعه من شفافية نفسه الفنانة، فقدم نماذج جمالية رائعة متفاعلة مع وجدانه المرهف وقلمه العربي الأصيل، وبيانه الأدبي المتألق.

ألوان من الأداء الصوتي الجمالي للقرآن:

مما لا ريب فيه أن لأداء الكلمة أو الجملة القرآنية ضوابط وموازين لفظية في قراءتها لا ينبغي تجاوزها، فللحروف صفات، ومدات، ومخارج وحركات، وللتركيب القرآني صفات ومدات ومخارج وحركات تتسق كلها في قواعد مضبوطة وقوانين ثابتة.

ومع هذا الضبط المبدئي يمكن أن تأخذ اللفظة أو التركيب صيغاً مرنة إلى حد قريب تدنو فيه من قوانينها الثابتة، وهذا ما كان يعنيه القراء من أشكال القراءة: في الحدر، والتدوير والترتيل.

ومن تعدد القراءة الواحدة تنشأ (ألوان) أو صيغ من الصوتيات المتناسقة مع كل طريقة فيها ضمن القراءة الواحدة.

ومن تعدد القراءات يأخذ (التلوين) الأدائي طرائق متعددة يختلف حسب اختصاص كل قراءة وأدائها على الوجه المحفوظ والثابت.

ويصح علمياً وجرسيّاً أن تؤدى آية واحدة بألوان من الأداء الفني المشروع الملتزم، ثم الآية الثانية، فالثالثة وهكذا إلى نهاية النص أو السورة حتى تكتمل لدينا جمل صوتية وافرة بمقاديرها وحدودها تعبر عن تناسق في هذه الألوان والصيغ، في عدد ضخم من الهيئات الأدائية الرائعة.

ومن المعلوم أن التلوين الموسيقي أصلاً هو طرح (صيغ) موسيقية متعددة تعمل على تكوين بناء موسيقي في ألوان متناسبة مع الموضوع والجو والتصوير. وتوضح الصيغة البنائية للنص أو القطعة تناسباً خاصاً في مداتها وأصواتها وإيقاعاتها على وجه تأتلف في الكمية والكيفية.

وربما كان تقسيم القرآن إلى سور ثم آيات مختلفة في الطول والإيقاع والفاصلة، يلهم ـ باعتباره ينبوعاً جمالياً رائعاً ـ بأثر واضح، وأهمية قصوى في تلوين جرسي ترتيلي متعدد.

ومن ناحية ثانية فقد يتشابه لون أو (صيغة) في سورة أو يتقارب أو يتناظر مع لون أو صيغة في سورة أخرى وفق المعنى والجو والصورة الملائمة. حتى إن سورة واحدة تختلف ألوانها الصوتية بين نجم وآخر ونص متقدم ونص متأخر، وفي النهاية نحصل على سورة متفردة في شخصيتها المعنوية والجرسية وإن بدا أن لوناً أو ألواناً من التقارب أو التشابه بين نجوم هذه السورة باعتبارها (وحدة) جمالية وبين سورة أخرى تتحدث عن الأغراض والموضوعات ذاتها.

ونؤكد على أن (علم التجويد) عموماً في مدّاته وصفات حروفه وعلاقات بعضها ببعض، ثم حالات الوقف وما ينشأ عنه من همس وقلقلة أو مد قصير ومتوسط وطويل يغني الصيغ الصوتية وفق نسق علمي متصل النسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكذلك التكوين الجرسي المشار إليه والذي ينشأ من تعدد القراءات المتواترة بين خطف المد، ومد المخطوف، وتغيير في بنية اللفظة من المفرد إلى الجمع، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن إيراد اللفظة على وجوه صحيحة أخرى، يزيد في غنى هذه الأشكال والأساليب الصوتية إلى المستويات الشاملة لفن جرسي إيقاعي لا يعرف له نظير في الشعر والنثر معاً.

وأفصل شيئاً عن: الإمالة، والتفخيم والترقيق، والمدود، وتخفيف

الهمزة[1]، لكثرة ورودها في القرآن، وعلاقاتها الصميمية بالصوتيات القرآنية.

١ ـ الإمالة:

وعرفها العلماء: أن ينحو القارىء بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيراً وسموه: بالمحض، أو قليلاً وسموه: التقليل والتلطيف، ويقولون: كلاهما جائز، وإن جنح بعضهم إلى التلطيف. وقد أمال القراء العشر سوى ابن كثير، واختلف العلماء فيما يمال وما لا يمال. فحمزة والكسائي وخلف أمالوا كل ألف منقلبة عن ياء حيث وقعت في القرآن في اسم، أو فعل، كالهدى، والهوى، والفتى، والعمى، والزنا، وأتى، وأبى، وسعى، ويخشى، ويرضى، واجتبى، واشترى، ومثوى، ومأوى، وأدنى، وأزكى.

وكذلك أمالوا كل ألف تأنيث على فُعلى: كطوبى، وبشرى، وقصوى، والقربى، والأنثى، والدنيا، وإحدى، وذكرى، وسيما، وضيزى، وموتى، ومرضى، والسلوى، والتقوى.

وألحقوا بذلك: موسى، وعيسى، ويحيى.

وكل ما رسم بالمصحف بالياء نحو: بلى، ومتى، ويا أسفى، ويا ويلتى، ويا حسرتى. ما عدا: حتى، وإلى، وعلى، ولدى، وما زكى، فلم تمل بحال.

وأمالوا رؤوس الآي من إحدى عشرة سورة جاءت على نسق واحد: وهي: طه، والنجم، وسأل، والقيامة، والنازعات، وعبس، والأعلى، والشمس، والليل، والضحى، والعلق... ووافق على هذه السور أبو عمرو، وورش.

---

(١) أخذ معظمها من الإتقان: ١/٩٣ ـ ١٠١.

وأمال الكسائي وأبو عمرو كل ألف بعدها راء متطرفة مجرورة نحو: الدار، والنار، والقهار، والغفار، والنهار، والديار، والكفار، والإبكار، وبقنطار، وأبصارهم، وأوبارها، وأشعارها. . . .

وأمال الكسائي أيضاً هاء التأنيث وما قبلها وقفاً مطلقاً بعد خمسة عشر حرفاً منها: الفاء كخليفة ورأفة، والجيم: كوليجة، ولجة، والثاء: كثلاثة وخبيثة، والواو: كقسوة والمردة، والميم: كرحمة ونعمة. . .

وكذلك أمالوا كثيراً من فواتح الحروف المقطعة مثل (الٓر) و(طٰه) و(يٰس) و(طسٓم) و(طٰس) و(حمٓ).

ولا ريب أن الإمالة تغني الكلمة بشفافية وحنو ولين وإنسيابية لها وقع جمالي خاص.

٢ ــ التثقيل والتفخيم:

فقد نقل العلماء بسندهم عن ابن عباس قوله: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم، نحو قوله: الجمعة. وقال محمد بن مقاتل: سمعت عماراً يقول: عذراً، ونذراً، والصدفين. . . ويؤيده قول أبي عبيدة: إن أهل الحجاز يفخمون الكلام كله إلا حرفاً واحداً، هو عشرة، فإنهم يحزمونه، وأهل نجد يتركون التفخيم في الكلام إلا هذا الحرف فإنهم يقولونه: عشرة، بالكسر.

ومن الحروف المفخمة كما ذكر علماء التجويد ما جمعوه من الحروف بقولهم (خص ضغط قظ) وهي حروف الاستعلاء. وما عداها فهي: المرقّقة أو المستفِلة.

وكذلك أحوال (الراء) المفخمة عندما تكون مفتوحة أو مضمومة أو ساكنة وما قبلها مفتوح أو مضموم مثل: الرّحمن، روح، البَرْ.

والقلقلة: وهي خمسة حروف ساكنة جمعوها بقولهم (قطب جد) مثل: أحد، تبْدون.

وإن أسلوبها الجرسي يقتضي جمعاً صوتياً ونبرة ضخمة، وإيقاعاً شديداً ثقيلاً، وأداء ترتيلياً ضخماً.

٣ ــ مدود قرآنية:

وهي تلك المدود الخاصة بتلاوة القرآن الكريم التي يقرأ بها وحده، ولا أعني المدود المشهورة مثل المتصل والمنفصل والعارض للسكون واللازم والصلة الكبرى... فهذه وإن اختص بها القرآن ويمد بعضها على أوجه: القصر والتوسط والطول فإن مدوداً أخرى تعتمد عليها قراءات ثابتة أيضاً.

وهذه وتلك تجعل اللفظة أو الجملة القرآنية ذات نفس مديد صوتي وإيقاعي تزيد من طلاوتهما وجمالهما وأثرهما. ومن هذه المدود:

أ ــ مد الحجز: وهو مد يفصل بين الهمزتين فيخففهما، وذلك في نحو: آأنذرتهم، آألقي عليه الذكر، آأنت قلت للناس، آإذا.

ب ــ مد العدل: وهو في كل حرف مشدد، وقبله حرف مدّ لين، نحو: الضالّين، وذلك لأنه يعدل حركة أي يقوم مقامها في الحجز بين الساكنين.

ج ــ مد الروم: وهو تليين الهمزة من غير إخفاء أو تحقيق، وذلك في نحو: ها أنتم، فيشار إلى الهمزة فلا تخفى ولا تترك أصلاً.

د ــ مد الفرق: وهو المد الذي يفرق بين الاستفهام والخبر، في مثل قوله تعالى: آلآن....

٤ ــ تخفيف الهمزة:

وهو منطق عربي لدى معظم القبائل وبخاصة قريش وأهل الحجاز الذين هم أكثر تخفيفاً. وفي تسهيل الهمزات ليونة لحرف الهمز نفسه، إذ إنه ـ كما يقولون ـ أثقل الحروف نطقاً وأبعدها مخرجاً. وفي التسهيل جمال الانسياب والطلاوة ما فيه.

أ ــ الإبدال: أن تبدل الهمزة الساكنة حرف مد من جنس حركة ما

قبلها، فتبدل (ألفاً) بعد الفتح، نحو: وامر أهلك، و (واواً) بعد الضم، نحو: يؤمنون، و (ياءً) بعد الكسر، نحو: جيت. . . .

ب ـ النقل لحركته إلى الساكن قبله فيسقط، مثل: قد أفلح، بفتح الدال.

ولا أريد أن أطيل وأستقصي فإن (علم التجويد) المصدر الحق في كيفية تلاوة القرآن بالهيئة الصحيحة الثابتة يغني عن الإطالة والاستقصاء. وما دام القرآن يمكن أن يقرأ بالسبع والعشر كما نقل بالتواتر عن رسول الله ﷺ فإن ألواناً أخرى من الجرس الصوتي تعطينا (صيغاً) ترتيلية لا نعهدها في قراءة ثانية.

إن جمالية التخفيف والمد والإمالة، وجلالية التفخيم والاستعلاء تبوىء الترتيل القرآني منازل صوتية وإيقاعية ينفرد بها عن أي كتاب سماوي وأرضي آخر.

وهذا مما يثري القرآن بألوان كثيرة من الصيغ الجرسية الخاصة ويزيد في تناسقه الصوتي الذي تبلغ آثاره في النفس والوجدان ما لا يبلغه كلام آخر خال من مثل هذا النسيج الجرسي المتفرد.

إلهامات صوتية في المكي والمدني:

يفرّق العلماء بين المكي والمدني بفروق معنوية ولفظية وموضوعية، وإن لم تكن هذه قواعد كلية محددة، فهي فروق أغلبية روعي فيها مقتضى الحال ومستلزمات الدعوة الإسلامية، وقيام الأنظمة في ظل السياسة الجديدة.

ويهمنا هنا أن نتبين آثار هذه الفروق أو بعضها في الطبيعة الصوتية ولونها المميّز، وخصائص كلٍ، في إيجاز.

ونستبق القول إن اللون الجرسي لآية أو لسورة لا بد أن يتسق مع

المشهد أو الموضوع بحيث يتممان (وحدة) جمالية بينهما موضوعا ومعنى. حتى إن السورة الواحدة قد تحتوي على أكثر من لون واحد من الصيغ الجرسية المتناسبة مع معانيها بغض النظر عن كونها مدنية أو مكية، فسورة (الواقعة) المكية مثلاً تقدم عدداً من الإيقاعات، وألواناً أقل من الصيغ الصوتية.:

فالفاصلة في الآيات الثلاث هي التاء المصمتة، وتعقبها فاصلة قوية هي المد القصير، ثم تتخير السورة فواصل أخرى تتناسب مع الأصناف الثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون.

فاختارت للأولى عدداً من الفواصل أكثر من الثانية، بينما التزمت الثانية بفاصلة واحدة هي النون والميم المسبوقتان بحرف المد... وهكذا استقر الحال إلى نهاية السورة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

والمقطع الأول من السورة خير شاهد على ذلك: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ... ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (١ - ٤٦).

إنها ونظراءها مثل: الحاقة، القارعة، الغاشية، نماذج للمكي في سماته اللفظية والمعنوية، وهي إذ تشترك جميعها بالموضوعات والعناوين الواحدة، والمطالع المتماثلة، والآيات القصيرة؛ فإن (الواقعة) تفترق بشخصية خاصة باعتبارها تصنف مصائر الناس إلى أصناف، ومثل هذا يتطلب استقصاء في التقسيم والسمات الخاصة لكل قسم.

ولذا فقد تنوّعت الفاصلة وحافظت الآية على قصرها وإيجازها وجرسها القوي الآسر مثل أية سورة مكية أخرى، بينما التزمت سائر السور بفاصلة واحدة أو أثنتين حسب الموضوع أو المشهد المعالج.

إنها جميعاً ذات وتيرة شديدة غالباً، قوية التركيب، فخمة، مؤثرة، قارعة، مصورة، مثيرة للانفعالات الوجدانية تعتمد على موجاتها القصيرة في الفخامة والتأثير.

وقصر الآية والموجة والإيحاء والتصوير والإثارة السابقات ولجميع السور المكية، تلف السورة كلها وبخاصة في مشهد الواقعة، وفي مصير أصحاب الشمال.

أما في وصف أصحاب اليمين والسابقين فتخف الشدة وتلين الوتيرة حتى تبرز أحوالهم وهم يتنعمون بوارف الظلال وماء من معين، وفاكهة كثيرة... وعلى سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين....

وهذا يعني متابعة الجرس والإيقاع لطبيعة الآية المكية ومعناها لتحقيق اتزان في الجوانب المعنوية واللفظية والجرسية في مثل هذه السور القصيرة والمتوسطة. وقد قالوا: إن المفصل[1] نزل بمكة وذلك بداية من سورة (الحجرات) إلى سورة (الناس)، مع ما يتخلله من سور مدنية مثل: (النصر والمجادلة والحشر والممتحنة والصف)...

بينما تطول الآية بنفس أعمق في سورة (إبراهيم، والحجر)، وبنفس أكثر طولاً وأقل شدة في سور مثل: (الإسراء والكهف والأنعام والأعراف) المكيات، حتى تقترب من الآيات والسور المدنية، وغالباً تنحو منحى (جلالياً) في قوة وعلوية متميزة.

وتسلك السور والآيات المدنية في معظمها الأطناب والتفصيل والتوضيح والشرح والحوار الهادىء وتقرير التشريع ودقائقه بعيدة عن الشدة والعنف مراعية في ذلك اختلاف البيئة والناس. ففي عباراتها لين وتسامح، وطلاوة، ونعومة، تتميز بصوتية رخية ندية، ورحابة في المقاطع، وتسلسل في التركيب، وهدوء في الإيقاع وطول موجاتها، يعين على تأمل الفكر والإدراك ويمنح جماليات هانئة رضية ومتنوعة.

---

(١) والمفصّل: على وزن معظّم. سمي بذلك لكثرة الفصل بين سورها لقصرها، وقيل: لقلة المنسوخ فيها، فقولها فصل.

نماذج من التناسب اللفظي المعنوي والصوتي والتصويري:

لا نتوقع فصلاً كاملاً في النصوص القرآنية فيكون بعضها متناسباً في المعنى، وبعضها الآخر في الجرس، وبعضها الثالث متناسب في التصوير، فقد تكتمل كلها في نص واحد ـ وهو كثير ـ فيجمع بينها وحينئذ يبلغ الإعجاز ذروته في التناسب الكلي: المعنوي والصوتي والتصويري، في نص أو مشهد أو حالة أو قصة.

وعندئذ يتسق (التنوع) الجمالي في (وحدة) كبرى يتربع الإعجاز القرآني عليها روحاً علوية وبياناً فذاً، ومأثرة إلهية كريمة.

والتنوع والوحدة وإن اهتم بهما الفن الإسلامي (أصلاً) على اختلاف في نسب الروعة في توزيعهما فإن مجالاتهما التشكيلية والتعبيرية متنوعة مثلا: تقسيم السطح إلى مساحات ذات أشكال هندسية مختلفة، داخل هذه الأشكال نجد الوحدات الزخرفية المستمدة من العناصر النباتية أو الأشكال الهندسية أو الحيوانية أو الخطية، وقد يجتمع في المساحة الواحدة كل هذه الأنواع الزخرفية، وكل وحدة من الوحدات الزخرفية داخل مساحة هندسية هي كاملة في ذاتها... وهي أيضاً متكاملة مع سائر العناصر التي تجمعها، المساحة الكلية (وكذلك) التناظر الموجود بين الأدب العربي والموسيقي، وبين الفن التشكيلي... ففي الأدب تتضمن القصيدة مشاهد متعددة، وصوراً متقابلة، وقد لا تكون هناك صلة موضوعية بين أجزائها، ومع ذلك فإنها في النهاية تتسق أجزاؤها في وحدة فنية كلية، تثير فينا إحساساً جمالياً، وتذوقاً لهذا اللون الفني[1]...

ومع هذا فيبقى القرآن متفرداً بأروع الجماليات المعنوية والصوتية والتصويرية ليقيم (وحدة) الإعجاز في آفاق سامية من البهاء الأحدي.

---

(١) مقتبس من: الفن الإسلامي: أصوله، فلسفته، مدارسه: ٩٨، ٩٩. أبو صالح الألفي. دار المعارف، لبنان ط/٢.

١ - في التناسب اللفظي المعنوي:

وسببه اختيار لفظة أو تركيب قرآني يتسق بمعانيه مع موضوع النص أو المعنى العام وفق ترتيب معين مقصود. وإذ يعد التناسب المعنوي وجهاً من وجوه الظاهرة الجمالية فإن التتبع المعنوي للقرآن مما يثري هذه الظاهرة في كثرة الموضوعات المألوفة والمجهولة التي عرضها، وكان له في كثير منها قصب السبق بإبرازها فكرياً وعلمياً واجتماعياً وتربوياً وقانونياً لا من حيث تعدادها وتنوعها وكثرتها ومعالجاتها المشكلات المختلفة وحسب وإنما من حيث تناسق بعضها ببعض، وعرضها بشكل فني رائع. والجملة القرآنية وحدها مضمون فكري ومعنوي متناسق مع تسلسل تركيبها وتناسب ألفاظها.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. تجد إسماعيل معطوفاً على إبراهيم، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، **أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم، (قيل كان إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة) فنزلت الآية، وكأنما كانت ستنسى دور إسماعيل لثانويته، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها.**

ويتم التناسق أيضاً في صفات فئة من الناس تؤدي كل صفة منها إلى الأخرى حيث تمضي الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب، وإحكام في تلاؤم. واقرأ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(البقرة: ٢و٣و٤و٥) ترى آيات قد التحم نسجها، وارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها، في التئام واتساق، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال، ووصفته الجملة الثانية، بأنه لا يعلق به الريب، لا في أخباره، ولا في نسبته إلى الله. وفي الجملة التالية جعله هادياً لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، ويقومون بواجبهم لله، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدى، وواجبهم للمجتمع، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والمعتر، ولا يتعصبون لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد، وما أنزل من قبله، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وينهى عن المنكر والبغي، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم، وكانوا هم المفلحين.

وقد يأخذ التناسق ألواناً من الانتقال في الخطاب والغيبة لإبراز معنى أو صفة أو حالة يقتضيها السياق، مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ فالانتقال من الحديث عنهم، إلى الحديث إليهم زيادة في تهديد من قالوا، ومواجهة لهم بالسخط عليهم، والتأنيب لهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) فقد يكون ظاهر السياق أن يقال: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي بارك حوله، ليريه من آياته، إنه هو السميع البصير)، ولكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور في وسط الآية، تعظيماً من شأن المسجد الأقصى ومن شأن ما يري الله من آياته.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، فعندما جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا، نسب ذلك إلى نفسه صراحة، لما فيها من الجمال الذي يبهر نفس رائيه، والنفع الملموس لهم، فذكرهم الله بأنه خالق هذا الجمال، ومبدع هذه الزينة.

أو يتخذ هيئة تختلف فيها الأزمنة مثل:

استعمال أحد الفعلين: الماضي والمضارع، موضع صاحبه، فيأتي بالمضارع مكان الماضي؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع، حتى لكأنه يشاهده؛ وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضي، لأن سامعه قد يكتفي بأن يتخيل فعلاً قد مضى، وربما لا يستحضر صورته أو تكرره. واقرأ قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ ففي (تثير) ما يحضر تلك الصورة الطبيعية، الدالة على القدرة الباهرة، ويستخدم الماضي مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور. ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (النمل: ٨٧) وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٧) وقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ١) وقوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم: ٢١) وفي الإتيان

بالماضي هنا من إيقاع الرهبة في النفوس ما فيه؛ لأن الفعل كأنه قد تم، والقرآن يتحدث عنه.

ويبدو التناسب المعنوي في روعة التسلسل والترتيب، **والاتساق في رسم الشخصيات المختلفة** في تعبير متناسق مع نفسية الشخصيات من ناحية، ومتناسق مع تسلسل الأحداث والوقائع المختارة والمطلوبة من ناحية ثانية.

ونحن هنا لا نقصد تلك الشخصيات التي استوفت سورة أو سورتين على الأكثر رسم ملامحها وإبراز سماتها مثل: يوسف وذي القرنين والكهف، وإنما نقصد الشخصيات التي كثر ترددها في القرآن الكريم مثل معظم سير الأنبياء عليهم السلام، فقد تكررت قصة موسى أكثر من ٣٠ مرة وإبراهيم أكثر من ٢٠ مرة...

إن كل (نجم) من القرآن عرض لمثل هذه الشخصيات المتكررة بالمقدار الذي يعين على الهداية والقدوة والاعتبار وأصول الدين والفضائل، وكانت أحداثه متناسبة ووقائعه متناسقة من ناحيتين: من ناحية انسجامها مع سياقها وسباقها باعتبارها شاهداً أو نموذجاً وحيداً على صدق مجريات الأحوال والأمور، ثم من ناحية تناسب فصول هذه القصة بعضها ببعض باعتبارها وحدة تحقق الغرض الديني والفني معاً.

فقد عرض القرآن لشخصيات مختلفة مؤمنة وجاحدة، ضعيفة وذات نفوذ، وكانت عروضة متنوعة بين الطول والقصر والتوسط، ولكن ملامحها وأحياناً دقائق نوازعها وخفاياها تبدو واضحة للعيان ما دام في عرضها عبر ودروس.

إنه مثلاً عرض لفرعون الذي كان يعلن أنه الرب الأعلى، ولاسكندر ذي القرنين الذي عرّفه برأيه وصلاحه وإصلاحه، وللوليد بن المغيرة بتفكيره وتدبيره وتذوقه لبيان القرآن وجمالياته، وللرسول ﷺ بكل ما في شخصيته من

مزايا من الرحمة واللين والعفو والحرص على هداية قومه وإيثارها على ما سواها، والحكمة والحنكة والصبر... وبكل ما تحمله من نوازع بشرية وإنسانية، تجعل منه إمام الأنبياء والمسلمين ومثلهم الأعلى.

وعرض صوراً سريعة عن الجيل الأول وتضحياتهم وفدائهم وحزمهم في مواجهة الكفر والطغيان، إلى جانب ما عرضه من مسارب الضعف البشري حيث كان.

وأطول العروض نفساً وأكثرها تعدداً شخصية الأنبياء كما سبقت الإشارة إلى بعضها، وهذه الشخصيات وإن اشتركت جميعها في الرسالة والتبليغ والصدق والأمانة والفطانة فإن لكل منها جوانب فردية ظاهرة وخفية، واتجاهات إنسانية قد لا توجد في شخصية أخرى بمثل هذا التجمع والتكوين والصيغة البشرية. ومن أبرز هذه الشخصيات: إبراهيم عليه السلام. إنه نموذج الهدوء، والتسامح والحلم ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

فها هو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته، يبحث عن إلٰهه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وما يكاد يصل إلى هذا اليقين، حتى يحاول في بِرّ وود أن يهدي إليه أباه، في أحب لفظ وأحياه.

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

ولكن أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول، ويهدده تهديداً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

فلا يخرجه هذا العنف عن أدبه الجم، ولا عن طبيعته الودود؛ ولا يجعله ينفض يديه من أبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾.

ثم ها هو ذا يحطم أصنامهم ـ ولعله العمل الوحيد العنيف الذي يقوم به ـ ولكنه إنما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر. عسى أن يؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جُذاذاً، وعلموا أنها لا تدفع عن نفسها الأذى. ولقد كادوا يؤمنون فعلاً. ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. ولكنهم عادوا فهمُّوا بإحراقه، وحينئذ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

ولقد اعتزلهم عهداً طويلاً مع النفر الذي آمن معه، ومنهم ابن أخيه لوط.

وفي كبرته وهرمه يرزقه الله بإسماعيل؛ ولكن يقع له ما يحتم عليه أن يبعد ابنه وأمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع) فيغلبه الطبع الرضِيُّ على الحنوّ الأبوي؛ ويدركه إيمانه بربه، فيدعهما بجوار بيته. وهناك ينادي ذلك النداء الخاشع المنيب:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ ثم ما يكاد هذا الطفل يشب، ويصبح فتى، حتى يرى في المنام أنه يذبحه، فيغلبه الإيمان الديني العميق، على الحب الأبوي العميق، ويهم بإطاعة الإشارة، لولا أن يرفق به ربه، فيفديه بذبح عظيم.

وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية مميزة الملامح، واضحة السمات ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾.

٢ ـ في التناسب الصوتي:

إن الظاهرة الصوتية التي تنشأ من تآلف الحروف والكلمات والفواصل القرآنية تبدو واضحة في كل آية ومقطع وسورة. والقرآن وإن أكثر من فاصلة الميم والنون المسبوقيتن بالمدود فإن فواصل أخرى في حروف مد ومصمتة قامت بتوزيع جماليات وجلاليات متناسبة مع جو السورة ومشاهدها.

وكذلك فإن الجرس الداخلي والظاهري يوحي بأهمية تأثير الصوت المتناسق، والجملة الصوتية في النفس والوجدان لا من حيث التأثير التغييري وحسب ولكن من حيث التأثير الفني الجمالي أيضاً.

يقول الرافعي: وقد كان منطقُ القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصُّها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحنُ الموسيقيّ، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يُثير بعضه بعضاً على نِسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده.

ثم يوضح أثر الصوت المتناسب في الانفعال النفسي وتأثره به فيقول:

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنة، أو ليناً أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يحمل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الأطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

ويطبق فكرته النفسية على القرآن فيقول: فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومَن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم، وتهتز عند سماعه، لأنه فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان.

ويؤيد كلامه بالأسرار الجرسية للفواصل القرآنية فيقول: وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب...

ثم يقول: من ذلك: لفظة «النذُر» جمع نذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً. فضلاً عن جَسأةِ هذا الحرف ونُبوهِ في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفصحُ عن موضعه الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فتأمل هذا التركيب. وأنعمْ ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجْر حركاتها في حِس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا» وهذه

الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا»، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقلُ الضمة عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمةُ قد أصابت موضعَها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردِّد نظرك في الراء من «تمارَوا» فإنها ما جاءت إلا مساندةً لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تخفّ عليها ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أنذرَهم» وفي ميمها، وللغنَّة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكمته الروية وراضه اللسان، وليس منها إلَّا متخير مقصودٌ إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات، وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ومن أي وجه يلتمس وعلى أي جهة يستطاع، وكيف يأتي للإنسان في مثل تلك الآية وحدها ـ فضلاً عن القرآن كله ـ وهو لا يكون إلا عن نظرٍ وصنعة كلامية؟ والبليغُ من الناس متى اعتسفَ هذا الطريق ولم يكن في الكلام إلى سجيَّته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة، وضاق به التصرُّف وتناثرت أجزاءُ كلامه من جهاتها، وكلما لجَّ في المكابرة لجَّت البلاغة في الإباء، فمثله كمن يمشي مستديراً ويحسب أنه يتقدم ولأنه ـ زَعمَ ـ لم يُحرف وجهه ولم يَنفتلْ عن قصده، ولأن نظره ما يزال ثابتاً فيما يستقبله !.

وينوع سيد قطب الأمثلة القرآنية في ألوان جرسية وإيقاعية متناسقة مع الموضوع والجو والمشهد، فيقول: في سورة النازعات أسلوبان موسيقيان، وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيهما تمام الانسجام:

أولهما: يظهر في هذه المقطوعة، السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبنى، تنسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف، على النحو التالي:

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾.

والثاني يظهر في هذه المقطوعة، الوانية الحركة، الرخية الموجة، المتوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديثَ الكرة الخاسرة، والزجرة الواحدة، وحديث الساهرة، على النحو التالي:

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ . . . إلخ.

أظن أننا لسنا في حاجة إلى قواعد موسيقية، ولا إلى اصطلاحات فنية، لندرك الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين، فهو واضح لا يخفى، وهو كذلك منسجم في كل حالة مع الجو الذي تطلق فيه الموسيقى. ولهذه الموسيقى وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض، في المرتين الأولى والأخرى.

فلنستمع إلى نوع ثالث من هذه الموسيقى. إنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ . . . ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾.

أو دعاء آخر:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي

ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

ولسنا كذلك في حاجة إلى قواعد واصطلاحات لنحس أن هذا أسلوب غير الأسلوبين السابقين، منسجم مع الدعاء كل الانسجام، بالتطريب والتموج والاسترسال.

ثم نخاطر فنلقي بلون من الموسيقى المتموجة الطويلة الموجة ـ ولكنه لون آخر تماماً ـ نخاطر فنلقيه هنا اعتماداً على وضوح الفارق بينه وبين اللون الذي مضى.

إن التكوين الموسيقي للجملة هنا يزيد على التموج العمق والسعةَ، وفيه كذلك هول وشجى. إنها موسيقى الطوفان: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولاً وعرضاً في عمق وارتفاع، ليشترك في رسم الهول العريض العميق. والمدّات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق.

ونخاطر مرة أخرى، فنعرض لوناً ثالثاً لتموج الموسيقى، مع اختلاف تموجها واتجاهها:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾. فليرتل القارىء هذه الآيات بصوت مسموع، ليدرك تلك الموسيقى الرخية المتماوجة. إنها تشبه الموجة الرخية في ارتفاعها لقمتها وانبساطها إلى نهايتها، في هدوء واطمئنان، يتفقان مع جو الطمأنينة في المشهد كله، ولعل لتوازن المد إلى أعلى بالألف، وإلى أسفل بالياء على التوالي، شأناً في هذا التموج.

وتقدم مزيد من بيان التناسق الصوتي، وتناسق الترتيل، والصيغ المختلفة في الجرس القرآني.

ومن السابقين (السيوطي) حيث أتى بنماذج تطبيقه للتناسق الصوتي في حروف الآية ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾، وذلك عند التفريق بين جمال وبلاغة الآية وأقوال العرب في المعنى نفسه مثل (القتل أنفى للقتل)...

يقول السيوطي: (من الفروق): اشتمالها على حروف متلائمة لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد، إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق[1]. وليس من العسير أن نشارك في تحليل أي تركيب أو آية قرآنية من الناحية الصوتية. فالقرآن كله شواهد على ذلك، وسنأخذ بجوانب أخرى من التحليل الجرسي عند تفسير سورة الحجر جمالياً، إن شاء الله.

٣ ــ في التناسب التصويري:

إن القدرة الفنية على التعبير عن أغراض القرآن وموضوعاته بالصورة الأدبية الرائعة، هي قدرة الإعجاز البياني الذي يجعل منه وجهاً للظاهرة الجمالية في القرآن الكريم.

---

(١) الإتقان: ٥٦/٢.

وكل ما ساقه العلماء والأدباء والفنانون من صور قرآنية بلاغية عبر القرون الطويلة وحتى الآن يعتبر نماذج فنية للأداء القرآني في تعبيره عن الطبيعة والكون والإنسان وعن الإلهيات التي تشتمل فيما تشتمل عليه الغيبيات الأرضية والعلوية والأخروية.

والصورة القرآنية التي تأخذ أبعاداً من الصدق الفكري والشعوري والتاريخي والجمالي تعمق بتأثيراتها الوجدانية وطاقاتها النفسية في الأعماق الباطنة للإنسان لتعمل على تغييرها وإصلاحها وهدايتها.

وهي إذ تعبر عن هذا كله بالصوت أو باللغة المصورة المقروءة فإنها تبز أية لوحة تشكيلية ترسم هذه الأغراض بالدقة والروعة والحركة والزمن الذي ترسمه لغة القرآن وصوره الفذة.

ثم إنها بجرسها العميق والظاهر تضفي عليها جمالاً صوتياً متسق المسافات دقيق النسب والأبعاد وافر الألوان بديع القسمات رائع التناسب والانسجام، هذا الجمال الجرسي المتناسق مع جمال الصورة لا تكشف عنه الموسيقى وحدها ولا اللوحات التشكيلية بمفردها.

ثم إن القرآن بتميزه في صوره وصوتياته وموضوعاته تتقاصر دونه نصوص فنية أخرى فتعجز عن مساواته أو اللحاق به وإن تمتعت بنسب معينة من الجمال الفني البشري.

١ ـ ويشير الجرجاني إلى جمالية الصورة القرآنية وتناسقها وأثرها في عدد من فنون البلاغة: كالتشبيه، والمجاز العقلي واللغوي والاستعارات...

● ففي التشبيه التمثيلي: (وهو أن يكون وجه الشبه منتزعاً من متعدد) يورد له قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ...﴾ الآية كثرت

الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصّلت، وهي وإن كان دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه[1].

ويذكر في: مواقع التمثيل وتأثيره: وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه وأجدر بأن يجلي الغيايه (ما أظل من فوق الرأس) ويبصر الغاية، ويبرىء العليل ويشفي الغليل[2].

● وفي المجاز العقلي واللغوي: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وذلك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب، على حد قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا...﴾ ومن الواضح في ذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾. جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها[3]...

● و(في المجاز العقلي) وهو (إثبات الفعل لما لا يثبت له): وهذا الضرب من المجاز كثير في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وقوله: عز اسمه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

---

(١) أسرار البلاغة: ٨٧. ط/٥ دار المنار: ١٣٧٢ هـ.

(٢) المصدر السابق: ٩٢ - ٩٦.

(٣) المصدر السابق: ٣٢١.

وفي الأخرى ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أثبت الفعل في جميع ذلك لما لا يثبت له فعل، إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب، وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل، ولا الآيات توجد العلم في قلب السامع لها، ولا الأرض تخرج الكامن في بطنها من الأثقال، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز منها وأودع جوفها[1]...

٢ ـ ومن أواخر الدراسات البلاغية كتاب: في إعجاز القرآن البياني[2]. الذي يقول:

أول ما يسترعي النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة، وسر عمومه للناس جميعاً، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، وبين أيديهم، فلا تجد في القرآن تشبيهاً مصنوعاً، يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان، انظر إليه يجد في السراب وهو ظاهرةطبيعية يراها الناس جميعاً، فيغرّهم مرآها، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء، فيسعون إليه، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد، فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون، إنه يجد في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة، تظن مجدية نافعة، وما هي بشيء، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾.

(١) المصدر السابق: ٣٣٥.
(٢) د. بدوي وقد تقدم، والأمثلة مقتبسة من ص: ١٩٦ ـ ١٩٨.

ويجد في الحجارة تنبو على الجس ولا تلين، ويشعر عندها المرء بالنبو والجسوة، يجد فيها المثال الملموس لقسوة القلوب، وبُعدها عن أن تلين لجلال الحق، وقوة منطق الصدق، فيقول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، أوَ لا ترى أن القسوة عندما تخطر بالذهن، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية.

ويجد في هذا الذي يعالج سكرات الموت، فتدور عينه حول عواده في نظرات شاردة تائهة، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفزعين من المضي إلى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد، فيقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

ويجد في الزرع وقد نبت ضئيلاً ضعيفاً، ثم لا يلبث ساقه أن يقوى، بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، ويغلظ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد، فقد بدأوا قلة ضعافاً، ثم أخذوا في الكثرة والنماء، حتى اشتد ساعدهم، وقوي عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، وقلب الكفار حقداً وغيظاً، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ... وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

فأنت في هذا تراه يتخذ الطبيعة ميداناً يقتبس منها صور تشبيهاته، من نباتها وحيوانها وجمادها، فمما اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة،

والحبة تنبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه. ومما اتخذ مشبهاً بـه من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة، والعنكبوت، والحمار، والكلب، والفراش، والجراد، والجمال، والأنعام، ومما اتخذ مشبهاً به من جمادها العهن المنفوش، والصيب، والجبال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب. ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعني بنفاسة المشبه به، وإنما يعني العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس، وشدة وضوح الصورة وتأثيرها.

٣ ـ وأخيراً يعرض: التصوير الفني في القرآن[1]، صوراً يظهر فيها التناسق الفني في «وحدة» الصورة في الأجزاء والتوزيع والألوان وفي اللمسات القرآنية الدقيقة والعريضة، ويبرز صوراً أخرى في أطرها الجرسية والإيقاعية الوادعة الشفافة والخشنة الصاخبة. وصوراً أخرى تختلف في المدة المقررة لبقاء المشهد معروضاً على الأنظار، فمنها ما هو سريع خاطف ومنها ماهو طويل متراخ...

ثم ينوه بالوسائل المتعددة لإطالة العرض في نماذج قرآنية وخاصة: مشاهد القيامة. ويقول:

أ ـ مرة تكون الإطالة باللفظ المخيل للتكرار. مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروّع، ويكرر العملية المفزعة؛ وكلما زاد فزعاً وارتياعاً، زاد إقبالاً على التكرار. ذلك أن الهول يشد إليه النفس ويوثقها، كلما همت منه بالفرار!.

(١) سيد قطب في أطول فصول الكتاب من ص: ٩٤ ـ ١١٦، وأمكنة أخرى.

ب ــ ومرة تكون الإطالة بالنسق اللفظي، كالتفصيل بعد الإجمال، مع عرض الأجزاء بالتفصيل، مثل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾.

فهو **أولاً**: أجمل العذاب: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وقطع السياق، ليستريح المشاهد، ويأخذ نَفَسَه ويستعد للتفصيل. ثم أخذ في التفصيل.

وهو **ثانياً**: حينما بدأ التفصيل بعد الإجمال، بدأ العملية من أول مرحلة، وعلى مهل.. فالذهب والفضة قد صارا جمعاً لا مثنى، بالإلماع إلى قطعهما الكثيرة؛ وفي هذا تطويل بالكثرة: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ - لا عليهما - ثم ها هي ذي «يحمى عليها» فلننتظر حتى تُصهر.. لقد صُهرتْ، فلتبدأ العملية الرهيبة: هذه هي الجباه تُكوَى.. لقد فرغوا من الكي في الجنوب. فلتحرّكْ الأجسام للظهور. هذه هي الظهور تكوى.. تمهل. فلم ينته العرضُ بعد.. هناك التقريع والتأنيب، عند الانصراف المتخيل ليتناول العذابُ جماعةً أخرى من الصف الطويل: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

جـ ــ ومرة تكون الإطالة بتفصيل الحركات وتعددها، وبالتكرار الذي تخيله الألفاظ معاً:

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

فهذا مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة المتكررة. هذه ثياب من النار تقطع وتفصّل. وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس، يصهر به ما في البطون والجلود. وهذه مقامع من حديد. وهذا هو العذاب يشتد، ويتجاوز الطاقة؛ فيهب «الذين كفروا» من الوهج والحميم، والضرب الأليم، يهمون بالخروج من هذا «الغم». وها هم أولاء يُردّون بعنف: «ذوقوا عذاب الحريق!». ويظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى أخيرتها، حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف، ليبدأ العرض من جديد!.

د ـ ومرة تكون الإطالة بوقف حركة المشهد، وإخلائه من كل ما يشعر بالحركة. فهذا «ظالم» يقف يوم القيامة، وكأنما هو واقف وحده على المسرح، يبدىء ويعيد في الندم؛ حتى لتهمّ بأن تقول له: كفى يا أخانا فلا فائدة! مع أن المدة التي يستغرقها قصيرة نسبياً؛ ولكن يخيل إليك أنها طويلة طويلة:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾.

فهذا الندم الطويل، والتذكر لما مضى، مصحوباً بالنغمة الطويلة الممطوطة، والموسيقى المتموجة المديدة، يخيل إليك الطول، ولو أن اللفظ نسبياً قليل. وإطالة موقف الندم تتسق مع التأثير الوجداني المطلوب.

وشبيه بموقف الندم، موقفُ الاعتراف. فها هم أولاء جماعة من المجرمين يُسألون. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ فيكون الجواب: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ . . . ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾، وكان حسبهم أن يقولوا: كنا كافرين أو مكذبين ولكن هنا يحسن الاعتراف بالتفصيل.

ووسائل أخرى. . . ولا ريب أن سعة النظرة الفنية المتأملة جعلت من (قاعدة) التصوير القرآني المتسق، ذات أبعاد جمالية عريضة وعميقة لم تظفر بها الدراسات البلاغية والفنية المتقدمة.

موضوعات جمالية
في القرآن الكريم
الله ذو الجلال والجمال

تصورات إلهية خاطئة من الوجهة الجمالية

انحرفت فطرة الإنسان عن التوحيد الديني الذي كان الأنبياء يدعون إليه ويلقون من أجله ألوان التعذيب والتنكيل وأحياناً التشـريد والقتـل، ولكنهم يظفرون فيما بعد بالحق الذي يريدون ويدعون.

فليس ثمة صفاء ووضوح كالتوحيد وليس في العبودية الدينية روحيـة عقلية كالإيمان به سبحانه وتعالى عما يشركون، لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

دين واحد، إله واحد، معبود فرد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ عقيدة الأنبياء وأساس الرسالات وأصل الأصول، ومنطلق الديانات الموحاة من الله عبر القرون والأجيال. ومثل هذه العقيدة النقية المنطقية تستجيب لها الفطرة وتقتضيها، وتؤمن بها وتتشوق إليها، وتسمو بها إلى مراتب الإنسانية الكريمة. . .

وإن في مصداقيتها وأحقيتها وكمالها ورفعتها أجمل التصورات وأبهاها، وأبدع الحقائق العلوية وأروعها، وأجلّ الألوهية وأعظمها، فسبحان الله ذي الجلال والجمال.

ومع هذه البداهات النفسية والأوليات الفطرية والجماليات الروحية تنحرف الفطرة إلى ما لا ترضاه ولا تقبله ولا تدين به أو تخضع إليه. وهي في حقيقتها راغبة عنه نافرة منه. متشوفة إلى الملأ الأعلى رب السمٰوات والأرض. وإن في العلمية الخارقة والنسق الخلْقي العجيب، والنظام البديع الذي يكشف عنه العلم الحديث كل يوم، جلاء الروح الجمالية التي تسري في الوجود والإنسان والحياة مظهراً وأثراً لجلال الله وجماله في الذات والصفات والأفعال. وصدق الله حيث يقول: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك: ٢٢).

ومع هذه الحقائق العلمية والدقائق النظامية البديعة يبرز الإلحاد مكشراً عن أنيابه مسوداً في وجهه ضيقاً في مده، غائباً عن نداء الفطرة غافلاً عن رغباتها وإشراقتها، يلبس نفسه كساء المذهبية المعاصرة. مثل تلك المذاهب المناظرة التي لم تحقق في موازين القيم والخير والجمالية شيئاً مذكوراً.

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠).

إن الانحرافات قديمها وحديثها لم تكن انحرافات في الكفر والعقيدة والتصور فحسب وإنما كانت انحرافات في الجمالية العامة: جمالية المبدأ والإيمان والسلوك.

ونتج عنها سلسلة من الأخطاء والتشوهات في الفنون والآداب الإنسانية أو قصور في إبراز جانب منها وإهمال الجوانب الأخرى التي تحتاج إليه البشرية حاجة عقدية وجمالية.

ثم نتج عنها أو معها (سفلية) الأداء الفني، وشروخ كبيرة في جماليات المعاني والمثل، فانحط معظمها إلى دركات الحيوانية البهيمية في إطار من الجمالية الخادعة المرفوضة.

والفطرة التي تستجيب للدين تستروح الجمال، وتسرّ به وتضيء حياتها بحسنه وتنفر من القبح، وتنأى عما تستقذره الحواس.

وهي إذ تتأمل مشاهد الطبيعة والجماليات الروحية والمادية تعزف عن مشاهد الجرائم وأشكال الأشياء المتنافرة.

وإذا استجابت النفس للجمال واستروحت له ـ وهو قد يعتريه البلى أو الوهن وينكره بعضهم ويعْليه آخرون ـ فكيف يكون موقفها من الله واهب الجمال ومبدع الكون ذي الجلال والسلطان؟.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ولكنه في جنان الخلد وجمالها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) وقديماً قال أفلاطون: جمال عجيب، أبدي، غير مولود، ولا قابل للفناء، غير خاضع للانحطاط ولا للازدياد... ذلك هو الجمال الإلهي[١].

وكان مع أرسطو خلفه يبحثان عن نموذج فذّ في الجمال الشامل، الواجب الوجود، المطلق، الأمثل (الله)[٢].

وحديثاً كان سيد قطب يقول في التصوير الفني في القرآن: ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة... فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه[٣].

ولهذا اتخذ الإنسان القديم بعد فساد فطرته جماليات من الطبيعة والأجرام والتماثيل الفنية فعبدها وطلب منها روحاً ينعم به ومفاتن يلذ بها.

---

(١) مقتبس من علم الجمال: ٣٢.
(٢) المصدر السابق: ٤٢.
(٣) التصوير الفني: ٢٤٢.

وتنوعت الأشكال المعبودة واتسعت في أقطار الأرض، وأخذت زخرفها الهائل في القرن السادس قبل الميلاد.

ـ فكانت فارس تمجد الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرها، ثم جاء زرادشت، فيقال: إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى الشمس والنار ساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإلٰه، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء، وجاء بعده علماء سنّوا للزرادشتيين شرائع مختلفة... ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة للعبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً، ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجهلت الحقيقة ونسي التاريخ[1].

ـ وجعلت الهند من البرهمية بوذا مظهراً للآلهة وقلدتها في ذلك البوذية نفسها... وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله. فلم تكن البوذية إلا طرقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات والتحلي بالفضائل والنجاة من الألم. والحصول على العلم. وإذا كانت البوذية سائدة في الصين فإن البرهمية نظيرتها سادت في الهند. فكثرت التماثيل والآلهة لها، وأصبح كل شيء رائع. وكل شيء جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد... فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثّل فيهم الله، ومنها جبال تجلّى عليها بعضُ آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر (الكونج) الذي خرج من رأس (مهاديو)

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٤٣ نقلاً عن: تاريخ إيران: شاهين مكاريوس: ٢٢١، ومعلوم أن الزرادشتية خلفت الثنوية الفارسية: الخير والشر، والنار والنور...

الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية...

وارتقت صناعةُ نحت التماثيل في هذا العهد وبلغت أوجها حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية ونصب الملك (هرش) الذي حكم الهند من ٦٠٦ - ٦٤٧ م، تمثالاً ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً...[1].

- وفي القرن نفسه وما بعد حظيت اليونان وخاصة (أثينا) بنصيب ضخم من الفنون التي تجسدت في أشكال وثنية وآلهة متعددة ومتنازعة في معظم الأحيان.

وكانت الفلسفة اليونانية تسير بدفع من المتاحف الوثنية المقامة إلى جانب المدارس الفلسفية المختلفة، وإذ تحاول أن تجرد الإلهيات فيها من التجسيد الجمالي الصرف وتحررها من المادّيّات الوضعية وترفعها إلى أجواء القيم والحق والجوهر الفرد فإن العقلانية المنطقية والحساسية الجمالية تؤسسان الاتجاه الفلسفي اليوناني في ظلال باهتة أو قوية من الوثنية القائمة التي كانت تعتبر الآلهة لدى جمهور الناس هناك، ولذلك فإن الفلسفة اليونانية تبقى (يونانية) ولا تصير (إسلامية) وإن ترجمها المترجمون واقتبس منها (فلاسفة) مسلمون، وشاعت بعض مصطلحاتها في عصور وعلوم متأخرة.

ومهما يكن من أمر فإن البحث يحاول أن يبرز تطلع اليوناني إلى جمال الآلهة وإن نحتت لها الأصنام وصنعت القصص الخرافية من أجلها.

١ - **فيثاغورس** (ت ٥٠٧ ق م): كان ينادي بدين جديد جلبه من الشرق مع الآله أورفيوس، وفيه نزعة إلى الزهد لا تتفق مع النزعة الديونيسية بوجه خاص.

---

(١) مقتبسات من السابق من ص: ٤٦ - ٤٨ عن رحلة هوتن سوتنج.

ويحيط الغموض بشخصية أورفيوس، فهو الإه، أو نبي، أو شاعر، أو موسيقار يفتن بموسيقاه الكائنات من شتى الأصناف. وللنِّحلة الأورفية رأى في أصل العالم وحقيقة الإنسان. ففي البدء كان الزمان، ونشأ عن الزمان الأثير والعماء، وشكل الزمان بيضة في الأثير تفتحت فخرج منها النور، وانفلقت نصفين أصبح أحدهما السماء والآخر الأرض. وتزوجت جايا (الأرض) أورانوس (السماء) فأنجبا ثلاث بنات وستة بنين. ولكن أورانوس ألقى بالأبناء في نهر تارناروس حين علم بأن أبناءه سيقضون عليه. وغضبت جايا فأنجبت التيتان وهم مردة جبابرة، وكرونوس، وريا، وأقيانوس، وتيش، وتمضي الأسطورة فتصور لنا كيف ولد ديونيسوس من زيوس، ثم خطف التيتان الطفل وأكلوه، وكيف أعاد زيوس ديونيسوس، إلى الحياة مرة ثانية، وكيف سلط على التيتان البرق والرعد فأحرقهم وجمع رمادهم وخلق منهم الإنسان فأصبح بذلك مركباً من طبيعتين، طبيعة التيتان وهي طبيعة الشر والإثم، وطبيعة ديونيسوس وهي طبيعة إلهية سامية.

واصطنعت الفيثاغورية النِّحلة الأورفية وبخاصة نظريتها في النفس ونزعتها السرية.

٢ ـ **وأفلاطون** (ت ٣٤٧ ق م): تلميذ سقراط أقام في مدرسته المعبد الموهوب لربات الفنون الذي كان الطلبة يقدمون إليه الأضحية في أوقات معلومة، وبخاصة (لهرمس) إله الحكمة... وكانت (المثُل) عنده نماذج ثابتة أزلية يفسر بها وجود الموجودات ومعرفتها، وتتدرج عنده حتى تقف عند ثلاثة: الحق والخير والجمال... وأغلقت مدرسته فيما بعد بسبب أنها كانت مهد التعاليم الوثنية في الوقت الذي تغلبت فيه المسيحية وسادت، ثم نزل فلاسفتها في (جند يسابور) في امبراطورية كسرى أنو شروان الفارسي، ولأفلاطون: المأدبة وموضوعها: حب الجمال، وفيدون: في خلود الروح...

٣ ـ **وأرسطو** (ت ٣٢٢ ق م): المشّاء تلميذ أفلاطون الذي كان يبحث

عن العلل الأولى والغايات الأخيرة، وهي ضرب من البحث المنظم حتى عرف بـ (المنطق) ولقب بالمعلم الأول وكان يرى أن المحسوس مركب من مبدأين الهيولي والصورة، والقول بأن العالم مادي. فهو يسلّم بوجود المادة إلى جانب الصورة، وله فصول في موضوعات مختلفة يطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة، والإلهيات، والله هو العلة الغائية التي تجذب، وصورة من غير مادة مثل النفس...

٤ ـ **ومدرسة الاسكندرية**: أسسها بطليموس الأول (ت ٢٨٢ ق م) لينافس بها أثينا وكانت مؤسسة ثقافية أشبه بمعهد عال للأبحاث مقره في (المتحف). وهو معبد أو هيكل لربات الفنون (موزايوس) التسع، وهن بنات زيوس ونيموسيني، وهذه التسع هي: ربة التاريخ، والشعر الغنائي، والكوميديا، والتراجيديا، والترانيم، والرقص، والموسيقى، وشعر الغزل، والفلك، والشعر الحماسي. وجعل بطليموس هذا عبادة (الإسكندر) ديناً رسمياً عاماً لإغريق مصر، وهي العبادة التي تطورت إلى عبادة أسرة البطالمة.

٥ ـ **وأفلوطين** (ت ٢٧٠ م): وتقوم فلسفته على أن (الواحد) قمة الوجود وأعلى منه، وعن الواحد يصدر العقل، وعن العقل تصدر النفس. وهكذا يبدأ بثالوث متدرج في القيمة على رأسه (الواحد). ومفهومه عنده ليس واضحاً متميزاً، فهو تارة (الله) وتارة أخرى (الخير) وتارة ثالثة (الأول). وأفلوطين يرى أن أول موجود صدر عن الواحد العقل، فاض عنه لأنه صورة من الواحد، أو شبح له ثم يصدر عن العقل النفس التي هي صورة أدنى من العقل...

وواضح أن فلسفته تقوم على نظام (الفيض) الهندي، وعلى (الثالوث) المسيحي بما يحملانه من وثنية متأثرة ومؤثرة. ومن صورها (الجمالية) قوله: ... فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجباً بهتاً، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الإلهي... (وحين) أترقى

بذاتي إلى العالم الإلهي . . . أرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسن على صفته ولا تعيه الأسماع . . .

إنها (صوفية) تقوم على (وثنية مسيحية) كان لها صداها المحبوب مع الأسف لدى بعض المتصوفين المتأخرين من المسلمين .

٦ ـ **وأخيراً: فرفويوس** (ت ٣٠٥ م): المعروف في العالم العربي الإسلامي بكتابه (إيساغوجي) وباللغة اليونانية (المقدمة إلى مؤلفات سقراط). ومن مؤلفاته التي تغنينا: فلسفة الكهانة. يصور فيه العبادات الدينية في هياكل الوثنيين بحسب ما كانت تمارس عند المصريين والكلدانيين والسريان. ومنها: صور الآلهة، وهو يدافع فيه عن الوثنية ويبين أن عبادة الأصنام لا تنطوي على كفر كما يزعم المسيحيون واليهود، لأنها رموز محسوسة تقرب إلى الإله . . .[1].

وليس لنا من تعقيب عليها فهي نفسها تتحدث عن نَفْسها، وعن انحرافاتها العقدية التي نتج عنها جماليات وثنية هابطة مهما اتسقت فنيتها وتناسقت أجزاؤها، وتسامت مفاهيمها.

وإذا كانت قمم الفكر والفلسفة الذين كانوا مراجع العلم والفن والأدب في الشرق والغرب تنحدر عقولهم إلى وثنيات أو تمزجها بها فإن طغيان العقل اليوناني الذي كان يطمح لمعرفة الإلهيات لم يحظ بنصيب من معرفة كنه الحقيقة الأزلية أو ما يسمى بما وراء الطبيعة.

ولكنه كثيراً ما كان ينحدر في وهاد الوثنيات مهما حاول أن يعلي من شأن فلسفته نظرياً.

---

(١) مختارات من: المدارس الفلسفية. د. أحمد فؤاد الأهواني. مكتبة مصر ١٩٦٥ م. وانظر فيه: صورة خرافية لعقيدة اليونان في قصة جوبيتر رب الأرباب مع اسقولاب إله الطب، و: بروميثوس إله المعرفة . . .!! وصراعها المشبوب الحقود، في: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: العقاد.

ومهمـا يكن من أمر التقـدم العلمي والفلسفي اليونـاني الذي ورثتـه الحضارة الغربية الحديثة فإن النظرات الإلهية أثّرت في جماليـات الأشكال المعبودة، كأوثان ومسرحيات، وشعر، وفنون تشكيلية مختلفة.

ـ **وفي اليهودية والنصرانية** تشويه للرب ووصفه بما لا يليق به وظهر هذا واضحاً على (الإيقونات) و (المعابد) المسيحية من الوجهة الجمالية فكثر فيها الرموز والصلبان والمجسمات في بيوت العبادة حتى نالت من التقديس ما لم يحظ به الإله الخالق[1].

ولا نطيل الكلام عليهما ففي القـرآن الكريم ضـلالاتها وانحـرافاتهـا وطغيانها وطغيان رجالها مما لا مجال فيه لمزيد. وربما عرضنا لبعضها من خلال الآيات التي تتحدث عنها.

وبقي أن نفصّل شيئاً عن **أباطيل العرب العقدية** لا من الناحية الفكرية الإيمانية وإنما من ناحية اختيارهم أجمل الأشكال والأوثان للعبادة.

فقـد زودنا كتـاب: الأصنـام: هشـام بن محمـد بن السـائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) بمعلومات وفيرة عن موقف العرب منها، وكذلك الصحيحان، وسيرة ابن إسحاق، وابن هشام. وأشهرها (مناة) لهذيل وخزاعة، و (اللات) لأهل الطائف وسدنتها من ثقيف، و (هبل) أعظمها من عقيق أحمر على صورة إنسان، وقال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل، فقال الرسول ﷺ: «الله أعلى وأجل»، و (العزّى) لأهل مكة وبنوا عليها بيتاً تحيطها ثلاث سمرات كبيرة، وحين قطعها خالد بن الوليد وضرب العزى وفلق رأسها قال رسول الله ﷺ: «تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب». ومن أصنامهم (إساف ونائلة). . . ولما فتح الرسول مكة وجد حول البيت (٣٦٠) صنماً فجعل يـطعن بقوسـه في وجوهها وعيونها ويقول: «جَاء الحقُّ وزَهقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كـانَ زَهُوقـا»

(١) انظر: مقدمة خصائص التصور الإسلامي، فصل: تيه وركام: سيد قطب.

(الإسراء: ٨١)[١]، و(ذو الخلصة) لـدوس وخثعم فانـطلق إليها جـرير بن عبدالله في (١٥٠) فارس فكسرها وحرقها[٢] وأصنام أخرى.

إذاً فالجزيرة العربية كانت تعجّ بالوثنيات والعقائد المنحرفة ومنها عبادة الملائكة أنها بنات الله، والجن كما ذكره الكلبي عن بني مليح من خزاعة[٣]، وعرف بعضهم عبادة الكواكب: كانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمـر، وتميم الـدبران، ولخم وجـذام المشتـري، وطيء سهـلاً، وقيس الشعـرى العَبور، وأسد عطارد[٤].

وهذه الحماقات والجهالات ذات دلالة جمالية في غالب الأحيان. فمن أخبارها فيما رواه البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر...[٥].

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر **إلى أحسنها فجعله رباً**، وجعل ثلاث أثافيّ لقدره، وإذا ارتحل تركه[٦].

عبادة وثنية وحسن حجري وآلهة من عقيق ما أحطها عبادة وتصوراً، ولكنها ذات دلالة انتقائية خاصة. وإذ هي بدائية العبادة والجمال فإن جمال البيان العربي وروعة الشعر الجاهلي ينضح بالحسن ويغطي أية جمالية أخرى من حيث المضمون والشكل معاً.

○ ○ ○

---

(١) انظرها في الصحيحين.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الأصنام: ٣٤.
(٤) طبقات الأمم لصاعد: ٤٣٠.
(٥) المغازي.
(٦) الأصنام السابق: ٣٤ نقلاً عن: خصائص التصـور الإسلامي: ٣٥.

أسماء الله الحسنى

وثبت أنها (٩٩) اسماً ونيّفها بعضهم على الألف وتزيد[1]. ونجد معظمها في القرآن الكريم وبعضها في صحيح السنة، التي ذكرت لها من الفضائل ما ليس لغيرها. وإن اللمحة الأولى منها تلهم بجمالها وجلالها فهي أسماء (حسنى) كما وردت في صريح القرآن. وهي إذ توحي بذلك في أصلها اللغوي والعقدي فإن آثارها ومستلزماتها تدل على (حسنها) أيضاً وهي.

١ ـ الله	٢ ـ الرب	٣ ـ الإلٰه	٤ ـ الواحد	٥ ـ الرحمٰن
٦ ـ الرحيم	٧ ـ الملك	٨ ـ القدوس	٩ ـ السلام	١٠ ـ المؤمن
١١ ـ المهيمن	١٢ ـ العزيز	١٣ ـ الجبار	١٤ ـ المتكبر	١٥ ـ الخالق
١٦ ـ البارىء	١٧ ـ المصور	١٨ ـ الأول	١٩ ـ الآخر	٢٠ ـ الظاهر
٢١ ـ الباطن	٢٢ ـ الحيّ	٢٣ ـ القيوم	٢٤ ـ العليّ	٢٥ ـ العظيم
٢٦ ـ التواب	٢٧ ـ الحليم	٢٨ ـ الواسع	٢٩ ـ الحكيم	٣٠ ـ الشاكر
٣١ ـ العليم	٣٢ ـ الغني	٣٣ ـ الكريم	٣٤ ـ العفو	٣٥ ـ القدير
٣٦ ـ اللطيف	٣٧ ـ الخبير	٣٨ ـ السميع	٣٩ ـ البصير	٤٠ ـ المولى
٤١ ـ النصير	٤٢ ـ القريب	٤٣ ـ المجيب	٤٤ ـ الرقيب	٤٥ ـ الحسيب
٤٦ ـ القويّ	٤٧ ـ الشهيد	٤٨ ـ الحميد	٤٩ ـ المجيد	٥٠ ـ المحيط
٥١ ـ الحفيظ	٥٢ ـ الحقُّ	٥٣ ـ المبين	٥٤ ـ الغفّار	٥٥ ـ القهار

---

(١) انظر فتح الباري: ١١/٢٢٠ إنها ٤ الآف اسم، نقلاً عن الرازي.

٥٦ ـ الخلّاق ٥٧ ـ الفتاح ٥٨ ـ الودود ٥٩ ـ الغفور ٦٠ ـ الرؤوف
٦١ ـ الشكور ٦٢ ـ الكبير ٦٣ ـ المتعال ٦٤ ـ المقيت ٦٥ ـ المستعان
٦٦ ـ الوهاب ٦٧ ـ الخفي ٦٨ ـ الوارث ٦٩ ـ الولي ٧٠ ـ القائم
٧١ ـ القادر ٧٢ ـ الغالب ٧٣ ـ القاهر ٧٤ ـ البر ٧٥ ـ الحافظ
٧٦ ـ الأحد ٧٧ ـ الصمد ٧٨ ـ المليك ٧٩ ـ المقتدر ٨٠ ـ الوكيل
٨١ ـ الهادي ٨٢ ـ الكفيل ٨٣ ـ الكافي ٨٤ ـ الأكرم ٨٥ ـ الأعلى
٨٦ ـ الرزاق ٨٧ ـ ذو القوة المتين ٨٨ ـ غافر الذنب ٨٩ ـ قابل التوب ٩٠ ـ شديد العقاب ٩١ ـ ذو الطول ٩٢ ـ رفيع الدرجات ٩٣ ـ سريع الحساب ٩٤ ـ فاطر السمٰوات ٩٥ ـ بديع السمٰوات والأرض ٩٦ ـ نور السمٰوات والأرض ٩٧ ـ مالك الملك ٩٨، ٩٩ ـ ذو الجلال والإكرام[1].

جلال وأي جلال، جمال وأي جمال، إنها الكمال المطلق الذي يليق بالله تعالى.

سنى ربّاني، وعظمة إلهية يتجمعان في أسماء الله الحسنى وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

---

(١) ذكرها الطبري وابن كثير في آخر تفسير (الحشر) مع شرح لبعضها، والشوكاني في تفسيره: ٢/٢٦٨ عند قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ (الأعراف: ١٨٠) مع الروايات المأثورة. وابنُ حجر في الفتح: ١١/٢١٤ عند حديث: (لله تسعة وتسعون اسماً) (٦٤١٠) في الدعوات باب: لله مائة اسم غير واحد، ثم فصّل الكلام عليها من حيث رفعها أو إدراجها، والروايات في تعيينها، وعددها في القرآن ضمن كل سورة فيه، وتعدادها في الآثار وعند بعض العلماء، وهل الاسم هو نفس المسمى، وكونها توقيفية، وأقوال العلماء في تصنيفها ومعانيها، وما ورد فيها من الأحاديث، ومعنى إحصائها، وابن تيمية: ٦/٧١ في الفتاوي: كمالها، ومعانيها، والاختلاف في عددها والأحاديث الواردة فيها ومعنى إحصائها. . . وانظر في تأويلها. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار من ص: ٣٩٠ د. عبدالفتاح لاشين، وفي كلام القاضي نظر ويحتاج إلى تعقيب.

١ ـ الأسماء الجمالية[1]:

وهي تلك التي سمى الله بها نفسه وتتضمن جمالية إلهية خاصة تليق به لا تشبهها جماليات المخلوقات والموجودات الأخرى.

وهي كما نلاحظ أكثر من الأسماء الجلالية التي سيأتي الكلام عليها مما تعيننا على تصور (الله) الإسلامي مبدئياً وجمالياً.

ومنها:

ـ **الرحمٰن الرحيم**: عربيان، من الرحمة، وهي في الأصل رقة في القلب تقتضي التفضل والإحسان، وغايتها إيصال الخير والثواب لمن يشاء من عباده ودفع الشر عنهم أزلاً، أو هي إيصال الخير لهم ودفع الشر عنهم...

وإذا دلت الرحمة لغوياً على رقة القلب في الإنسان المخلوق فليس من الضروري أن يتصف الله الخالق بمثلها فهي رحمة ربانية لا يماثلها رحمات الدنيا وأهلها، وكذلك سائر الأسماء والصفات، كما سمّى الله بها ذاته ووصفها به، وبيّنها من أفعال إلهية خاصّة به لائقة بجلاله وجماله (ليس كمثله شيء).

وحسبهما أهمية أنهما من المثاني السبع، ومن غيرها، وفي كل أمر ذي بال.

ويجدر بنا أن نلاحظ اقترانهما كثيراً وخاصة (الرحمٰن)، بالقرآن الكريم تعليماً ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (الرحمٰن: ١، ٢) ونزولاً ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (فصلت: ٢)، واتباعاً ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ (طه: ٩٠).

---

(١) اقتبسنا شيئاً من معانيها من رسالة: أسماء الله الحسنى: الشيخ حسين مخلوف. دار المعارف بمصر تاريخ المقدمة، ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م. وانظر معانيها أيضاً على الموازنة في: تفسير ابن كثير عند قوله: هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس، والشوكاني وابن حجر والطبري كما أشرت في التعليق السابق.

ـ **القُدّوس السّلام**: فالقدّوس المنزّه عن سمات النقص والعيوب وموجبات الحدوث، أو من تقدست عن الحاجات ذاته وتنزهت عن الآفات صفاته، والسّلام: ذو السلامة من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ . . .﴾ (الحشر: ٢٣).

ـ **الغفّار الرَّزاق**: فهو مسبل الستر على الذنوب في الدنيا ومتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢). والغفار أبلغ من الغافر لأنه وضع للتكثير ومعناه أنه يغفر الذنب أبداً.

وهو الرزّاق: المتفضل على عباده بخلق الأرزاق وإيصالها لهم، وقد ارتبطت بالإيمان به ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣)، ثم إنه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (الحج: ٥٨). ورزقه مادي وبدني وروحي ومعنوي.

ـ **اللّطيفُ الحليم**: فهو الذي لطفت أفعاله وحسنت، أو الذي لا تدركه الحواس، أو العليم بخفيات الأمور ودقائقها، واقترنت أحياناً بجمال الطبيعة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج: ٦٣).

وهو الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة مع غاية الاقتدار، أو الذي لا يستخفّه عصيان عاص ولا يستفزّه طغيان طاغ، واقترنت أحياناً بجماليات القول والإنفاق ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

ـ **الشَّكور ـ الكريم**: فهو المثْني على المصطفين من عباده، أو الذي

يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، وأصلها اللغوي مرتبط بجماليات الأشجار كثيرة القضبان في أصلها، ومن الناقة ممتلئة الضّرع. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٣٤).

وهو الكريم: الكامل الإحسان والإنعام. العفو عن السيئات الغافر الذنوب والعيوب، الجزيل الثواب والنعم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠) ووصف الله به كلامه ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧).

ـ **البَرُّ الرَّؤوف**: فهو فاعل البر والإحسان يحسن على عباده بالخير، أو البارّ الذي لا يصدر عنه القبح قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

والرؤوف: ذو الرأفة وهي نهاية الرحمة أو المنعطف على المذنبين بالتوبة، وهي مرتبطة بالإيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣) وبالتوبة وبتأخير العقوبة وبالهداية وطهارة القلوب، ثم برسول الله ﷺ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ـ **النُّور ـ البَديْع**: فهو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، أو المظهر لكل ما أراد إخراجه إلى الوجود، هو النور ليس مثله نور. أو منور السموٰات والأرض ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ (النور: ٣٥) ومنه نور الحق والهدى ونور الديانات والكتب السماوية، ونور البصائر والإيمان. وهي على سعة ترددها واستعمالها في القرآن أدلُّ على الجمال النوراني الإلهي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥).

وهو البديع: المبدع للأشياء بلا احتذاء ولا اقتداء. أو الذي لا مثيل له ولا نظير، أو الذي أظهر عجائب صنعته وأظهر غرائب حكمته. وهي خاصة بالله تعالى اقترنت في القرآن بالقدرة الإلهية وبالتوحيد ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

وهل يبدع هذه المخلوقات عظيمها وصغيرها جليها وخفيها سواه؟.

٢ ـ الأسماء الجلالية:

وهي تلك التي سمّى أو وصف الله بها نفسه في عظمة الذات وجلالها وأزلية الوجود وبقائه مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

ومنها:

ـ **الْمهَيْمن، العَزيز**: فهو الرقيب الحافظ لكل شيء، المبالغ في المراقبة والحفظ، أو الشاهد على خلقه بما يصدر عنهم من أقوال وأعمال.

وهو العزيز الغالب الذي لا يغلب، فلاينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ...﴾ (الحشر: ٢٣).

وإذا تعدد اسم (العزيز) في القرآن فإن اسم (المهيمن) لم يطلق سوى مرة واحدة مع أسماء الله في سورة الحشر كما سبق. وفي وصف كلامه تعالى (القرآن) ووظيفته بالنسبة للكتب السماوية ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ (المائدة: ٤٨).

ـ **الجبَّار ـ المتكبِّر**: فهو يقهر عباده على كل ما يريد ويقسرهم عليه، أو المنيع الذي لا ينال، أو المصلح أمور خلقه بما فيه إصلاحهم.

وهو المتكبِّر بالغ العظمة، أو الذي تكبر عما يوجب نقصاناً، أو المتعالي عن صفات المخلوقات بذاته وصفاته العلية. وهي كمادة لغوية وفيرة باشتقاقاتها في القرآن، ولكنها مع (الجبَّار) لم يصف بهما الله نفسه إلا مرة واحدة في قوله ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر: ٢٣).

وهما مع أسماء وصفات أخرى من خصائص الوحدانية وسماتها التي بدأها بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(الحشر: ٢٣).

ــ**القهّار، الحكَم**: فهو الذي قصم ظهور الجبابرة وقهرهم بالإذلال والنكبات والإهلاك والإذلال، أو الذي طاحت عند صولته صولة المخلوقين، ، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين. وأكثر ما تقترن بوحدة الألوهية والربوبية ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (ص: ٦٥)، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر: ١٦).

والحكَم الذي لا مردّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، فهو ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ له الحكم وإليه المرجع ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (التين: ٧، ٨).

ــ **القَابضُ، البَاسِط**: مضيق الرزق على من شاء وموسّعه على من أراد بحكمته ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(البقرة: ٢٤٥) ومنه قابض السحاب وباسطه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (الروم: ٤٨).

ــ **الخافض الرَّافع**: الواضع من عصاه، والرافع من تولاه، حقاً وعدلاً، قال تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١) وقال لعيسى عليه السلام ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ . . . ﴾ (آل عمران: ٥٥). ولم يرد (الخافض) في القرآن اسماً لله تعالى وإنما وصف بها القيامة فقال: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾(الواقعة: ٢، ٣)، ولكنّه ورد ضمن الأسماء الحسنى في الحديث الصحيح.

ــ **المِعزّ المُذِل** : أعز تعالى أولياءه بعظمته ثم غفر لهم برحمته... وأذل أعداءه عدلاً بعصيانهم وارتكابهم مخالفته، ثم بوأهم دار عقوبته.

والمعزّ والعزيز مشتقان من العزة يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون: ٨). ويقول: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وكذلك فإنهما لم يردا في القرآن بصيغة اسم الفاعل على الرغم من سعة هاتين المادتين فيه.

ـ **العَظِيم، الْجَلِيل**: فهو الذي لا تصل العقول إلى عظمته وكنه ذاته، أو الذي ليس لكُنْه جلاله نهاية، ولا لعظمته بداية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فهو أعظم من كل عظيم.

والْجليل: الكامل في ذاته وجميع صفاته، أو العظيم القدر له الجلال والعظمة والكمال، أو الذي يستحق أن يعترف بجلاله وكبريائه الخلق.

ولم يذكر هذا الاسم في القرآن بهذه الصيغة ولكنه سبحانه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمٰن: ٧٨).

ـ **القَوِيُّ، الْمَتِين**: فهو الكامل القدرة إلى أقصى الغايات فلا يعجز عن شيء بحال، فللّه القوة جميعاً وهو ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

والْمَتينُ: شديد القوة فلا يضعف بحال عما يريد، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨).

٣ ـ أسماء تشتمل على الجمالية والجلالية معاً، أو تشعر باحتمال وجودهما فيها مثل:

الْحكيم، الحقُّ، الْوكيلُ، العَـدْل، الخَبِير، الأوَّل، الآخِـرُ، الظَّاهِـر، البَاطِن، الخَالِق، البَارِىء، المصَوِّر... ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٤).

إن تحليلها دراسياً كما قدمت يفقدها الكثير أو القليل من حسنها وبهائها، ولكن رصفها ونسقها القرآني يبوِّئها أسمى الكمال، وتزداد روعة وبهاءً في (نظمها) الجمالي والجلالي ضمن الجملة القرآنية الواحدة فكيف

تصورها بعض أفهام المستشرقين والمستغربين بالتعارض أو التناقض المعنوي، والخلل والضعف البياني؟ إنها سقام الذهن وطفولة الذوق وبدائية الفهم.

صفات وأفعال إلهية أخرى:

إن الأسماء الحسنى السابقة تستوعب صفات الله وأفعاله الأخرى جميعها صراحة وضمناً وتلازماً واقتضاء. فقد صرح القرآن بها لتنبه الحسّ الإنساني والعقل والضمير البشري إلى الالتزام بالقيم الجمالية والجلالية التي تتفيأ في ظلال الخير والحق والجمال الإلهي. والقرآن - وهو كلام الله - لا بد من أن يستغرق حجماً كبيراً في ذكر صفات الله وأفعاله، وهو باعتباره سفراً يعبر عن جمالية الله وجلاله لا بد من أن تبدو فيه ظاهرة واضحة في أية مناسبة تربوية.

وإن مما يسترعي الانتباه بل ويعمق التأمل أن تعرض صفات الله تعالى وأفعاله في بيان قرآني فذّ تدنيه جمالياته من مراعاة الصفات والأفعال والأحوال البشرية في مواجهة الخصوم والأعداء، وفي سنى الرضا والبشر والحب في اللقاء مع الأحباب والمتقين.

- فهو ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: ٥٦)، وهو دليلهم إلى النجاة والمغفرة ودخول الجنة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ (الصف: ١٠ - ١٣).

والمؤمنون خاصة والناس عامة يحيون في وارف رحمات الله وفضله ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ٤٧)، و... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يونس: ٦٠) وفضله ليس للناس وحدهم وإنما هو ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) ويتفضل على عباده: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ...﴾ (الشورى: ٢٦).

ومن مظاهر فضله أنه ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ (الحج: ٥٤)، وكتابه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، . . . ورزقه البلاد بالغيث ونشره رحمته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨).

ورزقه العباد والدواب جميعاً ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ . . .﴾ (هود: ٦) وهو رزق إلهي جَمّ ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢).

ومن فضله ورحمته أنه التوّاب، واسع المغفرة، الودود، عظيم النعمة الرحمٰن الرحيم.

فأي جمال معنوي وروحي يرف على القلوب والنفوس من الله وبيان القرآن؟ وأي رضى وسعادة تغمر حياة الإنسان في ظل رحمة الله وفضله؟.

وظلال الأشياء، وأكنان الجبال، والسرابيل الواقية من الحر والبأس. . . والبر والبحر وتسخير الأرض والحيوان والرياح والنبات وغيرها تنبه الأذهان إلى (منافع) الجمال المطبوع والمصنوع ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١).

إنه فضل واسع ونعم وفيرة مادية ومعنوية فردية وجماعية ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ . . .﴾.

ـ وصفات وأفعال جمالية معبرة وعجيبة:

فالله يصلّي على المؤمنين ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ . . .﴾ (الأحزاب: ٤٣) وهو الوكيل عليهم قائلين ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل

عمران: ١٧٣)، يقترض من أموال المنفقين ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد: ١١)، ويخفف عنهم تكاليفه ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨)، ويعلّمهم ما لم يعلموا ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥)، ويثبتهم في المواقف العصيبة: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧) ويدعوهم إلى دار السّلام ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (يونس: ٢٥)، ويرضى عنهم ويرضون عنه ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح: ١٨)، ويبين آياته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٢).

وهو السبُّوح الذي ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحشر: ٢٤) والقريب المجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦). يشقّ الحب والنوى عن النبات. ويخرج النامي منه عن اليابس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥). إنها صورة بهية لاستمرار الحياة على الإنسان والحيوان مصدرها الله الأحد.

إنه وحده كاشف الصبح ضياءً، وجاعل الليل مستقراً وهدوءاً ومأوى، ومقدر حركة الشمس والقمر بحساب دقيق ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٩٦).

إنها لوحة جمالية تتخللها جلالية مبهرة رسمت فيها ضوء الصبح والليل والشمس والقمر في أبعاد دقيقة محكمة صنعتها قدرة الله. وهو يوالي المؤمنين ويتولاهم وهم يوالونه ويخلصون له ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى

﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٦). ويتمم نوره في السموات والأرض ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: ٨).

يحب المؤمنين ويحبونه، وينزل سكينته عليهم، ويبشرهم ويطمئن قلوبهم، ويصطفي منهم النبيين ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويوفقهم ويحسن إليهم، ويؤلف بين قلوبهم ويشتري منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون ويقتلون. ويورثهم الأرض ويستخلفهم فيها بعد أن أنبتهم منها نباتاً حسناً...

ما أروع هذا الجمال الذي التحمت فيه المادة والروح، وما أبهى تلك العلاقة بين الله والناس والمؤمنين. إنها الصلاة والوكالة، والمداينة، والتسامح، والتعليم، والتثبيت، والدعوة إلى الجنان الوارفة والإفْضال والموالاة والتحاب والبشارة...

ـ وصفات وأفعال يبدو فيها جلال العظمة والعلو والجبروت والاقتدار مما يليق بجلال الله وعظمته وعلوه وجبروته وقدرته:

١ ـ **في الكافرين**: فهو للناس عموماً ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج: ١٦) وشمولاً ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٧) ولا يعجزه أحد ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٣١) ويملي للظالمين ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٨) ويهددهم ويتوعدهم ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (هود: ١٢١، ١٢٢) ويذكرهم بمصائر الجاحدين السابقين ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ (يونس: ١٠٢) الذين أهلكتهم القدرة الإلهية على حين غرة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٤، ٤٥)، فقد استدرجهم الله وأملى لهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣)، ومهما أبرموا فلن ينفعهم إبرامهم ولن يغفل عنه ربهم ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٩، ٨٠) ومكرهم إلى بوار ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٤)، وكيدهم إلى خسران ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ (الطارق: ١٥) ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنفال: ١٨)، وخداعهم وخداع المنافقين مرصود ومرفوض ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ . . . ﴾ (النساء: ١٤٢) فالرسل تكتب خداعهم ومكرهم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾ (يونس: ٢١) فينتقم منهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢) ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾ (الزمر: ٣٧).

إذاً فهم يستحقون ختم القلوب وطبع الأسماع والأبصار ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ (البقرة: ٧) فقد ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ . . . ﴾ (النحل: ١٠٨) فقلوبهم لا تفقه وآذانهم لا تسمع وعيونهم لا تبصر ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٢، ٢٣)، حتى وإن كان الرسول ﷺ يُسمعهم آياته أو يريهم إياها فإنهم لا يسمعون ولا ينظرون ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ

كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يونس: ٤٢، ٤٣)، واحتجوا أنّ قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه. ولكن الله يردعهم ويقول: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤). وكان طبعها باتباع أهوائهم ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد: ١٦)، فزاغوا عن الحق ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف: ٥) وكفروا فطبع على قلوبهم ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٥)، وأحصىٰ الله عليهم أعمالهم ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ (المجادلة: ٦) ثم يرجعون إليه ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٤٦)، وحسبهم شهادة كبرى ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٩)، وشاهداً أعظم وأحكم ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبأ: ٤٧).

٢ ـ **في جهاد المؤمنين ونصرهم**: عرضت سور عدة للجهاد من خلال غزوات بدر وأحد والأحزاب وتبوك... وكان تأييد الله لهم بجنوده وتثبيت قلوبهم بالاعتصام به من أهم الوسائل المعنوية لنصرهم وفوزهم.

﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٣)، وكانت(أحد) دروساً عظيمة للمجاهدين خاصة والمؤمنين عامة فسقط منهم الشهداء وخسروا جولة عسكرية لأن الله جعلها عملية ابتلاء وتمحيص ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤١) ثم ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وكانت (أحد) حلقة خاصة في سلسلة النصر الإلهي للمؤمنين سبقتها انتصارات بدر الكبرى وتبعتها الأحزاب وحنين وتبوك، فكانت (بدر) نصراً عزيزاً من الله وحقاً منه ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال: ٧) فأمد المؤمنين بالملائكة ﴿بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ١٠) وربط على قلوبهم وثبت أقدامهم وألقى الرعب في المشركين وكأنَّ الله قتلهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال: ١٧، ١٨)...

وفي (الأحزاب) بعدها، أرسل الله جنوده على الكافرين ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ (الأحزاب: ٩) والله وحده عصمهم من السّوء ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٧) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥)، أما بنو قريظة الذين ظاهروا الأحزاب فكانت نتيجتهم القتل والأسر ووراثة الأرض والديار والأموال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٦، ٢٧).

٣ ــ **في تدمير الحضارات المنحرفة**: وتدور هذه القضية حول قواعد من القدرة والحكمة الإلهية، ومخالفة السنن الكونية العامة. فانتشار الترف والفسق يحق عليها القول ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦) وتزيين المفاسد والغمس فيها ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٥) وانتشار الجرائم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧).

وإهمال المسؤليات العامة والانشغال بالرخاء والسعة والشرور

يأخذهم الله بها بغتة ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٥)، ثم ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠)، وأولئك الشياطين من الجن والإنس يحركهم الإغواء والضلال ويؤخرهم الله ويحصي عليهم أعمالهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ (مريم: ٨٣، ٨٤). وصراع الحق والباطل لا بد من نصر الحق وأهله وإهلاك الباطل وشيعته ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣).

وهكذا فإن تدبير الله ذي الجلال يُشيع الهلع والرعب ويزيد في الخشية والرهبة ويشعر بضعف الإنسان والمخلوقات، ويؤذن بالجبروت الرباني الذي لا مردّ لقضائه وسلطانه. حتى إن مثل هذه الآيات المخوفة كانت تزلزل قلوب المشركين وتجعلهم يفكرون في مصائرهم ويتأثرون من جلال ربهم منفعلين بالبيان القرآني المروع.

العلماء المسلمون وكمالية الله تعالى:

يغلب على العلماء إبراز الجانب (الجلالي) لله تعالى لبعث الخشية والرهبة في تربية النفوس، وإذا نحا بعضهم إلى إبراز الجانب الجمالي فقلما يذكر ذلك بصراحة القول والتصنيف.

وكان علماء الكلام أسبق من غيرهم وأقدر لإبراز هذا الجانب بينما نجد علماء الأخلاق والصوفية ينوهون بشكل أوضح بالجانب الجمالي لله تعالى.

ولا ريب أن العظمة الإلهية وهيبة أسمائه وصفاته وأفعاله تروع الألباب وتهيمن على النفوس، وتربط خلْقية الإنسان الضعيف الصغير بالكون العظيم وبالأجرام السماوية الهائلة ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: ٥٧).

إن خلق الإنسان وخلق السموات والأرض يشتركان في الإعجاز الدقيق والنظام المتناسقَ والقدرة الفائقة، فكلاهما معجز ودقيق ومتناسق، ولكن خلق السمٰوات والأرض يبدو للعيان أكبر ووجودهما أعظم ورؤيتهما أفخم.

وهذه قاعدة أساسية في التصور الإلهي فإن كثيراً من أسماء الله وصفاته وأفعاله تنبه إلى العلوية والجلالية حسب ما عرفنا من أسمائه الحسنى، ووفق ما وصف الله بها نفسه من خلال القرآن والسنة.

ولكن إلى جانب ذلك هناك كثير من الأسماء والصفات والأفعال ذات دلالات جمالية صريحة وضمنية من الرحمة والحب والجمال واللطف والبر والإحسان والسلام، والحنان، والمنان، وبديع السمٰوات والأرض. . .

وهذه أيضاً قاعدة عريضة في التصور الإلهي فلا يمكن أن نتصور الذات الإلهية إلا بها، ولا صفاته إلا منها، ولا أفعاله إلا إليها.

١ ـ الأكملية والأنورية: فما من عالم إلا وينوه بكمال الله تعالى واتصافه بصفات الكمال المشروعة وتنزيهه عن صفات النقصان، وكمال الله يقتضي وصفه بصفات الجلال والكمال، وأن نوره فيه من العظمة والشفافية ما يليق بكماله.

وينوه ابن تيمية بكمالية الله تعالى وصفاته الذاتية كالسمع والبصر والحياة والقدرة والعلم والكلام، ومنها الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والعينين والغضب والرضا، والصفات الفعلية كالضحك والنزول والاستواء، بمقدمتين. . . ويقول:

(أحداهما) أن يعلم أن الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من **الأكملية**، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى، يستحقه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه؛ فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية

والبراهين اليقينية، مع دلالة السمع على ذلك.

ودلالة القرآن على الأمور (نوعان):

أحدهما: خبر الله الصادق، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به.

والثاني: دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب. فهذه دلالة شرعية عقلية، فهي «شرعية» لأن الشرع دل عليها، وأرشد إليها؛ و«عقلية» لأنها تعلم صحتها بالعقل. ولا يقال: إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر.

وإذا أخبر الله تعالى بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية: صار مدلولاً عليه بخبره. ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى «الدلالة الشرعية».

وثبوت «معنى الكمال» قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة، دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى. فما في القرآن من إثبات الحمد له، وتفصيل محامده، وإن له المثل الأعلى، وإثبات معاني أسمائه، ونحو ذلك: كله دال على هذا المعنى.

وقد ثبت لفظ «الكامل» فيما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ إن «الصمد» هو المستحق للكمال، وهو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكم الذي قد كمل في حكمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه وتعالى.

وهذه صفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ ولا كمثله شيء. وهكذا سائر

صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نـازع في هذا المعنى؛ بـل هذا المعنى مستقر في فطر النـاس؛ بل هم مفـطورون عليه، فـإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفطورون على أنه أجلّ وأكبر، وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء.

ثم يؤكد على الجانب الجمالي لكمالية الله تعالى ويقول: . . . وكذلك إذا قال نفاةُ الصفات المعلومة بالشرع أو بالعقل مع الشرع كالرضا والغضب والفرح ونحو ذلك. . . قيل لهم: هذه بمنزلة الإرادة والسمع والبصر والكلام، فما لزم في أحدهما لزم في الآخر مثله. . .

ثم يقول: . . . وأما الغضب مع الرضا والبغض مع الحب فهو أكمل ممن لا يكون منه إلا الرضا والحب دون البغض والغضب، للأمور المذمومة التي تستحق أن تذم وتبغض، ولهذا كان اتصافه بأن يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع ويعز ويذل، أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء والإعزاز والرفع، لأن الفعل الآخر ـ حيث تقتضي الحكمـة ذلك ـ أكمـل مما لا يفعـل إلا أحد النوعين ويخلّ بالآخر في المحل المناسب له. . .

ويقول عن الصفات الملازمة للذات: كان ذلك أبلغ في الكمال من جواز التفريق بينهما، فإنه لو جـاز وجوده بـدون صفات الكمـال، لم يكن الكمال واجباً له بل ممكناً له، وحينئذ يفتقر في ثبوتها إلى غيره، وذلك نقص ممتنع عليه. . . فعلم أن التـلازم بين الذات وصفـات الكمال، هـو **كمال الكمال**.

ثم يقرر حسن أسمائه تعالى بعيدة عن النقص حتى في حال الإخبار عنه. . . يقول: . . . وأسماء الله ليس فيها ما يدل على نقص ولا حدوث، بل فيها الأحسن الذي يدل على الكمال، وهي التي يدعى بها. . . وأما في الأسماء المأثورة فما من اسم إلا ويدل على معنى حسن. . . .(١).

---

(١) منتقاة من الفتاوى: ٦/٧١ - ١٥٦.

ويقـول ابن القيم عن اسم (الله) أنـه: دال على جميـع الأسمـاء الحسنى، والصفات العليا... وصفات الإلهية هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص...

ثم يذكر بعض دلالة اسم (الله) كونه مألوهاً معبـوداً، تألهـه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحـوائج والنـوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنتين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته، وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

ثم يقول: **وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)**، وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب).

وصفات الإحسان والجود والبر، والحنـان والمنة، والـرأفة واللطف: أخص باسم (الرحمٰن)...

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم (الملك)[1].

وتثبت الأكملية في تنظيم الخالق وحسن النظر العقلي: فالمخلوقات والمأمورات كلها تدل على الصفات وحقائق الأسماء الحسنى وهي شواهدها. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلاً وحساً وفطرة ونظراً واعتباراً. والنور الإلهـي الذي جعله لعبده ويلقيه إليه، ويودعه في سره هو الذي يبصّره بشواهد صفاته، فكلما قوي هذا النور في قلب العبد كان بصره بالصفات أتم وأكمل، وكذلك بالتفكير الصحيح، وهما يدلان على إثبات صفات الكمال

---

(١) مدارج السالكين: ١/٣٢ - ٣٤.

ونعوت الجلال، وأما **فكر** مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها، وينضاف إلى نور البصيرة، حياة القلب بحسن النظر، فلا بد من الأمرين، فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصفات، وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه لم يستفد به إثبات الصفات، فإذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه أثمرا له إثبات صفات كماله، وقد أثبت سبحانه هذين الطريقين فقال في الأول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) **وقال في الثاني**: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك أن اسمه (الحميد) سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. . . واسمه (الملك) يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه، من قدرته وتدبيره وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه وبثّ رسله، وإعلام عبيده بمراسيمه وعهوده إليهم. . . فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله، وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلةً له.

ثم تحصل له فيما بعد أنوار الجلال والجمال، وذلك عند الشعور بمشهد القيومية الدائم، وعندئذ تفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه كما يفيض نور الشمس عن جرمها، فيغرق في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر. . . ثم يرجو أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق ومحو وجوده الطبيعي ويبقى له وجود قلبي روحاني ملكي فيبقى قلبه سابحاً في بحر من أنوار آثار الجلال. . . ثم يرقيه الله سبحانه فيشهد أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال، فيستغرق في نور من أنوار **أشعة الجمال**[1]. . .

---

(١) المصدر السابق: ٣/٣٥٦ - ٣٥٨ و ٣٨٢ مختصراً.

٢ ـ العلماء وجماليات الأسماء والصفات والأفعال أشرت إلى شيء من هذه الجماليات في القرآن الكريم وموقف العلماء المسلمين منها وأورد فيما يلي صفات وأفعالاً أخرى في الحديث النبوي باعتباره مفسراً للقرآن الكريم، وبيان ذلك من خلال شرح هذه الأحاديث.

وفي المقدمة، نسوق حديثاً أساسياً في هذا الجانب هو ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: لا يدخلُ الجنّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبْر، قال رجل: إنّ الرجلَ يحب أن يكون ثوبُه حسناً ونعله حسنةً، قال: إن اللَّهَ جميلٌ يحب الجمالَ، الكبر بطَر الحقّ وغمطُ النّاس[1].

يقول النووي في شرح الحديث: اختلفوا في معناه، فقيل إن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل، وله الأسماء الحسنى، وصفات الجمال والكمال، وقيل: جميل بمعنى مجمل، ككريم وسميع بمعنى: مكرم ومسمع. وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله معناه: جليل، وحكى الخطّابي أنه بمعنى ذي النور والبهجة: أي مالكهما، وقيل: معناه جميل الأفعال بكم باللطف والنظر إليكم، يكلفكم اليسير من العمل ويعين عليه، ويثيب عليه الجزيل ويشكر عليه... ثم يقول: والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى، ومن العلماء من منعه، وبعد أن عرض لورود اسم (الجميل) في خبر الآحاد قال: وقد اختلف أهل السنة في تسمية الله تعالى، ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولا منعه، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب الله، أو سنة متواترة، أو إجماع على إطلاقه، فإن ورد خبر واحد فقد اختلفوا فيه، فأجازه طائفة، وقالوا: الدعاء به والثناء من باب العمل، وذلك جائز بخبر الواحد...

---

(١) مسلم بلفظه: الإيمان، تحريم الكبر: ٢/ ٨٩ بشرح النووي، وأحمد: ٤/ ١٣٣، ١٣٤ بألفاظ قريبة.

وقال القاضي: والصواب جوازه لاشتماله على العمل، ولقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

ولكن لا مانع من شمول الجمال لذاته وأمره وأفعاله وتشريعه... وجواز إطلاقه على الله ما دام ثبت بالسنة الصحيحة نصاً، وبالقرآن الكريم دلالة، **وكذلك الأحاديث الصحيحة التي تصرح: بالفرح والضحك والرحمة وغيرها من الجماليات الإلهية.**

ففي أحاديث الفرح تشرق معاني الرضا الإلهي على التائبين وقبولهم، والله (يفرح) لتوبتهم و (يسرّ) بأدبيتهم أشد فرحاً وسروراً من الضال في مفازة هو وناقته.

فقد روى عبدالله بن مسعود وغيره عن رسول الله ﷺ قال: لَلَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويّة مهلكة معه راحلته، عليها طعامُه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطشُ، ثم قال: أرجعُ إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضعَ رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلتُه، وعليها زادُه وطعامه وشرابه، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده[1]. قال المازري: المراد هنا أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريرة[2]. وقال الخطّابي: إن الله أرضى بالتوبة وأقبل لها، والفرح الذي يتعارفه الناس بينهم غير جائز على الله تعالى... وقال ابن فُورك: الفرح في اللغة السرور، ويطلق على البطر... وعلى الرضا، فإن كل من يسرّ بشيء ويرضى به يقال في حقه: فرح به،.... وقال القرطبي: هذا مثل قصد به بيان سرعة

---

(١) لفظ مسلم في التوبة: ٦١/١٧ بشرح النووي وانظر رواياته الأخرى فيه، ورواه البخاري بألفاظ قريبة، في الدعوات (٦٣٠٨).

(٢) النووي السابق.

قبول الله توبة عبده التائب، وأن الله يقبل عليه بمغفرة، ويعـامله معاملة من يفرح بعمله. . . ثم يقول: لكن الفرح له عندنا ثمرة وفائدة؛ وهو الإقبال على الشيء المفروح به، وإحلاله المحل الأعلى، وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى، فعبر عن ثمرة الفرح بالفرح على طـريقة العـرب في تسمية الشيء باسم ما جاوره أو كان منه بسبب[1]. . .

وعلى كل حال فـإن إطلاق الـرسول عليـه الصلاة والسـلام على الله (الفَـرح) في هذه الحالة ينبغي أن يعلم أنه فرح يليق بالله تعالى، وهو في ذُروة الجماليات الإلهية[2].

ويقول ابن القيم: والقصد أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ومـا يليق بعز جـلالـه. . . ثم يصـور شيئـاً من آثـار هـذا الفـرح فيقـول: . . . . فعلم سيده ما في قلبه (التائب)، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكـان الشدّة عليـه رحمة بـه، وأبدلـه بالعقوبـة عفواً، وبـالمنـع عطـاءً، وبالمؤاخذة حلماً. . . فكيف يكون فرحه به، وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة[3].

إنه جمال يسمو بالأرواح إلى مدارجها العليا وأكرم به من سمو إلهي عظيم.

وفي أحاديث الرحمة أقدس معاني الرحمانية الموزعة على أهل الأرض جميعاً لم يخل منها إنسان ولا دابة.

---

(١) ابن حجر في الفتح: ١١/١٠٦، ومن المعروف أن مذهب أهل السنّة والجمـاعة شمول هذه الصفة على ما يليق به تعالى.

(٢) وهذا واضح من مذهب السلف الصالح.

(٣) المدارج: ١/٢٠٩ ـ ٢١١ منتقاة.

ففي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبيْ أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر ألّا تطرحه. فقال: لَلّهُ أرحمُ بعبادهِ من هذه بولدها(١).

إن هذه الأم وقد خشيت على ولدها أو ولد غيرها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتأخذه وتلصقه ببطنها وترضعه، أنموذج الرحمة والحنان وأمْثولةُ الشفقة والعطف، ولكن الله أرحم بعباده منها وأشفق عليهم سبحانه وتعالى أرحم الراحمين.

يقول ابن حجر: وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أنه فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها، فالله سبحانه وتعالى أرحم منه، فليقصدْ العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة(٢)...

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرسُ حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه(٣).

ونقل ابن حجر(٤) رواية عطاء: فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها

---

(١) هذا لفظ البخاري في الأدب (٥٩٩٩) ولمسلم قريب منه في التوبة: سعة رحمة الله تعالى: ٦٨/١٧ بشرح النووي.
(٢) الفتح: ٤٣١/١٠.
(٣) هذا لفظ البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ولمسلم قريب منه.
(٤) الفتح: ٤٣٣/١٠.

تعطف الوحش على ولدها. . . وفي حديث سلمان: فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض. ووقع في آخر حديث سعيد المقبري في الرقاق: فلو يعلم الكافر بكل ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة.

ويقول ابن القيم: (وأخبر الله عبده التائب في عهده) أنه أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. . . ثم يقول: وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء، فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به[1]. . .

وفي أحاديث (الضّحك) من العباد في حالات عديدة ما يليق بالذات الإلهية وينبه إلى جمالية روحية راضية.

ففي البخاري من حديث أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَن يضمّ - أو يضيف - هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله، فقالت: ما عندنا إلا قوتُ صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) المدارج: ١/٢١١، ٢١٤، منتقاة.

(٢) مناقب الأنصار باب: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٣٧٩٨)، والنسائي في المناسك.

إنها صورة رائعة في جمالية الإيثار تقتضي الإعجاب أو الضحك من الله تعالى . . .

وفي مسند أحمد من حديث أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربُّنا من قنوط عباده وقرب غيره، قال: قلت يا رسول الله، أوَ يضحك الربّ عز وجل؟ قال: نعم، لن نَعدم من ربٍّ يضحك خيراً»[1].

ويضحك الله إلى: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفّوا للقتال[2]. . .

ويعدد ابن القيم حالات أخرى لضحك[3] الله:

حين يأتي العبد من عبوديته بأعظم ما يحبه، فيضحك سبحانه فرحاً ورضا.

كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه، ومضاجعة حبيبه إلى خدمته يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو، فأقبل إليهم، وباع نفسه لله، ولقّاهم نحره، حتى قتل في محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه. فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

ثم يعقّب: وليس في إثبات هذه الصفات محذور البتة، فإنه (فرح) ليس كمثله شيء، و(ضحك) ليس كمثله شيء، وحكمه حكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته، فالباب باب واحد: لا تمثيل ولا تعطيل.

---

(١) المسند: ٤/١١، ١٢. (٢) المسند: ٣/٨٠.

(٣) المدارج: ١/٢١٦. وانظر الفتاوي: ٦/٩٢ - ٩٤.

أليس في مثل هذه الصفات الإلهية ما يلهم بجمالها، ثم بجمال العلاقة بين الله وعباده المؤمنين؟ وهل كان رسول الله ﷺ يصورها إلا من خلال تجليات القرآن المنزل على الرسول الحبيب؟.

وحسب (الضحك) الإلهي عملاً أو صفة جمالية أن الله قدمه على الإبكاء والإماتة والإحياء فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النجم: ٤٣، ٤٤).

فسبحان الله يضحك من عباده ولعباده، ويُضحكهم، ويفرح لتوبتهم وإنابتهم ويرحمهم رحمة عامة واسعة شاملة.

العلماء وجلالة الأسماء والصفات والأفعال: ويتفق العلماء على تفسير الجلال بالعظمة والعزة والرفعة.

يقول الرازي: الجلال بمعنى العظمة، غير أن العظمة أصلها في القوة، والجلال في الفعل، فهو عظيم لا يسعه عقل ضعيف فجلّ أن يسعه كل فرض معقول. وعند تفسير ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرحمٰن: ٢٧) قال: فالجلال مرتب على فناء الغير، والإكرام على بقائه تعالى،فيبقى الفرد وقد عزّ أن يحدّ أمره بفناء من عداه وما عداه.

ويقول ابن كثير عند تفسير الآية الأخيرة من «الرحمٰن»: ذي العظمة والكبرياء، وكذلك ذكره الطبري منقولاً عن ابن عباس.

وأبو السعود: ذو الاستغناء المطلق والفضل التام.

ويفرق ابن القيم بين عدد من الألفاظ الموهمة بالجلالية لتحديد معناها.

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون. والرهبة: إمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

والوجل: رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته.

والهيبة: مخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

ثم يقول: فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين[1].

ويقول الفيروزبادي في «البصائر»[2] (ت ٨١٧ هـ): الجلالة: عظم القدر، والجلال ـ بغير هاء ـ التناهي في ذلك، وخُصَّ بوصفه تعالى، فقيل: ذو الجلال والإكرام، ولم يستعمل في غيره، والجليل: العظيم القدر في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، ووصفه به إما لخلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه، أو لأنه ـ تعالى ـ يجلّ عن الإحاطة به، أو لأنه يجلّ عن إدراك الحواسّ.

ويصور سيد قطب شمول الجلالية الكون المنظور كله في الظلال: (وتطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ويفرغ المجال من كل حي، ويتجلى وجه الكريم الباقي، متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال، وتستقر في الحسّ حقيقة البقاء، وهو يشهد ظلال الفناء.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس، وتخشع الأصوات، وتسكن الجوارح... وظلّ الفناء يشمل كل حي، ويطوي كل حركة، ويغمر

---

(١) هو: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت: محمد علي النجار القاهرة ١٣٨٥. والكلام السابق من: ٤/٣٨٥.

(٢) المدارج السابق: ١/٥١٣.

آفاق السمٰوات والأرض... وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح، والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار.

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف، ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع، والجلال الغامر، والصمت الرهيب، والذي رسم مشهد الفناء الخاوي، وسكون الموت المخيم بلا حركة، ولا نأمة في هذا الكون الذي كان حافلاً بالحركة والحياة، ويرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ويطبعها في الحس البشري الذي لا يعرف في تجاربه صورة للبقاء الدائم، ولكنه يدركها بعمق في ذلك النص القرآني العجيب.

ونستنتج مما سبق:

١ ــ الجلال: هي العظمة المستغنية المتفضلة المقرونة بالحب ومنها أو تقتضيها العزة والرفعة الإلهية.

٢ ــ أن الصفات الأخرى كالخوف والوجل، والخشية والرهبة والهيبة آثار لتعظيم الله تعالى، ثم إنها (منزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً)[١].

وفي القرآن والسنة كثير من الأسماء والصفات والأفعال الجلالية سبق بعضها من مثل: المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، القاهر، العلي، الكبير، العظيم، الملك، الديان، القوي، القدير، الغالب، العاصم...

ومما ورد في السنة النبوية توجيه بلزوم ذي الجلال وعدم مفارقته والإلحاح به، ما رواه ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظّوا بياذا الجلال والإكرام»[٢].

(١) المدارج: ٢/٤٩٥.

(٢) أحمد: ٤/١٧٧ والترمذي في الدعوات.

وإذا غلبت معاني العظمة والهيبة على (الجلالية) الإلهية فإنها لا تخلو في مضمونها من الرحمة والمحبة والإشفاق.

فقد أقسم الله بعزته وجلاله أن يغفر للمستغفرين، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قال: وعزَّتك يا رب لا أبرح أغوي عبَادك ما دامت أرواحُهم في أجسادهم قال الربّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفرُ لهم ما استغفروني»(١).

ورفع الإسلام الحب الجلالي الخالص لله إلى مرتبة عظمى في الآخرة، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقولُ يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أظلّهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلِّي»(٢).

وكان أبو إدريس الخولاني يقول ـ لمعاذ بن جبل: والله إني ـ لأحبُّك من جلال الله. قال معاذ: آلله، قال معاذ: فإن من المتحابِّين في الله في ظل الله يوم لا ظلَّ إلا ظله(٣).

أما الشفاعة الكبرى للرسول عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فتقترن باستئذانه من الله أن تعمّ شفاعته كل من اعتقد بالتوحيد وحده.

فقد روى أنس بن مالك حديثاً طويلاً... ومنه: ... ثم أخرّ له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفعْ رأسك، وقُلْ يُسمعْ، وسل تعط، واشفَع تشفَّع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله(٤).

وكان رسول الله يتعوذ من أمور تتعلق بعظمة الله ورحمته ويعلّمها

---

(١) أحمد: ٣/ ٢٩.
(٢) مسلم: فضل الحب في الله تعالى: ١٦/ ١٢٣ بشرح النووي.
(٣) أحمد: ٥/ ٢٢٩.
(٤) البخاري: التوحيد (٧٥١٠).

أصحابه (كما يعلِّمهم السورة من القرآن)[1]. فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عُوذوا بالله من عذاب الله، عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات»[2].

ومن تعظيم المسلم ربه أن يكبّره ذكراً، ويحمده كثيراً وينزّهه عن النظير بكرة وأصيلاً. قال ابن عمر: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فقال رسول الله: من القائل كلمة كذا وكذا؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: عجبت لها، فُتحتْ لها أبواب السماء. قال ابن عمر: فما تركتُهن منذ سمعت رسول لله ﷺ يقول ذلك[3].

ومن ذكْر الرسول المأثور ودعائه عقب الصلاة قوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجد[4].

وما أجمع وأجمل وأجل ذكره المأثور: اللهم أنت السّلام ومنك السّلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام[5].

ومن ناحية أخرى فإن القرآن يعرفنا بصور من الجمالية (الملحدة) المنحرفة عن الله تعالى: فقد ترك الجاهليون أسماءه الحسنى وألحدوا بها. ولكنهم لم يغفلوا عن محتواها الجمالي والجلالي معاً.

فالتوت ألسنتهم بأسماء الله وحرّفوا منها أسماءً لآلهتهم المتناثرة هنا وهناك، وذكر الطبري[6] أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمّوا بها آلهتهم

---

(١) مسلم السابق: في التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم: ٥/ ٨٩.
(٢) مسلم السابق: ٥/ ٨٨.
(٣) مسلم السابق: ٥/ ٩٧.
(٤) مسلم السابق: ٥/ ٩٠.
(٥) مسلم السابق: ٥/ ٨٩، ٩٠. وفي روايات: ذا الجلال والإكرام.
(٦) عند تفسير قوله تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** (الأعراف: ١٨٠).

وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها: (اللات)، اشتقاقاً منهم لها من اسم (الله) الذي هو الله، وسموا بعضها (العزى)، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو (العزيز)...

وهكذا يمكن استنتاج تطلع الإنسان مؤمناً كان أو مشركاً إلى معبود يتصف بصفات الجمال والجلال حتى وإن كان إلهاً مزيفاً مصطنعاً.

أما القرآن الكريم فقد بلغ تصويره لله تعالى غاية الكمال وكمال الكمال كما قال ابن تيمية.

يقول ابن القيم جامعاً بين الجلالية والجمالية[1]:

من أعز أنواع المعرفة، معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواصّ الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته... ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً، والقوة جميعاً، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السمٰوات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السمٰوات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى: الجميل... وجماله سبحانه على أربع مراتب:

---

(١) الفوائد: فصل جمال الله عز وجل: ٢٣٤ - ٢٣٦. وانظر أنواع الجمال التي يحبها الله من عباده: ٢٤٠.

جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة، وأما جمال الذات، وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره... فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار، قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عنه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري...».

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات...

وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه، وما سواه فقير إليه بكل وجه، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات... انتهى.

وإن تأسيس الإسلام على التصور الصحيح للألوهية في الجلال والجمال يعين على فهم المسائل الفرعية للإسلام في العقيدة والعبادة والنظام والسلوك، ويلهم بالروح الإبداعية في كل وقفة جمالية في الفكر والبيان والحكمة والقدرة والإبداع الإلهي.

حتى إنه يمكننا استنتاج قاعدة فكرية وجمالية قوية الأساس رحبة البعد، كثيرة العطاء، متغلغلة في الوجود الكوني والحضور الإنساني.

وهي أن صورها وعروضها الأدبية والفنية في القرآن العظيم توحي **بالجمال الجلالي وبالجلال الجمالي**، التي تأخذ بمجامع النفس وقواها الفكرية والشعورية، وتبهرها عظمة الجلال وشفافية الجمال، ومن ثم تحقق منافع معنوية ومادية لا حدود لها.

في روائع الآيات الجمالية:

عرض القرآن كثيراً من أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى بأروع

الأساليب وأجمل الصور البيانية للدلالة على جمالها وجلالها وكمالها.

فهي باعتبارها تتصل بالله تعالى أكمل الأسماء والصفات والأفعال، هكذا يقتضي العقل والمنطق والحس، فإذا كان الخلق جميلاً ورائعاً فإن الخالق أجمل وأبدع، وإذا كان جليلاً وعظيماً فالمصور أجل وأعظم، والآيات القرآنية باعتبارها بياناً معجزاً وأسلوباً فذاً تليق بكمالية أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى، فقد عبّرت عن جمالها بجمال اللغة، وعن جلالها بجلال الألفاظ والكلمات.

ولذا فإن العقل والحس يشعران بجمالية الاسم والمسمى، والصفة والموصوف، والفعل والفاعل. تماماً كما يشعر بها ذو البيان والصنعة البلاغية، فيكشف عنها الأسرار الجمالية المبدعة.

ذلك لأن الذات الإلهية وما يتصل بها لم تعرض في معظمها عروضاً فلسفية مجردة أو بأشكال منطقية جافة وإنما عرضت بأروع الأساليب وأجمل الصور البيانية كما أشرت.

فقد اتخذ القرآن القصة، والحوار، ومشاهد الطبيعة والقيامة والتاريخ، والإنسان منابع أو أساليب للتعبير عن الألوهية الحقة بما يقنع ويبهر ويبهج، حتى يدفع المؤمنين إلى الالتزام بالعبودية في التصور والقول والعمل. والصيغ اللفظية من منابعها المتعددة لا بد من أن تؤدى بدقة وجمال منسقين أعمق التعبير وأحسنه في قضية التوحيد وما يتصل بها من صفات وأفعال.

وعرضت الآيات قدرة الله وحكمته وبديع خلقه في (ألوان) جمالية وجلالية مختلفة من الأمطار، والثمرات، والجبال، والناس، والدواب والأنعام ووصفت جميعها في مشهد كوني رائع يكشف العلماء عن إعجازه العلمي والبياني:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ
ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨).

وعلم الله المطلق في الغيب والشهادة أعظم من أن تحيط به البحار مداداً والأشجار أقلاماً:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾. (الكهف: ١٠٩).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (لقمان: ٢٧).

وصور الرعاية الإلهية والنعم الوفيرة والرحمة الربانية والنظام الكوني العجيب، والخلق المبهر والقدرة المعجزة تتجلى في كثير من الآيات بألوان متنوعة من الحسن والبهاء، منها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. (النور: ٤٣ - ٤٥). إنه دفع السحب بالرياح وانزال المطر من السحاب والبرد كالجبال، وسنا البرق الخاطف، وتقليب الليل والنهار. وخلق الإنسان والحيوان من ماء... تتجلّى فيها صورُ الرعاية والإنْعام الإلهيّة في السماء وإحياء المخلوقات في الأرض. وهكذا تتسق المخلوقات السماوية والأرضية في مشهد جمالي رائع.

وصورتان أخريان: في الأولى المهتدي، وفي الثانية: الضالّ، فالله الهادي لمن أراد الهداية، والمضل لمن أراد الإضلال...

إن الهداية نور وإحياء وانشراح للصدور، والضلالة ظلمة وإماتة وضيق ورجس:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (الأنعام: ١٢٥).

نفس مؤمنة تنفعل بمشاعر الطمأنينة والرضا.

ونفس ضالة تنفعل بمشاعر الضيق والمشقة.

إنهما في الجمال البياني أصدق تعبير وأبهاه عن أثر الهداية والضلالة في النفوس. فسبحان الله الخالق الرحيم، الهادي العليم، المنعم القادر، العزيز الحكيم)[١].

في الآثار العقدية والسلوكية والجمالية:

يشير بعض العلماء والمربين المسلمين إلى أهمية الجانب الجمالي والجلالي لأسماء الله وصفاته وأفعاله التي يتصف بها في بناء الشخصية المسلمة من جميع جوانبها: العقلية والعاطفية والسلوكية، فالله تعالى ذو الجلال والجمال، وقد ثبت هذا في القرآن والسنة ولدى العلماء على اختلاف اختصاصاتهم.

وتبدو هذه الأهمية: بالآثار الفكرية العقدية، وبالسلوك الإنساني المستقيم، وأخيراً بالتصور الجمالي في تربية المسلم.

١ ــ **الآثار الفكرية العقدية**: فلا يصح مطلقاً إنكار صفات الله تعالى وأفعاله، لأنه إنكار للقرآن والسنة اللذين قررا وجوبها عليه واتصافها به، كما

---

(١) أما الجمالية والجلالية في مشاهد القيامة فكانت الدراسات البيانية القديمة والحديثة تغني عن تناولها وإن كانت تمد كل حين وكل دارس بمزيد من العطاء.

لا يجوز تعطيلها أيضاً عن متعلقاتها في آفاق النفس والكون والوجود الدنيوي والأخروي، وهي إذ تؤدي إلى الأثر السلوكي والجمالي فإنها تعطينا قاعدة فكرية للأبعاد والمستويات الجمالية في الكون. فالمؤمن الذي يعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله يحبه لا محاله. ويقتضي ذلك التخلق بصفاته وأفعاله. فالله عفو يحب العفو، ويحب المغفرة ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر على بال، وهو سبحانه الحميد المجيد، ومن آثارهما مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات والمسامحة على الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق. . .

وكل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسم (القدير) عن التعبد باسم (الحليم، الرحيم)، أو يحجبه عبودية اسم (المعطي) عن عبودية اسم (النافع)، أو عبودية اسمه (الرحيم والعفو والغفور) عن اسمه (المنتقم) أو التعبد بأسماء (التودد، والبر، واللطف، والإحسان) عن أسماء (العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء) ونحو ذلك.

وهكذا فإن (الله الخالق العالم الرحيم، اللطيف، الخبير، القوي، المتين، المهيمن. . . إلى آخر صفاته وأفعاله)، أساس عظيم في التصور العقدي للمسلم.

٢ ـ الآثار الخلقية والسلوكية: فهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو (عليم) يحب كل عليم، (جواد) يحب كل جواد (وتر) يحب الوتر، (جميل يحب الجمال) (عفو) يحب العفو وأهله، (حيي) يحب الحياء وأهله (بَر) يحب الأبرار (شكور) يحب الشاكرين، (صبور) يحب الصابرين، (حليم) يحب أهل الحلم[1]. . .

---

(١) مختارات من المدارج: ١/٤١٩، ٤٢٠ و٣/١٧.

ومن ناحية ثانية فالمسلم يرى ربه (الكمال المطلق) و (المثل الأعلى) فيتبعه في صفاته وأفعاله فيصبح المسلم عالماً قادراً رحيماً جواداً كريماً قوياً صبوراً عزيزاً مقتدراً. . . .

وكذلك يحب نشر السلام والأمن والطمأنينة والعطف على الناس والبر بهم وإكرامهم، وقد ورد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن، غير الغالي فيه والجافي عنه[1]، وكان ابن مسعود يقول: ألظّو بيا ذا الجلال والإكرام[2].

٣ ـ التصور الجمالي: ونبه ابن القيم وغيره إلى مطالعة (القلب) لأسماء الله وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، ومشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته.

وتقدم معنا قوله: ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته. . .

وهو كما يقول من أجل المشاهد لأن بالأسماء الحسنى معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً ومثل هذا المشهد من أجل المعارف وأشرفها.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حِكماً ومصالح، وأسماؤه حسنى، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدَره قدره، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . .﴾ (الأنعام: ٩١)، وقال في حق من جوّز عليه التسوية بين المختلفين كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ

(١) نقله ابن كثير عن الإمام أحمد.

(٢) تقدم رفعه، وقد ينسب إليه، انظر ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة من سورة الرحمٰن.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية: ٢١)[1].

● فمن اسمه (الجميل) وأسمائه وصفاته وأفعاله الحسنى يشعّ جمال الكون والإنسان والخليقة، ومن جمال الكون والإنسان والخليقة واتقان صنعتها ندرك أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى.

● ومنه جمال العقائد والفضائل والمشاعر.

● وجمال الأرواح، وجمال الأشواق، وجمال الأحوال.

● ويتنزّه عن القبح، وفعل القبيح، والعبث، والشر، وينهى عباده أن يكونوا من المقبوحين.

● أليس في الحق جمال، وفي الباطل قبح؟ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ (الشورى: ٢٤).

● ألم يحرم الله «الفواحش» ما ظهر منها وما بطن لأنها من المستقبحات: مشاهدة وسلوكاً وتصوراً؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ. . . ﴾(الأعراف: ٣٣).

● فكيف لا يبدو المؤمن نظيفاً جميلاً: جمال المظهر وجمال المخبر في عمله وفكره وذوقه وحياته؟.

● وإذا حرمها لسوئها وقبحها فكيف يأمر بها وهو ذو الجلال والجمال، وخالق الحسن والبهاء، ومشرع الحلال والطيبات؟ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨).

---

(١) مقتبس من المدارج: ٤١٩/١ و١٧/٣. وانظر تتمته فيه.

● وهل يجد إنسان أي إنسان متعة أو لذة في طعام الميتة والدم والهالكة وما أكل السبع؟.

● إنها وأمثالها من «الخبائث» تذكرنا بقبح آكلي لحوم البشر في أبشع صورة متعذرة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

● ثم ألم يحل «الطيبات» ويدعونا إلى الانتفاع بها «مالاً» و«زينة» و«ريشاً» و«طعاماً» وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (البقرة: ١٦٨).؟

● وفي الزواج ألم يرغبنا به متعة جسدية، وجمالاً نفسياً، وسكناً قلبياً، وذرية طيبة ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الكهف: ٤٦) ومودةً ورحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١)؟.

● ألا يحب الله أن يرى أثر نعمته على عبده، نظيفاً، مصلحاً شأنه، فكيف يحرم عليه زينته في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

● فسبحان من أحل الطيب وحرم الخبيث.

وجمَّل للناس الحلال وقبحّ عليهم الحرام.

وأبهج القلوب وزينها بالإيمان.

ونوّر العقول بالمعارف والعلوم.

وهدى الفطر إلى صراطه المستقيم.

إنه وليّ المؤمنين، ومبدع الخلائق أجمعين

○ ○ ○

الإنسان بين الإبداع الإلهي والإبداع البشري

في الإبداع الإلهي:

أولاً: لونان من الجماليات:

إن الطبيعة الطينية للإنسان ليست كأي جبلّة في الخلق والتكوين، فهي خلاصة التربة لأنها ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢) و ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) و ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤).

وربما اشتركت أحياء أخرى في أصل الطينية أو على الأعم الترابية، ولكن أياً من هذه الأحياء لم يصل إلى ما وصلت إليه طينية الإنسان من الجمالية القرآنية.

١ ـ **الملائكة وطينية الإنسان:** فالملائكة خلقت من نور الله، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وفي خلقهم من نوره جمال رباني وملائكي تقصر عنه جماليات كثيرة، ومع هذا نجد في سورة واحدة (الحجر) تكرار الخلق الإنساني الطيني ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦ ـ ٢٨). والتأمل في الآية الثانية منهما ينبه إلى أن الصلصال الإنساني لا يخلو من جمال معين ما دامت الإرادة الإلهية صنعت هذا الإنسان من الطين وأخبر الله ملائكته بذلك ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨) وقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (صٓ: ٧١) فالملائكة «النورانية» يقول الله لهم سأخلق الإنسان من «الطين» أو «التراب» وليس من «الذهب»، أو «الفضة»، أو

«النور» أو من أي أصل ومعدن آخر.

فالتراب منبت الإنسان والحيوان والنبات، ومنه الجبال الراسية والسهول الفسيحة وأعماق البحار والبحيرات والأنهار، وهو أصل الطبيعة الحية وما تكسوها من ألوان الحسن والبهاء...

والطين المادة العجينية التي يستثمرها الفنان لإبداع جماليات لا تحصى، فهو مع الصخور أصل الفنون التشكيلية الحية القادرة على التشكل بأشكال شتى وصور مختلفة لا تنتهي.

ويؤيد هذا ما لفت القرآن إليه من أنه مادة الإعجاز الإلهي عبر القرون وفي أيدي أنبيائه.

فمن أعظم معجزات عيسى عليه السلام عمل الطين كهيئة الطير ثم يصير طيراً حياً بإذن الله، وقد أعلنها لقومه صراحة فقال: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ..﴾ (آل عمران: ٤٩).

وهي من أجل نعم الله عليه ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى...﴾ (المائدة: ١١٠).

إن الطين أو التراب ليسا جميلين بطبيعتهما ولكن قدرتهما الفائقة على صناعات ومجسمات جمالية يجعل منهما أصل الجمال ومادته الأولى.

وحسبهما أن نشأ منهما خلق الإنسان الأول، ثم تكوّن بدنه من أهم عناصره، ثم يكون إليه مآله ومصيره.

ويتساءل الرازي بقوله: إن هذا النظم (خطاب الله للملائكة من سورة صٓ) إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل: أنا متخذ سواراً من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة...

ويجيب عنه: كأنه سبحانه وصف لهم «الملائكة» أولاً أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية. فلما قال: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ فكأنه قال: ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات...

٢ ـ الإتقان وطينية الإنسان: فقد خلق الله الجانّ من مارج من نار فهو من الإتقان، وخلق الملائكة من نوره فهو من الإتقان، وخلق السمٰوات والأرض وما بينهما من أصول محكمة تناسب الحياة والإحياء، فالهواء والماء والنبات والطير والجبال، والثمار والمطعومات والمشروبات والمشمومات، وعالم الغيب والشهادة كل ذلك خلق متقن كما صرحت به آيات كثيرة تقدم بعضها...

ولكن القرآن جمع بين الإتقان في كل مخلوق وبين خلق الإنسان بداية من الطين وعطفه عليها ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ... ﴾ (السجدة: ٧).

فطينية الإنسان مجموع من التراب والماء بنسب دقيقة تحقق ثلاث أغراض: الأول دقة التشخيص الإنساني الأول في ملامحه الظاهرة والخفية في صورة آدم عليه السلام، والثاني: لمسات الجمال في التكوين الشخصي بحيث يهيء الطين أجمل الخلق وأبهاه حسناً ونضارة. والثالث: استعداد هذا التكوين الطيني وحده لقبول النفخة الإلهية من روحه وانتعاشه بها وتطلع أشواقه الشفافة إلى بارئه.

وإذا عدنا إلى (سياق) هذه الآية فإننا نلاحظ مجموعة من المعاني تتسق مع الإتقان الإلٰهي عموماً ثم مع بدء الخلق الإنساني من طين.

- فالقرآن منزل من الله لا ريب فيه.
- والله خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.
- واستوىٰ على العرش بما يليق به وبعرشه.

● ويدبّر الأمر من السماء إلى الأرض بحكمته وعلمه المطلق.

● وأخيراً: إن كل هذه المخلوقات صغيرها وكبيرها من تدبير الله وإتقان خلقه، ومنها هذا الإنسان الذي بدأ خلقه من طين ومن ثم تطوره ونفخ الروح فيه وتزويده بمنافذ العالم الخارجي من السمع والأبصار. . .

وواضح هنا أن هذه الآيات تدور في معان ثلاثة: **الخلق والتدبير والإتقان**. وكلها صور جمالية في المشهد الكوني العظيم.

يقول سيد قطب في الظلال: ومن إحسانه في الخلق بدء خلق هذا الإنسان من طين. . . وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله. . .

وتؤكد السنة النبوية إتقان الصنعة الإنسانية وجمالها في حسن التكوين الترابي أو الطيني، فقد تجمع أديم الأرض كله في خلقه، وامتزج فيه أصول البشرية كلها على اختلاف أجناسها وأعراقها وألوانها. . . وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على حسب ذلك منهم الأبيض والأسود والأسمر والأحمر، ومنهم بين بين ذلك، ومنهم السهل والخبيث والطيب[1]».

يقول ابن حجر: ومما لم يذكر البخاري ما رواه الترمذي والنسائي والبزار وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً: أن الله خلق آدم من تراب فجعله طيناً ثم تركه. . . حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمرّ به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه من روحه[2]. . .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: التفسير: ٢/٢٦١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: حديث صحيح.

(٢) فتح الباري: أحاديث الأنبياء: ٦/٣٦٤. وانظر الترمذي: تفسير المعوذتين: ٣٣٦٨.

وفي صحيح البخاري ما يدل على تميز آدم بالطول مثلاً فقد «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً. . .»[1].

«خلطة» طينية خاصة تمّت من قبضة الخالق، وسوّيت بصورة إنسان بملامحه وأعضائه فكانت (شخصية) الإنسان التي لم تكن لغيره ثمّ بَقيت مدة لا يعلمها إلا الله حتى استحقت هذه الشخصية نفخة روحية من روح الله. . . أي جمال إلٰهي زينته يد القدرة الربانية في تشكيل أجمل مخلوق في الوجود؟ ثم لتحقيق أمر عظيم فيما بعد؟.

وصورة آدم طيناً كانت سوية جميلة كاملة كما أشارت إليها الأحاديث النبوية، فقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً. . .»[2]. وفي رواية «على صورة الرحمٰن» أي على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك. . . وقال (التوربتشي). . . . والطبقة الأخرى يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف، وذلك أن الله خلق آدم على صورة لم يشاكلها شيء من الصور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجميلة.

وقال (الطيبي): تأويل الخطابي في هذا المقام حسن يجب المصير إليه، لأن قوله: طوله، بيان لقوله على صورته كأنه قيل خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة[3]. . .

ومهما فسّر أو أوِّل الحديث فإنه ولا ريب دليل واضح على جمال الصورة وحسن الهيئة وتفردّها من بين سائر المخلوقات الأخرى، وصرح بها علماؤنا استدلالاً واستنتاجاً من النصوص الواردة في ذلك.

---

(١) أحاديث الأنبياء: ٣٣٢٦ باب خلق آدم وذريته.
(٢) أحمد: الفتح الرباني: ما جاء في خلق آدم: ٢٠/٢٨.
(٣) المصدر السابق: ١٩/٣٣٣.

وكيف لا يكون ذلك وقد أودع الله فيه من روحه وأورثه من خلافته؟.

وإن هذه الجمالية مستمرة في ذرية آدم بعد أن سوّته القدرة والحكمة الإلهية في أحسن تقويم. ولكن حديثاً آخر يقول فيه الرسول ﷺ: «لما خلق الله عز وجل آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك...».

فآدم «الطين» أصبح في مرحلة من خلقه صلصالاً كالفخار، صاحب جوف فعرف إبليس أنه لا يملك نفسه ولا يحبسها عن الشهوات، فهو غير متماسك أبداً وغير معصوم دائماً... وهذه سمة من سمات الطين وبخاصة إذا كان أجوف لا يقدر على الرياح وعوارض الطبيعة[1].

وإذا وازنّا بين (خلق) الإنسان هنا وما يتبعه من عدم التماسك، وبين ما قال عنه إبليس نفسه في الحديث السابق: لقد خلقت لأمر عظيم، أدركنا سمة أخرى من سمات الإنسان «الروح» في تعميره الكون ووراثته ومسئولياته. وحينئذ نتابع هذين الحديثين والنصوص القرآنية الأخرى في أن الإنسان مخلوق (مركب) من عنصر الأرض ومن عنصر الروح، وبذلك يفترق عن سائر الأحياء لا من حيث التكوين الجوهري وحسب وإنّما من حيث جمالية الجسم والروح أيضاً.

ثانياً: تسويات جمالية:

صرح القرآن بتسويتين ـ على الأقل ـ في خلق الإنسان مما لم يقع مثله أو نظيره في أي مخلوق آخر.

١ ــ **تسوية طينية ترابية**: وهي الأولى وتتضح فيها معالم (الشخص) الإنساني وملامحه الظاهرة والخفية، فالصورة الظاهرة صورة إنسان، والنِّسب بين أجزاء هذه الصورة نسب إنسانية، والإعداد للحياة ولنفخ الروح الإلٰهي

(١) أحمد: الفتح الرباني: ٢٠/٢٨.

إعداد لأول إنسان يحيا في ظل الجمال الإلهي ومن صنعه الذي أتقن كل شيء.

والمراحل الكبرى في هذا الخلق هي قبضة من تراب الأرض، ثم مزجها بالماء وجعلها خلطة طينية لينة ثم يبسها وصلصلتها كلما نقرت أو دخل إليها الهواء... فيما بعد.

وهي تسوية سابقة على أية تسوية... يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (صٓ: ٧١، ٧٢). ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨، ٢٩). وهي مراحل في علم الله وحكمته وتدبيره، يتضح فيهما (التسوية) قبل نفخ الروح وجعله إنساناً حياً، وهما يصرحان بالأصل الطيني والصلصالي الناشئين عن التراب والأرض.

● فالتراب هو مجموعة التربة التي (تغطي سطح الأرض من الرواسب الصخرية المتحللة،... والتربة الزراعية هي الطبقة التي تغطي جزءاً كبيراً من سطح الأرض، وتصلح بحكم تركيبها، وفي الظروف الجوية الملائمة لنمو النباتات، ويتراوح سمكها بين ربع متر وبضعة أمتار، وتتكون من خليط من نواتج الصخور المتفتتة كالحصا، والرمل، والطين، والدبال (المزيج) الناتج من انحلال واندماج البقايا العضوية النباتية والحيوانية المتخلفة بالأرض، والأحياء الدقيقة، والديدان الأرضية، ويضاف إلى كل هذا ما تحتجزه التربة بين حبيباتها من ماء وهواء يسميان بالمحلول الأرضي والماء الأرضي...»[١].

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة مادة: تربه، مختصراً.

وربما تلقي هذه الحقائق أضواءً على (اختيار) لفظة (الإنبات) للإنسان تماماً مثل استعمالها لأنواع الشجر وألوان النبات والزهر.

فالله تعالى خص بها نشأة مريم عليها السلام لكرامتها عنده وذلك حين كفلها زكريا عليه السلام فكانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد كما نقله الرازي عن بعضهم... وهي في نبات الدين كانت تنبت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) وإنبات مريم في الدين والدنيا ينسجم مع الرزق الدائم عندها ثم ينسجم مع خاتمة الآية: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

وكذلك فقد عرض القرآن «إنبات الإنسان» في معرض إنعام الله على الإنسان نعماً كبرى ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا...﴾. (نوح: ١٥ - ١٨).

ومن الناحية الجمالية فإن «إنبات الإنسان» صورة لنعمة سيقت ضمن جماليات علوية وأرضية: السمٰوات طباق، والقمر نور، والشمس ضياء والأرض بساط...

إلى جانب إشعاره أن تطور الجنين أشبه بنمو النبات، فالتربة التي يستنبت منها الزرع ليست أبعد من الإنسان الذي أنشأه الله من الأرض إنشاءً، حتى بعد جعله من النطفة والعلقة والمضغة، فبين الإنسان والنبات وجوه متعددة كالخفاء والتطوّر والرعاية وفي مقدمتها الإنبات الأول من الأرض...

ويحدد علم الأحياء والكيمياء العضوية أنواعاً من عناصر الأرض التي تدخل في تركيب جسم الإنسان وهي حوالي (٢٢) عنصراً كالآتي:

١ ــ الأكسجين (O) وهيدروجين (H) على شكل ماء بنسبة ٦٥ ـ ٧٠٪ من وزن الجسم.

٢ ــ كربون.

٣ ــ أكسجين (O). وتكون أساس المركبات العضوية مثل السكريات، والدهن والبروتينات والڤيتامينات والهرمونات والخمائر.

٤ ــ مواد جافة مقسمة على النحو التالي:

أ ــ سبع مواد هي: الكلور (cl) والكبريت (S) والفوسفور (P) والمغنيسيوم (M_g) والكالسيوم (ca) والبوتاسيوم (k) والصوديوم (N_a) وتشكل ٦٠ ـ ٨٠ من المواد الجافة.

ب ــ سبع مواد أخرىٰ بنسبة أقل: الحديد (F_e) والنحاس (C_u) واليود (I) والمنغنيز (M_n) والكوبالت (C_o) والتوتياء (Z_n) والموليبديوم (M_o).

ج ــ ٦ عناصر بكميات قليلة: الفلور (F) والألمنيوم (A_i) والبور (B) والسيلينيوم (S_e) والكادميوم (C_d) والكروم (C_r)[(١)].

إنها نسب دقيقة صالحة لتمثيل عملية التسوية والتكوين فيما بعد، حتى إنه لو زادت أو نقصت مواد أو عناصر عن واقعها المرسوم له لاختل نظام التكوين البدني للإنسان.

● **الطين**: وينتج من خلط التربة أو تراب الأرض مع الماء. ومن الطين ينتج الحمأ المسنون، والصلصال كالفخار...

إن القبضة الإلهية من تراب الأرض تدل على تقدير حكيم في قبولها مقداراً معيناً من الماء، كما يدل على توازن العناصر الأرضية وتكاملها في

---

(١) مقتبس: معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د. نبيه عبدالرحمٰن عثمان، من سلسلة دعوة الحق: ص ٢٥، العدد: ٥٠.

صناعة الجسم الإنساني. ويقرر القرآن أن أصل الإنسان من تراب ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ومن الطين ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ و ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ و ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ و ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾....

وقد ثبت أن الماء مهم جداً في تكوين جسم الإنسان ويساوي ٣/١ وزنه. ويساعد الماء على إذابة الغذاء وإيصاله إلى جميع أجزاء الجسم، ويساعد على عملية التخلص من الفضلات. ويدخل في تركيب الخلية فإما أن يكون متحدا اتحادا كيماويا كما في السيتوبلازم أو منتشراً بجزئياتها.

ومهما قيل في دقة نسب العناصر الأرضية والمائية في الخلطة الطينية فإن هذا التكوين البدني للإنسان لا يساوي عشرين فرنكاً فرنسياً، وأنه على كثرة الماء فيه والممتزج بالعناصر الخاصة السابقة نستطيع أن نكوّن منه مسماراً واحداً ورأس عود ثقاب من الكبريت، وطلي جدار من مادة الكلس، وهذه العناصر لا تساوي من الناحية المادية شيئاً....

وعظمة الإنسان الحقيقية ليس في صورته المادية وإنما هي بروحه الربانية وقلبه المؤمن وعمله الزاكي....

والمعجزة الإلٰهية هي تسوية الإنسان الطيني أو الترابي من هذه الأخلاط قبل أن ينفخ فيه من روحه، وتبقى هذه التسوية مستمرة في جسم الإنسان إلى الآن، موزعة بأحكم تنسيق وأبدع خلق مهما اختلفت أعضاؤه وحواسه وعضلاته وعظامه، وأعصابه....

إنها معجزة في البدء، ومعجزة في الحاضر والمستقبل، وتسوية جمالية طينية وتسوية جمالية في كل جيل وكل إنسان....

وصدق الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه: ٥٥).

إنها (تصوير) الله (المصوّر) فقد أصبحت لآدم (صورة) الإنسان السوي

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ . . . ﴾ (الأعراف: ١١).

٢ ـ **التسوية الحية**: وقد تمت في الإنسان الأول بعد أن نفخ الله فيه من روحه واستوى حياً مديد القامة فارع الجسم قوي البنية يمشي على رجليه ولا يستغني عن يديه، يمد ببصره هنا وهناك ويحس بالجمال الخالد في وجدانه المرهف مما يشاهده أو يتلقفه بإحساسه الشفاف متأثراً مبتهجاً.

إنه ممتلىء بالحياة والحيوية ومشاعر الشباب ونشاطاته، مقدر مفكر ناظر باحث، متعلم من الله ما علمه، معلم أبناءه ما تعلم، مؤهل لأعظم وراثة في الحياة وأجلّ خلافة عن الله، إنه أبو البشر آدم الذي وهبَهُ الله خصائصه الإنسانية كلها، مثل ما وهبها إلى ذريّته. . . وهكذا إلى أن تقضي هذه الدنيا وما عليها. . .

والقدرة الإلٰهية والصنعة الحكيمة واضحتان في هذا الخلق، وقد نوّه الله به في قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وجمال التصوير وبدع التكوين ظاهر أيضاً في هذا الإيجاد، وقد صرّح به ضمن النعم الكثيرة الجليلة، والفضل الواسع الشامل ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٤).

يقول الظلال: فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء، وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسْر ودقّة. . . ثم يقول: ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنساني، وتناسق أجزائه ووظائفه. . . لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب. . . .

ثم يضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة بفكّ الأسنان من الناحية الآلية البحتة فيقول: إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان، يزحم اللثة واللسان، وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله **يصطك** بما يقابله ويحتك، ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها، فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة. . . .

والتسوية الإلهية المبدعة يتعدد بيانها في كتاب الله، فقد سواه بشراً كاملاً سوياً بعد أن خلقه من غير أن يعدد مراحله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (الأعلى: ١، ٢) وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الإنفطار: ٧، ٨)، ثم بعد أن خلقه نطفة وعلقة ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (القيامة: ٣٧، ٣٨). أو بعد أن كان نطفة وتراباً ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ (الكهف: ٣٧)، أو بعد الخلق الطيني الأول والنطفة الإنسانية ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ. .﴾ (السجدة: ٧ - ٩).

حتى إننا نستخلص من هذه التسوية إبداع الله في طورين:

الأول: إبداع في أصل الخلق والإيجاد أياً كانت المرحلة التي تم فيها الخلق والإيجاد، فهو خلق سويّ مبدع حسن التصوير والتكوين.

الثاني: إبداع مرحلي، ففي جميع مراحل التنشئة إبداع وتسوية وبخاصة بعد مرحلة النطفة والعلقة ونفخ الروح والرجولة. وصدق الله العظيم الحكيم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

وهكذا أصبح الإنسان إنسان الطين والروح فاكتسب بذلك قيمة خاصة لم تتسنّ لأي مخلوق آخر.

● فالطين المسوّى مادة ترابية مخصوصة، بنسب من عناصر معينة قد لا تشبهها مادة أخرى ولا عناصر ثانية. فهو أصل الإنسان الأول ثم أضحى نسله من خلاصة العناصر الترابية الطينية في أطواره المتتابعة الدقيقة المطردة الأخرى حين يصير نطفة وعلقة ومضغة....

● وهو (قيمة) متميزة بروحه لا تعدلها في استوائها وفضلها أيّة قيمة أخرى، فصار الإنسان بها إنساناً، وافترق عن (الأحياء) جميعاً، وحق له بذلك استقبال النبوّة، وارتقاء العقل والمعرفة، وتقدم البناء الحضاري، وقبل هذا وذاك قيمة الروح الإلٰهية التي أضحت أسمى قيم الوجود كله.

● وهو جمالية لما أودع الله فيه من أنظمة بدنية تجمع الدقة والتناسب والترابط بين أعضائه وأجهزته من ناحية وبين القوى الروحية والمراكز الفكرية والجمالية من ناحية أخرى، فهو في أحسن تقويم وأحسن تصوير وأجمل نموذج من المخلوقات وأرقى نوع من الأنواع.

● وهو مركز إشعاع الجمال واحتضانه وتقبله. فقد أودع الله فيه ذوقاً يميّز فيه بين الحسن والقبيح، وملكة تحكم على الأشياء بالدمامة والوسامة، وهي خاصة إنسانية تختلف ضُموراً ونموّاً وشفافية بين إنسان وآخر مثل اختلافها بين تقدير الشيء الجميل أو القبيح وتقويمه جمالياً.

● والإشعاع والاحتضان الجمالي في الإنسان لا يغني عن كون الشيء نفسه متناسقاً منتظماً دقيقاً بهياً أو متنافراً فوضوياً عبثياً دميماً. وهو وإن كان نسبياً بين جماعة وجماعة وزمن وآخر فإن أبسط المقاييس العامة متفق على جمالها وقبحها سواء كانت من أدنى المستويات أو من وسطها وأرفعها.

● والجمالية وإن قصرتها نظريات أو مدارس على الأشياء المحسّة والمادية فإن كثيراً من المواد الجمالية تشملها، مثل شمولها الجماليات

المعنوية: جمالية الروح والقيم والمثل، وقد تعبر الريشة أو الكلمة بشكلها ومضمونها عن هذه الجماليات المعنوية.

إن جمالية المشاعر والعواطف لدى الأب والأم أزخم بالحيوية والرضا من كثير من جماليات العلاقات الأخرى، وإن استشعار المؤمن بجمال عقيدته، وبهاء مخلوقات الله، وتفيّؤ ظلالها في ملكوت السموات والأرض وصولاً بها إلى جمالية الله البارىء المصور القدوس السلام، يضفي على الجمالية أبعاداً وآفاقاً رحبة تشترك في تذوقها الحواس والأفكار والتطلعات الروحية.... وهي المجال الأرحب في التصورات الجمالية غير المحدودة التي يتعامل معها المؤمن بفكره وإحساسه ووجدانه.

ثالثاً: إبداع إلٰهي بين المشهود والغيبي:

إن تصور حقيقة تاريخية أو علمية أو دينية بأبعادها الموثوقة وجوانبها الصحيحة من طبيعة من عمل الفكر والعقل حتى يضعها في معيارها الحقيقي حين يكون هذا المعيار في حدود المعقول أو المحسوس، أو المقطوع به من الخير اليقيني.

وحين يمتد الخيال إليها فيزينها ويجمّلها بأن يضفي عليها جماليات لا تخرجها عن حقيقتها ولا عن مصداقيتها فهذا من العمل الفني الذي يكسوها روعةً وبهاءً تثير في الحس الوجداني مختلف المشاعر الجميلة.

وكثير من الصور المشهودة في القرآن كانت ذات أصل عريق في الوجود، قديم في الخلق، بعيد الأغوار عن معرفة الإنسان العامة.

وإذ يقررها القرآن نماذج من حقائق الوجود فإنه يحق للخيال أن يتملّاها باعتبارها حدثاً إنسانياً ليست له حدود ولا قيود ولا ضوابط يقف عندها.

وعندئذ تصبح لوحتها مشهداً معايناً لأصل غيبي لا يدركه الإنسان بمعارفه، أو تصبح أحداث اللوحة حقيقة قرآنية ماثلة للعيان مشهودة للناظر، وفي الوقت ذاته تستدعي قواه الخيالية المتعددة لتفسير جوانب منها أو لتحديد

أمور مطلقة فيها، وبالدقة لإضافة أطر من الجمال الرائع عليها.

وهذا ما نلاحظه في تلك الصور القرآنية لعالم القيامة ومشاهدها التي يعرضها القرآن في لوحات فنية معجزة جامعة بين الحقيقة والخيال.

حقيقة لأن أحداث القيامة وأشخاصها وأعمالها ومصائرها ونعيمها وعذابها تعرض بالبيان القرآني الفذ المؤثر الذي يبلغ النفوس والقلوب فيحرك لواعجها ويثير انتباهها ويجعلها كأنها منظورة للعين مشاهدة للبصيرة مسموعة للأذن. . . .

وخيالية لأنها تدع فرصة كبيرة للخيال أن يتملّى طبيعتها وحقيقتها، ويرسم - فيما عدا التي لا نص فيها - من الخيال صوراً أو يتمم هذه الصور بإبداعية بشرية وروعة خيالية، ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والمشهد الرهيب العجيب الفريد الذي يجمع بين الحقيقة القرآنية والخيال البشري الفني هو **مشهد الذرّ وعالم الأرواح**.

الذرّ هم آلاف الملايين من الناس من بدء الخليقة حتى قيام الساعة باختلاف ألوانهم وأجناسهم وبلادهم وألسنتهم وأشكالهم وأجيالهم. وأرواحهم وهي من علم الله في يد خالقها قبل أن تخلق، وقبل أن تتلبس أجسادها في دار الدنيا في أشخاص إنسانية، هذان عالمان أو عالم واحد من عالم الغيب في وجود غيبي، وعملية وأحداث غيبية. . . . يعرضها القرآن حقيقة من حقائق الوجود أو ما قبل الوجود كأنها وقعت من قريب، حية شاخصة للعيان بكل أبعادها وأجزائها.

وهي بحقيقتها ومصداقيتها تفرض على الخيال أن يحتضن صورتها ليضفي عليها جمالية فنية إلى جمال الحقيقة، فكيف يتصور الخيال مثل هذه الحقيقة في روعتها وجلالها حين يحاول أن يرسمها بريشته إن جاز له ذلك؟.

أرواح هائلة وناس هم الذر بأعيانهم وخصائصهم الإنسانية لا يحصون عدداً واقفون أمام العظمة الربانية يعقدون مع الله أقدم وأغرب ميثاق

وأجلّه في أخطر قضية فكرية وجدانية هي الربانية والوحدانية. ثم إقرار هذه الأرواح والذرّ بهذه القضية. . . .

كيف حدث هذا الميثاق وكيف تجمعت هذه الأرواح والذراري في وقت ومكان واحد إن كان ثمة زمان ومكان؟ وكيف بلّغ الله ميثاقه وبمَ سمعوا وأجابوا وشهدوا؟ وبأي جهاز فهموا ووعوا؟.

إن هذا قد حدث فعلاً وحقيقة، كما صوَّره القرآن وبيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام وكان من نتائجه فريقان حقيقيان واقعان: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وإن في حدوثه إعجازاً إلٰهياً وإبداعاً ربانياً، وفي تصويره إعجازاً بيانياً وقولاً محكماً يستوعب قضية (الفطرة البشرية) بالنسبة إلى التوحيد المركوز فيها، وانقسام الناس فيما بعد إلى مؤمنين وكافرين بعد أن اجتالتهم شياطين الإنس والجن. . .

وإذ يبدو في قدم سحيق من الوجود وتعاقب أجيال البشر عليها فيما بعد فإن العرض القرآني لها يثير في النفس أجمل الأخيلة وأعجبها لأنها صورة فريدة من الاتصال الإلٰهي بالعالم الإنساني قاطبة ممثلاً في هذا الذر العاقل العجيب بين يدي الرحمن، وهذا الحوار الذي تمّ بشكل ميثاق وإقرار في الفطرة والبيان. . . كل ذلك يعرضه القرآن ليذكره الرسول ﷺ حياً شاخصاً (إذ) أخذ الله ميثاق بني آدم من ظهورهم. . . . إنه مشهد غيبي متجدد يطلب القرآن أن يذكره الرسول ﷺ ويذكّر به قومه وبخاصة أولئك الصحابة الذين كانوا يتناولون الذرية ويقول أحدهم: يا رسول الله: أليسوا أبناء المشركين؟ فيقول لهم الرسول ﷺ: «إن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها. .». كما نقله ابن كثير في سبب النزول.

لقد ذكر الله ذلك كله بصدق الحقيقة وروعة التعبير ورهبة الخيال في هذه الآيات ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).

وفسّره الحديث النبوي برواياته المتعددة والصحيحة، ومنها: قول الرسول ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي[1].

ورواية أحمد[2] عن ابن عباس عن النبي ﷺ: **قال: إن الله أخذ الميثاق** من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا ... الْمُبْطِلُونَ﴾. قال ابن كثير: رواه النسائي في كتاب التفسير. . .

وإذا سبق لآدم لونان من الإبداع الجمالي: في خلقة من طين على صورته ونفخ الروح فيه، ومن ثم تعليمه الأسماء كلها وسجود الملائكة له بأمر الله فإن لوناً من الجمال (الجلالي) يبدو في مشهد الذر الآدمي من عالم الأرواح.

إنه يروعنا بالقدرة الإلهية القادرة مثل ما يروعنا بالتواصل الإلهي الذري في إشهاد الفطر البشرية بأصالة التوحيد وتعمق هذه الروعة في نفوسنا: أن (العلم(يقرر أن الناسلات ـ كما ينقل سيد قطب في الظلال ـ وهي خلايا

---

(١) انظر الحديث بتمامه في البخاري: الرقاق. صفة الجنة والنار (٦٥٥٧) ومسلم في المنافقين. . .

(٢) انظر: الفتح الرباني: ٢٠/ ٢٩ وروايات متعددة متقاربة. وانظر روايات أخرى في: أبي داود والترمذي وابن جرير الطبري عند تفسير الآية: لابن كثير.

الوراثة التي تحفظ سجل (الإنسان) وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب، إن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلها، لا يزيد حجمها على سم٣، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة. . . .

إنها ولا شك من معجزات القرآن العلمية القديمة والمعاصرة وتشهد بالحقيقة الربانية العلوية مثل شهادتها بالبيان المعجز وفي جمالية أو فنية أغرب من أي تصور وخيال.

رابعاً: الوسائط الناقلة للجماليات:

إن إبداع الخلق الإلٰهي للإنسان متوزع في كل خلية ونسيج وحاسة وعصب، وهذه على إبداع خلقها تقوم بعملها وبالمهمة المناطة بها على خير نظام وأدقه.

وأخص بالذكر هنا وسائل النقل للجماليات من المحيط الخارجي إلى الجهاز العصبي، ومنه إلى العالم الخارجي، ولا بد لهذه الوسائل أن تكون مبرأة من العيوب الخلقية والمرضية، حتى تستطيع القيام بمهمتها الدقيقة والهامة.

ومن ناحية ثانية فإنها (وسائل) نقل فقط فهي تنقل المسموعات والمشمومات والمرئيات والملموسات والذوقيات والإشارات والذبذبات إلى الجهاز العصبي ليقوم هذا بتفسيرها وتحديدها وإعطاء الحكم عليها من البرودة والسخونة والنعومة والخشونة والشدة والضعف، وضآلة الحجم وكثافته وضخامته.

وإذ تحس بكل هذا فإنها لا تستطيع أن تفسّره جمالياً أو تعطيه قيمة جمالية فهذا ليس من وظيفتها ولا عن طبيعة عملها، حتى تلك المراكز العصبية الحسية والحركية والفكرية فيمكنها أن تحده بالحدود المحسة من طول

وقصر ورخاوة وصلابة، وطعوم حلوة وحرة وحامضة وذكاء وحافظة. . ولكنها لا تحكم عليه بالجمال والقبح . . . .

فالحاسة الجمالية هي غير هذه وتلك، وتفسيرها للجماليات مسألة لم تخضع لعلم التشريح ولا لعلم وظائف الأعضاء. . والحكم الجمالي أو الحكم على الشيء بالجمال أو القبح ناتج عن طبيعة وتكوين الأشياء المعروضة الخارجية وموقف الغريزة أو الملكة الذوقية منها في النفس البشرية. ومع هذا فإننا نقتصر الآن على بيان شيء من الإبداع في وسائط النقل من الحواس والجهاز العصبي، ومن ثم نعرض إلى الإبداع الإلٰهي في الملكة الجمالية الإنسانية.

وسنتحدث عن جهازين جماليين: أولهما: الوسيلة الناقلة، والثانية: الأجهزة المركزية المفسرة والحاكمة.

١ ـ الحواس:

وهي خمس، أما الحاسة السادسة فلا تخضع للمقاييس والوظائف التي تعمل فيها الحواس المعروفة والموجودة لدى كل إنسان تقريباً، لأنها (استشفاف) أو (تخاطر) نابع من قدرة على رؤية أو إدراك حوادث معينة دون استخدام الحواس، والانتقال عن بعد للخواطر والوجدانات والخبرات الشعورية، ومن عقل إلى عقل على سبيل الوهلة وبغير الوسائل الحية المعروفة، وقد استغلت أحياناً أسوأ استغلال[١].

وعموماً فإن أهمية هذه الحواس متشعبة: فهي حسية وعقلية ووجدانية فلولا العين لم تعرف جماليات المشاهد، ولولا الأذن لما أدركت الأصوات والألحان الجميلة، ولولا اللسان وما يحيط به لم تميز أنواع المطعومات، ولولا الأنف وما يتصل به لم تدرك الروائح الذكية والمنفرة، ولولا حاسة الجلد

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة المواد: الحاسة السادسة، استشفاف، تخاطر.

المنتشـرة في أعضاء الجسم وبخـاصة اليـدين لم تفسر جمـاليات الملمس وخشونته.

فالحواس وسائط نقل للأشياء الموجودة في العـالم الخارجي، أو هي منافذ للجهاز العصبي يطل منها على هذا العالم ليقوم بتفسيره والحكم عليه مادياً وحسياً وليس تفسيراً أو حكماً جمالياً، أو هكـذا كمـا نعلـم مـن وظائفه ومهامـه الظاهرة. . . . .

وأثبت علمــاء النفس أنــه ليس في العقــل شيء لم يكن أولاً في الحواس، وأن تربيتهـا تربيـة للعقل فـلا عجب إذا دعاهـا (ملتن) الشاعـر الإنكليزي (ت ١٦٧٤ م): **أبواب المعرفة الخمسة**. . . . والأيدي والحواس هي المعلّم الأول للطفل، ولقد نادى بهذا المبـدأ (روسو) حيث قـال: إن أقدامنا وأيدينا وأعيننا هي **أول من يعلمنا الفلسفة**، وحثّ على هذا المبدأ (بستالوتزي، وفروبل، وسبنسر) من قادة التربية. . . .

فالحواس مفاتيح العقل وهي الطرق الموصلة إليه، وكلما كانت العناية بتربية الحواس تامة كان لهذه التربية أثر كبير في الحياة العقلية للإنسان، فبغير الإدراكات الحسية الواضحة لا يمكن تكوين صور ذهنية واضحة في النفس. . . .

ولو عنينا بتربية الحواس وتهذيبها ما كنت ترى الرجل ينظر إلى الصورة فلا يمكنه أن يرى ما فيها من آيات الجمال أو يسمع الطيور تغني وتغرد فلا يشعر بسجعها وتغريدها، أو يسمع الموسيقى فلا يميز الضوضاء من العذب منها، أو يرى الشيء فلا يمكنه الحكم عليه، أو يقدره فيخطىء التقدير، أو يختبره بيده أو نظره فلا يستطيع أن يعرفه معرفة صحيحة. . .[1].

---

(١) من روح التربية والتعليم: ٢٥٥، ٢٥٦ باختصار د. محمد عطية الإبراشي: عيسى البابي الحلبي.

● **حاسة البصر**[1]: وهي مع حاسة السمع والفؤاد أكثر الحواس وروداً في القرآن الكريم. والإبصار يتمّ بواسطة النور الذي تبلغ سرعته (٣٠٠,٠٠٠ كم) في الثانية، وبواسطة العين يستطيع الإنسان التعرف على المحيط الخارجي من حيث شكله وألوانه وأبعاده، ودرجة إضاءته. وهي تزن ٤٨ غ تقريباً، ومن أقسامها: العدسة البلورية وهي أعظم وأدق وأعجب عدسة في هذا الكون، وتتمدد وتتقلص حسب مسافة الأجسام أو الضوء الداخل إلى العين.

وهناك سوائل شفافة (غير الدمع) لها خاصية انكسار الضوء عند مروره خلالها، وتمر عبر (٣٠) قناة، وعدد الأوردة (١٢) وريداً مائياً. وللعين (١٤٠) مليون عصبة، وحوالي (٦ ـ ٧) ملايين مزولى، وهذه كلها موجودة في الشبكية في العين الواحدة أي يبلغ مجموع الأعضاء المستقبلة للنور في العين حوالي (٣٠٠) مليون عنصر. . .

وأفصل قليلاً على تمييز العين للألوان المختلفة. . . فالضوء يتحلل عادة إلى سبعة ألوان وهي ألوان الطيف الشمسي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، ومن مزيج هذه الألوان يتكون اللون الأبيض. ولكل لون طول موجة غير طول موجة اللون الآخر، فطول موجة اللون الأحمر (٦٢٠ ـ ٧٦٠) ميلي ميكرون، وتنتهي بالبنفسجي وطول الموجة (٣٩٠ ـ ٣٤٠) ميلي ميكرون.

إن العين تميز ما بين هذه الحدود حوالي (١٢٨) لون أساسي، ووجد أن لكل لون عدداً من اهتزازات الموجات، وأصغر التوترات هي اللون الأحمر حيث تبلغ (٧٨٠) مليون مليون هزة في الثانية، وكل توتر يصيب العين يولد فيها إحساساً معيناً باللون. . . وهكذا فإن الألوان في تواترها التي لا حد لها

---

(١) المعلومات التشريحية في الحواس مقتبسة من: معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن د. نبيه عبدالرحمٰن عثمان سلسلة دعوة الحق: ٥٠ باختصار شديد. وانظر مراجعه في ذلك.

بين اللون الأحمر والبنفسجي تؤلف عدداً لا نهائياً من طيوف الألوان المرئية. . .

ومن المعلوم أنه لا توجد القدرة على تمييز الألوان في جميع المخلوقات، فلا توجد المخاريط في عيون الحيوانات الليلية مثل الخفاش، وتوجد العصيّات وحدها، وفي الحيوانات النهارية مثل: الطيور والدجاج توجد المخاريط وحدها. . .

وصدق الله المنعم ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك: ٢٣).

● **حاسة السمع**: وهي من أهم الحواس الإنسانية في القرآن الكريم. . . وقد استطاع العلم الحديث أن يفسر كيف تنتقل الذبذبات الصوتية وكيف تستقبلها، وتركيب الأذن التشريحي، ولكنه ما زال صامتاً عن إدراك الخلايا العصبية الصوت وتفهمه وتمييزه. وتبلغ سرعة الصوت (٣٤٠) مليون في الثانية، ويختلف باختلاف كثافة المادة، فسرعة الصوت في الماء أسرع من الهواء حيث تصل إلى (١٤٣٥) مليون في الثانية، وفي المواد الصلبة أسرع من ذلك. . . وأثبت العلم الحديث أن الأذن تسمع إذا كانت الاهتزازات في معدل يتراوح بين (١٦ - ٢٠٠٠٠) هزة في الثانية، وتستطيع الأذن التمييز بين (١٥٠٠) لحن إذا بقيت الشدة ثابتة، كما تستطيع التمييز بين (٣٢٥) صوتاً إذا بقي اللحن وعدد الاهتزازات ثابتاً، وأن تميز ما بين (٣٤) ألف لحن مختلف الشدة والتوتر والاهتزاز. وقدرة الأذن في تمييز الأصوات شيء مدهش وعجيب.

ومن جهاز السمع ما يسمى بعضو (كورتي) في الأذن الداخلية ويضم ما يقرب من (١٠٠,٠٠٠) خلية سمعية تتصل بها ألياف عصبية دقيقة تتجمع وتكون العصب السمعي، بالإضافة إلى أن وظيفة الأذن الداخلية الهامة وهي حفظ التوازن وذلك عن طريق قنوات. . . وتتصل بها ألياف عصبية إلى

المخيخ... وبواسطة السمع يتفاهم الناس ويتعلم الإنسان النطق ويرتقي في سلم المعرفة وتتفرع اللغات وتتباين اللهجات وتتنوع الشعوب. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

● **حاسة الشم**: والأنف عضو الشم فيه ثلاثة أغلفة بعضها فوق بعض، مغلفة بغشا مخاطي ومن فائدتها تسخين الهواء أثناء مروره فيه. وتتوزع ألياف العصب الشمّي، وفيها خلاياها، ويوجد لكل خلية شمية (٦ ـ ٨) أهداب وفوقها سائل مخاطي، فإذا وصلت الروائح إلى تلك المنطقة تحللت في السائل. فالروائح تتحلل إلى المواد المكونة لها وإلى شكل هندسي يناسبها بعد ذوبانها في الأهداب... والروائح الأساسية سبعة وبقية الروائح مزيج منها بنسب متفاوتة، ولكل منها مساحة خاصة في منطقة الشم، ومنها تنتقل الإشارات إلى المخ عبر عصب الشم. ولا يتم الإحساس بالرائحة إلا إذا بلغت نسبة التركيز فيها خمسة أجزاء من (١٠٠) مليون من الغرام/ سم^3. وما يزال العلم يكتشف الجديد عن علاقة الروائح بالتركيب الكيماوي للمادة، وعلاقة الرائحة بالروح حيث إن للروائح تأثيرات روحية مهمة، وكيف تفهم الخلايا العصبية الروائح وتميز بينها....

وثبت علمياً أن الرائحة تشترك في إثارة شهية الطعام وتحريك الدوافع الجنسية، وذلك لارتباط الشم في مناطق مختلفة في المخ.

● **حاسة الذوق**: وهي كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم. واللسان مركز الإحساس بالذوق، الذي يستطيع التمييز بين ستة أنواع: الحلو والمر والمالح والحامض، والطعم المعدني **والقاعدي**، ويتفرع من هذه مذاقات كثيرة جداً... ويوجد كل نوع من المذاق في منطقة محددة في اللسان، وفي البراعم الذوقية ترقد الخلايا الذوقية ولها أهداب تحس بالذوق، ويوجد خلايا تحيط بالبرعم الذوقي وخلايا أخرى بجانبه. وهذه البراعم المنتشرة في

حليمات اللسان على ثلاثة أنواع، وتصل أحياناً في الحلمة الواحدة إلى (٢٥٠) برعم ذوقي، ويقدر عدد هذه البراعم حوالي (٩٠٠٠) برعم ذوقي، كما يوجد (١٧) عضلة في اللسان للحركة و٦ أعصاب لنقل الحس إلى المخ... ومن أجلّ فوائد اللسان: النطق والذوق ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (البلد: ٨، ٩).

● **حاسة اللمس**: والجلد المحيط بالجسم درع الحماية والدفاع، ومن وظائفه أيضاً تكييف الجسم والمحافظة على حرارته بما لديه من أجهزة تكييف وهي غدد العرق، وورد مرات عديدة في القرآن وبخاصة في مشاهد يوم القيامة....

وثبت أن الجراثيم المنتشرة على سطح الجلد لا تستطيع أن تنفذ من خلاله بسبب وجود الطبقة الجلاتينية الشمعية وغيرها من الطبقات... وتمر في الجلد شبكات من الشعيرات الدموية ومنها يستمد الجلد غذاءه والأوكسجين وتكسب الجلد لونه الوردي الجميل فيضيف على الجسم رونقاً ولمسة جمال، ومن الدم يستمد الجلد الماء والأملاح وهي مكوّنات (العرق) الذي يحافظ على درجة ثابتة للجسم.

وفي الجلد تكمن مناطق الإحساس بأنواعه وهي: الحسّ بالحرارة والبرودة والألم والضغط، وتمييز الأشياء، وهذه آيات تنطق بعظمة الخالق وإبداعه.

وانتشار الأعصاب تحت الجلد شيء مذهل، وتنتهي هذه الأعصاب بأجسام خاصة يختص كل منها بنوع خاص من الإحساس، وهي إما على شكل دوائر متحدة المركز، أو على شكل سلاسل، ويبلغ عددها حوالي ٣ - ٥ ملايين جهاز إحساس بالألم، و ٢٠٠,٠٠٠ جهاز إحساس بالحر، و ٥٠٠,٠٠٠ جهاز إحساس باللمس والضغط.... وتتوزع شدة الإحساس وضعفه في الجسم عموماً حسب أهمية العضو، فالشفتان والأعضاء التناسلية،

والعدسية البلورية والقرنية أشد ما تكون، أما أخمص القدم فهو ضعيف الإحساس.

وحاسة اللمس خاصة إبداع في الخلق، إنها نعمة كبرى على الإنسان في تمييز الأشياء نعومة وخشونة وإن كان الإنسان مغمض العينين.

هذه وظيفة الجلد في الدنيا أما وظيفته في الآخرة فهي الشهادة بالحق على صاحبه والقول بالحق أمام خالقه وما أخشاها من شهادة، وأبلغه من بيان... ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾ (فصّلت: ٢١).

٢ ـ الأعصاب:

إن الجهاز العصبي ومراكزه الأساسية: المخ والمخيخ والجذع المخي والنخاع الشوكي آيات في الإعجاز الخلقي، وهي كما يبدو تفسر الإشارات وتميز الأشياء إلى جانب أهميتها الفكرية والشعورية والحركية والحسية،...

وسنجمل الكلام على الأعصاب التي مرت إشارات لها في الحواس، وكذلك الكلام في أعصاب المراكز العصبية وإن كانت هذه غاية في الأهمية حتى لا نخرج عن مسألة التوصيل أو النقل إليها، فالأعصاب وهي وسائط النقل نوعان: الأول: الأعصاب الإرادية وهذه تسيطر على العضلات الإرادية فيستطيع الإنسان أن يتحكم في حركتها مثل عضلات اليد والساق، والثاني: الأعصاب اللاإرادية، وهذه تغذي العضلات اللاإرادية، أو التي لا تخضع في عملها لإرادتنا ورغبتنا وإنما هي تحت تأثير عوامل فسيولوجية ونفسية وبيولوجية، مثل عضلة القلب والتنفس والبلع....

والجهاز المسيطر على هذه الأعضاء هو الجهاز السمبتاوي الذي يزيد من تنبهها مثل: زيادة ضربات القلب، وزيادة حركة التنفس، وتبطء المعدة وانقباض الشرايين، وزيادة السكر وإفراز العرق... وجهاز آخر هو الباراسمبتاوي وهو يعاكس الأول وينشط أثناء النوم فيبطىء القلب، ويزيد من

الهضم وتقل الإفرازات وتخف حركة التنفس، وتقل كمية السكر في الدم.

● **في المخ**: يوجد في المخ ملايين الألياف العصبية الصادرة والواردة، وهي مراكز حيوية غاية في الأهمية لتنظيم جسم الإنسان ويهيمن المخ على الجسم بواسطة (٨٦) عصباً منها (٢٤) عصباً في الرأس وهي مزدوجة في الجانبين بالإضافة إلى الأعصاب السمبتاوية والباراسمبتاوية.

● **في الحبل الشوكي**: وهو داخل العمود الفقري الذي يخرج من بين فقراته (٣١) عصباً مختلطاً للحس والحركة معاً، ويعتبر الحبل الشوكي طريق مواصلات لأعقد شبكة اتصال عرفت حتى الآن حيث إن الألياف الدقيقة والتي لا يتجاوز قطرها (٢٠) ميكروناً تتجمع معاً لتكون حزماً. وهذا العدد الضخم من الألياف تجتمع لتنقل الأوامر القادمة من كل الجسم، فمنها ما يصعد إلى أعلى مستقيماً إلى المخ، ومنها ما يتصالب كعلامة الضرب X.

● **وفي المخيخ**: ٢٠ قسماً و ٦ جسور تصل بينه وبين بقية أجزاء الجهاز الهضمي المركزي، فالجسران العلويان يصلان بين المخيخ والمخ، وينقلان الإشارات من المخيخ إلى الخارج، والأربعة السفلى من الخارج إلى المخيخ، وتتكون هذه الجسور من آلاف الآلاف الألياف العصبية.

● وللإحساس عدة أنواع فهناك الإحساس بالألم، والإحساس بالحرارة، والإحساس باللمس ومعرفة الأشياء، وكل نوع منها له أعصابه التي تنقل الإشارات الكهربائية من الجلد أو العضلات أو الأعضاء الداخلية عبر الحبل الشوكي إلى المخ....

وقدرت عدد الإشارات التي تصل إلى الجهاز العصبي كل ثانية بمئة مليون إشارة قادمة من الأعضاء الحسية.

إن وسائط النقل الظاهرة والخفية تعين على إدراك الجماليات في الوجود الخارجي كما تعين على بقاء الإنسان حياً متأثراً مؤثراً فاعلاً ومنفعلاً إلى ما شاء الله.

والإبداع الإلٰهي في الجهاز العصبي يعم الأجهزة الأخرى: كالجهاز الدوري، وجهاز التنفس، والجهاز الهضمي، والجهاز البولي، والغدد الصماء....

لقد أبدع الخالق الإنسان من أجهزة ونسج وعظام وعضلات متعددة ومعقدة، ونسّق فيما بينها فكانت متوازنة متشابكة متداخلة. وبعضها بلغ في الدقة منتهاها، وبعضها بلغ من الأهمية أعلاها، وربط ذلك كله بإحكام الصنعة والتصميم، وبحكمة الرعاية والعناية وطلب منا أن نتأمل في أنفسنا لندرك أسرارها العضوية والمعنوية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١). وهو إبداع جمالي يستقبل ويرسل ويفسر فكان خلق الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ و ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ و ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

خامساً: القدرة الجمالية بين العمل التفسيري والإعجاز الإلٰهي:

تقدم معنا:

أن الوسائط الناقلة للجماليات هي الحواس التي تستعين بها القدرة الجمالية في تفسير وتمييز ألوان الجماليات المختلفة. وأن هذه الوسائط قد تفسر وحدها بعض المحسّات ذات الصلة القريبة بالإدراك الجمالي، مثلاً: الإحساس بالنعومة واللين، والذوقيات المختلفة من الحلاوة والمرارة.

ولكن يبدو أن القدرة الجمالية شيء آخر أو إضافي عن القدرات الحسية، مع أنهما مترابطتان ولا يستغنيان عن بعضهما.

وسنعالج مسألتين شاملتين: التفسير الإنساني للجمال، والإعجاز الإلٰهي فيه، وبتعبير آخر نتساءل: كيف يفسّر الإنسان الجمال؟ وما مدى الإعجاز الإلٰهي في القدرة الجمالية؟.

أ" ـ تفسيرات في العمل (الإحساس) الجمالي:

يستطيع كل متأمل بنفسه وبالعالم الخارجي أن يضع صفات يفسر بها

القدرة الجمالية تقترب من الدقة والشمول بقدر نفاذ تأمله الباطني وطبيعة اتصاله بالعالم الخارجي. وأقدم بعضها فيما يلي:

١ ـ **التفسيرات الجمالية من خصائص الذوقية للإنسان**: فمن العسير أن نقتنع أن للحيوان قدرة (تفسيرية) جمالية في تمييز الأشياء، وتحميل حواسه وجهازه المركزي وظائف جمالية، فالتركيبة الحسية والمعنوية للإنسان تختلف عن الحيوان وفي مقدمتها القدرة العقلية واللغوية والجمالية. ولا ندري إذا كان لاكتساء الطير مثلاً بالريش الجميل وتغريده بأعذب الأصوات، وتدلّه الحيوان الوحشي في مشيته، وجمال الغزلان في طرفها وقوامها، أثر في تزيين الأنثى لتأليف الأسرة والجماعة وبقاء النوع، وإذا وقع هذا أو بعضه لنوع من الطير والوحش والحيوان فكيف يتم التزاوج بين سائرها وقد خلق بعضها في أقبح صورة وشكل؟ وهل لنا أن نفترض أن أنواع الحشرات القبيحة والحيوان الدميم هو في مستوى معين من الجمال بالنسبة إلى أفراد بعضه مع بعض؟.

إن التفسير الجمالي للحيوان يحتاج إلى مزيد من البحث وقد اخفقت كثير من النظرات الجمالية بالنسبة للإنسان الذي يبدو أنه خاصة من خصائصه الشعورية والمكتسبة. لأن (الإحساس الأدبي، مثل العقل، يمكن تنميته بالتعليم والنظام والإرادة)[1]. فكيف بتفسيره لدى الحيوان؟.

٢ ـ **القدرة الجمالية عامة**: فالعالم والجاهل، والأديب والشاعر والفنان، والمهني أو الصناعي يشتركون في الكينونة الجمالية، والإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس تمدناً. . . ويظل تذوق الجمال كامناً في معظم الأفراد. . . . وإن تذوق الجمال يكشف عن نفسه في ابتداع الجمال وتأمله معاً، والإحساس بالجمال

---

(١) كارليل: الإنسان ذلك المجهول: ١٠٥ ـ ١٠٩، مقتبساً: الهيئة العامة للكتاب القاهرة ـ بيروت ١٩٧٣ م.

لا ينمو من تلقاء ذاته، إنه كائن في شعورنا ولكن بحالة خمول، ويظل فعّالاً في حقب وظروف معينة[1].

٣ ـ **القدرة الجمالية مختلفة السعة والفعالية**: فهي إذ تتسع بتوفر الثقافة والبيئة وممارسة الأعمال الجمالية، وتضمر أو تخبو بفقدانها أو ضعفها لدى الأشخاص والجماعات فإنها تختلف لدى الشخص الواحد في حالات من الصحة والمرض وقوة الحواس وضعفها والحالات النفسية والمعاشية والمزاجية.

فقد نشر هنجرلاند، بحثاً في مجلة (الاستطيقا عام ١٩٥٧م) تناول فيه الطبيعة السيكولوجية لخبرة التذوق في الفنون الشكلية فقال: إن هذه الخبرة تتلخص في القصد إلى إقامة توترات معينة ثم العمل على إزالتها، وفسّر أن التذوق الجمالي يبدأ بإقامة توترات عن قصد وإرادة ثم ينتهي بمحاولة الشخص التخلص من هذا التوتر[2]. ولا بد أن تكون هذه التوترات مختلفة في شدتها وحساسيتها وسعتها.

٤ ـ **التفسيرات الجمالية مركبة**: فهي تتم غالباً بتداخل أو تلاحم عمليتين: في طبيعة الإنسان نفسه وما جبل عليه من قوى شخصية فردية، وما اكتسبه من معارف وممارسات، ثم من المادة نفسها من حيث تناسق أجزائها وألوانها وظلالها. . . وقد تبدو هذه ثانوية في بعض الأحيان، فإن الولد لا يحس بدمامة والدته وكذلك فإنه لا يشعر بقبح معلمته.

وفسرت[3] أنها مثل النشاط العقلي تعتمد على حالات تركيبية، ووظيفة معينة للجسم، وهي حالات تنتج من التركيب الداخلي لأنسجتنا وعقولنا، وكذلك من عوامل أثرت فينا إبان نمونا.

---

(١) كارليل: الإنسان ذلك المجهول: ١٠٥ ـ ١٠٩، مقتبساً: الهيئة العامة للكتاب القاهرة ـ بيروت ١٩٧٣ م.

(٢) أخذ من: دراسات نفسية في الفن: ١٨، د. مصطفى سويف، القاهرة ط/١ ١٩٨٣ م.

(٣) الإنسان ذلك المجهول السابق.

٢ " ـ الإعجاز الإلهي:

تعدّ (القدرة الجمالية) وتفسيراتها السابقة ملامح في الإعجاز الخلقي الإبداعي لواهب الجمال والجلال، ونزيد عليها الأمور التالية:

١ ـ التكوين والنمو: فأجهزة الإحساس والإدراك في الكائن الإنساني في غاية من الدقة والتعقيد كما تقدم معنا بدءاً من الخلية العصبية وتكوين الحاسة ونهاية بالمراكز العصبية العامة، وإن قابليتها للنمو وقدرتها على الإتساع والعمق تتحققان في نوعية التربية والرعاية، مما يوضح أنها ليست قوالب جامدة ولا ثابتة.

٢ ـ الفردية والديمومة: إن لكل فرد قدرة جمالية خاصة به. والفروق الفردية بين واحد وآخر تبدو في كثير من الأحيان متقاربة وبسيطة، ولكنها تبدو باتساعها وطولها بين كبار الذواقين بأجهزتهم العصبية البالغة التعقيد وبين صغارهم ومن الصنف الأول تبدع عبقرياتهم ألواناً جمالية خالدة.

يضاف إليه أن اتجاه هذه القدرة للون دون آخر كثيراً ما يرتبط بالكيان الفردي الخاص، ولكن تتحكم أحياناً ظروف وأحوال في مسيرة الإنسان الفنية. وعلى هذا فإن القدرات الجمالية غيرالمحدودة ذات الطابع الشخصي تجلي الإعجاز الإلهي فيها. ومن ناحية أخرى فإن الخلية العصبية وحدها باقية بقاء حياة الإنسان فلا تموت ولا تتجدد مثل أية خلية أخرى، وإذا كان متوسط عمر الإنسان (٦٠) عاماً أو أقل بقليل فإن استيعاب الخلايا العصبية جميع الأحداث والتقلبات والأزمات والمتاعب إلى جانب القضايا والمسائل التي تحتاج إلى تفكير وتقدير وتدبير، يكشف عن قدرة عجيبة لاستمرارها ونشاطها اللذين نلمسهما من التكوين الخلْقي الخاص.

٣ ـ الإحساس الجمالي العام: فقدرة الإنسان يمكن أن تطوف في مجالات كثيرة وتتملاها. وهي كامنة وظاهرة في كل موجود: في الله، في

الطبيعة والكون، في النفس، في الجماليات البشرية المصنوعة، في الآثار الأدبية الخالدة.

ولنتصور عالمنا خلواً من جمالياته السماوية والأرضية، والبشرية والطبيعية فكيف يبدو في دمامته وقتامه وجفوته؟.

ولنتخيل كوكبنا ماحلاً قاحلاً لا ينبض فيه رواء الحسن ولا يسري فيه تناسق الخلق واتساقه، ولا جماليات روحية ومعنوية. فكيف تؤول حياة الإنسان؟.

إنه قد يعتادها ويأتلف معها في نوع من التعايش الضروري، والعلاقات المادية، ولكنه يفتقد بهاءها ورونقها مثل ما يفتقد تطلعاته الجمالية.

وفي مقدمة الإحساس الجمالي العام ما له صلة بجمال الله وكتابه اللذين يتعرف عليهما الإنسان من خلال تأملاته ونظراته. وهو قدرة ونعمة ربانية عميقة الأثر بالغة المنافع.

٤ ــ مكانها وعملها المجهولان: فالحواس تنقل الإحساسات والجماليات من الخارج إلى الجهاز المركزي، ومنه إليها، ومثلها جماليات اللغة، والتذوق الأدبي والفني عموماً.

ومن المعلوم (تشريحياً) أن لكل حاسة مركزاً في الدماغ، وللغة مركزها اللغوي، فهل كل مركز فيه مختص بالتفسير الحسي والجمالي معاً، بمعنى أن المرئيات واللمسيات والمسموعات. . . . واللغويات تدرك في مراكزها إدراكاً حسياً وجمالياً؟ وبتعبير آخر هل حاسة العين مثلاً تنقل الإحساس التابع لها فتفسره تفسيراً حسياً وهو الإحساس بالرؤيا، وفي الوقت ذاته تفسيراً أو ادراكاً جمالياً؟.

إن الواقع يستبعد ذلك. فكل فرد سليم النظر يدرك حجم الأشياء وطولها وشكلها وبعدها (المجسّمات، والمسطّحات، والمسافات) لا يفترق واحد عن الآخر، ولكن لا يدركها الكل جمالياً في المستوى والحسن ذاته،

لذا فإن الحواس ليست مراكز جمالية. والمركز اللغوي ليس مكاناً للذوق الأدبي. و(التوترات) المقصودة التي تحدثنا عنها سابقاً لا يعرف مكانها ولا كيفية حدوثها ولا تفسيرها فهو أحد الألغاز الخلقية المعجزة. ولكن إذا تعطلت الحواس، أو ضعفتَ واحدة منها فإنها تؤثر على تعطيل أو ضعف الإدراك الجمالي.

(أما كيف تترتب المعاني في النفس، وتنتظم على قضية العقل، فذلك في الألغاز المستسرة، التي تستعصي على الكشف، وتدق عن العلم. يقول الدكتور خالص جلبي كنجو: كيف يتم التفكير والإدراك والتخيل وتركيب الكلمات والجمل والأفكار وربط كل هذا بعضه إلى بعض بحيث يخرج الكلام منسجماً متوازناً يهدف إلى معنى؟ إن هذا يقف الطب حتى الآن عن الإجابة عليه. ثم كيف يستخدم الإنسان الأسماء حتى يتفاهم مع غيره على الشيء الذي يريده أيضاً معجزة من المعجزات. ثم كيف ينتقل هذا الأمر من عالم الماديات المحسوسة إلى عالم الروح والفكر حيث يتم التعبير بالأشياء المجردة؟ الحق يقال إننا درسنا عمومات الطب من أوله إلى آخره، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نفقه هذه الأسرار)[1].

ولكن هذه القدرة المجهولة موضعاً وعملاً تتأثر بالوراثة والبيئة كالمنزل والمدرسة والمجتمع إلى جانب التكوين الذاتي الفردي للإنسان[2].

٥ ـ **الإدراك الجمالي عملية معقدة**: إن عدم معرفتنا بكيفية الإحساس الجمالي، وميكانيكية العمل الإدراكي لألوانه لا تؤدي بنا إلى إغفال (التفسيرات الجمالية المركبة) وإنما تنبهنا إلى عملية ذهنية وعاطفية متشابكة في الإدراك التفصيلي للجمال، بينما هي تقوم على الومضة أو الخطفة السريعة في الإدراك المجمل والعام.

---

(١) من أساليب البيان في القرآن الكريم: ٦، محمد علي أبو حمدة نقلاً عن: الطب في محراب الإيمان: ١٤٢/١.

(٢) انظر مثلاً: الشخصية الفنية د. محمود البسيوني، ومشكلة الفن د. زكريا إبراهيم.

والفطرة الإنسانية السويـة يمكن أن تفرق بـداهة بين الحسن والقبـح والوضاءة والقتامة، وهذا لون من الإعجـاز الإلهي في خلق الإنسان الـذي يدرك في خطفة سريعة الأشياء إدراكاً حسياً وجمالياً في وقت واحد. وفصّل علماء النفس والتربية الجانب أو العوامل الظاهرة في الإدراك.

فهو عموماً، و (الجمالي) خصوصاً (ليس عمليـة بسيطة، إذ تتـدخل الذاكرة والمخيلة وإدراك العلاقات في تأويل مـا ندرك وكـذلك فـإن العقل يضيف ويحذف وينظم ويؤول ما يتأثر من انطباعات حسية)(١).

يضاف إليه ما يختص كل فرد من فروق فردية في الإدراك والانطباع والشعور والميول والمعتقدات، والمستوى الثقـافي العام والخـاص، والبيئة العلمية كالمدرسة، والاجتماعية كالبيت والمجتمع. . . .

وهذه وغيرها توضح التفسيرات الإدراكية عموماً والجمالية خصوصـاً، وهي على تشابكها وتعقدها سر من أسرار الله في خلق الإنسان لا يحيط به ولا يعرف كنهه ولا حقيقته. وكم في الإنسان من أسرار إلٰهية، وكم في تكوينه النفسي من عجائب وخصائص معجزة. تبارك الله أحسن الخالقين.

* * *

في الإبداع البشري (من خلال القرآن الكريم):

نبّهت آيات إلى معظم الخامات والمواد الأولية التي تعد أساساً للحرف والصناعات والأعمال الإنشائية الكبرى، وقد وقع هذا خلال الكلام على هذه الصناعات والإنشاءات، والمشروعات العمرانية المتميزة.

وأشار بعض علمائنا إلى ضروب منها ضمن العلوم القرآنية، في الطب والهندسة والفلك والصحة والرياضيات إلى جانب العلوم الشرعية كالعقـائد والعبـادات والتشـريـع، ومنهم (أبـو بكـر ابن العـربي، والسيـوطي،

(١) أصول علم النفس: ١٩٨، د. أحمد عزت راجح ط/ ١٠ ١٩٧٦م المكتب المصري الحديث، وانظر خاصة النظرية الجشتالية في تفسير الإدراك.

والمرسي. . . .) وصرح القرآن بنعمتها وفائدتها ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٩) فقد ربطت بين الخلود الدينوي والازدهار أو التفوق الصناعي.

فمن أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها ولا يمكن الاستغناء عنها في أي إبداع صناعي بشري:

الخياطة في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ . .﴾ (الأعراف: ٢٢).

والحدادة في قوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ. . .﴾ (الكهف: ٩٦)، وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . . .﴾ (سبأ: ١٠).

والبناء في آيات: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا. . .﴾ (الكهف: ٢١)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ. . .﴾ (التوبة: ١٠٩) وغيرها.

والنجارة في قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا . . .﴾ (هود: ٣٧).

والغزل في قوله: ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا. . .﴾ (النحل: ٩٢).

والفلاحة في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . . .﴾ (الواقعة: ٦٣).

والصيد في آيات: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ . . .﴾ (المائدة: ٩٤)، وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . . .﴾ (المائدة: ٩٦) وغيرها.

والغوص في قوله: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. . .﴾ (صٓ: ٣٧) وتستخرج منه أنواع الحلية المعروفة في العالم.

والصياغة في قوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا. . .﴾ (الأعراف: ١٤٨).

والزجاجة في قوله: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ . . .﴾ (النمل: ٤٤)، وقوله: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ . . .﴾ (النور: ٣٥).

والفخارة في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ . . .﴾ (القصص: ٣٨).

والملاحة في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ . . .﴾ (الكهف: ٧٩).

والصباغة في قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ . . .﴾ (البقرة: ١٣٨)، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ . . .﴾ (فاطر: ٢٧).

والحجارة في قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا . . .﴾ (الشعراء: ١٤٩).

ويعمم كل من ابن العربي والسيوطي أن في القرآن ما لا يحصى من العلوم ولا يعلمها إلا الله تعالى. يقول السيوطي في ذلك: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى. . .(١).

أولاً: سفينة نوح عليه السلام:

هي (فُلْك) بالمصطلح القرآني فيما عدا آية واحدة(٢)، ومن أبرز صفاته: الضخامة، والقوة، والتنظيم الهندسي. وكان نوح عليه السلام نجاراً ماهراً بالنجارة كما تشير آيات صناعة الفلك يستلهم عمله الفذ هذا من تأييد الله ورعايته ووحيه، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (المؤمنون: ٢٧).

---

(١) انظر الإتقان: فصل: العلوم المستنبطة من القرآن: ٢/١٢٥ ـ ١٣٠، والكلام السابق نقله السيوطي عن المرسى مختصراً. وفي بعضه نظر. وانظر التفاسير والدراسات الحديثة مثل: تفسير طنطاوي جوهري و: القرآن ينبوع العلم والعرفان: علي فكري.

(٢) العنكبوت: ١٥.

وتشير بعض الأحاديث والآثار إلى تخطيط زراعي وصناعي في صناعة السفينة فقد ﴿كان نوح ﷺ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه، وغرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطفها، وجعل يعملها سفينة. . .)[1].

ومجموع الآيات في صنع السفينة تدل على أنها متميزة عن سفن أخرى كما أسلفت بالسعة والضخامة، حيث أمر نوح أن يجعل سَفْرها من كل زوجين اثنين. فهي قد اتسعت إلى استيعاب مخلوقات إنسية وحيوانية ونباتية كثيرة.

وذكروا أقوالاً في مساحتها من ٨٠ ذراعاً طولاً و ٥٠ ذراعاً عرضاً إلى ٣٠٠ ذراع طولاً بعرض ٥٠ وارتفاع ٣٠ ذراعاً.

وهي متميزة أيضاً بقوتها التي صمدت في وجه التيارات المائية والأمواج العاتية ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ. . . ﴾ (هود: ٤٢) وقيل: إن نوحاً (جعل يهيء عتاد الفلك من الخشب والحديد والقار وغيرها . .)[2].

والآية: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر: ١٣) تصرح بالخشب والحديد (الألواح) و(المسامير) الحديدية في تقويتها وتمتينها. ثم إنه قد روعي في صناعتها أحوال الركاب والسفر وطبائعهم لئلا تطغى فئة على أخرى ولا يستعدي حيوان على حيوان، فقد قيل إنه جعلها من (ثلاث طبقات: سفلى ووسطى وعليا)[3].

فالسفينة ليست مجرد (شحن) متراكم للركاب والبضاعة من غير نظام ولا إبداع فهي ذات بطون ثلاث: (فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع

---

(١) الهيثمي في الزوائد: باب في ذكر نوح عليه السلام: ٨/٢٠٠، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه موسى بن يعقوب الزمعي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله ثقات، وانظره في تفسير الطبري في سورة هود: ٣٨.

(٢)، (٣) ابن الأثير في الكامل: ٣٩/١ والطبري عند تفسير سورة هود، وانظر تضعيفه لبعض الروايات بقوله: (فيما يزعمون ـ كما تزعم أهل التوارة. . .).

والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وفي البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد. . .)[1].

إن الآثار التاريخية القديمة والمصادر الدينية القديمة والخاتمة تنوّه بصناعة متميّزة (ربما) لأول فلك يصنعه الإنسان بمثل هذه السعة والقوة والنظام.

ولذا فقد تكرر ذكره ووصفه في القرآن كثيراً متجنباً الأرقام والمقادير التي ليس لذكرها فائدة كبيرة، (وإن أمثال هذه المباحث لا تعجب الرازي وعلى حد قوله: فلا حاجة إلى معرفتها ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح، ويقول: والذي نعلمه أنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه، ولما يحتاجون إليه، ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن. . .).

وهذا القدر القرآني الصحيح ينبه إلى إبداع بشري ونبوي يستحق أن يخلّد في كتاب الله.

ثانياً: الحجر وبناء المدن:

إن (مدائن صالح) صورة عريقة من صور المعمار المدني القديم، فعبر تاريخها المتوسط كانت آثارها الصخرية ماثلة للعيان، ومعابدها المنتشرة هنا وهناك لم تؤثر فيها عوادي الدهر ولا كر الأيام، وهي من عبر التاريخ الماضية والخالدة.

ومدائن صالح أو (الحجر) مدينة من مدن النبط القديمة المهمة كانت (قاعدة) اليمامة، تقع على شريان التجارة في العالم القديم، وهي (HEGRA) = (EGRA) التي أشار إليها (سترابو) في أثناء حديثه عن حملة

---

(١) الرازي في تفسيره عند قوله: ﴿ويصنع الفلك. . .﴾ (هود: ٣٨).

(أوليوس غالوس). . . . وقد عثر على خمس كتابات في (مدائن صالح) خرج بعض الباحثين من دراستها إلى أن الحجر اسمها القديم (حجرا) (هجرا). . .

وذكر (ابن حبيب) أن قوم ثمود نزلوا الحجر. . . (نزلها) قوم صالح النبي عليه السلام.

وعثر الباحثون على قبور من بقايا قبور الحجر القديمة، نقشت مداخلها وجدرانها بنقوش تدل على حذق ومهارة، ولا سيما المقبرة. . . التي تألفت من غرف نحتت في الصخور، ولبعضها دروب وطرق توصل بعضها ببعض. . . ومن هذه المقابر الموضع المعروف بـ(قصر البنت)، وقد نحت في داخل تل، ويعد من أغنى تلك المقابر من الناحية الفنية، وله مدخل خارجي ارتفاعه عشرون متراً، وقد زين بالزخارف والنقوش. . .

ويعد الموضع المعروف بـ(ديوان) من الآثار القيمة الباقية من (الحجر)، وقد عمل في جبل (إثلب)، وهو معبد يذكرنا بمعابد (بطرا)، وهو على قاعة ذات زوايا مربعة، عرضها عشرة أمتار، وعمقها اثنا عشر متراً، وارتفاعها ثمانية أمتار. . . . وعلى كل جانب من مدخله عمود من حجر، جعلت زواياه مربعة، ويوصل إلى هذا المدخل مدرج، وهناك معبد آخر صغير يقع على مسافة (١٥٠ م) إلى الجنوب من جبل (إثلب). . .[(١)].

يقول د. عبدالوهاب نجار[(٢)]: . . . (فيها) بيت الملك، وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة، وهو منقور في الصخر، والمكان الذي فيه ديارهم يعرف إلى اليوم بـ (فج الناقة). . . .

وأهم أنقاضها اليوم (تعرف بقصر البنت، وقبر الباشا، والقلعة، والبرج). . .

---

(١) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣/٥٥ ـ ٥٧، بتصرف بسيط. دار العلم للملايين، بيروت ط/١ ١٩٦٩ م، وانظر مراجعه في الحاشية.
(٢) قصص الأنبياء: ٥٩ الحلبي.

والقرآن قد كرر قصة النبي صالح عليه السلام، وركز في كل مرة على مدينة قومه المحصنة بالجبال وفي أعماقها.

ونبّه قريشاً والجاحدين إلى الاعتبار بأهلها ومصائرهم، فالمدينة في طريقهم التجارية وإلى جوارهم في المسكن والمعاش، ولكن وجومها وصرامة هيئتها وجلادة طبيعتها، وقوة بنائها تبعث في النفس الهيبة والهلع وتثير فيها المخاوف الغيبية المروعة، إنها دائماً تذكر بالقدرة الأقوى، والعظمة الأمضى يقول الله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ . . . ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ١٤٦ - ١٥٩).

ثالثاً: سد مأرب الزراعي:

وهو معلم بارز في القطر اليمني قريب من مدينة صنعاء، ظهرت في تشييده روعة التصميم وقوة البناء والغرض العملي الزراعي. وكان له أثر واضح في تقدم الزراعة وتطور الاقتصاد في اليمن، على الرغم من تصدع أو تهدم جوانب منه عبر العصور.

ولقد أظهر العرب الجنوبيون مقدرة كبيرة في الاستفادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والأنهار لاستعمالها في الإرواء والشرب والسقي، وتحكم مهندس الإرواء عندهم في الماء وسيطر عليه لكيلا يذهب هباء، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب، ونوّع في المجاري وفي مسايل المياه، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء.

واستبد سد مأرب من بين سائر السدود في جزيرة العرب بالاسم والذكر، ونال مكانة كبيرة في كتب التفسير والسير والأخبار، ولذكر القرآن لـ (سيل العرم) نصيب كبير في توجيه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار إليه. . . . وهو من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب. . . وتأتي السيول إلى السد من أماكن عديدة، من (ذمار) و (جهران) و (الحدي) و (حولان). . . . فتسير المياه حتى تنتهي إلى وادي (أذنة) ثم تدخل منخفضاً

من الأرض واسعاً، هو حوض هذا السد تدخر مياه الأمطار فيه، وله سدود وأبواب لحجز المياه وحبسها، أو لتصريفها حسب الحاجة. . . .

ولا توجد لدينا نصوص عن أول رجل أقام هذا السد، وعن العهد الذي تم فيه البناء. . . ويرى (كلاسر) أن عهده يعود إلى السنة السبعمائة قبل الميلاد، وقد بقي قائماً يؤدي واجبه إلى حوالي السنة (٥٧٥) بعد الميلاد. ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدرانه بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها، وآخرها هو إصلاح (أبرهة) له الذي تمّ أثر تصدعه سنة (٥٤٢ م)، ويظهر أن تصدعاً آخر وقع للسد في أيام طفولة الرسول ﷺ وذلك حوالي (٥٧٥ م) لم يكن من الممكن التغلب عليه بسبب التدهور الاقتصادي، وإرتباك الأوضاع السياسية في اليمن حينذاك. . . وتحولت بذلك الأرضون الخصبة التي كانت تروى بمائه والتي كانت واسعة إلى موات، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة. . . . وإلى جانبه أقيمت سدود أخرى أقل أهمية.

وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتتماسك وتكون كأنها قطعة صَلدةٌ واحدة، ونحتت الصخور، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض. . . وتكون كأنها صخرة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكوّن من الرصاص والنحاس، يبلغ طول الواحد منها حوالي (١٦ سم)، وقطرها حوالي (٣,٥ سم)، وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر، فإذا جمد وصار على شكل (مسمار) يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال (المسمار) في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم. أما المادة التي استعملت لربط الأحجار فهي من أحسن أنواع الجبس، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد أيضاً حتى صار كأصلب أنواع الإسمنت.

وأقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجها، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي، تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن إلى المياه، ولا يزال بعض جدر السد قائماً، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية، وهي تدل على مهارة مهندسي الري في ذلك العهد، وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان[1].

(وعلى ذلك نستنتج أن هذا السد العملاق ظل شامخاً يخزن المياه للري ما يزيد على ١٣٠٠ عام من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي، حيث انهار وتهدم أمام جبروت سيل العرم الذي اجتاح السد العجوز الذي كان قد مر بثلاث تصدعات حسبما تذكر النصوص التي عثر عليها بين أنقاض السد، . . .).

وفي إحدى عمليات الترميم والصيانة المسماة بالترميم الكبير الذي قام به الملك شرحبيل يعفر سنة ٤٥٠ م احتاج الملك إلى تشغيل وتوظيف حوالي (٢٠٠٠٠ عامل). . . .)[2].

(وأنه مبني من التراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع من انجراف التراب عند تدفق المياه. . . ولو قطعنا السد قطعاً عرضياً لوجدنا القطاع في شكل حائط يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض فيصده عن المسير. . . وقد شيّده البناة الأوائل على مضيق جبلي قريب من مأرب على وادي (أذنة) والذي يعلو حوالي (١١٠٠م) عن سطح البحر. . . .)[3].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام السابق: ٧/٢٠٠ و ٢٠٩ - ٢١٢ باختصار. وانظر مراجعه في الحاشية. راجع: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: د. عبدالعليم عبدالرحمٰن ص: ١٩٥.

(٢) والكلام مقتبس من ص: ١٩٩ و ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق: ٢١١.

(لقد بني هذا السد العتيد في ذلك الممر الضيق المسمى بالفلج الأيمن الذي يبلغ عرض بنائه (٢٥٠ م) تقريباً ليدل على عظمة الإنسان وكفاءته في استخدام الموارد الطبيعية المتاحة له. . . .) [1] ـ

إنه سد نوّه القرآن بازدهار جنّاته وزراعته ونظام ريّه وإحكام صنعه. وأصبح في العصر الحديث مركزاً هاماً للبحث الأثري لدى الغربيين تقديراً لمهارة المهندسين الأقدمين في بناء السدود.

وإنه في التوجيه القرآني عبرة للإنسان في كل زمان ومكان.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ. . . ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥ - ١٧).

رابعاً: سد ذي القرنين [2]:

وهو من أعظم السدود في العصر القديم، أقامه ذو القرنين المعروف بـ(كوروش) العيلامي الأكميني (الأخميني)، مؤسس المملكة الفارسية وله الفتوحات الواسعة، أعظم ملك فارسي بين عامي ٥٣٩ ق. م و ٥٢٩ ق. م، وهو غير سور الصين العظيم المبني بالطين والحجارة في أقصى المشرق، وغير سد مأرب المبني بالحجارة أيضاً لتخزين المياه ومن ثم للإفادة منها زراعة وسقياً.

وهو الآن في جبل القوقاز ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي كما تشير الوثائق الجغرافية والتاريخية، لا يستطيع أحد أن يتسلق فوق ظهره، أو ينقبه كما صرحت بذلك آيات الكهف الأخيرة.

وبعد (١٠٠٠ عام) من بناء ذي القرنين للسد في مضيق (داريال) أمر

---

(١) المصدر السابق: ١٩٩.

(٢) اعتمدنا بالدرجة الأولى على: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: د. عبد العليم عبدالرحمٰن خضر في أماكن متفرقة. دار الشروق ط/١ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م قارن بما ذكره المفسرون والمؤرخون.

(أنو شروان) ببناء جدار من الحجر بين مياه بحر قزوين بعرض الشريط الساحلي حتى التحم الجدار تماماً بجبال القوقاز، وبذلك عاد لسد قورش الحديدي مفعوله مرة أخرى. . . .

ثم دخل المسلمون قريباً منه في عهد عمر بن الخطاب (٢٢ هـ/٦٤٤ م). . ولم تنته الدولة الأموية إلا وكان حكم الإسلام قد استقر في الإقليم الذي يحيط بموقع السد، من جميع الجهات، واستمر الحكم الإسلامي عليها حتى ضعف أواخر العصر العباسي حين كان العالم الإسلامي مشغولاً يقاوم الغزو الصليبي للشام، فاكتسح السلاجقة إقليم التركستان وخوارزم وإيران سنة **١٠٧٢** م واستولوا على جنوب جبال القوقاز.

في الوقت الذي خرج منهم (المغول) وأفسدوا في الأرض كما هو مشهور في التاريخ. وفي سنة **١٨٥٩** م كانت روسيا قد فرغت من حروب القرم مع تركيا وفرنسا وانكلترا، فابتلعت هذا الإقليم مع ما استولت عليه من أقاليم إسلامية أخرى وذلك نتيجة مؤتمر برلين سنة **١٨٧٨** م الذي حصلت روسيا بموجبه عليه بشكل نهائي.

ويصرح القرآن بتفصيلات محددة عن بنائه، فهو قد بنى في مكان جبلي شاهق الارتفاع، شديد التضرس، قائم كجدارين شامخين على جانبيه في مضيق جبلي يعرف بمضيق (داريال) مرسوم في جميع الخرائط الإسلامية والروسية في جمهورية (جورجيا). . .

وقد استخدمت في تشييد السد (زبر الحديد) قطعه الكبيرة، وأفرغ عليه النحاس المنصهر وهو القِطْر المذاب، مما يبعد عنه أن يكون قد شيّد بالحجارة كتلك السدود الأخرى.

وكتل الحديد الهائلة والمخلوطة بالنحاس موجودة في جبال القوقاز وفي مضيق داريال الجبلي وقائمة لكل من أراد أن يراها، تظهر قدرة الإنسان القديم وإبداعه الهندسي المعماري.

وقد أقيم لإيقاف زحف القبائل المتوحشة والبدائية عبر جبال القوقاز إلى شمال مملكة فارس وغرب آسيا. ولم يكن لحجز مياه السيول والفيضان مثل السدود الزراعية المعروفة. وهي قبائل شرسة مثل: البلوج والبرهوائي، وقبائل هندية أخرى كانت تعيش في بيئة صحراوية قاسية، كما ألمح إلى ذلك القرآن الكريم.

وقد عرف الفرس في العصر الأكميني (الأخميني) ومنهم ذو القرنين، بمهارتهم في فن العمارة والبناء، يشهد بذلك كل ما اكتشفه علماء الآثار هناك من أبنية تدل على عظمة التصميم الهندسي، ودقة اختيار المواد الخام، وتطويعها للغرض الإنشائي المنشود. . . . ومن ينظر إلى مقبرة كوروش، ودارا الأول، واكزرسيس الأول، يدرك عمق تأثر المعمار الفارسي بما يحيط به من أنماط في مصر واليونان وبابل. . . وأن ما شيّده كورش نفسه في (بازار) رغم تهدمه، صورة من الروعة والجمال ترسم ملامح الفن الفارسي الأخميني منذ أربعة وعشرين قرناً. وفي مقدمتها الآثار الحجرية والدرج والأعمدة وتماثيل الحيوانات المجسمة، وبقايا البناء الذي خلد فيه كورش ذكرى انتصاراته على الشعوب المختلفة، ومنها سده العظيم الذي خلّده القرآن على مدى القرون.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أنه يمكن تصور عدد العاملين في هذا السد حوالي (١٠٠٤٤٦) عامل، وهذا العدد يمكنه بالفعل إنجاز العمل في سد ثغرة (داريال) لمدة عشر سنوات تقريباً.

كما تشير إلى وفرة المواد الخام في منطقة أذربيجان وأرمينية كالحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والكبريت وكذلك الفحم والخشب اللازمان لصهر الحديد.

يضاف إليه توفر العدد اللازم من حيوانات الجر والحمل، فالإقليم غني بالثروة الرعوية والحيوانية، وهي كافية لرعي الماعز والضأن على الهضاب، والأبقار والمواشي في السهول.

وأودية هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة، وفي مناطق العراء كانت زراعة البطاطا والشمندر السكري من أهم حرف السكان في العصور القديمة.

مما يؤكد قدرة الإقليم على إطعام العمال والمهندسين دون أن يحدث نقص في إمدادات الغذاء.

وهكذا فإن الإبداع البشري صنع سداً حديدياً نحاسياً رهيباً استغرق قرابة عشر سنوات... موجود فعلاً في فتحة (داريال) بجبال القوقاز التى كانت القبائل المتوحشة تغير منها على مناطق جنوب القوقاز وشرق البحر الأسود وغرب بحر قزوين.

وهو لهذا أشبه بجدار أو حصن لحماية السكان الآمنين.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ . . . . . . وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٢ ـ ٩٨).

خامساً: كرسي سليمان عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤).

ذكروا (أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين باتخاذ كرسي يقعد عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت، قيل: فعملوا له كرسياً من أنياب الفيلة، وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وأنواع الجواهر، وحفوه بأربع نخلات من الذهب، شماريخها الياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر على رأس نخلتين؛ منها: طاووسان من ذهب، وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب، بعضها مقابل بعض، وجعلوا من جانب الكرسي أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر، وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث يظل عريش

الكروم والنخل الكرسي، وقالوا: وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي، ورجله فيها، ويدور دوران الرحى المسرعة. . . . . ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي، التوراة، فتفتحها لسليمان فيقرؤها على الناس، ويدعوهم إلى فصل القضاء. . . . قال معاوية لوهب بن منبه: ما الذي كان يدير ذلك الكرسي؟ قال: بلبلان من ذهب. . . .وقالوا: فإذا دار الكرسي بسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما فتفـزع منه الشهـود، ويداخلهم من ذلـك رعب شديـد، فلا يشهـدون إلا بالحق. . .)[1].

ومثل هذا الوصف العجيب المدهش يجعله معلماً للعظمة في الملك والنبوة اللتين من مناقب سليمان عليه السلام، وربما يشعر بعمل الخيال في وصفه أكثر من الحقيقة الواقعة. وليس بين أيدينا وثيقة مقبولة عنه.

ومهما يكن من أمر فقد روعي فيه:

١ ـ روعة الهندسة الفنية والتصميم الهادف فهو أشبه بمكتب وكرسي دوارين يقومان على وسائل آلية مساعدة لعمل القاضي، في أسفله أسطوانات أو بكرات تدير الكرسي الضخم.

٢ ـ جلالية الفن وجماليته: فهو من أنياب الفيلة، وأحجار الياقـوت واللؤلؤ والزبرجد، وعلى جانبيه تماثيل ذهبية لأسود ضخمة، وتزيين جمالي ظلالي من أشجار النخل والكروم. . . .

٣ ـ هذه وتلك يقصد منها انبهار نفسي للمتخاصمين، وعون على قول الحق ودفع الظلم وشهادة الزور، وهو وإن لم يعمل بأيد بشرية وحدها كما تقول

(١) الثعلبي: عرائس المجالس: ٢٧٢. والمعرف أنّ أخباره ليست بذاك.

الـرواية بـأنه من عمـل الشياطين، فـإنه عمـل للناس ولإدراكاتهم الإبـداعية والجمالية الباهرة.

سادساً: الصرح الزجاجي:

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤).

هو قصر أو بركة ماء اتخذ من قوارير، فقـد (أمر سليمـان الشياطين فعملته له من زجاج كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ووضع سريره فيه فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ليريها ملكاً (بلقيس) هو أعز من ملكها...)[1].

والقرآن صرّح بأنه: صرح، وممرد من قوارير (زجاج مملّس)، ولصفائه كأنه لجة ماء.... وهي صفات صناعية وهندسية قصد منها إظهار جماليات رائعة لم يسبق مثلها بين صنائع الملوك.

والرواية التي ينقلها (الرازي) في تفسيـره قريبـة مما سبق مـع بعض التفاصيل الأخرى، يقول: روي أن سليمان عليه السـلام أمر قبـل قدومهـا (بلقيس) فبنى له على طريقها قصر (أو صحن دار) من زجاج أبيض كالماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الإنس والجن والطير....

أمـا روايـة ابن الأثير فهي أكثـرهـا تفصيـلاً مـع شيء من التغييـر. يقول: .... فبنوا له صرحاً من قوارير خضر، وجعلوا له طوابق من قوارير بيض، فبقي كأنه الماء، وجعلوا تحت الطوابق صور دواب البحر من السمك وغيره...[2].

---

(١) فتح الباري: ٥٠٤/٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ١٣٢/١.

وأياً ما كانت صفة القصر ومواده مما لم يثبت فيه خبر فإن تعاون الإنس والجن والطير حسب ما تقوله الرواية قادر على إنتاج شكل فني يجمع بين الحسن والعظمة في عمل فني وصناعي مبدع.

سابعاً: قصر بلقيس بنت هداد وعرشها:

وبلقيس هـذه ملكت اليمن (٣٣٠ - ٣٤٥) ومن تابعتـه، وذلك بعـد زوجها الأول (عمر) الـذي حكم اليمن (٣٢٠ - ٣٣٠) وعرف عنـد العرب بناشر أو ياسر النعم، ثم تزوجت بسليمان عليه السلام على الأرجح.

وذكروا في صفة القصر رواية عن الشعبي قال: روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل إليها (٥٠٠) أسطوانة من رخام، طـول كل أسطوانة (٥٠) ذراعاً، فأمرت به، فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع، ثم جعلت فيها سقفاً منظومة بألواح الرخام، وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص، حتى صارت كأنها لوح واحد، ثم بنت فوق ذلك قصراً مربعاً من آجر، وجص، في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب، مشرفة في الهواء، وفيما بين ذلك مجالس حيـطانها من ذهب، وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة، وجعلت فيه: أي في باب ذلك القصر مما يلي المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر، وفي جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم[1].

والوصف السابق على إمكان وقوعه، وبالشكل الأفخم مما وصف به، وبالخامات المعدنية المدعمة، لا تؤيده رواية موثوقة، ومع ذلك فإن (القصر) برز فيه عنصران في المقدرة العمرانية:

١ ـ فخامة البناء من حيث أسطواناته وزواياه الذهبية وجدرانه المنضدة بالجواهر...

---

(١) قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي أحمد بن إبراهيم ت: ٤٢٧، ط/ عيسى البابلي الحلبي ص: ٢٧٩.

٢ ـ إحكام الصنع: فدعائمه الأسطوانات الرخامية، المسقوفة بألواح هائلة من الرخام المتلاحمة بالرصاص. . . .

والقرآن لم يشر إليه إلا ضمن (الكلية) التي صرح فيها بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ . . .﴾، ومن خلال أحداث قصة (الهدهد) الذي كان قصر بلقيس محورها، وموقعها.

صفة عرشها:

كان مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمر، والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر، وله أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من زمرد أخضر، وقائمة من در أصفر، وصفائح السرير من الذهب، وعليه ٧٠ بيتاً، وعلى كل بيت باب مغلق، وكان طوله (٨٠) ذراعاً في (٨٠) ذراع في الهواء[(١)]، ويقول ابن كثير[(٢)]: كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلىء والذهب والحلي الباهر.

قال ابن عباس: وكان من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ، ولابن أبي حاتم قال: حسن الصنعة غالي الثمن، سرير من ذهب، وصفحتاه مرمول بالياقوت، طوله (٨٠) ذراعاً، وعرضه (٤٠)[(٣)].

ومهما قيل في وصف عرشها، فإنه قطعة ضخمة من المعادن والأحجار الكريمة الموجودة بكثرة في اليمن، صنعته عقول وأيد ماهرة تنبىء عن قدرة بشرية متفوقة. ألم يقل القرآن في وصفه ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٣)؟!.

○ ○ ○

---

(١) قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي أحمد بن إبراهيم ت: ٤٢٧، ط/ عيسى البابي الحلبي ص: ٢٧٩. والمعروف أن أخباره ليست بذاك.

(٢) قصص الأنبياء: ٢/٢٩١. دار الكتب الحديثة ط/٢ ت: د. مصطفى عبدالواحد.

(٣) فتح الباري: ٨/٥٠٤.

في جماليات ما دون الإنسان

لقد سبق القرآن إلى عرض صور لحيوانات وحشرات وطير ونبات وجماد ضمن طريقته الجمالية الرائعة من التجسيم والتشخيص والحوار النابض بالحياة، الممتلىء بفيْضٍ من المعاني الفكرية والايحاءات الجمالية، وأبان في ذلك عن جماليات وجلاليات ليس لها نظير في أي سجل آخر.

إنه أوضح لها منافع ضرورية وأخرى جمالية، ثم نوّعها إلى جمالية الرؤية والسمع واللمس، والشم... المحسّة، وجمالية معنوية وروحية تفوقها وتسمو عليها. وفي كليتهما تلبي حاجات ذوقية بهيجة لدى الإنسان. وهكذا أثار في عرضه قضيتين هامتين:

١ ـ جمالية المخلوقات الأخرى التي تنبىء أن الإنسان وحده ليس (محور) الجمال والإتقان والتسوية.

٢ ـ الإدراك الإيماني بواسطة النماذج المعروضة التي أضفى القرآن عليها من روعة بيانه وعمق إعجازه.

الطعام والماء ضرورة وجمال

الضرورات أولاً:

فلا يشك أحد في ضرورة الطعام والماء ودورهما في قوام الحياة عموماً والحياة الجمالية خصوصاً.

والبؤس والجوع والعوز لا تؤثر سلبياً على البدن كخلايا وحواس ونسج وعظام، ووسائط نقل واتصال ومنافذ على العالم الخارجي وحسب وإنما يشمل تأثيرها الكبير الملكات الجمالية والإحساس بروائع الحسن والبهاء، فلا بد أن تتحرر من هذه الضرورات لتعيش في آفاق جمالية رائعة.

وأي وجدان جمالي يمكن أن ينشط إذا لم تلبّ حاجات المرء

الأساسية؟ وهل تتفتّح حيويه الحسّ الجمالي في أناس أو بيئة يتضورون جوعاً وبؤساً وعوزاً؟.

هذا بالنسبة للطعام وضرورته لحياة البدن وأجهزته المختلفة فما بالك بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فلا يصبر على فقدان الماء وإن تحامل على نفسه في الصبر على فقدان الطعام.

والمذاهب الاجتماعية قديماً وحديثاً تحاول أن تتلمس نظاماً يقضي على الفقر والبؤس وتقيم نوعاً من العدالة الاجتماعية، وفي مقدمتها تأمين الحاجات الأساسية من الطعام الضروري والماء النظيف والمسكن البسيط.

والجوع مشكلة إنسانية عالمية، وضحاياه يزدادون عاماً بعد عام مثل زيادة ضحايا التخمة والبطر، والبحث عن موارد الطعام والماء أخطر مسؤولية ينبغي أن يتحملها المجتمع الإنساني كله. فمن حق الجائع أن يطعم، والعاري أن يكسى والمريض أن يعالج، والإنسان أياً كان أن يوصل إليه الماء. (فالمسلمون شُركاءُ فِي ثلاثٍ: الكلأ والماءُ والنَّارُ)[1].

وهذه وإن كانت حاجات مادية لا يستغني عنها مجتمع فإن آثارها النفسية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية تتغلغل في بنيته الحضارية.

والقرآن ينبّه إلى تعميم هذه الحاجات ولا يضع لها قيوداً على تملكها سوى ما يتصل بتنظيمها وإيصالها إلى أصحابها من غير تكلفة ولا تعويض.

وإن من أهم الترغيب لآدم في خلوده في الجنة أنه لا يذوق فيها ما يذوقه أناس أحياناً من الجوع والعري والعطش في الأرض ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (طـه: ١١٨ - ١١٩) فمتى يعيش الإنسان على هذه الأرض وكأنه في جنة السماء فلا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يشقى...؟.

وإن أخطر مدمّر للحضارة تغلغل الجوع والخوف في أبنائها المعاندين

(١) أبو داود في البيوع وقال: السيوطي في الجامع الصغير: رواه أحمد وحسنه.

الجاحدين بعد الرغد والأمن، فكان هذا مثلاً قرآنياً وسنّة كونية صالحة لكل زمان ومكان وحضارة ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

وهو واحد من الابتلاءات الكبرى التي لا يقدر عليها الإنسان، فلن يصبر على الجوع والخوف... دائماً، ولذا كان الابتلاء ببعض الجوع، والخوف وبشيء منه... وليس بجميعه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ...﴾ (البقرة: ١٥٥).

ومن هذا الشيء الجوعي ما يناله المسلم في بعض العبادات كالصوم والرياضات الشرعية المسموح بها، مثل: مواجهة الأعداء والجهاد في سبيل الله.

وكذلك فإن الماء قوام الحياة: للإنسان والحيوان والنبات والأشياء، وهو بمثابة (إنشار) البلد الميت وإحيائه ما دام بقدر كفاية الحاجة وسد الضرورة ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ (الزخرف: ١١)، ومثلها إحياء الأرض كلها بشيء من الماء بعد أن آلت إلى اليبس والجفاف والموت ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ (البقرة: ١٦٤) فالماء بمقدار ضرورة حية للإنسان والأرض...

وهذه الضرورة لها ميزانها الثقيل في أعمال الإنسان فلا يمنع منها أحد من البشر، ولا أحد ذو حياة مهما كان جنسه ونوعه وربما كانت وحدها سبباً في نجاة من النار ودخول الجنة.

فقد صح عن الرسول ﷺ من رواية أبي هريرة قوله: بينا رجلٌ يمشي اشتدّ عليه العطشُ، فنزلَ بئْراً فشَربَ منها، ثمّ خرجَ فإذا هو بكلبٍ يلهثُ يأكلُ الثَّرى من العطَش، فقال: لقد بلَغ هذا مثلَ الذي بلغَ بي، فملأ خفَّه

ثم أمْسَكه بفيه ثم رَقى فسقَى الكلبَ فشكَر اللَّهُ له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجْراً؟ قال: «في كلِّ كَبدٍ رطبةٍ أجرٌ»[1].

وواضح أن هذه الحاجة ليست خاصة بالإنسان، فالبهائم كلها حتى الكلاب وما دونها لها حق الحياة والماء ولا تمنع منه إطلاقاً، هو حق يكافأ عليه بأجزل المكافأة والثواب. هو شكر الله له وثناؤه عليه وقبول عمله ومغفرته... أنه جانب إنساني عام من توجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإن في منع هذه الحاجة أسوأ العواقب وأوخم النتائج، فليس من التطوع الخيري وإنما هو من الواجب الإنساني، فقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من أهل النار امرأة... فإذا (هي) تَخْدشها هرَّةٌ قالَ: ما شَأنُ هذِه؟ قَالوا: حَبَسْتها حتّى ماتتْ جُوعاً[2].

وفي حديث ابن عمر في الموضوع ذاته: عُذِّبت امرأةٌ في هرَّةٍ حبَستْها حتى ماتتْ جُوعاً، فَدخلت فيها النارَ، قالَ، فقالوا... - والله أعلم - لَا أنتِ أطعمتِها ولا سقيتِها حتى حبستِها، ولا أنتِ أرسَلتِها فأكلتْ من خَشاشِ الأرض[3].

في الماء والطعام حضارة وجمال:

تهتم مجتمعاتٌ بفنون الأطعمة والأشربة وتعدّها مع طرق تحضيرها وتناولها وعروضها من جوانب الحضارة المادية، وتتخذ ذلك كله في بيئات جمالية تساعد على (تذوق) أهم الحواس الإنسانية بألوانها البديعة.

ولا ريب أن الإغراق في مثل هذه الطرق والمبالغة في التفنن المائدي يشغل المرء عن قضاياه الهامة ومسؤولياته الخطيرة في الحياة ويجعل منه أداة

(١) البخاري: المساقاة: باب فضل سقي الماء (٢٣٦٣). انظر آراء العلماء في سقي الكلاب وغيرها مما لا يحترم في فتح الباري: ٥/٤٢.

(٢) البخاري في السابق (٢٣٦٤). (٣) البخاري في السابق (٢٣٦٥).

أو وسيلة لخدمة بطنه وما حوى مهما تلبست لباساً جمالياً، كما يجعل منها (أهدافه) القريبه والبعيدة. والقرآن يلفت انتباهنا إلى أهمية الجانب الجمالي في الطعام والماء.

● **الماء شراب وسقي وطعام**: فالماء في آيات عدة: (شراب) وبخاصة شراب أهل الجنة، وذلك ليضفي عليه جمالاً أكثر من حاجة الإنسان إليه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٠، ١١).

فالماء نوعان: شراب للإنسان بنفسه أو بما يضاف له من أنواع الفاكهة والثمار والمطاعم، ونوع تسقى منه الشجر والزروع.

فهو هنا إذاً يزيد عن ضرورة الإنسان منه ومما ينبت، وذلك بتعداد أصناف الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ثم (كل الثمرات) فإنه ينوّه بخاصيتها الجمالية الإبداعية في المذاق والرؤية والرائحة. ولذلك فإنها مجال كبير وآية عظمى للتأمل والتفكير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

● **الماء طهور مبارك**: ومثلها آيات أخرى تشير أو تصرح برغد العيش ووفرة المياه على شكل ينابيع أو مياه جوفية سلكت بطون الأرض، وتصفه بـ (الطهور) و (المبارك)، وما يعقب نزوله من (اخضرار) الأرض، و (نبات شتى) و (نبات كل شيء) و (حدائق ذات بهجة)، وانباته (من كل زوج كريم) و (من كل زوج بهيج)، يكسو (الماء) صفة جمالية بطبيعته وآثاره في الأرض، ثم بنتائجه الممرعة المخصبة، وجمال صورته وألوانه وطعومه.

وأي طهور وبركة أعظم وأجمل من هذه (الثروة المائية) التي قد لا تعدلها ثروة أخرى؟.

● **الماء المنهمر الثّجاج وطعامه**: وهو أمطار مدرارة وابلة تغيث العباد

والبلاد وتحيلها إلى بساتين وجنات وأرزاق كثيرة مختلفة فيعم الخير وينتشر الرخاء ويقبل الناس على مواسم الفضل والعطاء.

فماذا يمكن أن نتصور بلداً أو أرضاً هطلت عليها قُرَب المياه مثل ما صورتها الآيات القرآنية؟ إنها لوحة حية ازدانت بالحَب المختلف والنبات المتفرق والجنات المجتمعة الكثيفة.

لوحة ناطقة بالجمال صورة وتعبيراً موحية بالحسن مضموناً ولفظاً ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا...﴾ (النبأ: ١٤ - ١٧). فالسحب معصرات، والماء ثجاج، والبساتين جنات ألفاف... وهي بجمالها متناسقة مع لوحة كونية كبرى (سبَقتها)، رسم فيها النهار المعاش، والسبع الطباق، والشمس السراج الوهاج...

● **الماء المصبوب وخيراته**: وربما كانت لوحته أوسع مساحة وأطول نفساً، وأغنى موضوعاً وأوضح هدفاً من أيّة لوحة أو مشهد آخر ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢). إنها تسع آيات قصيرات من حيث طولها، غنية من حيث معانيها وأجزائها، قوية من حيث تأثيرها وفعاليتها.

فالمطر ينسكب من السماء انسكاباً، فتتشقق الأرض من انهماره تشققاً، وتنبت من كل شيء يمكن أن تنبته الأرض ويتصوره الإنسان...

الحبوب المختلفة، والكروم الممتدة، والخضار الغضّة والبساتين المشجرة: الزيتون أكلاً ودهناً، والنخل حلاوة وطعماً، والفواكه ألواناً، وطعام الحيوان أنواعاً....

هذه وغيرها ليست طعاماً ولا فاكهة ولا غذاءً وحسب وإنما هي متعة (لنا) للإنسان والحيوان، وطبيعة بديعة الحسن والجمال والبهاء. إنه مشهد غني

بالموجودات السماوية والأرضية تبرز فيه قصة الطعام غذاء ومتعة وقد مرّ بمراحل وأطوار متعددة وأثمر ثماراًمتنوعة، وأنبت نباتاً مختلفاً وصنع حدائق وجنات غلباً.

وإنه مشهد لا يتجدد في بلد معين ولا أرض خاصة فهو منتشر في كل بلد وكل أرض، ولذا فإنه مجال التأمّل ومدار النظر، فلينظر الإنسان إلى دقيق القدرة وجمالها، وعظيم النعمة وبهائها والعطاء الوافر ومعطيه، فقد أبدعته قدرة الخالق وجمّلته حكمته الإلٰهية، . . . وجعلته (متاعاً) إلى حين، يتضمن اللذة والمتعة والبهجة. كل ذلك في اختيار الألفاظ وتناسقها وروعتها.

● **ألوان وألوان**: ففي الآيات: للجبال أنواع، وللناس أجناس، وللدواب والطير أصناف، وللحشرات والحيوان أمم، وكلها في التعبير القرآني (ألوان)، وهي لفظة فنية لها ظلالها الجمالية كما هو واضح.

وهذه (الألوان) ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بـ (ألوان) الطعام والمياه على اختلافها وتنوعها وجمالياتها.

وقد جمع معظمها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ . . .﴾ فاطر: ٢٧، ٢٨).

وفي بدء هذه الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ . . .﴾ فقد منح الله الماء قوة الإنبات والإخراج، وهو وإن كان ماءً واحداً يسقي أرضاً واحدة فإن ثمراتها تختلف أشكالها وطعومها وروائحتها، فهي مختلفة الألوان ومتنوعة المتعة واللذة والبهجة، وتلك صفة من صفات ثمار الجنة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ . . .﴾ (البقرة: ٢٥). وكأن آية الدنياتقتبس إعجاز ثمراتها ألوانها وطعومها من ثمرات الجنة وألوانها وطعومها. ولذلك فإن كثيراً من

الآيات تصفها (بالجنات). . . ولكن شتان بين هذه وتلك.

إن (تلوين) كل نوع من الثمار بلونها وأحياناً تلوين كل ثمرة باللون نفسه بنسب ضئيلة في الكثافة والنصاعة وفي أشكال وحجوم متنوعة يضفي عليها بهاء متموجاً يغري العين بالنظر أكثر مما يغري الفم بالطعام.

وآية ثانية تربط بين (الينابيع) في الأرض وألوان (الزرع) لا في طور أو مرحلة واحدة وإنما في مراحل: **البذر والإنبات والْهَيج واليبس والتفتّت**، وفي كل مرحلة يتلوّن الزرع بألوان خاصة ويختلف بأشكال متعددة، إنها قصة أخرى من قصص النبات وحياته إن فيها عبرة لأولي الألباب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (الزمر: ٢١).

والنظرة الجمالية الأولى في هذه الآية وما قبلها، عرض هذه الألوان الثمرية والنباتية والجبلية و. . . في إطارين بداية وختاماً:

فالإطار البدئي هو (ألم تر) فهي ألوان مرئية بالعين والقلب، بالبصر والبصيرة تتملاها العين وينفعل بها القلب وتتغلغل في الوجدان.

والإطار الختامي هو (للعالمين ـ يتفكرون ـ لذكرى لأولي الألباب. . .) يلهم بالعلم والفكر والعبرة مع سريان الروح الجمالية في كل جزئية فيها.

والنظرة الجمالية الأخرى في هذه الآية أيضاً هي تناسق ألوان الزرع وتطور مراحله وتأثيراته الوجدانية مع جمالية القرآن التي تتأثر منه القلوب والجلود وتلين بتلاوته وسماعه، فقد قال الله عنها بعد آية واحدة ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ. . .﴾ (الزمر: ٢٣).

وأخيراً فإن (الألوان) وما فيها من إيحاءات جمالية تشمل جميع ما

خلق الله وسخر في الأرض ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٣).

إنها على سعتها وشمولها وزخمة ألوانها (تتمات) أو (أجزاء) من آيات مرت بنا تتحدث عن الماء شراباً وسقياً وطعاماً، وتعقبها آيات تتحدث عن البحر مأكلاً طرياً وحلية نادرة وفلكاً مواخر فيه. . . .

إنها على سعتها وشمولها وزخمة ألوانها (لنا) للقلوب المتفتحة والنفوس الشفافة، هي للمؤمنين الذين يمدهم إيمانهم بكل خير وحق وجمال.

إنها لنا طعام وماءٌ وجمال.

إنها لنا إحساس ومشاعر ووجدان.

إنها لنا لنعْلم ونتفكر ونتذكر ونشكر.

من كل زوج بهيج. . . من كل زوج كريم

وإذا كانت الزوجية أو الثنائيـة إحدى السنن الكـونية الشـاملة لجميع الخلق ولكل شيء فإن الخالق المبدع يبثها في كل المـوجودات المعلومـة ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩) وغير المعلومة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

فهي حقيقة علمية كشف العلم الحـديث عنها في الإنسـان والحيوان والنبات والكهرباء والمغناطيس، والتفاعلات الكيمائية، وأخيراً وليس آخراً في نظام الذرة بشحنتيها الموجبة والسالبة، حيث تحمل (الإلكترونيات) السابحة الطائفة شحنة سالبة، وتحتوي (البروتونات) الساكنة في النواة، شحنة موجبة، وهكذا يحدث التوازن بين الشحنتين الثنائيتين المتقابلتين فلا تنفجـر الذرة على نفسها، وبتوازنها يتوازن الكون كله.

ولاحظ العلمـاء ألوفـاً من الثنائيـات النجمية. . . تتـألف من نجمين

مرتبطين متزاوجين. . . يشد بعضهما بعضاً، ويرتبط به، ويطوفان معاً. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا . . . ﴾[1].

من كل زوج بهيج:

وهي أيضاً حقيقة جمالية نبّه القرآن إلى حسنها في مجالات عدة:

● في زوجية الإنسان: . . . ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ (القيامة: ٣٨، ٣٩) فالعلاقة واضحة بين الخلق والتسوية والثنائية.

● في زوجية النبات: . . . ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . . . ﴾ (طه: ٥٣) فالإشارة معبرة في إنزال الأمطار وإخراج الله به أزواجاً نباتاً مختلف الألوان، شتّى الأنواع.

● وفيما نعلم ولا نعلم من كل شيء في الأرض وبطون البحار وأجواء السماء من أصغر الموجودات إلى أضخمها، ومن أكثرها تألقاً وسنى إلى أدناها حسناً وجمالاً . . .

فالزوجية تعني جمالياً: التناسب بين اثنين من الموجودات والمخلوقات، تناسباً يشي بقرب صفات الأول للثاني وتمازج سماتهما بحيث يثمران أو يتوازنان وينسجمان.

وقد أعلن القرآن جمالية النبات في أزواجها، وبهجتها في ثنائيتها فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

يقول ابن كثير في تفسير (جمالي): الأرض الهامدة: هي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء، وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السّدي: ميتة ثم يقول: فإذا

---

(١) د. محمد عبدالله الشرقاوي: الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: سلسلة دعوة الحق: ٤٧.

أنزل الله عليها المطر اهتزت ـ تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، وربت ـ ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ـ حسن المنظر، طيب الريح. ذلك استقصاء طريف وجميل من ابن كثير.

ويقول الرازي: همود الأرض: يبسها وخلوّها عن النبات والخضرة... والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتزّ فلان لكيت وكيت إلا كان الأمر من المحاسن والمنافع... ثم يقول: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس، والبهجة: حسن الشيء ونضارته... قال المبرد: **هو الشيء المشرق الجميل**...

أقول:

اهتزت: تحركت على سرور... من المحاسن... حسن الشيء ونضارته،... المشرق الجميل... من أدق البيان الجمالي وأحلاه في تفسير مشهد جمالي لآي القرآن الكريم.

وهل أبهج للعين وأسر للنفس وأجمل للحس من (الزَّوج البهيج) في ألوان النبات والحياة؟.

إن هذه البهجة لم تكن من مصدر الزهر البديع والورد المبهج وحده، وإنما هي من مشاهد رفوف النبات وألوان الثمار والأشجار، فهي متعة للعين وجمال للوجدان.

ويقول سيّد قطب: هي حركة عجيبة سجّلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو، ثم تتفتح بالحياة بعد الموت... ثم يقول: وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود؟.

وآيتان أخريان في البهجة سبقت الأولى ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ . . .﴾ (النمل: ٦٠).

والثانية هي ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (قَ: ٧). وهي ضمن آيات جمالية ترتسم في مشهد كوني كبير يشمل السماء والأرض والجبال والنبات، والأمطار والجنات والنخيل. . . .

فالسماء بناء عظيم مزيّن بعيد عن العيوب والثقوب، والأرض ممدودة ثابتة برواسيها، ظاهرة بنباتها الجميل المبهج وأمطارها المباركة وجناتها ونخلها الباسقات لها طلع نَضيد. . .

فالنبات البهيج جمال نضر مفرح، وهو لون من الألوان الجمالية الأخرى في الأرض والسماء يلهم بأبهى التناسق بين جماليات الأرض والسماء. كما يلهم بأجلى التناسق بينهما وبين القضية الفكرية التي تتناولها، قضية الإحياء بعد الإماتة وما يعقبها من مشاهد جمالية، القضية الثانية بعد قضية التوحيد. . . .

وهي ثابتة بالحق الإلهي، مستقرة القواعد والأسس بالبرهان العقلي والحسيّ والجمالي، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ ففيها العبرة والبصيرة والذكرى تتفتح لها العقول والقلوب والأرواح.

ذكر أحمد بسنده أن لقيط بن عامر قال لرسول ﷺ: . . . . يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررتَ بوادي أهلك ممحلاً؟» قال: بلى، قال: «ثم مررت به يهتزّ خضراً؟» قال: بلى، قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه»[1].

من كل زوج كريم:

ويبدو للوهلة الأولى أن الزوج البهيج ذو خاصيّة جمالية مقصودة لذاتها وأن الزوج الكريم ذو خاصيّة معطاءة مقصودة لذاتها قبل كل شيء.

---

(١) نقله ابن كثير عند تفسير آية الحج: ٧.

وربما ساعد على هذا الفهم وصف الـزوج الأول بالبهجـة، ووصف الزوج الثاني بالكرم، فالأول بهيج والثاني كريم. . .

ولكن تتبع سياق النوعين من الأزواج وأسبابهما ومنشئهمـا، واحد أو متقارب ودقيق، فكلاهما من آثار نزول الأمطار، حيث يضيف نزول المطر جمالية إلى بهجة النبات والزهر في مشهد الطبيعة الأخّاذ، مثل ما يضيفـه نزول المـطر من الجمالية إلى كرم النبات. وربما تفترق الأزواج عن بعضها بفارق واحد هو في الاستدلال الفكري القائم على الجانب الجمالي فيه.

فالزوج البهيج: مشهد جمالي لتحقيق الإيمان بالبعث يوم القيامة. من منظور فكري جمالي.

والزوج الكريم: مشهد جمالي لتحقيقَ الإيمان بالله وقدرته. من منظور فكري جمالي.

فالله يقول: ﴿. . . فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ ويعقب عليها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فالعقيدة الأكثر بروزاً وصراحة هي القدرة على البعث يوم القيامة، وقد أكّدها مطلع الآية نفسها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ. . .﴾ (الحج: ٥ ـ ٧).

وكذلك في الآية الثانية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (ق: ٦ ـ ٧) فقد تقدمتها آية البعث وموقف الكافـرين منه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ (ق: ٣)، وإذاً فإن الزوجية البهيجة في كلتـا الآيتين والمشهدين مـرتبطة بعقيـدة البعث والقدرة على الإحيـاء يـوم القيامة.

أما الزوجية الكريمة فهي على جمالها قد أشارت الآية الأولى منها إلى الإيمان بالله. يقول الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٧ ـ ٩).

فالزوجية الكريمة هنا متسقة مع العبرة الفكرية التي تعلن كفر أكثر الناس بالله العزيز الرحيم.

ولكن الزوجية الكريمة الثانية أصرح في الدلالة على هذه القضية الفكرية ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١٠، ١١).

فالزوجية الكريمة هنا مرتبطة فكرياً بالتحدي القرآني في استحالة الشرك لله. فهذا خلق الله دون سواه...

وبوضوح هذا الفارق العقدي لا بد أن يستتبع وضوحاً قريباً منه في الفارق الجمالي والمزية البديعة فيها.

فالبهجة في الزوجية النضرة متناسقة مع اهتزاز الأرض وانتفاخها في حركة تنسجم فيها حياة الأرض وحركتها الجميلة مع النبات والزهر في رؤيته المبهجة، وصورة الطبيعة هنا تؤدي هذه الحركة الجمالية التي يحس المتأمل بأبعادها الرائعة. وهي أوضح في الآية الثانية ضمن المشهد الكوني الفسيح المبهر: السماء المبنية المزينة، الأرض الممدودة الراسية بالجبال، فالزينة السماوية تتسق مع البهجة الأرضية في النبات. والأرض الممتدة الراسية هي مهد هذا الجمال والبهجة ومنبته.

وبالمقابل فإن الزوجية الكريمة ترتبط بلفت القلوب والأعين إلى ما في

الأرض من جمال النبات في الآية الأولى، وبالخلق الهائل من السمٰوات والجبال ونشر الأحياء في الآية الثانية...

حتى إنه يمكن استنتاج ألوان من الجمالية في هذه الأزواج الأربعة، فهي (جمالية مبهجة نضرة متفتحة) في الأزواج الأولى، و(جمالية جلالية قادرة معطاءة مغدقة) في الأزواج الثانية.

وبالإضافة لما سبق يمكن أن نستلهم جماليات أخرى ترسّخ موقع الزوجية النباتية الكريمة:

● إن وصف القرآن النبات بالكريم يشعر بجمال منظره كما يشعر بكثرة عطائه وكرمه، فجماله يتشعب في حسن المنظر وكرم العطاء، وهذا يتسق تماماً مع إرادة التكثير المفهومة من قوله: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا...﴾.

● النبات الكريم مظهر لاسم الله وصفته فهو الكريم وأكرم الأكرمين. وما أكثر الآيات التي تلفت الذهن والوجدان إلى كرم الله تعالى في كل شيء. فلا عجب من كرم النبات ما دام المنبت كريماً، ولا غرو من إغداق النبات ما دام المغدق وهّاباً ورزاقاً ومنعماً.

● وكرم النبات كما يحمل مسحة جمالية في منظره فإنه يشير إلى طبيعته الحية النافعة المفيدة لمطاعم الإنسان والحيوان، ويشير أيضاً إلى استمرار أكله وبقاء مطعمه لما حمله من طبيعة كريمة سخية على الدوام، فهو يأتي من غير حساب، ومن مكرم لا نهاية لعطائه.

● وما دام النبات كريماً ومن إلٰه كريم يلبي حاجات الإنسان الضرورية والجمالية فإن من أدب النفس وجمالها المعنوي أن تتلقّاه بوافر التكريم والاحترام، وتستقبله بما يليق به وبمصدره من التقدير والامتنان...

وهل يغفل المؤمن عن ذلك وهو صاحب القلب المدرك والشعور المرهف والوجدان المتفتح؟.

وأي ضلال فكري وقساوة شعورية وغلظة وجدانيـة وانغلاق قلبي من ذلك الكافر المعاند الأصم الأبكم الذي لا يحس ولا يعقل؟.

● ويلفت الـرازي عند تفسيـره (آية الشعـراء) النظر إلى وجـه لطيف فيقول: الكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد في بابـه: يقال: وجه كريم إذا كان مرضياً في حسنه وجماله، وكتاب كريم، إذا كان مرضيـاً في فوائـده، ومعانيه، والنبات الكريم، هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع...

ثم يقول: وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهمـا، أن النبات على نوعين: نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع، وترك ذكر الضار. والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعاً بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة وإن غفل عنه الغافلون.

وهذا الوجه يسمح لفضيلة (الكرم) أن تستوعب ألوان النبات جميعها، ما كان منه نافعاً للإنسان ولا ينفع الحيوان، وما كان نافعاً للحيوان ولا ينفع الإنسـان، وما كـان نافعـاً للأرض وللنـوء وللجمال ولا ينتفـع منه الإنسـان والحيوان. فهو مظهر لعطاء المكرم لمن خلق ولما خلق...

فسبحان الله الذي زيّن السماء وبرّأها من العيوب.
ومدّ الأرض وأرساها بالجبال.
وأنبتَ فيها من كل زوج بهيج. ومن كل زوج كريم.
وأنشأ الجنات والحب والنخيل الباسقات.
آمنا به وببعثه يوم المعاد. فهو وحده الخالق العزيز الرحيم.

حدائق ذات بهجة:

إذا كانت الحدائق (رئات) المدن الغاصّة بالسكان من الناحية الصحية فهي في الوقت ذاته (ذوقيات) هذه المدن تصنعها بنفسهـا لتتملاهـا العيون وترتاح لها النفوس.

ولشد ما تتحجّر المدن بكآبتها ومعاملها ومتاجرها ومرافقها المعاشية حين تفتقد الحدائق العامة بعد أن افتقدت الحدائق الخاصة.

حتى إن الحدائق الخاصة لا تغني في وقت من الأوقات عن الحدائق العامة التي تبهج عامة الناس وتشيع في قلوبهم الراحة والمتعة، وتشع البهجة في جوانب المدينة كلها.

وفي تخطيط المدن تستحوذ الحدائق على الأوليات من خطتها: فهي إلى جمالياتها ملتقى الأصحاب، والأسر ومنتزه الناس المكدودين طول الأسبوع.

واللفتة القرآنية الجمالية هي بلا شك لفتة حضارية ذات مضمون أو قوام جمالي تنبه الوجدان إلى اهتمام القرآن بها في أزمنة متقادمة وبلد قاحل غير ذي زرع.

وما دام القرآن لم ينزل لمكة وحدها ولا لأهل مكة بخصوصهم فإن من الحاجات الجمالية العامة لفت الذهن إلى أهمية نشر الحدائق في جوانب المدن الإسلامية.

فهو يقول: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: ٦٠).

والتعبير القرآني واضح أنها (حدائق) وليست (حديقة) واحدة، وأن هذه الحدائق تفترق عن الغابات والأدغال المشجرة، والأحراش الكثيفة. فإنها محاطة بالجدارن ويعمل بها الإنسان.

وهي بالتعبير القرآني ذات (بهجة) نضرة بهيجة فرحة حية، تبهج العين برؤيتها والأذن بتغريد طيرها، والأنف بعبيرها، واليد بلمسها، فيها من الألوان والأحجام والأنواع ما لا تبدعها لوحة واحدة جميلة يحس بها الوجدان والمشاعر. هي أقرب أن تكون حدائق طبيعية تروى بماء الأمطار وقد نظمتها

قليلاً يد الإنسان بين زهر بديع وشجر مورق وعشب سندسي. (وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر - وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر -)[1]. فهي من مستنبتات الأمطار أنزلها الله هنا حسناً وبهاءً لتنشىء الأشجار الجميلة والورود البديعة، فهي شجرها وورودها، وقد كانت هذه الأمطار في بقاع أخرى حياة النبات والثمار والرزق العميم.

ثم إنها مرفق جمالي عام لأن الحاجة الجمالية عامة، ومتنزه جماعي يعبّ من جماله كل الناس، فهي كما قال القرآن ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ و ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾... بخطاب العموم ليفيد منها العموم.

والجمالية هنا مرتبطة بأشياء:

أولها: جمالية المطر يهطل عليها وعلى غيرها بنظام متناسق، ففي شهوده جمال وفي وقعه جمال وفي تلطيف الجو به جمال، وفي سيلانه على الأرض جمال، وفي صحوه فيما بعد جمال.

ألوان من الحسن والأطياف الجمالية استلهمها الأدباء والشعراء والفنانون، وتغنوا بها كلمة وريشة ولحناً.

وثانيها: جمالية الخلق الإلهي فهي من إبداع الله ومظهر لجماله الرباني... فلا أحد يخلق مثلها ولا أحد يستنبت شجرها، ولا أحد يجعلها بهية بهيجة في وجدان الناس... لا أحد يفعل هذا سوى الله الذي جمّلها، وأشعر الناس بجمالها.

وثالثها: هذه الأنهار خلال الأرض من تجمع مياه الأمطار وجريانها

---

(١) الظلال عند تفسير الآية.

فيها، فهي إذ تضيف ألواناً جمالية مبهجة على الحدائق ذات البهجة فإنها (شرايين) الحياة تغذي الحقول وتسقي البساتين وتروي الحدائق.

إن القرآن ينبه عقب الحدائق النضرة السابقة إلى جريان الأنهار في الأرض نعمة الرزق وهبة الجمال...

ورابعها: إن الأمطار والحدائق والأنهار والجبال... قد جلّتْ ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ الآية التي وردت بعدها. فالأمطار نظام متقن، والحدائق جمال متناسق، والأنهار والجبال أجزاء من الإتقان. وهل الجمال إلا صنيع متقن تتناسب ألوانه وأبعاده وأقداره ليحدث الأثر الوجداني المفرح؟.

إنها مشهد كوني فيه الضخامة الهائلة، واللطافة الرقيقة، والمياه الجارية والأشجار المبهجة... هو أحد المشاهد الجمالية في القرآن - وما أكثرها وأدقها وأعظم نسقها - لتأخذ بإنسانية الإنسان إلى الإيمان، وبحسّه إلى تذوق حلاوة هذا الإيمان.

وهذا كله قد صرح به القرآن أنه من القرآن، وأن رسول الله ﷺ يقول: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا.. وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ.. ﴾ في الآيات التي عقب بها على هذا الجمال والإتقان.

وما أعظم وأجمل ما ختم الله به هذا المشهد، وختم به السورة (النمل) كلها في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

فالحمدلله على خلق السمٰوات والأرض.

والحمد لله على إنزال الأمطار وإنباته حدائق ذات بهجة.

والحمد لله على الهداية في ظلمات البر والبحر.

له الحمد على الرزق والرحمة والنعم الكثيرة.

وله الحمد الذي أتقن كل شيء صنعه.

وله الحمد في الأولى والآخرة.

الشجرة الطيبة والشجرة الملعونة:

هما نوعان متقابلان عموماً، ولكن الشجرة الملعونة وإن كانت من الشجر الخبيث إلا أنها علم على نوع من الشجر له صفاته وصورته ومنبته وطعامه كما سيأتي تفصيله.

وإن آكد صفة أطلقها القرآن على الشجر عموماً هي السجود لله وعبادته، فقد جمعها بالكائنات السماوية والأرضية.

الشمس والقمر والنجوم والدواب... مما يسجد لله تعالى في حالات وأشكال يعلمها الله.

وهي صفة جمالية توحي بانتظام حركي خاص لجميع أنواع الشجر وأحجامه. ولكنها جمالية خفية مستورة. وصفتُها الجمالية الظاهرة هي في خضرتها التي تضفي على الحدائق بهجة ونضرة تمتع النفس وتريح العين ثم في ثمرها اليانع.

فإذا تفهم المؤمن هذين اللونين من الجمالية فإن شعوراً فياضاً من الغبطة والمحبة والاطمئنان والشفافية لا بد أن تلف وجدانه ومنافذه المحسّة المطلة على الوجود.

تلك سمة عامة للشجرة ساجدة مبهجة تتفاعل مع مشاعر الحياة والخلق وأحاسيس الوحدة الشاملة.

ولكن القرآن دلنا على ما سماه الشيطان بشجرة (الخلد) أول شجرة ذات شأن، وحاول أن يغري آدم وحواء بالأكل منها حتى يبقيا خالدين في جنات الخلود كما ادعاه الشيطان ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠).

ومن آخرها تلك الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان آخر سنة ست،

وأصبحت خالدة في القرآن خلود العهد الذي قطعه المؤمنون على أنفسهم مع رسول الله ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . . ﴾ (الفتح : ١٨).

ثم عمد عمر بن الخطاب إلى قطعها صوناً لعقيدة المؤمنين من أثارة الشرك وشائبة التقديس.

بينما نجد صفات مادية في طبيعة الشجرة عموماً:

● فهي منشأة من الله الخالق ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٢).

● ومستنبتة بقدرته وحكمته وفق نظام إلهي ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ (النمل: ٦٠).

● ولوقود جاهز أو طاقة وقود بعد تراكمها عبر القرون ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس: ٨٠).

● ولبيوت النحل وأعشاش الطير ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل: ٦٨).

● ولأشكال الصناعات الخشبية ذات الصبغة الفنية كالتحف والحفر على الخشب واللوحات الخشبية الرائعة، أو ذات الصبغة العملية كالأقلام وبناء السقف والأبواب. . . ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ . . . ﴾ (لقمان: ٢٧).

● وأشكال أخرى تجمع بين الجمالية والنفعية العملية وتتمثل في صناعة السفن التي أكثر القرآن من ذكرها في مناسبات مختلفة. ولكن القرآن ينوه بشجرة طيبة وأخرى مباركة ويشيد بهما ويفضلهما في البيان على أي نبات آخر بينما ينبه إلى الشجرة الخبيثة والشجرة الملعونة فينفّر منهما مثل ما ينفّر من الضلال التي اقترن بهما.

فالشجرة الطيبة: أدعى لأن تمثّل بالتوحيد لأنها ليست كأيّة شجرة أخرى في طيبها وثباتها وبسوق فروعها وجني ثمارها.

ويبدو أنها شجرة (وحيدة) بهذه المواصفات الخاصة تليق أن تضرب مثلاً لكلمة (التوحيد) الجامعة للنبوات والمغرقة في القدم، والمحور الأساسي للشريعة الإسلامية...

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥).

يقول (الظلال): إن الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق ـ لكالشجرة الطيبة. ثابتة سامقة مثمرة... ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان ـ وإن خيّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان ـ سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ـ وإن خيّل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في الفضاء ـ مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن...[1].

وليتصور الخيال هذه الشجرة من التعبير القرآني:

إنها ليست خيالاً ضاربة في الوهم والتخريف، ولكنها من الفن المتخيّل الذي يمكن تصوره وتوقعه... هي شجرة معمرة ومعمرة جداً، ولكنها معطاءة ومعطاءة كثيراً بإذن الله، ثابتة الجذور في الأرض ممتدة الفروع في السماء.

والتعبير القرآن يضربها مثلاً عجيباً...:

● بالفردية في كل شيء فهو مثل واحد، وشجرة واحدة، لها أصل

---

(١) وانظر تفسير الرازي ففيه كلام رائع يزيده روعة مقارنة الشجرة الطيبة بالكلمة الطيبة.

واحد، وفرع واحد، تؤتي (أُكلها) بمعنى مأكولها، كل (حين) (بإذن ربها)، فردية أو أحدية عجيبة متناسقة مع الكلمة الطيبة الواحدة.

● وبثمرها الطيب وريحها المنعش فليس لها ثمر ولا ريح خبيث، وهو دائم في كل حين فلا ينقطع... فأي ثمر هذا الذي يجني في الليل والنهار، وفي الصيف القائظ والشتاء القارس والخريف العاري والربيع المورق. وأية شجرة هذه تعطي ثمرها الطيب مدة العام الكامل وعلى طول الأعوام القادمة من غير نهاية.

● إنها وحدها (تؤتي) أكلها كل حينٍ، لا يطلبها القاطف، ولا يشتد الجاني بأخذها، فهي تعطيه ثمارها بسخاء ورغبة عجيبة.

● وعطاؤها الدائم بإذن ربها الذي خلقها بهذه الصفات والأفعال، وليست بإذن صاحبها الذي قد لا يملك من أمرها وأمره شيئاً غير ما اعتاده الناس في مثل هذه الحال.

جمال المنظر وطيب الثمر وحلاوة المذاق وديمومة العطاء وطلاوة الظلال، ألوان من الحسن تتجمع في الشجرة المباركة المعمرة التي تزيدها الأيام جمالاً وطيباً وحلاوة وعطاءً وظلالاً.

والشجرة الطيبة تذكرنا بالشجرة المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

● فهي شجرة الزيتون التي كانت جانباً من لوحة النور الإلهي البهي ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ...﴾ (النور: ٣٥). إنها وما يتصل بها تأخذ مساحة كبيرة في هذه اللوحة الجمالية الفريدة.

والشجرة الملعونة: يقول الله تعالى فيها: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٦٠).

فما هي هذه الشجرة؟ وما صورتها؟ ولم لعنت في القرآن؟ وما موقف المشركين منها؟.

هي شجرة الزقوم على أرجح الأقوال، وهي في جهنم، ولعنت بالمجاورة حيث لعن الكفار الذين يأكلونها ويطعمونها. أو كما تقول العرب: لكل طعام مكروه ضار: إنه ملعون، وفيها إبعاد عن جميع صفات الخير والرحمة كما هو المعروف من معنى اللعن عموماً. فهي في أبعد مكان من الرحمة حيث تنبت في أصل الجحيم.

يقول الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (الصافات: ٦٢ - ٦٧).

وهو أطول نص يبين ما هية هذه الشجرة[(١)]، والحكمة من خلقها، ومنبتها، وصورتها، وسوء طعمها وريحها وطبعها ومزجها بالحميم شراب المكذبين. فطعامهم الزقوم وشرابهم الحميم... إنه مشهد غثيان وقبح وبشاعة، ولكنه عرض في صورة فنية وجمالية معجزة.

ويشير ابن كثير في تفسيره إلى صورة الزقوم البلاغية المنفردة بقوله: وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر...

وينبه الفخر الرازي إلى وصف (الزقوم) بصفات منها: أن منبتها في قعر الجحيم. وأنها كرؤوس الشياطين، ويجيب عن جهل الناس برؤوس الشياطين بإجابات منها: أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في

---

(١) وفي سورة الدخان (٤٣): ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾، والواقعة (٥١ - ٥٢): ﴿**ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم**﴾.

الصورة والسيرة، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ **فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة. والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح المنظر وتشويه الصورة.**

ثم يقول: والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا: إنه شيطان، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة قالوا إنه ملك...

وفي السنة النبوية من حديث (السّحر) في البخاري[1]: ... فأتاها رسول الله ﷺ (البئر) في ناس من أصحابه فجاء فقال: «يا عائشة كأن ماءها نُقاعة حناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين...».

وينقل ابن حجر[2] عن الفراء وغيره: يحتمل أن يكون شبه طلعها (الزقوم) في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، وقد تقرر في اللسان أن من قال: فلان شيطان أراد أنه خبيث أو قبيح...

إن رسول الله ﷺ يكره القبح والمقبوحين، وتعاف نفسه بشاعة المطعوم والمشموم والمنظر، فحين رأى أدوات السحر في بشاعة صورتها، وجد تشبيهها برؤوس الشياطين أنسب صورة لأقبح منظر فكرهه لنفسه ولعائشة رضي الله عنها.

ومن هذا الباب تصوير الرسول رجالاً يقومون بالأئمة من بعد الرسول:

---

(١) البخاري: الطب باب السحر: ٥٧٦٣.
(٢) الفتح: ١٠/٢٣١.

«لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس...»[1].

وكذلك فإن المظهر الفوضوي في الرأس والوجه قبيح المنظر سيء الطلعة أشبه ما يكون بالشيطان. فقد دخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»[2].

ولم يبتعد سيد قطب عما قاله الرازي كثيراً عند التعليق على آية (الصافات) يقول[3]: ففي مخيلة الإنسان صورة للشياطين وهي تثير في نفسه الفزع والرعب وهو يتصورها ويستحضرها كل حين... ثم يقول: وهؤلاء الظالمون النازلون في جهنم يأكلون طلع هذه الشجرة، يأكلون رؤوس الشياطين هذه... فإذا شاكت حلوقهم. وزحمت بطونهم وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلّة ويطفىء اللهيب فإنهم لشاربون عليها ماءً ساخناً، يردون بعده إلى عذاب الجحيم، كأنّ طلع شجرة الزقوم وهذا الشراب الساخن الحميم لم يكونا عذاب الجحيم.

والشجرة الخبيثة: وهي التي تعمّ الزّقوم وغيرها، وذكرها القرآن في مقابل الشجرة الطيبة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

ومن أساليب القرآن التربوية عرض المتناقضات أو المتعارضات وعواقبها من الإيمان والكفر والفضيلة والرذيلة، والخير والشر والحق والباطل،

---

(١) مسلم: الإمارة. وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن: ٢٣٨/١٢ بشرح النووي.

(٢) الموطأ: الجامع. إصلاح الشعر.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ١٣٦.

والآخرة والدنيا (الفاسدة)... لتنبيه الذهن إلى فضائل الأولى فيلتزم بها المؤمن من تلقاء نفسه ويعرض عن الأخرى وهو قانع بشرها وسوئها.

والشجرة الخبيثة قد تكون كذلك بسبب ريحها وطعمها وصورتها... في مقابل الشجرة الطيبة بسبب ريحها وطعمها وصورتها.

وقد استئوصلت كلها فلم يبق لها أصل ولا فرع... في مقابل الشجرة الطيبة. أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وما دامت قد اقتلعت من فوق الأرض فقد خلت من الثمار والأكل... في مقابل: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، إنه تناسق في الصورة الجزئية وتقابل في المشهد الكلي يوحي بالأبعاد المتوازية التي تستقر جمالياتها في الوجدان والإدراك.

يقول الفخر الرازي: (واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بيّن كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل المنافع. أمّا كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله (خبيثة) وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ...﴾.

البلد الطيب والبلد الخبيث:

حكمة قرآنية أو مثل رباني موصوف بأجمل الألفاظ والتعابير ...: إنها قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨).

إنها حكمة قرآنية ذات أفق إنساني تزدحم فيها تجارب الحياة والأحياء: فالأرض الطيبة التربة العذبة المشارب تنبت الزرع الطيب والثمر اليانع، والأرض الرديئة التربة السبخة المنبت، المالحة المشارب لا تخرج إلا شؤماً وبُخلاً وهذه الحكمة لا تقتصر على البلد وأرضه وإنما تشمل كل الموجودات

وجميع القيم والأفكار والفضائل والأحوال. . .

وهو مثل لا يفترق عن الشجرة الطيبة والخبيثة. وقد ضربه الله للمؤمن والكافر يصوّر فيه نزول القرآن بنزول المطر، والمؤمن بالأرض الخيّرة التي نزل عليها المطر فأخرجت الأزهار والثمار والنبات، كما يصوّر الكافر بالأرض السبخة الفاسدة التي لا تنتفع بالأمطار، فهو أيضاً لا ينتفع بنور القرآن ولا بتربيته وتوجيهاته ومعارفه. . .

إنه مثل يستحق وقفة متأنية: (تتقابل) فيه شخصية المؤمن الذي استوعب قلبه معاني القرآن وتوجيهاته فتفتح بها ولها، ونبت فيه الخير والنوايا الصادقة، وظهرت على جوارحه أعمالاً خيرة وسلوكاً فاضلاً، فهو بهذا متناظر مع البلد الطيب التي تزدحم فيه الأشجار الطيبة في منبتها وتربتها لتخرج النبات ألواناً ومذاقاً وأكلاً. . . وهذه الشخصية تتقابل مع شخصية الكافر ذي القلب المغلق والنفس الضيقة فلا تؤتي إلا أذى وكآبة وشدة. ولا تختلف عن البلد النكد الذي لا يثمر إلا شوكاً وعلقماً.

صورة مشرقة منبتة لبلد طيب في مواجهة صورة كالحة مقحلة لبلد نكد، يبدو فيهما تقابل منسّق الألفاظ والمعاني تزيد المثل جمالاً لفظياً ومعنوياً وفنياً.

في الأولى: الطيب، نباته، بإذن ربه. . . وفي الثانية: الخبيث، النكد. . .

وفي الأولى: أصل دائم ينتج أثراً صالحاً دائماً بإذن الله، . . . وفي الثانية طرأ الخبث على البلد فلم يكن ذاك في أصله، وإنما (خَبُثَ) لطارىء أو حادث فتبدّل الأثر من نبات طيب إلى نبات نكد تبدّلاً مؤقتاً وعارضاً. . .

أليس الخير هو الأصل في الوجود والإنسان، والشر طارىء عليه؟ ألم تتقبل الفطر هذا الخير وتستقيم عليه في جميع الأحوال ما لم تغفل أو تتأثر بغيره؟.

وبعد هذا ألا يجدر بالإنسان أن يشكر ربه على أصالة الخير وإلهامه وتسوية النفس عليه ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾؟.

إن المعاني الذهنية والأفكار المجردة صيغت بصورة وتعابير حسية، تقربها منها وتلفها بكساء جمالي مشرق في تصوراتها المشرقة، بينما صيغت الأخرى بصورة فنية تنبه الوجدان إلى سقمها وقساوتها ما دامت تعبر عن تصوراتها المنحرفة الضالة.

فالتوحيد كشجرة طيبة ثابتة باسقة الفروع دائمة الأكل، والشرك كشجرة خبيثة مقطوعة الجذور قميئة الفروع لا تعطي ثمراً ولا ظلاً.

ويتفرع من الأولى الشجرة المباركة، ومن الثانية الشجرة الملعونة شجرة الزقوم.

والمؤمن الموحّد كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله. والكافر أو المشرك كالبلد الخبيث لا يخرج إلا نكداً...

إنه أسلوب القرآن بروعته وإعجازه يبرز المجردات في أروع (واقعية) جمالية محسّة.

جماليات في الحيوان:

عرضت آيات الحيوان في سورة النمل[1] لمجموعة كبيرة من أنواع (الحيوان) وذكر معها منافعها المادية والحضارية والجمالية... في الطعوم والمشارب والدفء والزينة والركوب وجمال الرؤية في الرواح والتسريح.

فمنها الإبل والغنم والبقر: فيها الدفء والمطعم والحمولة والمنافع الأخرى، وفيها الحسن للعين والأذن، ولكن أدقها وأعمقها عبرة اللبن الخالص السائغ للشاربين من بين فرث ودم.

ومنها: الخيل زينة وجمالاً، والبغال والحمير ركوباً وحمولة من بلد إلى آخر.

ومنها: الطير مسخرات في جو السماء مرفرفة بأجنحتها، متناسقة في سبحها. منتظمة في جماعاتها. قادرة على التحليق في الأجواء بما يمسكهن الله من القدرة والجو المناسب.

ومنها أسراب النحل الملهمة أن تتخذ بيوتها في الجبال والعرائش، والأشجار، والملهمة أن تأكل من كل الثمرات ومن جميع السبل تعطي ألوان العسل فيه شفاء للناس...

وهذا يعني أن أنواعاً منها لا يقصد منه الجمال وإنما يستعمل للمنافع المادية والحاجات المعاشية فهي ليست مادة جمالية تلهم الفن والإبداع.

وأن أنواعاً أخرى تكسوها مسحات الجمال وتقصد للمتعة الجمالية فهي زينة الفرسان والركبان ومادة جمالية بالرسم والكلمة والمثال.

وأن أنواعاً ثالثة لها حسنها في حالات ومنافعها المعاشية والطبية في

---

(١) آيات مختارة من (٥ - ٨٠).

وإن استهلال آيات الحيوان من أول السورة ووسطها وآخرها يفقدها هنا خاصة هامة من خصائص تناسقها الفني مع سياقها وسباقها، ولكننا نلجأ إلى ذلك بسبب ضرورة التصنيف.

حالات أخرى. . . تتخذ في الأولى مادة جمالية وتستخدم في الثانية وسائل للحاجات والمنافع.

منها ما يطير، ومنها ما يسير، ومنها ما يعدو ومنها ما يجري. . .

منها ما ينتفع من لحمه ولبنه وجلوده وحمولته، ومنها ما ينتفع بشرابه، ومنها ما يمتع بزينته وحسنه.

إن تقدم الإنسان في المجالات العلمية وتفوقه في التقنيات الحديثة لا يغنيه عن أهمية الحيوان في المطعم والمشرب والمسكن، وإن إبداعه ألواناً جمالية سواء باليد أو في المصنع لا يبعده طويلاً عن جماليات في حياة الحيوان، فجمال السيارات الفارهة ليس بديلاً عن جمال الخيل الأصيلة، وجريان الطير في كبد السماء ليس أقل جمالاً من سرب الطائرات في عروض فنية مدروسة. وهندسة خلايا النحل وطرح شرابها لا يفوقه الفن المعماري في كثير من المنشآت الحديثة الراقية. على ضآلة حجمها واستقامة غريزتها. ففي عملها دقة عجيبة يصعب على العقل مثله سواء كان في بناء خلاياها، أو في تصنيف أعمالها، أو في طريقة صنع العسل المختلف الألواح والروائح والطعوم.

ومن ناحية أخرى فالمعروف أن البيئات الزراعية هي السائدة في العالم اليوم وأنها محور الحياة الحضرية وعمودها الفقري في كل شيء فلا حياة ولا استقرار بدونها للإنسان، ولا جمالية ولا حضارة من غير انتاجها وعطاءاتها للفكر والفن والاجتماع. (وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال، ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان)[1] فقد اشتهر عن السيد المسيح عليه السلام قوله: ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

(١) الظلال عند تفسير هذه الآية.

وبقيت مسألتان في الأنعام لهما صلتهما الجمالية بصورة مباشرة وغير مباشرة:

الأولى: القدرة أو الطاقة الفنية الإنسانية: التي خلقها الله في الإنسان فأفاد من موهبتها وتأثر من ذوقيتها بانتاج جماليات حسية ومصنوعة جديدة تجمل مرافق الحياة وتزين مناحي العيش وترفه عن الضرورات الأولى، فعلمه ما لم يعلم وسيره في مسالك الجمال وانتاجه، وسيواصل الإنسان مسيرته الجمالية بالحس الإنساني الملهم، وستبدع يده أجمل المرافق والمناظر والمسامع، بالغة ما بلغته في سلم التطور والجمال ما بقي الحس الجمالي والقدرة على الإبداع ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾...

والثانية: المتاع والأثاث في اللباس وجلود الأنعام المتجدد: فهو نموذج لكل أنواع المعاش ومفردات الأدوات والوسائل. وتلك نعمة عامة تشمل الحاجات وما فوق الحاجات، والضرورات وما وراء الضرورات.

فمن اللباس والسكن والطعام... ما يلبي حاجة الإنسان البسيطة وضروراته الحياتية فيسكن إليها ويطمئن لوجودها ويسعى لأن يرفه بها عن حياته ونفسه دائماً في الكم والكيف، فهي متاع قريب وضروري في غالب الأحيان.

ومنها ما يلبي حاجة جمالية، ورغبة في الرفاه والحسن فيبدع لحياته أبهاها ويتخذ لها أروعها، فهي بيوت الجمال المتحركة في الظعن والإقامة، وهي إذ تروي هذه الحاجة في جانب منها فإنها تطلب المزيد والمزيد.

ونستلهم معنى جديداً من قول الله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فالمتعة باللباس والأصواف والأوبار إلى حين، والأثاث والرياش الفنيّ إلى حين أيضاً.

وهذا يشير إلى تجدد المتع باللباس والنماذج الحياتية والضرورات المعاشية تماماً مثل تجددها في انتاج الجماليات في كل وقت، وتجدد المتع بالجماليات في أبعاد ومحسات لم تكن معروفة من قبل وإن حافظت العاديات القديمة على طابع مميز في معظم الأحيان.

والخلود للآثار الفنية العريقة يأتي فيما يأتي من تجدد النظرات الفنية إليها، وقراءتها بالفكر والوجدان من منطلقات فنية وفكرية مستحدثة، ولكنها على كل حال لن توقف المد الإنساني الفني الذي يتطلع إلى ثمرات فنية مبدعة إلى حين، ثم يتطلع إلى غيرها وغيرها ما دامت القدرات الفنية والتطلعات الجمالية والحاجات الإبداعية مغروسة في وجدان الإنسان وكيانه، تلك طبيعة الإنسان والفن والحياة.

أليست هذه لفتة جمالية تضاف إلى جماليات الحيوان في نفسه وانتاجه وعروضه؟ أليست هذه الجماليات عدداً من أنواعه المعلومة والمجهولة مما يخلقه الخالق وتصنعه يد الإنسان؟. وفي كل حين؟.

ومن الدوابّ مختلف ألوانه:

- ما من دابة في الأرض إلا أمم أمثالنا.

- ما من دابة إلا وتسجد لله مع الملائكة والناس وأجرام الكون، ومظاهر الطبيعة في وحدة رائعة من (العبادة).

- بثُّ الدواب في الأرض آية الخلق والقدرة ودليل العبودية والخضوع.

- شرُّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون.
- الدواب والأنعام ألوان مختلفة.
- كل دابة من ماء.

اتفق المفسرون على أن كل ما يدبّ على الأرض فهو دابّة حتى وإن كان في هذا الجانب إنساناً، ولكن يبدو أن معظم الآيات تخص الحيوان وإن كان بعضها يشمله ويشمل الإنسان.

وعلى كل حال: فالدواب المبثوثة في الأرض الساجدة لله المختلفة الأشكال والأحجام والألوان. المتوحدة في أصل الخلقة والإنسان، آية باهرة من التنسيق الإلهي والتكامل الخلْقي لله تعالى.

من الدواب ما هو جميل الصورة خفيف الحركة دقيق التكوين يضرب به المثل والشبه بالجمال والخفة والأصوات البديعة.

ومن الدواب ما هو ثقيل الجسم ضخم الصورة بارد الدم غليظ التكوين قبيح الصوت يضرب به المثل والشبه بالغلظة والخشونة والبرود والقباحة.

ومن الدواب ما بين هذه وتلك: الطائر في السماء والسابح في الماء والمستأنس عند الإنسان والنافر في الفلاة، وفي مقدمة هذه وتلك: الإنسان بأجناسه وأعراقه واختلاف ألوانه، ولكنه على كل حال: خلقه الله في أحسن تقويم.

إنها بألوانها وأشكالها وأحجامها من المسبحات الساجدات، وقد بثها الله في أقطار الأرض المعمورة والمهجورة.

١ ـ فهي من أصل واحد ونشأة متماثلة وطبيعة واحدة: هي من (ماء) في وحدة تركيبها وتكوينها ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥).

حقيقة علمية، وحقيقة كونية، وحقيقة جمالية:

● **فهي حقيقة علمية:** فالماء عنصر أساسي في تكوين جسم الإنسان الذي يحتوي على ٧٦٪ منه، وتتطلب بيضة الدجاج توفير ٦٠ ل. من الماء العذب لتكوينها، وكذلك يتطلب كل كيلو غرام من السكر ١٠٠٠ ليتر من الماء العذب، أما القمح فإنه يحتاج إلى ١٥٠٠ ليتر من الماء، والقطن ١٠,٠٠٠ ليتر، والأرز ٤,٠٠٠ ليتر من الماء. ومن الثابت علمياً أن أصل جميع الكائنات الحية قد تكوّن في الماء... وأن كل الكائنات الحية تتركب أساساً من ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

● **وهي حقيقة كونية**: ساقها الله ضمن آيات وحقائق كونية شاملة: فالله نور السمٰوات والأرض، والبحار المظلمة المائجة، والتسبيح لمن في السمٰوات والأرض، وتراكم السحب وهطول الأمطار والثلوج وهدير الرعود، وسنا البروق. فقد قدرت كمية المياه الكلية في الكرة الأرضية سواء كانت سطحية أو جوفية أو في الغلاف الجوي المحيط بحوالي ١٥٠٠ مليون كم^{3}، وتمثل مياه البحار والمحيطات الجزء الأكبر من حجم الأرض (٥/٤) سطح الأرض.

● **وهي حقيقة جمالية**: فإن في نسق جيل معين من الدواب جمالاً للحسّ، وإن في تفاوت أجيال الدواب بين ضخم بالغ الضخامة ودقيق منتهي الدقة إلهاماً بجمالية التعدد في الإيجاد والتكوين والحركة والتلوين.

الدواب الزواحف تمشي على بطنها، والإنسان والطير يمشي على قدمين. والحيوان يدب على أربع. كل ذلك وفق نظام في الخلق والحياة معاً.

(وإن تملّي الأحياء وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والشيات والألوان. وهي خارجة من أصل واحد ليوحي بالتدبير المقصود، والمشيئة العامدة، وينفي فكرة الفلتة والمصادفة، وإلا فأي فلتة تلك التي تتضمن كل هذا التدبير، وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)(١).

وإن جمالها في وحدة أصلها ونشأتها، وفي تنوعها أشكالاً وألواناً وهيئات، ثم في بثها في أقطار الأرض كلها مما استأنسه الإنسان واستنفر عنه.

أما الإنسان وهو أجمل وأقوم من دب أو يدب على الأرض فهو صورة متفردة من جماليات الخالق، وإن الدواب الأخرى الجميلة منها والقبيحة مادة غزيرة

---

(١) الظلال عند تفسير الآية.

تلهم الفنانين بأروع لوحات في الأدب والفن عبر الأجيال والقرون.

٢ ـ **المنظور الشمولي الخاشع**: إنه مشهد كوني عابد يشمل من في السمٰوات والأرض عموماً، كما يشمل الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس خصوصاً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (الحج: ١٨). حشود هائلة من المخلوقات السماوية والأرضية يرسمها البيان القرآني المعجز ويضعها في مشهد أعظم من الكون وأوسع من رقعة السماوات والأرض. فهل يمكن لفنان أن تمتد يده في شمولية كبرى مثل هذه الشمولية. فتصور هذه الأجرام الساجدة، كلاً في بعد مخصوص وهيئات مختلفة، ينسقها إطار الخشوع والعبودية الخالصة؛ في مساحة خيالية وما فوق الخيال؟.

إنها رؤية وعلم، ووراء العلم والرؤية. (ويتدبر القلب هذا النص، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام. مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان. . . إذا بتلك الحشود كلها موكب خاشع تسجد كلها لله، وتتجه إليه وحده دون سواه تتجه إليه وحده في وحدة واتساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق. . .)[1].

وأجرام مضيئة منيرة وأشياء كبيرة هائلة، وأحياء من الإنسان والملائكة والنبات والدواب، وأشكال لا تصل إليها الأبصار والأسماع والحواس والعلوم الإنسانية، وألوان من الخلق القريب والبعيد، والمنظور ووراء المنظور والمتشابه والمختلف، تلفه حركة إلهية كونية كبرى منطلقة من الفطر والغرائز

---

(١) السابق عند تفسير الآية.

والتركيب الخلقي المبدع. فسبحان من سجد لعظمته جميع الخلق وشهد لجماله الوجود كله.

إن الدواب هنا ركن في المنظور الشمولي الخاشع، فهي على اختلافها وألوانها وتوزعها آية من آيات الله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (الشورى: ٢٩)، ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٤). ولكن أي عجب في هـذا، أليست الدواب عـالماً وأمماً كعالمنا وأممنا؟.

الطيـر ألـوان:

ـ الطير المصنوع والطير المخلوق.
ـ الطير المسخرات في جو السماء.
ـ الطير المسبّح المصلّي.
ـ الطير الخّطاف القوي الكسور.
ـ الطير المخبر.
ـ الطير جند محشورة مع الجن والإنس.
ـ الطير الطعام المشتهى لأهل الجنة.
ـ الطير الأبابيل.
ـ الطير الشؤم.
ـ الطير العمل الملزم.
ـ الطير أمة مثل أمم الناس.

إن ألوان الطير أخذت من البيان القرآني ألواناً من المعاني والجماليات المشهودة والمطعومة والعابدة والمكلفة بمسئوليات والمرسلات بإذن الله تعـالى.

وربما كان من أوضحها جمالاً وإلهاماً:

١ ـ الطير المسخرات في جو السّماء: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٧٩).

مشهد يري أسراب الطير في كبد السماء تسبح في رحابها الشاسعة تمسكها قدرة الله من السقوط، مرفرفة بأجنحتها تارة ومستريحة أخرى، منتظمة في سبحها إلى ما شاء الله لها من الآفاق والآماد، بألوانها المتسقة وحركاتها البديعة، وجماعاتها المختلفة؛ ألوان وأحجام وأشكال وأصوات، ينسجم بعضها ببعض ويتداخل ألوانها في ألوان بعض.

إنه مشهد الرؤية والبصر يسري إلى أعماق الوجدان فيشهد بجمال الله ويقر بعظمته وقدرته.

إن رحلات الطيور المهاجرة من بلد إلى آخر تقطع لها المسافات الشاسعة تدرك (ملاحتها) الجوية، وتعرف (مطاراتها) العالمية، في أسراب كثيفة كجيش زاحف في جو المساء، مما تتملاه العين وتستوقف البصر ويتأثر به الوجدان.

هو جمال المشهد يضرب على أوتار القلوب بسناه البديع.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ . . . ﴾ (الملك: ١٩).

٢ ـ **الطير المسبح المصلي**: إنه أمة مثلنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام: ٣٨).

فهو أمم مختلفة وليس أمة واحدة. ولكنه (بأمميته) مثلنا يسجد ويصلي ويسبح، تتساوى فيها النفوس الإنسانية والطيور المحلّقة في السماء، هي في صلاة وسجود وتسبيح، مع فرق واحد في الاختيار للأولى والإلهام للثانية ثمّ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: ٤١).

(من) في السمٰوات الأرض يسبح ويصلي.

(والطير) صافات تسبح وتصلي.

(والله) قد علم صلاة كل وتسبيحه.

إن الكون و(من) فيه، في عبادة وعبودية لخالقه كُلِّف الإنسان بها وتميز عنها، وزين إيمانه بها.

وإن الطير (صافات)، في عبادة وعبودية لخالقها. فعباداتها جمال، في اصطفاف أرجُلها وأجنحتها في السماء من أروع الجمال.

فلا فرق بين عبادة أمة الأرض وأمة السماء والأمم بين الأرض والسماء. إنها (وحدة) الجمع على العبودية والعبادة لا وحدة الوجود على الأشياء والموجودات.

وإن جمال الرؤى يزيدها روعة وجمالاً تسبيحها وصلاتها وسجودها، وهي في كبد السماء وأجواء الفضاء.

والقرآن سماه (منطق الطير) وسماه اللغويون (هديل الحمام) و(تغريد الطيور)، وتناول العلماء بالدراسة منطقه وهديله وتغريده فوجدوا فيها لغات شتى وأصواتاً أجمل من الموسيقى، وألواناً من التعبير الشجي والمفرح، والنداء والغوث والعذوبة، ما لا يوجد في سواه.

كل طائر له صوته ومنطقه، وكل صوت له نغمته ونبرته وكل منطق له تعبيره وأسلوبه، يقترب بعضها من بعض ولا يساويه، ويدنو بعضها من بعض ولا يماثله...

وروعة مشهد الطير الصافات تخف أمامها روعة الألحان والأصوات المختلفة التي تستحوذ على السمع في جمع من الطيور وفي حديقة من الحدائق العامة.

إن منطقها ولغتها وأصواتها تسبيح وصلاة، فما أجمله من تسبيح وما أحسنها من صلاة، **أليس الطير أمة أو أمماً أمثالنا؟**.

الطائر المخبر... الخارق:

إن أعجب طائر في الوجود هو هذا الهدهد، فهو في اهتمام سليمان

عليه السلام (يتفقده) لما له من الموهبة والعمل ما ليس لغيره.

وصوّر القرآن مهمته (الإخبارية) (التطوعية) أدق تصوير، وعرضها بتحليل موف وموحٍ ومعبر، عن فهم عميق لمسئولية العمل الاستطلاعي.

إنه أحاط بمعلومات لم يعرفها سليمان عليه السلام من قبل، وهي معلومات من اهتمام الدولة، والنبوة معاً.

وجاءه من بلاد بعيدة، من سبأ اليمن، بالمفاجأة الضخمة، بالنبأ العظيم اليقين الذي لا يعتوره الشك والريب ولا تخالجه الظنون والأهواء.

إنه وجد (بلقيس) الملكة المطاعة من قومها ذات الشخصية المتميزة بقوةِ سلطاتها وحنكة رأيها وسعة ملكها وفخامة عرشها، إنها وحدها ﴿تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

فمظاهر الملك فخمة ضخمة، وأبهة العرش عظيمة، وقوة الثراء والوسائل مختلفة. وجميع ما يتطلبه الملك والسلطان متوفر في بلادها. فهي ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ولكن قوام الملك من العقيدة السليمة والعبادة الصحيحة انحرفت بها إلى ما يزينه الشيطان من أعمالها أو أعمال رجالها.

فهي ملكة عبادة الشمس وقومها تبع لها، وهي وهم يسجدون للشمس من دون الله... فأي إدراك وتفهم عميق لعمل الهدهد الاستطلاعي، ولما صوره له القرآن من معرفة راسخة للعقيدة الدينية الموحّدة؟.

فلم يغرّه مظاهر الملك ولا أبهة العرش ولا المرافق المادية الجمة عن تفهم الوجود الحقيقي للخير المطلق والكمال المطلق.

إنها فطرة ذكية وغريزة مهذّبة لا تطغى عليها الزخارف والمظاهر، والجند والقوة العسكرية، هي فطرة التسبيح التي يشترك فيها الطير والحيوان وما في السمٰوات والأرض ومن فيهن.

وهي فِطرة منسجمة مع الخلق للخالق، وغريزة تحمله على التوحيد مثل ما تحمل سائر المخلوقات الموحدات المسبّحات.

ولكنه فيما يبدو (علم) تعلمه الهدهد من سليمان النبي. فقد كان يتداوله علماً، ويمارسه عبادة، وينشره دعوة بين قومه من حين لآخر، فهو دعوة الأنبياء يستجيب لها الإنسان والحيوان والنبات والجماد لهذا وذاك. ولنتأمل (مقولة) هذا الطائر العجيب عن التوحيد كما صوره القرآن.

وقبل أي قول، فمن المعلوم أن التوحيد إيمان وذكر وسلوك وعبادة، ولكنه (جمال) أيضاً لما يتضمنه من وحدة التصور وسموه وربانيته ووصفه بصفاته وأسمائه الحسنى. فكيف أدرك (الهدهد) ذلك كله ومن ثم عرضه على سليمان وهو يبرر غيابه عنه؟.

يقول: لقد صدهم الشيطان عن السجود لله تعالى فسجدوا لإحدى مخلوقاته: الشمس...

والله وحده يستحق السجود لأنه وحده:

- يظهر المخبوء من الغيث والنبات، وأسرار السماوات والأرض.
- ويعلم ما تعلن النفوس وما تخفي.
- هو واحد ليس له شريك ولا نظير، ولا يدانيه شريك ولا نظير.
- ورب العرش العظيم الذي لا تقاس به عروش البشر ومنها عرش بلقيس (العظيم) لأنه لا تقاس به الأرباب والآلهة.

صفات وأعمال تتفق مع الألوهية والوحدانية اتفاقها مع دعوة سليمان ونبوته...

وتناسقها مع الأسباب القاهرة التي غيبته عن الحضور بعد ما تفقده سليمان عليه السلام. ثم تناسقها مع المسئولية الملقاة عليه في الدعوة والتبليغ...

ويبدو أن (الهدهد) تابع (موقف) الملكة فيما بعد بطلب من سليمان لامتحانه امتحان الإخبار الدقيق والصدق الراجح، ثم نقل إليه أدق التفاصيل والحالات في مثل هذا الموقف الخطير.

● ألقى إليها كتاب سليمان المبدوء ببسم الله الرحمٰن الرحيم، والمعلن فيه الدعوة إلى التوحيد.

● فاستشارت الملكة بطانتها وأغلبيتها من العسكريين فأعلنوا لها استعدادهم للقتال: فهم أولو قوة وأولو بأس شديد. ولكنهم أرجعوا الرأي الأخير إليها.

● ثم تقدمت باقتراح مجرب تمتحن فيه مقصد سليمان: الملك أو النبوة وذلك بإرسال هدية إليه ومن ثم تنظر الرد السريع أو البطيء.

● ويتابع الهدهد المهمة (الفريدة) و(الطويلة) فيرجع إليها بتهديد الملك بعدما كان بعث إليها بهداية النبوة... وتنتهي هنا مهمة الهدهد. التطوعية والإلزامية وقد رحل وعاد إليها ثلاث مرات متباعدات.

قصة خارقة ركنها الأساسي أو بطلها طائر خارق، تجلت بطولته في مهمته الخارقة، وفي أحداثها الفذة... تتناسق المهمة مع سليمان ورسوله ومن أرسل إليها تناسقها مع الفهم العميق والحوار الحي في إطار جمالي فريد.

أي طير هذا، بل أي رسول من رسول. إنه الهدهد المخبر الحكيم صاحب قضية وحاملها إلى الآخرين، حامل أمانة لم يسبق لمثله حملها... قيم فكرية عقدية من أكبر ملوك الأرض في ذلك الزمان.

وقد نجح في امتحانه الصعب مثل ما نجح في هذه المهمة المعقدة فاستحق الخلود والإشادة في أعظم (وثيقة) دينية في الوجود.

إن قصة الهدهد عرضت لأدق الانفعالات النفسية لشخصيات القصة جميعها وفي المواقف والمشاهد كلها، ولا شك أن من أروعها مواقف الهدهد وإدراكه وذكاءه وإيمانه... ثم حركته وتعليقاته على كل حدث فيها،

بما يثير مشاعر الإيمان وروعة البراعة والعظة، وجمالية الأحداث وجلالها. **أليس هذا عجيباً وجميلاً؟.**

ثم ألا يستحق أن يكنى بأبي الأخبار من بين سائر الطيور؟.

النملة الحذرة... العجيبة:

أحسّ (وادي النمل) بزحف هائل من الإنسان والجن والطير والحيوان. بينما كانت أسرابه منهمكة تطلب رزقها من فتات وقشّ ودقيق طعام.

إنه جيش النمل في وادي النمل يشعر باقتحام جيش سليمان العملاق لا يعبأ بالأقزام.

هو مشهد عجيب من الحركة الدؤوبة، والعمل المتواصل، والانتظام الرائع، والخطوط الطويلة العريضة من الزحوف النملية. حركات منتظمة، وتعاون منسق في جماعات وجماعات.

وهذا الموكب الهادر من العمل في صوت خفي واتساق عجيب يدركه سليمان عليه السلام وجنوده من القوى الجبارة، ولكنه جيش بقيادة نبيٍّ أوتي منطق الطير والحشرات.

فما أحسّ النمل بوقع الخطى وثقلها حتى قالت نملة - وربما كانت رئيسة النمل - إنذاراً يعرض حياة النمل بالبوار إن لم تنفذه.

قالت النملة محذرة منبهة للأخطار القادمة والمتوقعة،... نعم قالت، وتكلمت، وسمع كلامها وقولها من يعنيها، قالت بلغة النملْ قولاً فصيحاً بيناً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: ١٨ - ١٩).

هي نملة تخاطب أترابها وتتفاهم معها، وهي لا تخاطب جنساً آخر من المخلوقات المختلفة. إنها لغة النمل وليست لغة النحل أو الفراش، أو العناكب مثلاً...

لقد أعلنت اسم (سليمان) هكذا من غير وصف ولا تقدير، وصرحت باسم جيشه وجنوده... ولكن متى كان النمل عموماً تعرف الأشخاص والأسماء والطوارىء؟ إنها نملة عجيبة خارقة.

وأنذرت النمل من التحطيم، ووجهته للهرب إلى بيوته، فإن الجنود لا يشعرون غالباً بهذه الأقزام التي قد تتحطم تحت الأقدام.

ولا بد من أن يستجيب النمل إلى هذا الانذار ففيه الحماية والتوجيه، فتدخل بيوتها إلا ما سبق عليها أجلها فداستها الأقدام.

وتبسّم سليمان من قولها، لا لأنه فهم لغة لم يفهمها سائر الناس وتلك نعمة وخصوصية وحسب، وإنما هو أيضاً قول فيه الحكمة والسداد من أصغر خلق الله، وفيه العبرة والعظة لأمم البشر والحيوان جميعاً.

فيه جمال الحكمة، وروعة التوجيه، ووضوح البيان والقول.

إن للطير والحيوان والسمك والحشرات لغات تتفاهم بها، فهي أمم منشورة في اليابسة والماء والفضاء، وقد أيّد العلم الحديث ما جاء من لغاتها ومنطقها.

فليس عجيباً أن تتكلم نملة مع زميلاتها على مثل الطعام والرزق والحماية، ولكن العجيب ما يصوره القرآن أن يصدر مثل هذا الكلام الحكيم من حشرة لا ترمقها العين.

عندئذ توسل سليمان إلى الله تعالى أن يلهمه شكره والإنابة إليه. فقد كان متأثراً مستشعراً مسروراً شاكراً حامداً. ثم أصبحت النملة (جمالية) في الحركة والحذر والقول على مدى الأيام.

وأضحى المسلمون يقرؤون سورة طويلة من سور القرآن الكريم سماها الله (النمل) وقد استروحوا حواراً عجيباً من نموذج رائع للقصة القصيرة ذات الأهداف المعنوية والجمالية.

يقول السيوطي: جمعت (الآية) في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام: نادت، وكنّت، ونبهت، وسمت، وأمرت، وقصّت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وعذرت. فالنداء: يا، والكناية: أي، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم: جنوده، والإشارة: وهم، والعذر: لا يشعرون، فأدّت خمس حقوق: حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتها، وحق جنود سليمان[1]. أليس هذا عجيباً وجميلاً؟.

الناقة المعجزة ومصارع المكذبين:

ثمود قبيلة عربية عريقة القدم، ونبيّها صالح عليه السلام أحد أنبياء العرب القدامى، ذكره الله في القرآن مع قبيلته في كثير من سور القرآن القصيرة والطويلة، كالأعراف والتوبة، وهود والحج والفرقان والقمر والفجر والبروج والشمس ومعظمها مكي. وكانت ثمود في شمالي الجزيرة العربية، كما كانت عاد في جنوبها تعكف على أصنامها وأوثانها.

ويشيد القرآن بحضارتها الزراعية والعمرانية، فأهلها أصحاب الحجر اتخذوا من سهولها قصوراً، ونحتوا من الجبال بيوتاً كثرت فيهم آلاء الله ونعمه حتى أصبحوا فارهين بحياتهم منعمين في معاشهم، أقوياء متمكنين في بلدهم.

وسبقتهم عاد ونبيّها هود عليه السلام، في وجودها وتكذيبها ومصرعها بالريح الصرصر العاتية... فلم تفدهم الذكرى والعبرة منها فاستحقت مصيرها المفزع المخوف.

---

(١) الإتقان: ٢/٥٥.

ناقة صالح المعجزة من البيئة العربية، وقصور ثمود في الجبال الراسية والمنحوتة وسهولها الممتدة الخصبة من أسباب تقدمها وتمكنها، والماء المتفجر من الجبال قسمة بينهم وبين الناقة.

وتطاولت ثمود واستعلت بأنعم الله، وهزئت بصالح قائلة: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر: ٢٤) واتهموه بالكذب بعد أن دعاهم إلى التوحيد مستكثرين عليه النبوة وذكر ربه، وبلغت بهم الجرأة إلى اعتداء تسعة رهط منهم على الناقة فأفسدوا في الأرض ولم يصلحوا، فتعاطى أشقاهم الخمر ليزيد من جرأته فانبعث وعقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم، ووقع البلاء العميم والشر المستطير والعذاب المفزع.

إنها ﴿ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (الأعراف: ٧٨) دفعت بهم إلى الهلاك ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(فصلت: ١٣).أو ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١).

أي مصير ومصرع هذا؟ سهولهم هي هي، وبيوتهم في الجبال على حالها، لم يمسها شيء وإنما هم وحدهم جمدوا في أمكنتهم صرعى لا يتحركون.

إن صيحة واحدة فعلت بهم ما فعلت فكانت أجسامهم أعواداً جافة هشيماً بعدما استطالت بقوتها وتمكنها في بنيانها.

والتعبير الفني يوحي بالرهبة المؤثرة في ثلاث نقاط:

● فهم على قوتهم وجبروتهم ليسوا شيئاً أمام قوة الله وجبروته. فأخذهم أخذ عزيز مقتدر بسبب ما قدموا عليه من عقر الناقة الآية.

● ومدينتهم الجبلية الباقية بعدهم قائمة منذ ذلك الوقت حتى اليوم لم ينقص منها شيء ولكنهم أضحوا كالعصي اليابس لا يستقيم على شيء.

● وتصويرهم الحي في القرآن ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يوحي للعين بالفزع الدائم وللقلب بالأثر المستمر، وكأنها حدث جماعي حاضر يمكن أن يحدث مثله في أي وقت وأي جيل.

إنها واحدة من سلسلة الرسالات والتكذيب والمصير المدمّر عبر التاريخ القريب والبعيد، ولكنها في البيان القرآني صورة حية موحية خالدة لا يتصور مثلها من الخوف والهلاك... ولنتأمل هذه الجمل القرآنية: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ (الشمس: ١٤، ١٥) و ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ...﴾ (الأعراف: ٧٧، ٧٨) و ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا...﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ (هود: ٦٢، ٦٨) و ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٢٨، ٣١).. فإن أسلوبها العلوي يأسر الوجدان المدرك بروعته وجلال إيحاءاته.

وإن أي تالٍ لهذه القصة وسواها ثم يشاهد آثارها في الواقع يدرك دقة البيان القرآني وروعة تصويره وفنية عباراته، حتى ذلك الذي لا يرى آثارها المادية الواقعة فإنه يفزع من القدرة القادرة المحيطة بهم ـ كما صورها القرآن فقضت عليهم في سرعة مذهلة، ومن ثم تبقى آثارها الشعورية ماثلة في النفس عميقة البعد قوية الأسر مستمرة متجددة الرهب. وصدق رسول الله حيث قال: شيّبتني هود وأخواتها...[1].

إن (مدائن صالح) شمالي (العلا) كانت في طريق الرسول عليه السلام إلى تبوك، فلما مرّ بالحِجْر سجّى ثوبه على وجهه، واستحثّ راحلته ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم...[2].

---

(١) قال الهيثمي في الزوائد: ٣٧/٤. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٢) ابن هشام: ٥٢٢/٤. وانظر روايات أخرى في سيرته.

ما أشده أثراً في النفس والسلوك وأبلغه في التخويف والترهيب إنها ليست قصة في التاريخ عرفت مصيرها وعاقبتها مثل مصائر المكذبين وعاقبتهم وحسب وإنما هي مشهد من فن القول المعجز تتجدد عبره وعظاته المستلهمة من البيان القرآني الفذ.

الجبال جُدَد. . . أوّابة:

وعرّف الجبل بأنه كتلة برية عالية لا تستوي الأرض فيها إلا قليلاً عند القمة، وتوجد بعض الجبال منعزلة، ولكن الأغلب أنها توجد في مجموعة أوصف، أو سلسلة مترابطة. وهناك فرضيات عديدة لتكوين الجبال: منها حفظ التوازن من حيث الثقل بين القطاعات المختلفة من قشرة الأرض، أو الاعتقاد بأن القارات تنجرف في اتجاهات معينة فوق مادة قاع المحيط. فتتجعّد مقدماتها نتيجة للاحتكاك والمقاومة الشديدة. . . وصرح القرآن بألوانها المختلفة المتباينة المتقاربة ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(فاطر: ٢٧) وهذا يعني اختلاف بنْيتها الأساسية من كلسية وبركانية وبازليتة أو كما يقال: صخور نارية ورسوبية ومتحولة.

ومهما تكن أنواعها فهي مضرب المثل في ضخامتها ورهبتها وهول منظرها ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢) ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦)، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾(الإسراء: ٣٧).ونوّع القرآن استخدامها في مجالات متعددة مألوفة وغير مألوفة:

الاستخدام العام والنوعي:

فبسبب ارتفاعها عن سطح الأرض ومنسوب المياه يمكن أن تعصم الإنسان من الطوفان أو الغرق حين يلجأ إليها وهذا ما تمسّك به ولد نوح عليه السلام حين خوّفه بالطوفان ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا

عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٤٣). وكذلك اتخاذها أماكن سامقة تتجلى فيها أعاجيب القدرة الإلهية، حين أرى ربُّنا إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى وقال له: ﴿ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنۡهُنَّ جُزۡءًا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيًاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠). ومثلها ضعف الجبل ذي الطبيعة الصخرية القوية عن ثبوته أمام تجليات الله في قصة موسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ . . . ﴾ (الأعراف: ١٤٣). . .

١ ـ ومنه نحت البيوت الآمنة:

فقد استفادت أقوام منذ قديم الزمان من ضخامة طبيعتها ومتانة بنائها فاستخدمت مغاراتها وكهوفها للسكنى ولاتقاء شر الحيوان المفترس، وكانت سجلاً حضارياً لأحوالها وأوضاعها، واتخذ آخرون الجبال نفسها بيوتاً آمنة بعد أن نحتوها في جهود بشرية مضنية، وما تزال بعضها تعبر عن حضارة راقية حتى الآن مثل: مدينة البتراء ومدائن صالح. ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ (الأعراف: ٧٤) فهي أمان من هجمات الإنسان والحيوان ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ فأحياناً كانت تعتبر حصوناً أو تبنى عليها قلاع قوية تعيش آلاف السنين. وقد ساق القرآن هذه الفائدة ضمن نعم كثيرة من البيوت والحيوان واللباس والظلال. . . وبين أنها (أكنان) يستكن إليها الإنسان ويطمئن بها فتقيه من شرور العاديات. . .

ولا تقتصر على الضرورات أو الحاجيات وإنما قد تكون قصوراً جبلية فارهة ﴿ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ (الشعراء: ١٤٩) وكذلك ما يتخذه بعض الحيوان منها كالنحل ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا . . . ﴾ (النحل: ٦٨).

٢ ـ الجبال أوتاد:

فهي بأوزانها الثقيلة وكتلها الضخمة تجعل الأرض كرة موتّدة مرساة

وجرماً متماسكاً ثابتاً فتحفظ حركتها المتوازنة ودورانها المنتظم، وهي إذ ترسخ هذه الحركة والدوران بنظام دائم فإنها تثقل بالجبال فليست جسماً خفيفاً طائشاً لا يقوى على العواصف والرياح.

وربما كانت الأرض في أول نشأتها خفيفة فأرساها بالجبال ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: ٣٢) ودعمها بالأوتاد ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٧).

٣ ـ الجبال من جلال الله ودلائل قدرته ونظامه الكوني:

ومهما اختلفت الفرضيات الجيولوجية في تكوين الجبال فإنها مظهر مهيب للجلال الإلهي يلهم الرهبة والقدرة الفائقة. وإن في نصبها مرتفعة وتضاريسها الضخمة ما يوحي بالخشوع والجلال، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية: ١٧ ـ ١٩). وقد كانت أعلى الجبال أصعدة يتنافس في ركوبها المغامرون من كل جيل.

وهي برهبتها وعظمتها نظام رائع في توزيعها على اليابسة يلطف المناخ القاسي برودة وحرارة.

فلو[1] نظرنا إلى كيفية توزيع الجبال والنجود على سطح الأرض لدهشنا من هذا التوزيع الرائع البديع، إذ كلما تقدمنا إلى جهات المنطقة الحارة من العالم تأخذ الجبال والنجود بالارتفاع بصورة عامة، وكلما تقدمنا إلى المناطق الباردة تأخذ هذه المرتفعات بالانخفاض بصورة عامة حتى تكون سهولاً. وبهذا الترتيب المنسق تلطف المناخ غالباً في المنطقة الحارة

(١) رشيد رشدي الغافري: آيات الخالق الكونية والنفسية. جمعية التربية الإسلامية ط/ التنغيص الأهلية، بغداد. وانظر: الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي من ص: ٣٢٤. دار الكتب الحديثة.

من الأرض وما يليها شمالاً وجنوباً، وذلك لشواهق الجبال وسوامق النجود فيها وبذلك صلح الغالب منها للسكنى، وكذلك خفت وطأة البرد في المناطق المتجمدة وذلك لانخفاض أراضيها فصارت صالحة للسكنى،فلو كانت الحالة معكوسة أي لو كان سطح اليابس من الأرض يتدرج بالارتفاع كلما تقدمنا إلى المنطقة الباردة حيث تكون شواهق الجبال ويتدرج بالانخفاض كلما اتجهنا إلى المناطق الباردة حيث تكون المنخفضات من السهول لتحوّل معظم المنطقة الباردة إلى جمد لا يمكن معه السكن فيها ولتعرّض معظم المنطقة الحارة لحرارة شديدة لا تطاق. فهل هناك قوة لا تدرك ولا تعقل قدرت هذا النظام في توزيع الجبال والنجود على سطح الأرض ليكون معظمه ملائماً للحياة؟ كلا ثم كلا! بل إن هناك صانعاً منظماً عالماً أقام هذا النظام في التوزيع ألا وهو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

٤ ـ الجبال أوّابة مسبّحة:

وإذا نصبت الجبال جلالاً وأرساها الله في الأرض لتحقق نظاماً ملطّفاً لليابسة فإن مما يضيف إلى إهميتها الجمالية أنها أوّابة مسبحة تتناسق مع الوجود العلوي والأرض كله المعلن عنه في آيات كثيرة وفي مقدمتها (المسبّحات).

● وخص الله من الأنبياء داود عليه السلام ثم (رسول الله ﷺ فيما بعد) بالجبال المسبحة التي يدرك من تسبيحها ما لا يدركه غيره. فهي مسخرة له مسبحة لله تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ. . .﴾ (الأنبياء: ٧٩). وهذه الخاصية فضل من الله يضاف إلى أفضاله في النبوة والملك والقوة البدنية والذرية الطيبة. . . ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠).وهو تسبيح دائم لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨).

● وخص به القرآن موضحاً فعاليته في النفوس وأثره على الآخرين، حتى وإن كان جبلاً سامقاً قوياً فإنه يسكن إلى أثره يتجاوب مع علو شأنه ﴿لَوْ

﴿ ... أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١). خاشع: كخشوع المؤمن في صلاته، متصدع كتصدع الصخر الذي يتفجر بالينابيع والمياه...

وإذاً فإن صفة الخشوع والتصدع كامنة في أي جبل على اليابسة، وإن القرآن وحده قادر على أن يبرز هاتين الصفتين إلى الوجود فيصبح الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله. فما بال القلوب الجاحدة والنفوس القاسية التي لا تلين لذكر الله وما نزل من الحق؟ أليست كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يشقّق فيخرج منه الماء...؟.

وقريب منه تلك الأمانة الكبرى (أمانات التكليف) التي عرضت عليها فأبين أن يحملنها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

● وتسبيحها عام وسجودها لعظمة الله شامل. فهي إذ خلقت مفطورة على الخضوع الكامل والتسبيح المستمر في (لغة) الجماد التي لا نفقهها، و(لسان) الجبال الذي لا ندركه فإن أروع الجماليات في هذه اللغة واللسان ينبثق من كتل ضخمة هائلة مثل الجبال يعلن القرآن أن أجراماً سماوية وأرضية أخرى تفوقها في الضخامة تسبح الله بلغتها ولسانها، وتسجد لعظمة الله مهما كانت كبيرة وعظيمة إلى جانب تلك الكائنات الدقيقة الصغيرة ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾ (الحج: ١٨).

تسبيح الجماد والجبال، وسجودها لله وحده لا يمكن لأية لغة فنية أن ترسمه أو تصوره أو تعبر عنه تماماً مثل استحالة إمكاناتنا عن فهم لغتها وسجودها الحقيقيين.

● ومع هذا التسبيح والسجود يضفي القرآن جماليات على هذه الجمادات الهائلة الجبال، فهي كما سبق مفطورة (على الخشوع) و(الإشفاق)

و(الإدراك) لما في هذا القرآن من تأثير عظيم بسبب ما تضمنه من خشية الله . . .

ثم تتوج هذه الجماليات بالخطاب الإلهي لها ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾، وإذا بالجبال تحسّ بخطاب الله العظيم فتطيع وتؤوب مسبِّحة مع تراتيل داود ومزاميره الخارقة.

كيف فهمت الجبال خطاب الله وأطاعته واشتركت مع داود في التسبيح المرتل الجميل؟ وكيف انزاحت الحواجز والحجب بين الكائنات الأرضية وبارئها، وبين داود والجبال حتى أضحت (فرقة) الترتيل الداودي البديع؟ كيف حدث هذا ولِمَ لم يحدث مثله وقد أوتي أبو موسى الأشعري مزماراً من مزامير داود كما أخبر عنه رسول الله ﷺ؟ وكيف يحدد الخيال الإنساني مثل هذا التصور الفريد العجيب؟.

سبحان خالق الجبال أشكالاً وألواناً وأحجاماً.

وفاطرها نظاماً عجيباً وملجأ ومسكناً آمناً.

وبارئها أوّابة مسبحة مرتلة ساجدة.

سبحان الله العظيم الكبير المتعال.

* * *

(سورة الحجر) نموذج لدراسة جمالية

بين يدي الدراسة:

إن الصفات المعنوية والتناسبية الترتيلية التي نقدّمها أولاً، والسمات التعبيرية التي سنقدمها فيما بعد أليق بالقرآن الكريم عموماً وبسورة الحجر خصوصاً، ليس لأن القرآن (حمَّال) لها و(معطاء) لذخائرها وحسب وإنما لأن الدراسات البلاغية والجمالية نفسها تنشط وتتعمق وتدق في كتاب الله تعالى.

فالمسلم مطالب بتدبره وترتيله والعمل به، وهذه الثلاثية تستدعي اعتباره محور الحياة الفكرية والعملية والأدبية، وعمادها للإنسانية التي لم تعرف أمة بعناية كتابها مثل ما عرفت به الأمة الإسلامية.

وإن نصه الثابت وبيانه الأرفع وإعجازه المستمر تؤكد على التدبر والترتيل والعمل من جانب الثبوت والبيان والإعجاز ومن جانب أنه كلام الله وحجته وتشريعه وخصائصه التنزيلية والتربوية.

وهذه المزايا تتطلب أن يتأمل العلماء فيه، وينفقوا جهودهم في تتبع خصائصه، ويعمّقوا نظراتهم وتأملاتهم فيه لأنه محور حياتهم كما قدمت، ولأن أعمق النظرات وأدق التأملات، وأوسع الجهود في استكناه مآثره تعطي ثمرات فكرية وفنية مستمرة ومتجددة.

وقد تناول بعض العلماء والأدباء سوراً معينة مثل: الرعد، والواقعة، والرحمٰن، وهود، وقصار السور ودرسوا ما فيها من مضامين معنوية ومزايا لغوية وأدبية، ويستطيع غيرهم أن يستلهم منها معطيات أخرى مهما دقت

التأملات وتعمقت الدراسات والنظرات كما يستطيعون بالضرورة أن يتناولوا غيرها بمثل نظراتهم ودراساتهم أو تزيد.

لأن هؤلاء وأولئك يعتقدون بقدسية القرآن وإعجازه، وما دام ذلك كذلك فإن أية سورة فيه ـ وهي إذ تنسب إلى الله الذي أعجز الناس بها ـ قابلة لمثل هذا التدقيق والعمق والجهود الفكرية والأدبية المختلفة.

وربما تميزت هذه الدراسة عن غيرها بإبراز الخصائص الجمالية والجلالية كنموذج لمعرفة الظاهرة الجمالية في سور القرآن جميعها. روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي (يعقوب بن إسحق) المتفلسف إلى أبي العباس (ثعلب) وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله لقائم. فالألفاظ مكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبدالله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبدالله قائم، جواب عن سؤال، وقولهم: إن عبدالله لقائم، جواب إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني، فما أحار المتفلسف جواباً.

فإذا صح هذا بلاغة في اللفظة العربية الشائعة فكيف يكون حالها في النسق القرآني المعجز؟.

وإن العلماء فرقوا مثلاً بين: الحمد والشكر، والخشية والخوف، والسبيل والطريق، والإعطاء والإيتاء، والقعود والجلوس، وجاء وأتى، وعمل وفعل...[1]. في موضع كل منها بالتعيين دون الأخرى ومناسبتها في المعنى والموسيقى والصورة، ضمن التركيب القرآني. وسورة (الحجر) سورة من

---

(١) دلائل الإعجاز الجرجاني: ٢٠٦.

انظرها وغيرها وانظر تعليلها في المزهر: ١/٤٠٥، وبيان إعجاز القرآن: للخطابي: ٣٠. والإتقان: ١/١٩٥، والبرهان للزملكاني: ٩١. وسبق شيء منه في موضعه.

كلام الله وكتابه، وهي معجزة بيانية لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها وصفاً جمالياً وقدرة بلاغية، فلا يصح أن تدرس دراسة سطحية، ولا أن تتناولها العقول والقلوب والأقلام مثل أي نص أدبي آخر. فنحن هنا أمام سيد الكلام وأجل النصوص وأقدس البيان، وأجمل الآثار الأدبية.

وبمثل هذه الروح أقبل العلماء والأدباء على كتاب الله ويقبلون، وبمثل هذه القدرات العلمية والأدبية والفنية تناولوا نصوصه بالعمق والدأب والتفهم ويتناولون.

فلا غرو أن يدرسوا ما فيه حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، ولا عجب أن يستنبطوا منه أدق العلوم وأروع الأساليب ما دامت دراساتهم تشمل حروفه وكلماته وآيه وسوره.

ومثل هذه الخاصية لا ينفرد بها كتاب الله فإن أي نص مقدس، بل وإن أي كلام لعظيم أو كبير من البشر، في التشريع والأخلاق والآداب يستدعي الاهتمام والإقبال والدأب على الدراسة والاستنباط.

فمجال العقيدة والعبادة وبهاء التشريع والأخلاق وروعة المصائر البشرية في الدنيا والآخرة تجلبها القدرة البيانية الفائقة لتبرز صفات القرآن الجمالية وسماته التعبيرية الفنية.

وإن الكشف عن دقائق تشريعه وعبادته وعقيدته وتربيته ضمن بيانه المعجز ينوه بجماليات لا حد لها في المبنى والمعنى يستلهم منها العلماء والأدباء روائعها ورواءها.

وسورة الحجر تأخذ قسطها الجمالي من كثير من أغراض القرآن العظيمة التي تستحق مزيداً من الدراسة وعمقاً في البحث. فهي مثل سائر السور أليق بالدراسات الجمالية والفنية.

جمالية التناسب في السورة:

هي سورة مكية بإتفاق[1] وترتيبها الخامسة عشر من حيث النزول، ومن السور المتوسطة من حيث حجمها (٩٩) آية، وطول آيها، يقول الفيروزبآدي: كلمات (الحجر) (٦٥٤) كلمة، وحروفها (٢٧٥٠) حرف[2]، وسميت بالحجر لورود قصة أصحاب الحجر في أواخرها بدءاً من قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠). وهي خامسة خمسة مما بدأ الله به قوله: ﴿الٓر﴾ كجزء من الآية الأولى.

التناسب المعنوي:

فالسورة وحدة فكرية توجيهية تتسق مع أخواتها من السور المكية في موضوعاتها. ولا بد أن نلمّ بالنواحي التالية:

١ ـ موضوع السورة: الرسالة المحمدية وموقف الجاهلية منها. فمحمد عليه الصلاة والسلام رسول الله نزلت عليه معجزة القرآن الثابت بالحق، والجاهليون يكذبون ويستهزئون وينعتون رسول الله بأقبح النعوت التي لا تليق بواحد من عامة الناس، وهذا يقتضي دعماً من الله بالوحي المتتابع، وتوجيهاً إلهياً، ومواساة له من تعامل قومه وقسوتهم عليه بما فيه العبرة من التاريخ القريب والبعيد.

٢ ـ تناسب آياتها: ففي الآية الأولى ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ توضيح لربط الحروف المقطعة بالقرآن الكريم الذي نزل بمثل هذه الحروف العربية التي تحداهم به ولم يقدروا على الإتيان بمثله.

والتناسب قائم أيضاً بين الآيات الأولى وبين خاتمة السورة نفسها حيث

---

(١) ليس ثمة دافع خاص لاختيار هذه السورة، فهي واحدة من السور المكية التي تشترك مع سائر المكي بخصائصه.

(٢) تنوير القياس في تفسير ابن عباس.

يقول الله فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ . . . إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . . . وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾. فالتناسب في وصف القرآن ونزوله على الرسول ﷺ وتوجيهه له بما يليق به قائم في البداية والنهاية . . فقد أعظموا الفرية على الرسول حين ذكر الله قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٦) فناسب تأكيد الله لهم لغيرهم بنزوله وحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (٩). ثم تتفرع سائر الآيات من موضوع السورة الأساسي الذي أشرت إليه في عبر التاريخ، وتزيين السماء، ومد الأرض وإرسائها، والنشأة البشرية الأولى ومصائرهم فيما بعد.

والسورة نسيج واحد على الرغم من تنوع الفروع والأجزاء، إذ أن كل فرع أو جزء فيها يتسلسل مع الآخر حتى تستوفي السورة (الموضوع) من جميع نواحيه وجوانبه.

فهي تبدأ بالإشادة بكتاب الله الذي جحده الجاهليون عناداً واستكباراً وليس عن برهان ولا دليل، حتى لو أنهم عرجوا إلى باب السماء فإنهم يعاندون ويقولون ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

ثم يلفت القرآن أنظار الذين كذّبوه وعقولهم إلى الكون العظيم الهائل وخالقه الأعظم والأكبر الذي قدر لهم المعايش والأرزاق، وأرسل الرياح لواقح وأنزل الأمطار وسقاهم منه، وأنعماً جليلة أخرى.

ثم ينبههم إلى النشأة الأولى والمعاد الأخير وما يجري بينهما من صراع الخير والشر، ومواجهة الرسالات والكافرين: إبراهيم ولوط وشعيب وهود عليهم السلام.

وأخيراً يثبت القرآن قلب الرسول بما ينزل عليه من القرآن والسبع المثاني، ويوجهه إلى تحمله والقيام بمسئوليته ومنها: الجهر بالدعوة مهما ضاق صدره بقومه فإن تسبيحه لله وسجوده له وعبادته الدائمة تكفيه المستهزئين وتنصره عليهم ولو بعد حين.

والقرآنُ المكيّ الذي أنـزل على رسولـه الأمين في وقت عصيب من حياته عليه الصلاة والسلام يبين في هذه السورة منه عظمته، وتأييده لرسوله في أحداث جرت قبل التاريخ وبعده، وفي سعة كونيـة فسيحة وآفـاق من الحياة رحبة، وعظات بالغات فيها شفاء النفوس وشحذ العزائم في كل جيل وزمان.

٣ ــ مناسبة السورة للسور الأخرى: ونبحثها من جانبين:

الأولى: مناسبتها للسـور القرآنيـة نزولاً: فقـد سبقتهـا سـورة (بنـو إسرائيل، ويونس، وهود، ويوسف) وأخيراً الحجر. والمناسبة واضحة تمام الوضوح:

أ ــ هذه السـور جميعها مكية سميت بأسماء أنبياء الله سواء كانوا عرباً أو من بني إسرائيل، وهم بعثوا في أصقاع متقاربة من البلاد العربيـة. في الجزيرة وما حولها. وهذا يعني تقديراً خاصاً لهؤلاء الأنبياء باعتبارهـم المبلغين لشرائعه، ثم لما في قصصهم عبرة وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام في مواجهة الكفار والمعاندين الجاهليين.

ب ــ معظم السور الماضية تبدأ بقوله (الر) ويتبعها ذكر القرآن ووصفه بصفات البيان والحكمة والكرامة وإحكام الآيات... ثم إن هذه الحـروف المقطعة هي جزء من الآية الأولى في كل سورة سابقة على عكس الحروف المقطعة الأخرى مثل (الم) و(حم) و(يس) و(طه)... وهذا يلهم تـأكيد التلاحم بين (الر) وإعجاز القرآن الكـريم باعتبـارها آيـة واحدة تؤدي هـذا المعنى بالتعيين.

ج ــ ولو تتبعنا نهايات هذه السور مثل ما تتبعنا أوائلها لوجدنا ما يشير أو يصرح أحياناً بأهمية القرآن الكريم وشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام. ففي سورة يوسف جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...

لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٢ ـ ١٠٤) وقوله في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ . . . ﴾ (١١١).

وجاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ . . . لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٠) ثم يقول لرسوله في آخر السورة ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٣).

وجاء في آخر سورة يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ . . . ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

أما مناسبة (الحجر) لما بعدها نزولاً، فإن سورة الأنعام التي نزلت بعد الحجر تتناول قصة التكذيب والعناد والمواقف الجاحدة من الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته، وذلك في مثل قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ . . . فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ . . . يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤ ـ ٥) ووقع بعد تعليم الرسول وتعليمنا شكر الله وحمده في مطلع السورة وما في ذلك من تثبيت وتطمين، ثم تتناول السورة لفت أنظارهم إلى ما حولهم ومن حولهم من الأمم التي أهلكها الله بسبب عصيانها وكفرانها.

إن سورة الأنعام أطول نفساً وأكثر آياً وأزخم معاني وألصق بإظهار مساوىء الجاهليين في السلوك والعقيدة والتعامل، وموضوعها: الألوهية والعبودية الذي تتشقق منه الرسالة والرسول، والشريعة والخلافة ومصائر الناس يوم القيامة يتشابه مع سائر السور المكية مثل سورة الحجر التي نحن بصدد الحديث عن مناسبتها. إلا أن التشابه (الدقيق) بينهما ورد في بعض المعاني الواقعة في (الأنعام) كالإشادة بالله الخالق وموقف الجاحدين من رسالة محمد ﷺ، وتيقّن أهل الكتاب بهذه الرسالة. وبشرية الرسول وتفصيل إيمان إبراهيم، وإيمان ذريته من بعده، وأخيراً ما تزاوله الجاهلية الساخرة من خرافات دينية، وإهدار أموال لاستعمالها في حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم والأنعام لتبين مدى السخف في التصور والسلوك الجاهلي الذي يكون موضع هزء وافتراء وضلال، فما أجدر أن يستهزأ بهم ويسخر منهم، وتشان أعمالهم

وعقولهم، ثم تلفت النظر إلى جرائمهم في قتل أولادهم وقتل النفس التي حرم الله، وتفريق دين الله شيعاً ومذاهب، وتبـرزُ (القرآن) كتـاباً منـزلاً من عنـد الله ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ . . . ﴾ (١٥٥) وتنتهي السـورة ببيـان هداية الله لرسوله واستعداد الإنسان لمثل هذه الهداية والخلافة.

الثـاني: مناسبـة السورة للسـور القرآنيـة مُصحفيـاً: ففي المصحف الشريف تقع سورة الحجر بين سورة إبراهيم السابقة وسورة النحل اللاحقة. وجميع هذه السور المتتابعة مكية، وتشترك سورة إبراهيم والحجر بـالحروف المقطعة (الر) في مطالعهما.

أ ــ إن تنزيل سورة إبراهيم في مكة يؤذن بالنسب في العقيدة والنبوة مثل ما يؤذن بنسب القرابة في الجدود الأولى. وهذا يوحي بعلاقة الرسول بإبراهيم عليهما السلام قبل هجرته إلى المدينة ولقائه باليهود والنصارى، وإنه ليشعر أيضاً بصلة القرابة للعرب وأنبيائهم بإبراهيم الجد الأعلى وأبي الأنبياء، والبيت الحرام والكعبة فيه شاهد على ذلك. فإذا دعا الرسول بدعوة إبراهيم فـإنها ملة الحنيفية التي انحرف عنهـا الجاهليـون المتأخـرون، ورسول الله يعيدهم إليها صافية نقية.

ب ــ وفي سورة إبراهيم أكثر من إشارة وتلميح إلى بنائه البيت مع ابنه إسماعيل في (١٨) آية. وإلى جانب ما قصته هذه السورة من حياة نوح وعاد وثمود وموسى ثم إبراهيم خصوصاً، وحياة الأنبياء ودعوتهم ومواقف أقوامهم منهـم ومصائرهم عموماً فإن إعلان السورة في مطلعها بمهمة القـرآن الكريم وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور يماثل تماماً ما ختم الله به السورة نفسها في قوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

ج ــ ومع أن سورة إبـراهيم بلغت (٥٢) آية فـإن طول آيـاتها تكـاد تتساوى في الحجم مع سورة الحجر التي بلغت آياتها (٩٩) آية.

ومن أكثر الآيات بياناً لمعنى التوحيد وآثاره النافعة المستمرة ـ وهو قدر مشترك بين السور المكية جميعها ـ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً . . . قَرَارٍ﴾(إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦)،ثم ما فيها من البيان المفصل لمشاهد الكفار أتباعاً ومتبوعين في نار جهنم (الآيتان: ٢١، ٢٢) مما لا يحتاج في سورة الحجر إلا إلى عرض عام لموعد الكافرين في جهنم ذات الأبواب السبعة (الآيتان: ٤٣، ٤٤)، حتى يتنبه الكفار ويتبيّنوا عاقبتهم.

والملاحظة الهامة في سورة إبراهيم خلوها من موقف الاستهزاء والتكذيب والعناد الذي نجده في سورة الحجر، مما يدل على نزولها في وقت متأخر من الآي المكي حين قويت شوكة المسلمين شيئاً قليلاً.

د ـ وفي سورة النحل: وهي الأطول والأكثر آياً، والأقرب نزولاً بسورة إبراهيم من سورة الحجر يبدؤها الله بالوعيد المخوف بقرب يوم القيامة ويعقب عليه بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ . . . فَٱتَّقُونِ﴾ وهو الوحي الإلهي الذي ينزل بالألوهية والتوحيد، ثم تعدد آلاء الله في خلق الأنعام ومنافعها وجمالها، وفي إنزال الأمطار وإنبات الزرع والشجر والشراب. وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتسخير البحار ومنافعه في النقل والطعام. وآيات أخرى تتصل بالألوهية والوحدانية، ثم يلفت النظر إلى تعاملهم وتصورهم للأنثى التي يجعلونها لله ولا يحبونها لأنفسهم، وإنما يتوارون من ولادتها، ويتمم آلاءه بذكر النحل الذي ألهمه الله أن يتخذ البيوت من الجبال ومما يعرشون.

ويبرز الأدب مع القرآن لأنه أنزله روح القدس ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ . . . مُّبِينٌ﴾(١٠٢ ـ ١٠٣).وقد أنزل فيه أجمع آية للفضائل الإسلامية﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ . . .﴾(٩٠) وأنزل فيه الرزق الحلال وأنواعاً من الطعام الحرام﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ . . رَّحِيمٌ﴾(١١٥). وأخيراً يربط بين الإسلام ودعوة إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ

﴿إِبْرَٰهِيمَ ...﴾ (١٢٣). مثل ما سبق ذكره في سورة إبراهيم.

هـ ـ وفي تمام سورة النحل توجيهات عظيمة نافعة قيمة في أسلوب الدعوة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ... بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) وفي الصبر على الأذى فإنه أخلق بالدعاة ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

إن المتتبع لهذه السور الثلاث إبراهيم والحجر والنحل حسب ترتيبها في المصحف يستوحي تلاحمها في الموضوعات الكبرى والموضوعات المتفرعة منها، وهي وإن تكررت كبرياتها فإنها كانت تعرض في كل سورة منها بعروض خاصة تميزها عن غيرها وتصلها بها في آن واحد.

ومثل هذا التناسق المعنوي في السور لا يحتاج إلى تأمل طويل أو إلى تمحل في التأويل، وإنما يحتاج فقط إلى رصف هذه الآيات المتشابهة رصفاً فكرياً يؤدي إلى اتساق في آياتها وسورها، وهي جمالية تتسع بآفاقها الرحبة الجماليات الجزئية في الآيات كلها.

يقول المراغي: في مناسبتها لما قبلها وجوه:

١ ـ إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين.

٢ ـ إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين.

٣ ـ إن في كل منهما وصف السمٰوات والأرض.

٤ ـ إن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام.

٥ ـ إن في كل منهما تسلية لرسوله ﷺ بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين.

ويقول في مناسبتها لما بعدها:

لما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ﴾ كان ذلك تنبيهاً إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، فقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وأيضاً فإن قوله في آخرها: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ شديد الالتئام بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ رَبِّكَ . . .﴾.

وللعلماء والباحثين اجتهادات وتعليلات مختلفة لا تعدو مثل هذه المعاني.

التناسب الترتيلي:

سبق أن القرآن الكريم كتاب الله المبين نزل باللسان العربي وبالأساليب العربية ولكنه أعجزهم بفوقية لغته وسمو أساليبه، وكان العرب يطربون للكلم الموزون والشعر المقفى وينشدونه في مجالسهم وأيامهم، فلا بد أن يبهر العرب بالصوتيات القرآنية وبالجرس الناشىء من تناسق الحروف بالكلمات، وتناسق الكلمات بالجمل والآيات، وهذه وتلك منبعثة من ترتيل القرآن بتلاوته المميزة التي لا يعرف لها نظير.

١ ــ التناسق الترتيلي وفواصل السورة:

أ ــ وسورة الحجر تتجه في فاصلتها اتجاهاً واحداً لا يتغير حتى تشكل في مجموعها (وحدة) جرسية تتناسق مع (وحدتها) الموضوعية، والفاصلة هي النون والميم المسبوقتان بحرف المد مما يعجب له العرب ويطربون له، ولا يستثنى من ذلك سوى آيتين تفترقان في المعنى والموضع وفاصلتهما اللام المسبوقة بمد الياء وهما: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) وآية ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (٨٥)، فالحرف (اللام) في الهجائية مجاور للحرف (الميم) فجمعت السورة في فواصلها الحروف الهجائية المتجاورة: اللام، والميم، والنون على اختلاف في نسبة كل منها في السورة. فهي (٤٨) (ياءون)، و(٣٣) (و ن)، و(١١) (ي م)، و(٤) (و م)، ولكنها على كل حال نسبة عكسية. ثم إن لفظة

(سجيل) متناسبة في المعنى مع الحجارة التي أمطر الله بها قوم لوط تماماً مثل وصف الصفح بأنه جميل، وهذا يعني أن مراعاة المعنى لا يتنافى مع الجرس الصوتي للكلمة وإن تغيرت فاصلتها فإنها حافظت على الإيقاع نفسه في مد الكلمة مداً عارضاً للسكون. وابتعدت عن المشهور والمعروف بسجع الكهان.

ب ــ وتبدأ الآية الأولى بقوله (الر) حروف ثلاثة: أولها متصل الصوت من غير مد وثانيها ممدود مداً طويلاً مع الشدة، والثالث بمد قصير. وهي في جملتها تنبيه جرسي ومعنوي لما سيأتي من الكلام المتصل بالإعجاز القرآني، حيث إن القارىء لا بد أن يقف عندها برهة ثم يتابع القراءة، فالوقوف عندها حسن وجائز ويقتضيه الأداء والمعنى. فهي فاتحة أو مقدمة ضرورية لتحقيق الغرض الصوتي في تهيئة النفس الإنسانية وتنبيهها لما سيتلوها من الذكر الحكيم.

وتتلون (الر) جمالياً في الإمالة وفي التحقيق عند من يقرأ بهما.

٢ ــ التناسق الترتيلي والتخفيف:

أ ــ فتخفيف (رُبَمَا) على غير المشهور هي قراءة نافع وعاصم وهي مشددة في قراءة الباقين.

وليس في القرآن لفظة أخرى بهذا التخفيف أو التشديد، ويهمنا هنا تخفيف الباء حتى كأن التالي أو القارىء يطلب منه أن يسرع إلى إدراك الموقف النادم الذي كان الكفار عليه ويتمنون أن لو كانوا مسلمين، وتنبهنا الآية إلى خاصة أن الشدات في تمام الآية لا تزيد على اثنتين رسمتا على اللفظتين الموحيتين بالود والتمني ووصفها.

وكذلك التخفيف في قوله (لمنجّوهم) في قراءة حمزة والكسائي، والتخفيف في قوله: (قدّرنا) بقراءة أبي بكر، وقوله: (سكرّت) في قراءة ابن

كثير[1] تلهم الحكمة نفسها مع ملاحظة أن كل لفظة في سياقها الذي لا تستبدل به لفظة أخرى.

ب ـ أوحى تخفيف (ربما) لي بمتابعة (الشدات) في السورة كلها، والمعلوم أن (الشدة) في الأصل حرفان متماثلان الأول ساكن والثاني متحرك أدغما ببعضهما، سواء كانت الشدة بسبب حرف هجائي مثل: يودّ ـ يا أيّها ـ سكرّت . . . أو نتيجة ادغام النون الساكنة أو التنوين بحروف لإدغام مثل: من رسول ـ بقدر معلوم ـ جنات وعيون.

وتقارب الشدات في السورة من (١٦٠) شدة. وإذا اعتبرنا الآية القرآنية (جملة) صوتية فإن حضور الشدات فيها تختلف من آية لأخرى. ويؤثر ذلك على الحركة الصوتية.

فبعضها خالٍ منها مثل الآيات: ١٤، ٣٦، ٤٦، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٠، ٩٤ . . . فهي اثنتا عشرة آية. وبعضها يأخذ رقماً قياسياً. فهناك آيات تحتوي كل منهما على خمس شدات هي الآية السادسة والآية الخامسة والثمانون، وأربع آيات تحتوي كل منها على أربع شدات هي الآيات: ٩، ٤٥، ٨٥، ٩٨، وثلاث عشرة آية تحتوي على ثلاث عشرة شدة هي الآيات: ٨، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٣٩، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٨٦، ٨٨، ٨٩، وباقي الآيات تحتوي كل منها على شدتين أو واحدة، ولا حاجة إلى استقصائها. مع ملاحظة أن بعضها يشدد ويغني.

ج ـ يصعب تعليل الشدات وجوداً وعدماً بقاعدة مطردة في هذه السورة وفي غيرها. تعليلاً جرسياً وإيقاعياً. وللباحث أن يستنتج بتأمله تعليلات خاضعة للنقاش والنقد.

---

(١) انظر: الإقناع لابن خلف الأنصاري: ٢/٦٧٩ ثم تابع القراءات في السورة جميعها بالطريقة المعجمية من معجم القراءات القرآنية: ٣/٢٤٩ ـ ٢٦٣، د. أحمد مختار ود. عبدالعال ط/١ جامعة الكويت ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الآيتين: ٦، ٨٥، اللتين تحتوي كل منهما خمس شدات تحملان (شدة) في البعد الشعوري الذي ينبض فيهما. فالله يقول في الآية السادسة ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. أوليس حجم هذه الفرية الكبرى يستحق ضغطاً صوتياً يتسق مع حجمها وشدتها؟.

والآية الخامسة والثمانون هي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أوليست هذه على طولها تعتبر جواباً أو مقابلة للفرية السابقة الكبرى في نسبة الرسول للجنون؟ إن الآيتين متسقتان في الموضوع والتآلف الجرسي. الافتراء على الرسول ﷺ بالجنون يتطلب تهديداً من الله بإتيان الساعة، وتوجيهاً للرسول بالصفح الجميل، وفي كل منهما الشدات نفسها فهما في الموضوع الواحد. وقريب منهما الآيات الثلاث التي تشتمل كل منها على أربع شدات، مثل الآية التاسعة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أو ليس مضمون الآية من الأهمية ما يستدعي مثل هذا الضغط الصوتي في بيان تعهد الله بحفظ كتابه؟.

وخذ مثلاً الآية: (٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فإن التأكيد على مصير المتقين يتطلب مثل هذا التأكيد الصوتي الخاص.

ومثلها الآية: (٩٨) وهي قبل الآية الأخيرة من السورة تقول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ فإن التسبيح باسم الله والسجود له يتسقان مع الشدة الصوتية الملائمة.

وهذه الملاحظة تسري على مواقع الشدات الأخرى التي لا تحتاج إلى مزيد تأمل.

٣ ـ التناسق الترتيلي وحروف المد:

أ ـ إن ما سبق من مسألة الحروف المشددة يستوقفنا فيه حرفا الغنة

وهما النون والميم المشددتان اللذان يتطلبان مخرجاً خاصاً (من خيشوم الأنف) ملتحماً بغنّة طويلة المدى قليلاً، وهذا يدفع بنا إلى عرض نظرة في (المدود) الواردة ضمن هذه السورة الكريمة.

وتحظى سورة الحجر عموماً بعدد كبير من المدود ضمن الآيات وفواصلها.

ففي الفواصل وحدها تسع وتسعون مداً يطوّل القارىء في الوقوف عندها، وهي الميم والنون المسبوقة بالمد واواً وياءً كما أشرت إليه سابقاً، وتكثر مثل هذه الفواصل في القرآن عادة، ولكي نتبين هنا قيمة المد الإيقاعية نذكر أن سورتي الإسراء والكهف مثلاً تحظيان فقط بالمد القصير غالباً، مع أن كلاً منهما أطول من الحجر، ومثلهما سورة طه ذات المد القصير، علاوة على السور التي تكثر في فواصلها الحروف الساكنة مثل: القيامة والمدثر، والواقعة، والغاشية، والفجر وسور قصيرة أخرى.

يضاف إلى ما سبق حضور المد في سورة الحجر في كثير من أنواعه الواجب والجائز الطويل والقصير الوارد ضمن الآيات، فقد قاربت أربعين مداً تثري الترتيل بوافر من الانسيابات الصوتية الطويلة والمتوسطة والقصيرة.

ب ــ وفي السورة ما يقارب من سبعين آية اقتصر المد الطويل فيها على الفاصلة وحدها من أصل (٩٩) مداً كما سبق الكلام، وهذا عدا المدود القصيرة التي تقع خلالها، فقد خلت بعض الآيات من أي مد طويل آخر، ولكن إلى جانبها نجد آيات تعدد المدود فيها على الرغم من قصرها.

ففي الآية الثانية والعشرين وهي أشمل آية لآلاء الله ثلاثة مدود طويلة بالإضافة إلى مد الفاصلة ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ أما بالنسبة للمدود القصيرة فلا تكاد كلمة تخلو منه.

وكذلك فإن الآية السابقة لها تحتوي على مدين طويلين بالإضافة إلى

مد الفاصلة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. وهذا يعني أن هاتين الآيتين تشملان أكثر المدود الطويلة والقصيرة من أية آية أخرى في السورة، فهل يعني هذا اقتران التأمل الطويل بالآلاء العظمى بما يتناسب مع طول النفس والترتيل الطويلين؟ وهل مثل هذا التناسق الموضوعي والصوتي مما يصح قاعدة مطردة في كل موضع من القرآن الكريم؟ إن الجواب الدقيق على مثل هذا يحتاج إلى مزيد من الدرس والبحث.

ثم آيتان أخريان يختلفان موضوعاً ويقتربان مداً وترتيلاً وهما ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٨، ٥٩) ففيهما أربع مدود طويلة مضافاً إليها مدا الفاصلة أيضاً. فهل تلهم هذه المدود الطويلة والقصيرة تريثاً بإيقاع العذاب على المجرمين من قوم لوط؟ وهل لاستثناء (آل لوط) الذين نجاهم الله ثم استثناء (امرأته) مرة أخرى علاقة بهذا التريث الطويل؟ إن واقع القصة يشير إلى إحاطة العذاب بالكافرين ومعهم زوجة لوط عليه السلام التي استثنيت من الناجين، فكأن الفرز يحتاج إلى طول أناة حتى لا يعمهم العذاب الأليم.

ج ـ مدود مقصورة: إن الترتيل لبعض المدود الطويلة السابقة قد قرئت مخطوفة أو مقصورة في قراءات ثابتة فمثلاً قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) قرأ أبو عمرو والحرميان: بفتح اليائين في (عباديَ) و(أنيَ)، وكذلك (إنيَ) في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩). وقرأ نافع (بناتيَ) في قوله: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) بفتح الياء في الجميع[1].

ويمكن أن نستنتج من هذه القراءات حكمة عامة هي التعجيل والإسراع في طلب مغفرة الله ورحمته في الآية الأولى، وإبلاغ التهديد والوعيد من غير

---

(١) انظر الإقناع السابق: ٢/٦٨٠.

لبث في الآية الثانية، وطلب الكف عن اقتراف السوء مع ضيوف لوط من غير تردد ولا تأخر في الآية الثالثة.

إن ما تحمله هذه الآيات من المقاصد المنجزة لا تتحمل بطئاً ولا طول انتظار. وهي حكمة (مستنتجة) تتسق مع الترتيل الخاطف والمقصور.

د ــ خطف الحروف المدودة: فالسورة المحافظة على وحدة الفاصلة الطويلة تعمد في قراءات ثابتة إلى خطف مدود قصيرة بعدها وليست واردة في سائر الفواصل وذلك ليتم توازن بينها بلا قلق ولا اضطراب. فقوله تعالى: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ (٥٤) قرأها نافع بكسر النون مع التخفيف حيث أن الأصل فيها (فبم تبشرونني) فاستثقل النونين فحذف إحداهما وهي الثانية لأن التكرير بها وقع ولم يحذف الأولى[1]. والنون المحذوفة هي التي تعرف بنون الوقاية، والياء ياء المتكلم، فقد روعي فيها اتساق فاصلتها مع المد الطويل بسائر الفواصل.

ومثلها قوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨)، وقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾[2] (٦٩)، بكسر النون فيهما على قراءة حفص المشهورة.

٤ ــ التناسق الترتيلي وتسهيل الهمزات:

إن التخفيف في بعض الشدات الوارد في السورة يلفت نظرنا إلى تسهيل بعض الهمزات فيها، فقد روى ورش عن نافع في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ (٧٨) بتسهيل الهمز أي الايكة[3]، وكذلك في قوله

(١) حجة القراءات: أبو زرعة. ت: سعيد الأفغاني: ٣٨٢، مؤسسة الرسالة ط/٢ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) النشر في القراءات العشر ابن الجزري: ٣٠٢/٢. دار الفكر.

(٣) ابن مجاهد في كتاب: السبعة في القراءات: د. شوقي ضيف: ٣٦٨ ط/٢ دار المعارف.

تعالى: ﴿فَأَسْرِ﴾بتسهيل الهمزة في قراءة ابن كثير والمدنيين[1] وهمزات أخرى تدخل في قاعدة التخفيف العامة.

ولا يخفى ما في التسهيل من انسياب الصوت بترتيلها ومن ثم وصلها بكلمات الجملة القرآنية، ولكن ذلك لا يتأتى مزاجاً أو حسب الذوق اللحني ووفق النغم وإنما يتبع التلقي الثابت عن الشيوخ الأثبات إلى رسول الله ﷺ.

وهذا هو أحد الفروق بين التنسيق الترتيلي، والانسجام الغنائي العام. ففي الأول تقدير مضبوط لا يتخلف، أما في الثانية فيكفي أن يراعى فيه كمال النغم والموسيقى.

٥ ـ وحالات صوتية أخرى:

تنسجم مع حالات الوقف والوصل لكل كلمة فيها الإمالة والتفخيم والأحكام الأخرى في سائر القراءات، مما ينشأ عنها صفات خاصة للحروف تستدعي تغييراً بالترتيل والصوتي، وكذلك ما عرف عن ثقات القراء من الأشمام مثل: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾[2] (٩٤)، وضم الهاء في قوله: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[3] (٣).وتقصير المدود الجائزة، وتطويل المدود الواجبة... مما لا يخفي أثره في صيغة الترتيل وطبيعة الجرس والإيقاع.

٦ ـ في الجرس الصوتي:

إن (وحدة) الفاصلة في السورة كما تحدثنا عنها هي (نهاية) (تلوين) جرسي يتبدّى في كلمات الآية وألفاظها وإذا اعتبرنا الآية القرآنية جملة أو شبه جملة صوتية فإن الحركة الجرسية في الآية كلها متكاملة بين الوحدة والتلوين.

ولا ريب أن هذا التلوين المتناسق قد ساهم في انسجامه ما ذكرنا سابقاً من حالات الهمزات والمدود وصفات الحروف إلى جانب الاختيار الدقيق

---

(١) النشر: ١/٢٩٠.

(٢) المصدر السابق: ٢/٢٥٠. (٣) المصدر السابق: ١/٢٧٣.

للحروف والكلمات في الوضع اللغوي العام، فسورة الحجر هنا نموذج مما يستوعبه القرآن الكريم من السور القرآنية من الناحية الصوتية، فكلما أمعنا النظر فيها تكشفت لنا ألوانٌ من الجرس والإيقاع ما ليس بالحسبان، وإن المختصين يستطيعون أن يستلهموا مقاطع صوتيّة أكثر فأكثر، وأعمق فأعمق، وأجمل فأجمل.

فمن أروع تلوين جرسي يمكن أن نجده في هذه السورة:

● المعاودة الجرسية: إن للتكرار في السورة وفي غيرها أغراضاً بلاغية ومعنوية وصوتية، وسنبرز هنا الغرض الجرسي وحده فقد توسعت السورة ببيان قصة الخليقة والخليقة الأولى على الرغم من قصر السورة. والتكرار الجرسي واضح في الآيات: ٢٦ - ٤٣ فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ويقول بلسان إبليس: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

فمثل هذا التكرار يوفر انسياباً صوتياً متناسباً في مشهد من قصة الخليقة الأولى. وإذا تأملنا في المقطع المكرر وهو ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فإننا واجدون فيه جرساً داخلياً موزوناً يقترب كثيراً من أوزان الشعر الموسيقية إن لم يماثلها. فكأن هذا المقطع مقسم إلى ثلاثة مقاطع صغيرة متوازية: من صلصال، من حمإ، مسنون.

وقريب منه في المشهد نفسه الآيات:

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

و ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

و ﴿مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

والتعبير البشري العادي في مثل هذا المقام يقول في الآية الأولى: فاسجدوا له، وفي الثانية: أبى أن يسجد، وفي الثالثة: مالك ألا تسجد... أو قريباً منها ولكن هذه الآيات راعت فواصل السورة إلى جانب اعتبارات بلاغية أخرى، لتسري الحركة الجرسية على حال واحدة من التناسق الصوتي الظاهر.

ومع هذه الثلاثية الجرسية في النموذجين السابقين نرى لونين من الجرس والفاصلة القرآنية: (واو ونون، وياء ونون) في إبداع صوتي. وكذلك لفظة (أجمعين) في الآيات ٣٠، ٣٩، ٤٣.

● **الاكتمال الجرسي**: وأقصد به أن الجملة القرآنية لا يكتمل جرسها الصوتي إلا بالكلمات والحروف الموزونة المعبر بها، فإذا حذفت كلمة أو بدلت مكانها، أو تغيرت حروفها فإن الجرس يفقد الكثير من تناسقه وإبداعه. وعندئذ يمكن أن نشعر بإيقاع معين لكل كلمتين متجاورتين وأحياناً لكل كلمة واحدة من الآية القرآنية. والنماذج السابقة تصلح شواهد على ما نقول، ولكن في السورة نماذج أخرى.

فلنقرأ أو لنسمع قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فإن اختيار كلماتها البسيطة وترتيبها بهذه الصيغة تنبهنا إلى جرسها البديع حيث يمكن تقطيعها إلى ثلاث كلمات تناسبية نحس بأن لكل منها جرساً يبدو مثلها كـ (تفعيلة) شعرية جميلة، ولو أننا بدلناها ورتبناها على شكل آخر لاختل جرسها ولخسرنا لونها التناسبي المتلائم. فكأنها (ترحيب) منغم من الملائكة الأبرار لعباد الله المتقين.

ولنقرأ أو لنسمع قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فهي كلمات ثلاث أيضاً، وعلى بساطة كلماتها وتكرار الصفح، ووصفه بالجمال في هذا الترتيب السهل الممتنع يوحي بإمكانية ترداد كلمتين أو مقطعين صوتيين: فاصفح

الصفح الجميل، يتخللهما جرس إيقاعي لا يمكن أن نشعر به فيما لو بدلنا أو غيرنا أو حذفنا.

إنه يلهم بتآلف جمالي في خلُق الصفح المعنوي، وفي جمال عرضه الجرسي.

وهكذا تتابع التوصيات الإلهية لرسوله عليه الصلاة والسلام تستوعب هذين اللونين من جماليات المعنى والفضيلة وجمالية الصوتية وجرسها البديع.

نأخذ على ذلك الأدبين الرفيعين ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾. فالصيغة الصوتية غير متماثلة في الجملتين، ولكنهما متكاملتان متناسقتان، وبالإمكان أن يحس القارىء أو التالي لكل منهما بوزن خاص لكل كلمة أو لجزء منها، ولكن هذا الإحساس تتسع أوزانه في الثانية ويطول أكثر فهو متناسق مع طول الآية لفظاً باعتبارين: لأنها خاتمة السورة وخاتمة التوصيات الإلهية، ولأن الأدب فيها مستمر ومستمر حتى يأتيه اليقين. كل كلمة في موضعها حتى ضمائر الخطاب وحتى الحروف متناسقة مع الكلمة الأخرى بانسجام، مؤتلفة مع حروفها بإحكام لتمنحنا تأثيراً جمالياً في جرسها وإيقاعها.

وفي قصة أخرى من السورة ينصح لوط عليه السلام قومه بأن يبتعدوا عن الفاحشة ويتوعدهم إن قاموا بعذاب الله ويقول لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ فإذ لم ينتهوا عاقبهُم الله بالصيحة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ مثل أصحاب الحجر أيضاً ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾...

إن هذه الآيات الثلاث تجري في جرسها بإيقاع قوي مؤثر في مقاطع أو كلمات ثلاث كأنها وضعت في قوالب وأوزان جلالية وشعرية مع أنها ليست من الشعر في شيء، ولكن الانسجام الكلمي يوحي بمثل ذلك.

● **التوازن الجرسي**: والمتأمل ببعض الآيات السابقات يلحظ انسجاماً

وتناسقاً لفظياً منشؤه اختيار نوعية من الكلمات وترتيبها على هيئة أو نظم معين.

ومن خلال هذا الانسجام والتناسق ينشأ توازن بين الألفاظ والمقاطع تؤدي جمالاً داخلياً يتضح أكثر فأكثر عند تلاوة الآية وتكرارها وتأملها، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فالجملتان متوازنتان، وكأن لفظة (منكم) التي لها دلالتها المعنوية الهامة، حاجز بين المتقدمين والمتأخرين، وهو ترتيب لفظي يوحي بترتيب زمني، فالمتقدم أولاً ثم المتأخر ثانياً.

ويدق التوزان الجرسي في آيات أخرى مثل ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ فالآية متصلة بالآية السابقة، ويلاحظ أن بيان التعنت فيها للجاحدين يأخذ ناحيتين: اختلاط الأمور في آرائهم، وإصابتهم بالسحر، وكلاهما يؤدي إلى الآخر، فهما متلازمان، ولذا فإن التوازن التعبيري بينهما يقتضي أن تأخذ كل ناحية أربع كلمات متوازنة فيما بينها حتى تؤدي جمالاً داخلياً، فلو حاولنا أن نحذف كلمة واحدة من أي قسم لاختل التوزان ثم لضاع شيء كثير من جرسه الصوتي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ فالآية تتحدث بأنعم الله في المعيشة لصنفين: للناس المخاطبين ولغيرهم ممن لا يستطيعون رزقهم بل الله يرزقهم وهم من العبيد والإماء والأنعام، والحيوان البري...، وكل صنف أخذ حقه من التعبير الوافي يساوي الصنف الآخر ليتم التوازن بينهما في مقدار الكلم بحيث لو أننا أخذنا أقصر كلمة من أي صنف لاختل التوازن وافتقدنا جمال الجرس الصوتي، وهذا بلا شك يمنحنا تناسقاً معنوياً مع التناسق اللفظي الذي يشير إلى أن رازق الجميع والمنعم عليهم هو الله تعالى.

والتوازن لا يقتصر على الآية الواحدة وحده وإنما يلف السورة بأجمعها

في مقادير من الكلم المتساوي أو المتقارب. فآيات السورة جميعها من الآيات المتوسطة في طولها والمتقاربة في كلماتها.

وربما طال بعضها قليلاً مثل الآيات: ٦٥، ٦٦، ٧٤، ٨٥، ٨٨، لاعتبارات معنوية، نفصل الكلام على بعضها.

فالآية (٦٥) هي: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ تتكون من خمس مقاطع متوازنة تقريباً، ومثل هذه المقاطع الخمسة في آية واحدة يلهم في معناها تقرير (خطة) انسحاب بكيفية السير المنتظم الحذر فراراً من العذاب المحيط بقوم لوط. فهي: السير بأهله في آخر الليل، وهم أمامه، من غير التفات إلى الوراء، وليمضوا حيث أمرهم الله. فالجرس يتناسب مع انتظام الحركة والمعنى.

والآية (٦٦) هي ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ تتمة لمشهد قوم لوط وما يحل بهم من العذاب صباح ليلتهم، ويلاحظ تفصيل جزئي وإطناب قليل في الوعيد بإنزال العذاب الذي لا بد أن يفزع منه القوم بإرهاب وحرب نفسية قبل أن يقعوا في العذاب الأليم. لذلك نرى أن جرسها ذو إيقاع شديد ينبىء بإنذار عظيم.

والآية (٨٨) هي ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي جزء من التوصيات الإلهية للرسول عليه الصلاة والسلام، وفيها ثلاث توصيات: ألا يتمنى متاع الحياة الدنيا، ولا يحزن على ما متعوا به إن لم يؤمنوا، وليتواضع للمؤمنين.

وهذه التوصيات أتت عقب ما فضل الله به رسوله على سائر خلقه حيث أعطاه القرآن والسبع المثاني (فاتحة القرآن) أو (السبع الطوال من أوائل القرآن)وهي نعمة وفضل لا يعد لها شيء من متع الدنيا.

إنه خطاب تهذيب لرسوله وللمؤمنين يشعر برعاية ربانية وتعليم إلهي

وهداية إلى خير الأمور وتأديب متواضع للمؤمنين، ولذا فإن الجرس هنا محبب نلمح فيه مسحات الرضا والحبور والكرامة.

● **مفردات وجمل ذات جرس خاص:** والتوازن الجرسي المتوازن مع الجو والموضوع لا يختص بالكلمات والتراكيب بعضها إلى جانب بعض وإنما يلاحظ أيضاً في حروف المفردات والجمل (المضغوطة).

ويغلب على مفردات السورة التوسط في عدد الحروف وهي بهذا تنسجم مع التوسط في الجمل والآيات، كما لاحظنا سابقاً، والتوسط في المفردات والجمل والآيات لون خاص بسورة الحجر وأمثالها، ينشأ منه (موجات) صوتية متوسطة تتمم التناسق اللفظي والجملي والمعنوي.

أحادية، أو حركتين فسكون، ثم يعقبها حركة أو حركتان فسكون، ويقوم المد مقام الحرف الساكن. ومعظم المفردات في السورة من هذا القبيل، وكلها أمثلة على ذلك. فبداية الآية (الر) تقرأ هكذا: ألف، لام، را، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾. والآية (٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ .والآية الأخيرة ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ .فكل مفردة منها مؤلفة من عدد من الحروف المتوسطة في الطول، وبحركة أو حركتين فسكون، ولكن في تآلف جرسي عجيب، ما عدا كلمتي: (الكتاب وقرآن ـ ربّك حتى)، فإن في كل منهما لو قطّعت ثلاث حركات فسكون. وهذا قليل في السورة ولا ينشأ منه خلل جرسي لخفته على اللسان عموماً، بل وإن توالي ثلاث حركات أحياناً يمنح انسيابية جرسية صوتية أخاذة.

بيد أنه من المناسب دراسة المفردات الطويلة نوعاً ما من الناحية الجرسية مثلاً: الضالّون ـ لمنجوُّهم ـ للمتوسّمين ـ المقتسمين ـ سجيل. . . وكذلك الجمل (المكثفة) أو المضغوطة التي تحتوي كل منها على الفعل والفاعل والمفعول به، وأحياناً المفعولين مثل: حفظناها ـ فاسقيناكموه ـ مددْناها ـ لأزيّنَنَّ ـ لأغوينهم ـ كفيناك ـ لنسألنهم. . .

فإن كل مفردة أو جملة فيها لا تخرج عن القاعدة العامة في حركاتها وسكناتها ومداتها، فهي أما أحادية الحركة أو ثنائية وقلما تكون ثلاثية، يعقبها حرف مد أو حرف ساكن، وهكذا فمهما كثرت الحروف في المفردة أو الجملة فإن جرسها متلائم مع مقاطعها الحرفية، تماماً تلاؤمها مع الكلمات والجمل الأخرى في الآية. حتى إن (التكثيف) الحرفي في لفظة واحدة ـ حين تعبر عن جملة يفترض (عادة) أن تطول إذا كانت تعبيراً عاديّاً ـ، فإن هذا الضغط أو التكثيف يلقي ظلالاً لفظية وجرسية محببة.

فالجملة (فأسقيناكموه) تتكون من ست كلمات على الأقل، ما بين فعل واسم وحرف، وهي إذ استوفت عناصرها الأساسية من الفعل والفاعل وأخذت حقها من (التوابع) في المفعولين. فإنها توحي بتلاؤم جرسي منظم مع الظل التي ترسمه (اللفظة ـ الجملة) من حاجة الإنسان والحيوان والنبات إلى الماء النعمة الجليلة التي امتنَّ الله بها على خلقه، وهو وحده الذي أسقاهم وجعله لذة وحياة من بداية تكوينه إلى سقايته. ولنتصور هذه المخلوقات جميعها وقد أعد الله لها الماء شراباً، فاختصر كل الحركات في إعداده وتوزيعه ومنافعه وطلبه والحاجة إليه، وتنوع صلاحياته، وما ينشأ عن ذلك من جماليات الخلق وبهاء الطبيعة، في لفظة واحدة هي أخصر جملة في اللغة العربية (فاسقيناكموه)، إنها رائعة في اختصارها وجرسها وظلالها.

وكذلك قوله (مددناها) فإن الأرض الممدودة لإقامة الحياة عليها، واستقبال الماء وإنبات النبات من كل شيء موزون تلهم بالسعة والاطمئنان والرحابة، كما تعطي (قلقلةُ) الدال الثانية تخفيفاً مع الضمير المتصل لتوالي ثلاث حركات فسكون، نبرةً صوتية تسهل النطق بحروفها وتتناسب مع سعة المعنى ورحابته، والمدان المتصلان بها يتممان هذا الانسجام الصوتي والمعنوي.

ومن الكلمات التي تلفت الانتباه: لَأُزَيِّنَنّ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ، فهما تعبران عن تصميم شيطاني وتأكيد إبليسي على تزيين الفساد والغواية للناس، وكل

منهما مبدوءة بحرف القسم ومنتهية بنون التوكيد مما يدل على هذا التصميم والتأكيد. وهذه ناحية بلاغية نستشف منها التهالك على الشر والفساد ما عدا المؤمنين، فليس للشيطان عليهم سبيل. فالجرس واضح في الحزم والجزم ويقتضي مثل هذه الشدات الظاهرة، ولكن كلمة (لَأُزَيِّنَنَّ) التي توالت فيها ثلاثة نونات. فإنه قد خفف من وقعها حركةُ النون الأولى التي هي من أصل الفعل باعتبارها حرفاً أصلياً مبنياً على الفتح. وفي الوقت ذاته وقعت هذه النون بين حرفين مشددين: الياء المشددة، والنون المشددة، وأي ثقل أشد من أن ينطق بهما مجتمعتين لو خلت من حرف متحرك بينهما؟.

إن الحالة الواقعة في الشيطان هي التصميم على الشيطنة، ومثل هذا يقتضي لفظة معبرة بجرسها ومعناها، وقد جاء ذلك في هاتين اللفظتين وبخاصة الأولى حيث وقعت فيها شدّتان، ومع ذلك فإنه لا بد من تناسق اللفظة كلها مع سائر المفردات في الانسياب الجرسي وهذا لن يتحقق إلا بوجود حرف متحرك يتناسب مع القاعدة العامة في الترتيل.

إن النظرة في (الصوتيات القرآنية) عموماً لا تحتاج إلى قواعد موسيقية ولا إلى معرفة في أصول الغناء، ولا إلى اعتناق مصطلحات فنية لتطبيقها على القرآن، فالقرآن في غنى مطلق عن كل هذا، فهو ليس قصائد تغنى ولا أشعاراً تلحن، ولا حركات موسيقية كما يعهدها الفن الموسيقي، وإنما هو كتاب الله صياغة معجزة في اللفظ والمعنى والأداء.

وأن أي إنسان يمكنه أن (يتذوق) جماليات الترتيل بنسبه المقدرة المضبوطة والموصولة بالمعلم والقارىء الأول رسول الله ﷺ.

ونحن نربأ بالقرآن أن يلحن ويقطّع، ولسنا من أولئك الذين يلحنون ويقطعون، ولكنها (ذوقيات) تتصل (بالتجويد) اتصالاً علمياً وجمالياً، نلفت الوجدان إلى تمليها لتدرك تجليات القرآن الإعجازية.

فمن أسس البيان الإعجازي تناسق الآيات وتناسبها، وتلاؤم المفردات

وانسجامها، وإقدار القرآن على بيان فذ يوحي بقدرة فنية متفردة في الأداء الرائع، إنه﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

سمات تعبيرية وجمالية في السورة

من المفيد أن أقدم صفات عامة أو ملامح كبرى تتصل بخصائص التعبير الفني في هذه السورة، فإن إيضاح هذه الملامح وإبرازها يلقي أضواءً جمالية وجلالية على أسلوبها وطرق التعبير فيها.

١ ـ السورة مكية باتفاق:

وتنحو في أسلوبها منحى السور المكية الخالصة في جزالة اللفظة، واستعلاء التعبير وقصر الآيات وتوسّطها، وجلالية الأداء، ومثل هذه الصفات لا تتخلف غالباً سواء كانت حياة الرسول ﷺ هي الغالبة القوية الظافرة، أم كانت المغلوبة الضعيفة المهزومة. فالآيات المكية بشموخ أسلوبها وربانية مصدرها واستعلاء بيانها تعبر عن ذات قادرة أبدية، وحكمة نافذة سرمدية، بغض النظر عن البيئة الخاصة التي كان الرسول يحياها، والمعاناة الأليمة التي كان يلقاها من قومه.

وكانت رصانة الحكمة وجزالتها، وعلوية البيان الإلهي وفوقيته لا تخفف من المعاناة والآلام التي تزدحم في حياته وحسب وإنما تثبته في مواقفه الضعيفة وأحياناً المنهارة. . .بالإضافة إلى روح الصمود والتثبيت أمام تحديات الشرك الكبيرة فلم نعهد تخاذلاً أو انْهزاميةً في أية سورة من المكي. والتثبيت مستمر والتطمين متواصل من ناحية أخرى في تنوع الموضوعات المعالجة في السورة: في أحقيتها وصدقها ونَصاعة مثلها وسلامة فضائلها، ثم في العظة من عبر التاريخ والتأسي بحياة الأنبياء والمرسلين السابقين. وكذلك في التخويف من عاقبة حياتهم الدنيوية والوعيد والتهديد بمصائرهم المظلمة تجاه أحداث يوم القيامة المروعة.

٢ ـ الإعجاز القرآني عموماً وفي الحِجْر خصوصاً:

وعلى العكس مما يُظنّ فمن المعروف أن معظم آيات (التحدي) مكي وبخاصة في الفترة التي كان الرسول ﷺ يقاسي صعوبات الدعوة ومشكلات نشرها بين قومه.

فالآيات الثلاث في تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة مكية، وقد نزلت قبل سورة الحجر التي نحن بصدد الحديث عنها.

فقد سبقت آية الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ . . .﴾ (٨٨).

وتلتها آية يونس ـ وهي سابقة على سورة الحجر: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (٣٨).

وبعدها آية هود ـ وهي قبل سورة الحجر أيضاً ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ (١٣).

وهذه التحديات الشديدة والمعجزة كانت تدعم موقف الرسول ﷺ مهما بلغ من الضعف والوهن، وتبرز بيان العرب وبلاغتهم ضعيفاً واهياً أو أقل روعة وفصاحة.

وسورة الحجر التي نزلت بعد سورة يونس مباشرة ولم تفصلها عنها سوى سورة يوسف، وأعقبتها بسورة الأنعام الطويلة، نموذج قوة واستعلاء وإعجاز ضمني يؤكد ربانية القرآن وصلة رسوله به، في وقت تكالبت عليه قوى البغي والشرك، وتضافرت على حياته مصائب القوم المكذبين.

في هذه البيئة المتوترة التي كانت الغلبة ظاهرة لقريش كان الله يقول لرسوله في سورة الحجر: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ويقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ويقول: ﴿فَٱصْدَعْ

بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾. ويختمها بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾.

١ ـ **التكرار**: وأشرت إلى بعضه عند الكلام على الجرس الداخلي لأسلوب السورة. والتكرار الذي يفيد تثبيت الفكرة وتأكيد المعنى إذا جرى في كلمات أو جمل ذات وقع صوتي فإنه يضفي على المشهد جمالاً لفظياً ومعنوياً وجرسيّاً، والتكرار لا يؤتى به عادة إلا لإشباع رغبة نفسية وشحن عاطفي بالمشاعر الخاصة ولذا فإنه يراعي مقتضى الحال في مثل هذا التثبيت والتأكيد.

ولكن الألفاظ أو التراكيب المتكررة إذا تتبعناها في السورة بكاملها فإن القارىء لا يلحظ فيها تكراراً واسعاً، حيث إن السورة بلغت (٩٩) آية. منها لفظة (أجمعين) وردت أربع مرات، و ﴿ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ثلاث مرات في خمس آيات (٥٧ ـ ٦١)... ولذا فإننا نذكر ألفاظاً وتراكيب تردد ورودها في آيات (متجاورة) مثل: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات كما تقدم بين الآيات (٢٦ ـ ٣٣) تحقيقاً لأصل الإنسان ونشأته الأولى، و﴿تُبَشِّرُونَ﴾ وشيء من مشتقاته الذي جاء أربع مرات بين الآيات (٥٣ ـ ٥٥) لما للبشارة من أصداء نفسية مبهجة و «السجود» خمس مرات بين (٢٩ ـ ٣٢)، فهو نهاية التذلل للخالق واطمئنان لسلطانه وحكمته.

إن سياق التكرار في هذه الألفاظ وغيرها يزيد من روعة السورة وجمالها ما دام يتطلبه السياق ويقتضيه المعنى، ويستدعيه الجرس الصوتي البديع.

وعلى العكس فنلاحظ في السورة ميلاً واضحاً إلى (تنويع) اللفظة وترادفها، مثلاً بين قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾، وبين قوله ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، وبين ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ و﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾. وبين ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ و﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، وبين ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

و ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ . . .

٢ ـ **التأكيد**: وبعضه من التكرار السابق، وإجمالاً فإن سمة التأكيد أظهر من غيرها. وسببه المعارضة الشديدة التي كان الرسول ﷺ يلقاها من أجل التوحيد والمعاد، وهي إنكار مستمر ممزوج باستعلاء الأموال والأحساب والأطماع، ولذا فلا تكاد تمر آية أو اثنتان إلا في أسلوب التأكيد الذي يقنع بيقين الموضوعات في السورة وأهميتها، وإن لم تحصل هذه القناعة فإن مقداراً من التقريع والتخويف قد يخفف من غلوائهم وشططهم.

ويتفاوت التأكيد في الكثرة والقلة، كما يختلف في النوع والأداة.

● فالتوكيد (بإنّ) ولامه كثير جداً مثل: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ و ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾، و ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ و ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾. وأحياناً يضاف إليه تقديم الخبر على الاسم مثل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ و ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ . . .﴾.

● وبالقسم أو اللام الموطئة للقسم المقترن بجواب مؤكد أو خال من التوكيد مثل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي . . .﴾ و ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ . . . و ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ومن أجمل(الأقسام) تلك التي حلف بها الله برب محمد ﷺ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾،وأرضاها لنفس الرسول وأكثرها تطميناً وتقديراً حلفه به أو بعمره ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

● وبضمائر الفصل في المتكلم والغيبة: فالسياق يقتضي مثل هذا النوع من التأكيد حتى يفيد الحزم في المسألة المطروحة أو الفكرة المعالجة، مثلاً قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ و ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ وقريب منه ضمائر الرفع مثل ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

● وبالتأكيد اللفظي والمعنوي: فقد كان توجيه الله للرسول بالصفح عن المشركين مؤكداً ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾.

ومن المعنوي انفراد بعض الآيات بقوله: ﴿ أَجۡمَعِينَ ﴾ وسبقت آياتها، وأعظم منه اقترانها بلفظة (كل) مثل: ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾ فهي تدل على جميعهم واجتماعهم.

● وأعظم الآيات تأكيداً هي قوله: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ففيها حرف «إن»، وإظهار ضمير الرفع «نحن» واللام التأكيد «لحافظون»، وتقديم الجار أو المجرور «له» على الخبر «لحافظون» وفوق هذه جميعاً إسنادَ المؤكدات إلى صيغة الجمع وهو الله تعالى، وأي إنكار يلقاه القرآن من هؤلاء المعاندين أعظم جحوداً وأقوى شدة من هذا الإنكارات التي رصفتها آية واحدة؟. والقرآن في مفهوم هذه الآية ينقسم إلى تنزيله من الله، فهذا القسم يتطلب تأكيداً لمواجهة حدة الإنكار وقوته، والقسم الثاني: تعهد رباني مؤكد من الله بحفظ كتابه مهما كانت صروف الدهر ونوازل الأيام، وهذا هو ما حدث وسيحدث إن شاء الله.

● وتأكيد داخلي يحس به الإنسان من جرس الآيات الآسر، ومن تراكيب توحي بهذا الإحساس الذي يبدو في التقريع والتوبيخ لعقولهم، والسخرية من كبرهم، وإظهار عنادهم ومكابرتهم ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ.... بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾، وفي وصف جهنم ﴿ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ ...﴾ وقرب الآخرة ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾ وكفايته شرهم واستهزاءهم ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾.

٣ ـ التناسق العضوي بين الآيات:

فالسورة تحدثت عن موقف كفار قريش من القرآن، وحفظ الله للقرآن وقدرته وحكمته في خلق الكون، وبدء الخليقة، وحلقات من حياة إبراهيم ولوط وصالح وشعيب، ثم انتهت بتوجيهات الله لنبيه عليه الصلاة والسلام وقد

تحدثتُ سابقاً عن التناسب بين هذه الموضوعات حتى تبين لنا (وحدة) السورة في مبناها ومعناها، ولكني أزيد هنا لفتة أخرى وهي: أن كثيراً من الآيات تتصل ببعضها في اللفظ والموضوع وإن ختمت بفاصلتها وأشعرت بنهاية آيها.

خذ لذلك شيئاً من أسلوب الاستثناء في آيتين متجاورتين ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾ وقوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ...﴾. وكذلك أسلوب الجمل الطويلة في ذكر المتعلقات والصفات، مثل: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وكذلك أسلوب الشرط غير الجازم في أطول آيتين في السورة ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ.... لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا.... مَّسْحُورُونَ﴾.

ومثله أساليب التشبيه والوصف والإفصاح والتعليل التي قد لا تظهر في ألفاظ صريحة مثل ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ..﴾ فالتشبيه في حرف (الكاف)، والوصف في جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، والتعليل في قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ...﴾، والإفصاح في مثل قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أما أسلوب العطف عموماً وبالواو خاصة فهو كثير وشامل لجميع موضوعات السورة.

وأما التناسق بين مطلع السورة وخاتمتها فقد سبق أنه كمال (الوحدة) في السورة ليس في موضع واحد وإنما في مواضع ظاهرة يراها كل من له مسكة تذوق للقرآن والعربية.

وهكذا فإننا نستنتج سمة واضحة في السورة هي التناسب الظاهر

والخفي معاً، وإن تعدد الموضوعات فيها يزيدها تماسكاً وتلاحماً وانسجاماً.

ويزيد التناسق جلاء أسلوبٌ واحد في الوضوح الذي لم يتغير في كلمات السورة وآياتها. فلا تجد لفظة غامضة أو تركيباً معقداً على الإنسان العربي ذي الملكة والبيان، وهذا الاستواء الأسلوبي السامي يؤكد على ربانية المصدر وإعجاز الكلام مهما تلونت الأفكار وتعددت الموضوعات.

٤ ـ لوحات ومشاهد جمالية وجلالية:

ووحدة السورة في المعنى والمبنى لا يتعارض مع عروضها التصويرية وبيانها الفني. فالسمة الجمالية ـ وأحياناً الجلالية ـ بارزة في لوحات السورة ومشاهدها.

أ ـ في مصطلحات البلاغة:

وهي بفنها التعبيري وأدائها التصويري والمجازي، أساس اللوحات والمشاهد في السورة وعناصرها الأولى، ولا يستغني كاتب عن إبرازها وإظهار أسرارها وجمالياتها، ولذا فإنني سأسرد معظم الآيات التي هي نماذج من فنون البلاغة العربية الأصيلة.

- **في علم المعاني:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾	● خبري يراد منه التهكم والاستهزاء
﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾	● استفهام يراد منه التوبيخ والتقريع
﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾	● استفهام تعجب
﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾	● أمر تهديد ووعيد
﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾	● خبر يراد منه الوعيد والتهديد، أن يصيب كفار مكة مثل ما أصاب الأولين

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- خبر يراد منه التهديد بسوء عاقبتهم

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- سؤال توبيخ وتقريع وتعنيف

- وفي البيان:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾

- مجاز في أهلها، ويجوز أن يكون الإهلاك للقرية وأهلها

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾

- استعارة كالناقة الملقَّحة، فالسحب تحمل بالرياح، أو: ملقِّحة: لأن الريح ملقحة للسحب، وللشجر

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾

- استعارة تشبيهاً له بوارث الميت لاستحالة أن يخلف الله الميت في تملك تركته

﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾

- استعارة والمراد سدت، مأخوذة من: سكر النهر: إذا حبس ومنع من الجري

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾

- مجاز فإن العين لا تمد وإنما يراد مدّ البصر وإدامته، يقول: لا تمد النظر إليه مستحسناً.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- استعارة بمعنى تواضع لهم

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾

- استعارة من الصدع في العود ونحوه: الشق والمراد: أجهر بالحق وصرح به مفرقاً بينه وبين الباطل

● **وفي البديع**: فالسورة بمجموعها يمكن أن تكون شواهد على معظم أنواع البديع البلاغي. ونكتفي بالأمثلة التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾	● تغيير الخطاب إلى غيبة
﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾	● مقابلة في السباق والتأخير
﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾	● مقابلة في الإحياء والإماتة
﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾	● حسن الابتداء وحسن الختام
﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾	● الانسجام ويقترب من أوزان الشعر
﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾	● الاستدراك والاستثناء بشرط أن يتضمنا ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه المعنى اللغوي، كما هو واضح هنا
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ... ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ومثلها القصص وبخاصة: ضيف إبراهيم	● الترتيب حيث أورد أوصافاً ومراحل لخلق الإنسان وسجود الملائكة
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ... ٱلْوَٰرِثُونَ﴾	● حسن النسق وهو: توالي المعطوفات بشكل متلاحم تلاحماً سليماً مستحسناً
﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ... فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	● القسم: وهو الحلف على شيء بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره

بالإضافة إلى أنواع: الإفتنان، والتفويت، وأنواع أخرى من جماليات البديع[1].

ب ـ نماذج من جماليات السورة:

أن عدداً من اللوحات والمشاهد الجمالية والجلالية اتسقت في سورة الحجر، وكل منها يوحي في مكانه وبيئته بتناسق واضح وأحياناً خفي مع الموضوع أو الفكرة المطروحة. وهذه وتلك تتلاءم مع التناسب والجرس والإيقاع التي اختارته السور، حتى إننا نلمح (وحدة) متناسقة بين الموضوع والصورة والصوت. ومن الجماليات:

١ ـ زينتان متعارضتان: في السورة الكريمة لونان من الزينة: الأولى: زينة الله في رصف النجوم وتلألئها للناظرين، ومن ثم دعوتنا إلى تَملي مشاهدتها في جماليات يومية لا تملها العين ولا الوجدان ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ . . .﴾، والثانية: زينة الشيطان في تجميل القبح وتزيين الباطل، وإسقاط الإنسان في أوحال الرذيلة لأنها مغرية تشد الغافل إليها ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الزينة الأولى تلون المشهد بالتأملات العلمية وتحقيق المنافع الفلكية، فالسماء لوحة جمالية للعين الفنانة وللوجدان المرهف وللفكر المتتبع، إنه

---

(١) انظرها في الإتقان: ٢/٨٣، فصل: بدائع القرآن. يقول: الإفتنان: هو الإتيان في كلام بفنين مختلفين كالجمع بين الفخر والتعزية... والإقتدار: أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه على صياغة قوالب المعاني... وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن. والتفويت: إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والوصف وغير ذلك من الفنون. كل فن في جملة منفصلة عن اختها مع تساوي الجمل في الزنة... وهذا موجود في توسط الآيات من حيث الطول وتفاوت المعاني في سورة الحجر.

مشهد جمالي جلالي كثيراً ما لفت القرآن النظر إليه ودعا إلى استجلائه، ونبه الإنسان أي إنسان إلى عدم إغفاله من فكره ورؤيته.

إن الكواكب عالم ضخم ومداراتها حركة متوازنة عظيمة تشهد بالإتقان الإلهي والقدرة الربانية، ولكنها في الوقت ذاته شاهدة بالإبداع الرائع الذي يجمع الضخامة والجمال.

إنها (لفتة إلى جمال الكون ـ وبخاصة تلك السماء ـ تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعاً، وينشأ من تناسقها جميعاً. وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة، وقد انتثرت منها الكواكب والنجوم، توصوص بنورها، ثم يبدو كأنما تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهوم، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد، إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[1].

والزينة الثانية: ترفضها القيم وتدفعها الفضائل عن ساحة الوجود الإنساني السليم، زينة ترتبط بانحراف الشيطان واستعلائه يحمل رايتها في كل زمان ومكان بهرجة خادعة وجمالاً زائفاً وبهاءً سراباً، فإذا خدع الإنسان بها فإنه يكون قد تاه وضل، وإذا استمرأها فإنه يكون قد انغمس في النزوات والمآثم، وأين هذا من جمال الروح وزينة الوجود، وجلالية القدرة؟.

إن الشيطان قادر على الإغواء والإغراء، ولديه من الوسائل ما تمكنه من خداعه وإغرائه، فله من شياطين الإنس أعظم التأييد وأجمل العروض وأزيف المشاهد، ولكن ما النتيجة؟ إنها حبائل الشياطين يقع فريستها، وقبائح

(١) سيد قطب في الظلال.

الجماليات المصطنعة يجترح شرورها فيهلك نفسه ويبدد طاقته وينسى قضيته، وهذا هو ما يقصده أتباع الشيطان من اليهود.

بيد أن عباد الله قادرون على تمييز هذين اللونين من الزينة مثل قدرتهم على كشف الحقيقة من الزيف، والفضيلة من الرذيلة فقد أرهف الله نفوسهم وأعد لهم من جماليات الكون ما يشبع حاجتهم، ووسع لهم مجالات الحسن في النفس والروح والطبيعة ما ضيقه الآخرون. وكان سلطانه الجمالي والجلالي عليهم رحيماً كريماً ودوداً رضياً حبيباً، وسلطان الشيطان على أتباعه مكراً وكفراً وكراهية وعداوة. فشتان بين الزينتين، وما أعظم الفارق بين المصدرين.

٢ ـ **ألوان من الحوار**: إن الحوار في السورة يستغرق معظم الآيات والقصص والمشاهد، وهذا يمنحها حياة وحركة وجمالاً.

● حوار الله مع الشيطان حين أمره بالسجود لآدم، فعصى أمر ربه وادعى أنه خير منه ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ولكن الشيطان لو عقل ما صنعه لما استمرأ وتطاول، فقد كان آدم الطين جميل الهيئة، رائق المنظر، ملامح بشرية، وسمات إنسانية لم يفطن إبليس إلى تناسقها وجمالها، وإنما راح يذكر أصل النشأة وطبيعة التكوين ومصدر الإيجاد.

ثم إنه لم يفطن إلى عملية ربانية هامة في جمال الخلقة وبهاء الإيجاد هي: تسوية الله له شكلاً عجيباً حسناً فلا تنافر في خلقه ولا شذوذ في صنعه، إنه جمال الإنسان الذي سواه الله بنفسه وطبعه بحكمته. فإذا أضيف إلى جمال الجسم وحسن الشكل، جمال الروح التي نفخها الله فيه، وبهاءها وروعتها فإن اكتمال هذا الإنسان من كمال الله، وجماله من جماله وجلاله.

هـذه المعاني صـاغتها السـورة في حوار حي مؤثـر وإن كان بين الله الخالق القادر المصور وبين الشيطان المخلوق الضعيف المارد.

وفي هذا المشهد الحواري تؤدي الألفاظ صوراً معبرة موحية: سويته ـ نفخت فيـه من روحي ـ صلصال ـ المتقون في جنـات وعيـون، السـلام ـ الأمان. . .

وبالمقابل: إلا إبليس أبى ـ عليك اللعنة ـ من المنظرين ـ بما أغويتني ـ الغاوين ـ جهنم موعدهم. . .

● حوار الملائكة مع الأنبياء: ومن أعجبها بشارة إبراهيم عليه السلام بغلام عليم بعد أن بلغ من الكبـر عتياً وكـانت امرأتـه عاقـراً، وحواره في مقصدهم إهلاك قوم لوط بالصيحة، وحوار هؤلاء القوم مع نبيهم لوط عليه السلام ومحاولة ردعهم عن فجورهم المشين. . .

إنهـا قصص أو مشاهـد من القصص النبـوي عـرضت الحق والخيـر والفضيلة، وموقف المكذبين والمعاندين في أسلوب حواري تتبدى منه العبرة والدرس الواعظ في جمالية اللفظ ورهبة الموقف وهول المصير.

صور متقابلة وحالات متعارضة ونماذج مختلفة من الرحمة والغضب، والبشارة والإنذار. . تستدعي كل منها ألفاظاً مؤثرة وتراكيب مصورة، وتعابير تبدو عليها مسحات من الرفق والخوف، والعطف والشدة.

فقد قدم الله لهذا كله قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرنه بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

سـلام ملائكي وجـزع بشري، بشـارة عظمى في غيـر وقتها ولكنهـا الحق من عند الله، نجاة المؤمنين وهلاك المجرمين ـ إنكار وطمأنينة، صدق بالحق، وكذب بالباطل، سفه وعمه وسكر، وعقل ووعي وتبصرة.

إن هـذا التقابـل: الخير والشـر والحق والباطـل قد صـور في أروع

اللوحات. . . مثلاً: أتيناك بالحق. فالحق شيء يؤتي به، وهو على عمومه يشعر بالحركة والحيوية المأتية، ودابر الكافرين مقطوع مصبحين: فسوف لن تبقى لهم بقية، إنهم سيتأصلون عن بكرة أبيهم، ويقطعون من دابرهم إنها صورة عنيفة للقطع والإهلاك.

وصورة بائسة يائسة يذكيها أوار الشهوة، وسعار الفاحشة، وعمه الشذوذ، وضلال الفطرة ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. صورة السكارى وما هم بسكارى ولكنه الإثم المتأجج والشر المستطير.

وأما صورة «السجيل» الممطر عليهم بالحجارة فهي مما لا يتوقعه الإنسان من رحمة السماء والغيث الممرع، إنهم يمطرون من الطين المحرق والحجارة اللاهبة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

٣ ـ حضارات زائلة: إن زوال الحضارات له أسبابه وعوامله، وقد نبه القرآن إلى هذه الأسباب والعوامل، ففي مطلع السورة يحذرنا الله من سقوط الحضارات في مبادىء عامة، فإن لكل أمة أجلها لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك وفق ما ينتشر فيها من مساوىء وضلالات ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

والأمل اللاهي والإطماع الكبير يشغل الجماعات عن إدراك أمراضها، وإن هي أدركتها فإن الآمال العريضة الخادعة تصرفهم عن معالجتها ولكنهم سوف يعلمون عاقبة لهوهم وآمالهم في أجل معلوم ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

ذاك مبدأ عام وقاعدة كلية، ومن الأمم أو الأقوام الذين ذكرتهم السورة وأغراهم الأمل فاستمرؤوا الرذيلة، واقترفوا الفاحشة، قوم لوط وشعيب وصالح عليهم السلام.

فصرحت بقوة ثمود في العمران والبناء فقد ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ

﴿ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ فكانت «مدائن» صالح آية ظاهرة وعظة بالغة ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

وتتجلى في مصائر القوم تراكيب قوية موحية بالرهبة والعظمة والقدرة العلوية.

فانظر مثلاً إلى هذه السخرية والإمهال ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم تأمل ما صرحت به الملائكة في إجرام القوم ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.

وإلى استئصال شأفتهم وإهلاكهم ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

والصورة المفزعة المروعة هي الخسف والزلازل التي أصابت بلدهم ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا .. ﴾.

وكذلك صورة الصيحة الآخذة القاتلة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾.

إن تدمير الحضارات أكبر من أن يوصف وأشد من أن يتحدث عنه، وإنه ليصف نفسه بأحداثه الجسام، ويتحدث عن مصائبه المدمرة، أبلغ وصف وحديث.

فهل يتعظ كفار مكة بمن حولهم؟ وهل يعتبرون بمصائرهم وأمامهم شواهد ماثلة للعيان؟ ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

فالتاريخ دروس وعبر، والحضارات تنشأ وتهلك، والأمم تبقى وتزول. والإنسان يقرأ التاريخ لا للتسلية والإعجاب، ولا يتلو كتاب الله للتغني والتمني، وإنما يفيد منهما بقدر ما يكفيه، ويتجنب انحرافات الجماعات ما يدفع عنه الإهلاك والتدمير. فالسورة من هذا الجانب صورة حضارية من الصور الكثيرة التي زخر بها القرآن. وحسبنا أن نعلم أن قسْم التاريخ، قبل

التاريخ وبعده، جانب كبير وهام فيه، فهل يعتبر المسلمون ويتعظون؟ وإن أجمل الجماليات تصبح هباء منثوراً حين ينزل بها الدمار، فتضحي أقبح القبائح في النّفس والعين والوجدان، فهل يتأملون ويفكرون؟.

٤ ـ **توازن الآيات الكونية**: وكثيراً ما يلفت القرآن انتباهنا إلى التوازن والتناسب في المخلوقات الأرضية والعلوية: في الأنفس والسماء والأرض.

و(صرحت) سورة الحجر بهذا التوازن حين تحدثت عن الأمطار والنبات، و(أشارت) إليه حين تحدثت عن البروج والرياح والجبال، و(عبرت) عنه بين التصريح والتلميح في خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق، وقبلها في الإحياء والإماتة.

ولنأخذ من بعضها بطرف.

أ ـ البروج: وهي منازل النجوم والكواكب التي أقسم الله بمواقعها في سور أخرى. وهي خلق على ضخامته وعظم تكوينه وسعة حجمه وأبعاده، أدق ما يكون توازناً في مداراته. فالمجرة المعروفة بطريق التبانة هي موقع الشمس والقمر بل والشموس والأقمار والنجوم المرئية والخفية، وتستخدم السنة الضوئية لتقدير المسافات بين أجرامها وهي عشر بلايين كم. وهناك ملايين من المسافات الضوئية بينها، وإلى جانبها السدم والبروج السابحة في فضاء الكون العظيم. فعلى بعد مليوني سنة ضوئية من هذه المجرة يوجد سديم المرأة المسلسلة، التي أثبتت المناظير الضخمة أن فيها حشوداً هائلة من النجوم المنتظمة في حركة طوافها حول مراكزها بتوازن عجيب وهائل.

وهناك سدم يبعد موقعها عنا بـ ٢,١ بليون سنة ضوئية، وهي تتباعد عنا بشكل منتظم وسري. إنها خلق كبير، يوحي بالعظمة والجلال ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

ب ـ النظام في الرياح والأمطار: فآية الحجر تشير إلى العلاقة المنتظمة بينهما، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً . . .﴾ حيث ربطت الآية بينهما بالفاء مرتبة ومعقبة.

ويقول العلم: لولا الرياح لما كان المطر، إذ إن السحاب مكهرب بنوع خاص من الكهرباء التي تجعل قطراته يدفع بعضها بعضاً، وتحمل الرياح هذا السحاب إلى أن يلتقي بسحاب أو جبل يحمل كهرباء مضادة فيتكون تلقيح نوعي ينشأ عنه البرق ثم الرعد، وحين تتضخم قطرات السحاب بسرعة تسقط على الأرض في شكل أمطار أو ثلج وبرد إذا كانت البرودة شديدة. فالمطر الذي يحدث بإذن الله نتيجة قانون طبيعي نظم الله به العلاقة بين الرياح والأمطار. ويقول العلم: لولا الرياح الموسمية التي تهب صيفاً من المحيطات على المنطقة الحارة ومنها الهند مثلاً حيث خففت وطأة الحر فيها، لكان من العسير جداً بقاء الحياة في هذه المنطقة[1].

ج ــ من كل شيء موزون: الخط الجمالي البعيد الأفق هو ذلك الخط الأرضي الذي وسعت له الأرض ظاهراً وباطناً، ومن الأوجه التي فسر بها «الموزون»: أنه الحسن والتناسب والوزن بالحكمة والعقل، فهو متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطفة ومطابقة المصلحة[2].

ولكن الآية تصرح في أولها بالإنبات «وأنبتنا» ثم تصرح بأن الإنبات «من كل شيء»، وهذا يحتمل أن يقتصر على توازن النبات والثمار فليس نتاج الأرض من نوع واحد دون نوع، ويحتمل أن يراد من «كل شيء» المعادن أيضاً، وهذا حسب قول الرازي: والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات.

---

(١) انظر: آيات الخالق الكونية والنفسية: رشدي رشيد الجابري، و: الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي وأقدمها: الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي.

(٢) انظر: تفسير الرازي عند هذه الآية.

ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن التوازن يشمل استنبات التربة الظاهرة بأنواع من النبات والثمرات مختلف ألوانها وأحجامها وطعمها وجمالها، ويشمل باطن الأرض وما أودع الله فيها من معادن جامدة ومائعة فإنها من «الشيء» الذي ينبته الله في الأرض. . فإن كل نبتة في ظاهر الأرض، وكل معدن في داخلها يدل على دقة الخلق وإحكام الصنع وتقدير محكم.

وإذا كنا نتطلع إلى تناسق النبات والأشجار في الطبيعة الجميلة فإن ما أودعه الله من المعادن يلفت انتباهنا إلى جماليات يصطنعها الإنسان من هذه المعادن، فإذا بالجمال الطبيعي والصناعي يلتقيان ويتوازنان، فكل شيء بقدر معلوم وفي هذا القدر المعلوم تناسب جمالي وجلالي للآيات الكونية العظيمة التي عرفَ الإنسان بعضها، وجهل أكثرها.

٥ ـ الرسول ﷺ في سورة الحجر: إن سورة الحجر وإن سميت بذلك فإن فيها بياناً دقيقاً عن حالات وأوضاع من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا انتظمنا مع سياق السورة فإن معاناة الدعوة، وصدق النبوة، ورعاية الله، وتوجيهاته تشمل السورة من بدايتها إلى خاتمتها.

أ ـ الإعراض عن جهالات الكفار: فقد أمره الله أن يذر المشركين ويعرض عن سفاهاتهم، ويهددهم بوعيد الله في كل حين. وحين وصفوه بالجنون وطلبوا منه انزال ملائكة العذاب سخرية واستهزاء، أجابهم الله أن الملائكة تتنزل بالحق وبالوقت الذي يختاره الله وليس بالذي يختارونه، وحسبهم أن الله أنزل القرآن بطريق رأس الملائكة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ب ـ مواساة الرسول عليه الصلاة والسلام: فليس بدعاً من الرسل، وإن الدعوة تتزامن مع المعاناة، وهذه سنة الأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وطلب الله من رسوله أن يخبرهم عن إبراهيم وضيفه، وعن لوط وشعيب وصالح وأقوامهم... وهكذا قال: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ... ﴾ و﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾... فهذا نوع من التبليغ المؤثر.

ج ـ البشرية والرسالة: فهو يحزن على قومه، ويضيق صدره بشركهم وقسوتهم، ويتمنى ما عندهم من المتاع والغنى... لأنه بشر، ولكنه ليس كأي واحد منهم، فهو رسول ونذير مبين، أنزل عليه القرآن والسبع المثاني، ليصدع بما أوحي إليه، والله يكفيه المستهزئين.

ولا بد أن ترتقي البشرية إلى مدارج النبوة وإن بقيت منها بقية، بل وإلى أرقى هذه المدارج وأسماها من غير أن يتخلى عن قوام هذه البشرية، ولن يتأتى ذلك إلا بإعلاء روحه وصفاء سريرته واتصاله بالله تعالى، فليفزع إليه مما ينتابه من المكروه، وليشكره حمداً وثناءً، وليكن من الساجدين ومعهم، عابداً لله حتى الممات.

ومن التعابير المصورة: ويلههم الأمل فهو تشخيص معنى الأمل باللاهي عن الحق والخير.

واخفض جناحك للمؤمنين تصوير يوحي بالأنس والرفق والتواضع يكرره القرآن في مناسبات متعددة.

فاصفح الصفح الجميل: إن في الصفح والعفو جمالاً معنوياً محبباً، فكيف به إذا وصف صراحة بالجمال؟.

ومن اللفتات الحانية التي يكرم بها الرسول ألوان من الخطاب الإلهي الظاهر والخفي كما سبقت أمثلته، وإضافة (الرب) إليه وحده ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، ثم في الأيمان التي أشرت إليها ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ... ﴾ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾.

فالرسول يحتاج إلى رعاية ربه وفي أحلك المواقف، ولن يتخلى الله

عنه، وسيكفيه شرهم واستهزاءهم، وسيقوي عزائمه ليمضي في طريق الدعوة مهما تكالبت عليه القوى وتآزرت ضده المصائب. وأي تأييد ورعاية أعظم من أن ينزل عليه القرآن ويمنحه النبوة؟ إن هذه السورة تعبر عن مرحلة هامة في الرسالة المحمدية: مشكلاتها ومعوقاتها، وأجوائها، ومصاعبها، ثم ترسم الخطة وتصرح بالتوجيه الذي يزيل المشكلات، ويحل الصعوبات، ويقضي على السلبيات. . .

ورعاية الله لرسوله في خضم هذه الأجواء المتلاطمة من أسمى الجماليات التي تلتقي فيها أرقى البشرية والرسالة في شخصية الرسول ﷺ.

○ ○ ○

(الخاتمة)
سمات عامة للظاهرة الجمالية في القرآن الكريم

مما سبق لا بد من أن نستنتج مفهوماً واضحاً ومحدداً للجمالية ونستخلص أهم عناصرها، وصفاتها، وطبيعتها، وآثارها: ثم نذكر أهم الطروحات الفنية من خلال المنظور الإسلامي.

أولاً: مفهومها:

فالجماليةُ هي علم الجمال القرآنيّ وفنيته التي تعنى بالكشف عن ألوانه وأسراره وأساليبه من خلال الموضوعات القرآنية المتعددة.

وتشمل المفردة المنتقاة الصافية، والتركيب الجزْل، والصورة البارعة، والحكمة البليغة والمثل السائر، والقصّة الواعظة، والحوار الفني والتشريع السامي، والتصور الكامل، والتهذيب المربي.

فالجمالية علمٌ لأنها تعتمد على قواعد من العلوم المختلفة كالنحو والصرف والبلاغة.

ولأنها تضع قواعد للتناسق الجمالي بين سور القرآن وآياته.

ولأنها تعنى بمقادير صوتية محددة متلقّاة تبرز التناسب الترتيلي في علم التجويد.

وهي أيضاً فنيّة تتبدّى في صورها وإيحاءاتها وظلالها وتأثيراتها المختلفة.

لأنها ذَوقية محسَّة تختلف معها النظرات والمواقف الأدبية.

ولأن جمالياتها الجرسية والإيقاعية وجدانية المصدر والمرجع والعلاقة.

وهي تشمل (الجلالية) باعتبارها تلهم تناسق العظمة وتناسب الحكمة، وانبهار الإحساس والإدراك، وعلوية المقام.

ففي كل منهما بهاء وحسن وتناسق يتناسب مع طبيعتهما ومتعلقاتهما. وهما يلتقيان في (الله) ذي الجلال والجمال. فهو القويُّ المتين ذو العرش المجيدُ المهيمنُ الجبَّار الحكيم القدير العزيز، وخلْقه الكبير العظيم الدقيق دليل على جلاليته وعظمته. وهو الرحيم الرؤوف، المحسن، الكريم، الودود ومخلوقاته البديعة في الإنسان والطبيعة وما دونهما دليل على جمال صفاته، من الرحمة والرأفة والإحسان والكرم والود.

وبما أن القرآن الكريم صفة الله تعالى فلا بد من أن يتوفر فيه آيات الجلال والجمال، ومشاهد القوة والعظمة إلى جانب مشاهد الأنس والوداعة.

ثانياً: عناصر الجمالية:

إن (الهنْدسةَ) البيانية في القرآن الكريم تُبرز أمامنا ثلاثة عناصر أو مقومات للجمالية القرآنية.

١ ــ **الأداء التعبيري المناسب**: ويشمل التعبير الفني بألوانه وأنواعه. وفْق الدواعي النفسيّة والاجتماعية والإعجازية. ومنه:

أ ــ الإيجاز، ويتضمن المبادىء الكلّية، واختصار مراحل ملحوظة في القصة خاصة، وتقرير حكَم سائرة. . . .

ــ والمكافىء، والمطنب لأغراض بلاغية جمالية تعرف من السياق ويقتضيها المقام.

ب ــ التصوير: بالكلمة المعبرة، والتركيب الموحي، والآية أو الآيات المصورة، في مشاهد حيّة، ولوحات شاخصة، وأحوال نفسيّة وذهْنية.

وهو إذ يأخذ مساحة كبيرة في البيان القرآني فإن طريقته في التجسيم والتخييل والتشخيص تضفي على الرغبات النفسية والمعاني المجردة جمالية الحركة والحيوية والحوار حتى تجعلها حاضرة الوقع، نابضة الروح.

ج ــ القدرة الفنية الفائقة: مثل طول النفس، وتناول الموضوع الواحد بالعديد من الصور والتراكيب، وإفحام الخصم فكراً ووجداناً بالحقائق القرآنية التي اكتست لبوس الروعة الفنية، وشحنها بالمؤثرات الكلامية الملائمة، وأنواع التزيين اللفظي والمعنوي، وتنويع طرائق البيان والخطاب.

٢ ــ الجرس الصوتي:

أ ــ الانتقاء اللفظي: ويمنح تآلفاً بين الحروف والكلمات والتراكيب ينشأ عنه سلاسة النطق وانسيابية التلاوة.

ويتلوّن الجرس الداخلي حسب الموضوعات إلى أن ينتهي في فواصل الآيات خاتمة الجمل القرآنية الجرسية في موجات صوتية مختلفة الطول والشدة.

ب ــ التّرتيل بالتجويد يؤكد التناسب الصوتي: ويعني الأداء الصوتي المتسق الأبعاد والمقادير في أحوال صوتية خاصة، ويشمل: الوقفات الصوتية، والحركات الصوتية والذبذات الصوتية. فالوقفات: هي محطات الحروف عند سكونها أو المنتهية بحرف المد، وهي متنوعة: خفيفة سهلة ومختلفة الطول كالمدود ومنها شديدة فخمة كحروف الاستعلاء... والحركات الصوتية: وهي الحروف المتحركة بتناسب فيما بينها حتى تؤدي جمالاً جرسياً في اللفظ والترتيل. والذبذات الصوتية: وهي حروف ليست صريحة أو وحيدة المخارج وإنما يتردد نطقها بين مخرجين متقاربين، كالجيم المعطشة، وحروف القلقلة والهمس. ومن هذا التناسب الصوتي يصحّ أن ينغّم وفق الصيغ العلمية التي تعرف بها صفات الحروف والمدود، وأحوال التلاوة في الكلمة الواحدة وما بين الكلمتين... وكيفية الابتداء والوقف وما يلحق بها من تغييرات معنوية.

ج ـ الترتيل بالقراءات المتواترة: وهو مَدخل واسع إلى عالم من الصوتيات المتسقة والمتوازنة مع الطريقة الصوتية المتلقاة عن الرسول ﷺ تضفي على القرآن جماليات صوتية يصعب تحديدها. يضاف إلى ذلك القراءات السبعة الواردة.

د ـ الإيقاع الداخلي والختامي: وهما عنصران هامان في التناسق الترتيلي لاستكمال الجانب الصوتي في أدائه الخاص، وإذ هما يختلفان قوة وسهولة وطولاً وقصراً ينبّهان إلى الإعجاز في اختيار المفردة والتركيب القرآنيين.

٣ ـ **الموضوعات المعالجة**: فالقرآن زاخر بالموضوعات المبتكرة والمعاني الجديدة، والأفكار الإسلامية القرآنية التي لا عهد للعرب بأمثالها في عالمي الغيب والشهادة، وفي منهجة الحياة ونظامها، وفي التصورات الكبرى للوجود الجائز والواجب، وفي كل منها ألوان جمالية تقنع الفكر وتلبي الحاجات الجمالية الوجدانية.

أ ـ في الروحيات، والأخلاقيات، والعقليات[1]: تتجلى جماليات القرآن في مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر: ١٠) وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

ب ـ في الفطر والأنفس والآفاق: فجمال العواطف واضح في مثل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾ (المائدة: ٨٣).

واستقامة الغرائز في مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾... وفي الأنفس

(١) وانظر: دراسات إسلامية. د. محمد درراز.

والآفاق مباديء هامة تتجلىٰ في مثل قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾(فصلت:٥٣). وجمال الفطرة عموماً في مثل قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ . . . ﴾ (الروم: ٣٠).

ج ــ في الموجودات من عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد. وفي الغيبيات: من الملائكة والجان، ومشاهد يوم القيامة، والإلهيات آيات الجلال والجمال، وهذا واضح في مثل قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ (الحشر: ٢٤) وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦) وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (الغاشية: ٨) وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ﴾ (فاطر: ١).

ثالثاً: صفات الجمالية القرآنية:

ومن خلال النماذج الوفيرة التي عرضناها للجمالية القرآنية تتضح صفات عديدة منها:

١ ــ التناسب والتناسق[1]: وهي أروع ما في الظاهرة القرآنية من جماليات منطوقاً ومفهوماً وإحاطة، فالقرآن ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾(هود: ١)، وهو «نور» و«حياة» و«شفاء لما في القلوب»، ثم إن تناسبه يشمل جماليات لفظية ومعنوية وجرسية وتصويرية.

٢ ــ التلوّن والوحدة: فقد تناول القرآن موضوعات شتى وكل منها عرض بالأسلوب الذي يناسبها، وهكذا تتقابل الأحوال ويتشابه بعضها، ويتكامل بعضها الآخر حتى يحس الإنسان أن لكل منها شخصيتها وتفردها ولونها، ولكنها تتآلف في وحدة جامعة تضم ألوانها وهيئاتها الفكرية والأسلوبية.

---

(١) انظر آيات الحج: ٥، والشعراء: ١٠ وق: ٧.

فألوان المعاني والصور تتفرع من المعنى الكلي واللوحة الكاملة، لتشكل وحدة فكرية ومعنوية فلا تفترق الألوان إلا لتتجمع، ولا تتجمع إلا لتلون المشهد أو المعنى بما يلائمها من ألوان وظلال وأضواء. ومن أوضح نماذجها سورة (الحجر) السابقة[1].

٣ ــ العلوية والتأثير النفسي: فالقرآن كلام الله، وصفته الربانية تفرَّد بأسلوبه العلوي وبيانه المعجز ولذا فإن تأثيره ملموس ومستمر على الناس في مختلف طبقاتهم وأجناسهم، وهيمنته واضحة على العقول والقلوب والعواطف. إنه بعلويته قادر على تحريك المشاعر، واستثارتها من الأعماق، حتى وإن لم يدرك بعض الناس معناه ومضمونه فإنهم لا بد من أن يتذوقوا فعاليّته مهما كانوا من القاسية قلوبهم، فهي تلين لسماعه لأن طبيعتهم الإنسانية تتجاوب ـ على الأقل ـ مع تآلف الأصوات وتتابعها، وبخاصة حين يلحظون ربّانيتهُ وقدسيّته.

٤ ــ الرحابة والعمق: إنها تتسع حتى تشمل الألوهية، والنبوة، والكونية، والبشرية، والطبيعية، كما تشمل المعاني الذهنية، والأشواق الروحية، والمبادىء الخلقية.

وتعمق وجودها في خلجات النفس وحبات القلب[2] وإذا بها تتبلور في جماليات الرضا والحب وجلاليات الخشية والرهبة التي توجه سلوك الإنسان وتربط البشرية بوشائجها وتربطها بالله وبالخير والحق، وبالحياة والموت.

---

(١) وانظر أيضاً قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم: ٢٢).
فهي وحدة الإنسانية، وألوان منها في اللغات والأجناس، ثم تأمل ختام الآية (العالمين) الدال على الآية الباهرة في الوحدة والتنوع.

(٢) انظر قصة الهدهد، وبلقيس، وعرض الغزوات المؤثر، وليلة الصيام، والثلاثة الذين خلّفوا، وتقلب وجه الرسول ﷺ في السماء.

إن التحابّ بين العبد والخالق من أسمى جماليات الحب الإنساني، وإن التواد الخالص بين الناس بعضهم ببعض من أرقى جماليات الحب الأخوي. والفطرة البشرية تحب محبوبات كثيرة من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام... وإنها لتحب الأصول والفروع والحواشي من القرابات. والأموال والرياش، ولكنه حب سطحي زائل قريب أمام الحب الأكبر حب الله، وحب الحق والخير والمثل[1].

رابعاً: طبيعة الجمالية القرآنية:

إنّ تركيبة الجمالية القرآنية تتفق مع الجماليّات الأدبية في حرصها على الصورة البارعة والتعبير الأدبي، والصوتيات البديعة، ولكن القدرة على احتواء هذه العناصر بين أديب وأديب وفنّان وفنّان، مجال التنافس الأدبي، وميدان الإبداعات الجمالية التي يمكن أن توجد منها أثراً فنياً مختلف القيمة الأدبية والفنية.

وتبدو جمالية القرآن الكريم في حقيقتها أقدر على السبق والمنافسة والغلبة لا باعتبارها صفة من صفات الله وحسب وإنما باعتبار أن الإعجاز البياني أبرز صفاتها وسماتها. ويمكن تلخيص هذه الطبيعة بما يلي:

١ ـ إنها عربية أدبية بيانية نثرية متميزة تحرص على انتقاء الشكل والمضمون لتتكافأ مع مزيتها البيانية المتفردة، وهي إذ تتخذ المنحى الأدبي فإنها تقيم

---

(١) وأوضح نماذجه في مواد: الرضى، والحب، والود... السابقة.
وانظر دلالات جمالية في قوله: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾**.
فالرحابة في خطاب الناس جميعا ذكرهم وإناثهم، وجعلهم شعوباً وقبائل. وجميعهم ذوو كرامة لإنسانيتهم، والعمق في قوله: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**. فالأكرمية عندالله تنفي أي حظ من حظوظ الدنيا والمادة الكثيرة جداً، وتثبتها للأتقى والأنفع، لأنها الأبقى والأسمى.

من لغتها لساناً عربياً واضحاً مفهوماً، تتوافر فيه أسمى عناصر الأدبية الفذة ومقوماتها.

٢ ـ وهي (خاصة) فريدة للمعجزة القرآنية لم يعرف مثلها في أية معجزة مادية أو فكرية دينية أخرى، حتى إن تلك الآثار الفنية الأدبية الخالدة في العالم لم تبلغ في مضامينها الروحية والفكرية والقيمية والتغييرية مثل ما بلغته، في أداء القرآن الفني.

٣ ـ وهي إذاً فكرية ووجدانية تتناسق فكراً وتعبيراً، أو هي بالدقة تقيم وزناً كبيراً وشاملاً للفكر والتأمل من ناحية، والإدراك والوجدان من ناحية أخرى، في جميع الأبعاد وكل الخصائص، وتجمّله بالأساليب الرائعة ليبلغ أثره العظيم في النفوس.

٤ ـ وهي جامعة للعلمية والأدبية بأوسع مفاهيمهما وأرحب مجالاتهما وأجمل عروضهما، فالقرآن في علميته وأدبيته، وفي صوره وأساليبه كان علم المسلمين ومصدر علومهم وكان من الوجهة الجمالية (علم بلاغتهم) وما تزال معجزاته العلمية التي تصاغ بالصياغات الفنية تترى لا تفقد شيئاً من حقائقها العلمية ولا توهن أيّاً من مصداقيتها الفكرية والجمالية.

٥ ـ وهي إنسانية المنزع عامة الاتجاه تراعي قدرات الإنسان وطاقاته مثل ما تراعي فطرته، وتبرز لذلك جماليات الكون والقيم والفكر والروح للوجدان الإنساني، كما تبرز جماليات الإنسان نفسه رجلاً أو امرأة ضمن المجالات العديدة، وتخاطب الناس وبني آدم في العموميات الإنسانية والكليات البشرية.

٦ ـ وهي قيمية ملتزمة بالمنهج الرباني، وبالهداية الإلهية وبالتهذيب الديني تبعد من تكوينها ونشاطاتها تلك الاتجاهات المنحرفة في قيام الفنون والآداب بالعبثية غير المسئولة تماماً، مثل ابتعادها عن المتعة الفنية والعقلية المجردتين ولغايات فنية وعقلية محضة.

خامساً: في آثار الجمالية القرآنية:

إن المدارس الفنية والجمالية بتعددها وقيامها على أسس فلسفية لم تستطع أن تكوّن جيلاً فكرياً وفنياً عريضاً، ولا أدباً خالداً وعاماً سوى فترات وجماعات طابعها التغيير وعدم الاستقرار.

أما مدرسة القرآن الفنية والجمالية فإن آثارها لم تقف عند حد ولا لزمن معين، سواء كان في التأثير الفكري المبدئي أو التأثير السلوكي أو التأثير الفني الأدبي.

ويمكن إبراز هذه الآثار بما يلي.

١ ـ في اللغة والبيان الأدبي: فآثاره اللغوية والبيانية عديدة مثل:

اتساع الآفاق الأدبية، وشمول الأغراض البيانية الجاهلية. وإن إضافة آفاق وأغراض أدبية جديدة في اللغة العربية أغنى البيان الأدبي لدى الشعراء والكتاب الإسلاميين وبخاصة أولئك المخضرمين أو القريبي العهد بالجاهلية مثل حسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، وكعب بن زهير فإنهم أعلى باعاً وأرسخ قدماً وأوسع لغة وأغراضاً وآفاقاً من النابغة وابن كلثوم وعنترة، كما يقول ابن خلدون في مقدمته[1]. ويتبع هذاالتوسع والغنى ثراء في الألفاظ وجمال في البيان ورونق في الصورة.

٢ ـ في استثارة النظرات الجمالية: فقد توسعت وتزينت النظرات الجمالية أيضاً بينما كانت محدودة الأفق ضيقة المجال مادية المصدر، وزخرت بالعواطف وبشتى المشاعر الإنسانية النبيلة التي لم تعرفها الجاهلية، وأضحت القيم الإسلامية من السعة والسموّ والصدق ما لم يدركه نظيره الفكر الجاهلي وأدبه وعواطفه. حتى إن العروض الجمالية القرآنية كانت وما تزال

(١) في الفصل الذي عقده في أن حصول الملكة بكثرة الحفظ.

تثير الأحاسيس الجمالية الراقية في التصورات الإنسانية العامة حول الطبيعة والحياة والخلق، وما وراء الطبيعة والحياة والخلق.

٣ ــ وهذا التشكيل البياني والنفسي والجمالي الجديد كان قدرة (مغيّرة) ومؤثّرة في النفوس حيث بلغت حبتها، ولامست شغافها فجعلت من المشركين أمة التوحيد والوحدة والإسلام، وأقبلت على الحياة بصيغ ذهنية وجمالية لم تعرف من قبل، ثم إنها قادرة أيضاً على (التغيير) والتأثير والتجديد حين يهيأ لها المناخ النفسي والاجتماعي المناسب.

وإن زخمها العاطفي والفكري يحقق للمجتمع الإسلامي أدباً متميزاً وملتزماً يغترف من ينبوع البيان القرآني أروع الخصائص والأساليب مثل ما فعل في (مسار) الأدب العربي العام شكلا ومضموناً. والعالم الإسلامي اليوم يتوقع أن يسود الاتجاه الأدبي الإسلامي في الحركة الأدبية لا باعتباره أدباً ثـرّاً في المصدر واتساع الآفاق وحسب وإنما لأنـه أدب التراث والمعاصرة في قضايا المجتمع الإسلامي المتزايدة. إنه اتجاه ومطلب معاً.

٤ ــ وإن (ثنائية) الأثر السابق **تضع أمامنا آثاراً ومظاهر فنية متنوعة أخرى:**

أ ــ فهناك فنّ إسلاميّ يتميز بجمالياته وأبعاده وأغراضه ومقوماته عبر العصور، تتدفق أعماله من النظرة الجمالية للمسلم المتأثرة بجمالية القرآن وفنيته، وهي مدرسة مستقلة عن أية مدرسة فنية أخرى قد عُنيت بالمجردات والرموز أو الفن التجريدي والرمزي واهتمت بالعنصر الإدراكي ولكنها لم تغفل الإثارة العاطفية، وانبهار الوجدان، وتحريك المشاعر وبخاصة في تلاوة القرآن الكريم، والأشكال الجمالية الإسلامية.

ب ــ الفنّ الزخرفي والتزييني! وهو فنّ يقوم بعضه على نظام هندسي دقيق، ويقوم بعض الآخر على جماليات تزيينية تضاف إلى الدقة الهندسية. وهذا واضح في الأشكال الشجرية والمجسمات والنقش الإسلامية وبخاصة ما

يلاحظه من جمال الجدران والسقف والقباب في المساجد الكبرى.

ج ـ في خصائص العمارة الإسلامية والتراث المعماري عموماً حيث نجد القواعد المعمارية والجمالية تتآلف في وحدة فنية كانت مثار الإعجاب والتأمل والدراسة. ومنها: الانفتاح والطلاقة، والانسياب والترسل، والتوفيق بين الجمالية المعمارية والحفاظ على التصون إلى جانب ما نلاحظه من الرعاية الصحية. في فصول السنة كلها.

د ـ في الفن المصحفي: ومن أهم عناصره: جماليات الخطّ العربي بأنواعه، وزخرفة الإخراج وتزيينه بألوان من الخطوط والأشكال في مقدمته وخاتمته وحواشيه، وكذلك الصناعات المصحفية التي تتناول جمال الحرف والورق والاستعانة بالتقنية الحديثة في تجويد العمل الصناعي. وأخيراً تلك الألوان الجمالية في التسجيل المرئي والصوتي المتناهي، واللوحات القرآنية الرائعة التي لا يخلو منها معرض ولا متحف.

سادساً: طروحات جمالية من منظور إسلامي:

إن الظاهرة الجمالية في القرآن لا تخفى على كثير من المثقفين المنصفين وإن لم يلتزم بعضهم بالإسلام ديناً وعقيدة. وقد نوه علماؤنا وكثير من الباحثين بقسط من جماليات هذ الظاهرة لأنها وجه فني للإعجاز البياني.

وهذه الحقيقة التي لا مراء فيها تحملنا إلى أن نفيد منها منافع فكرية وجمالية وتربوية وحضارية. وتدفعنا إلى أن نعرض مجالات أو طروحات فنية (لدراستها) من حيث المنطلق والتطبيق.

١ ـ العمل على تذوق القرآن تذوق نظر وانصات، وأخصه: التذوق الأدبي والجمالي في (لغته ـ وصوره ـ وترتيله) إلى جانب ذوقياته الأخرى.

٢ ـ وضع منهج للتربية الجمالية تأخذ بأولويتها التذوق الفني للقرآن، وتراعي روح الشريعة الإسلامية.

٣ ـ تنشيط حركة الأدب الإسلامي والملتزم بقضايا المجتمع الفكرية والسلوكية والمصيرية والفنية.

٤ ـ رعاية الفن الإسلامي رعاية منهجية ومعنوية: في الفن الصوتي، والخط العربي، والفن التشكيلي...

٥ ـ تشجيع العمارة الإسلامية، والحدائق العامة، وإقامة المعارض الفنية على نمط إسلامي عريق ومبدع. وطروحات فنية أخرى تنبثق من جماليات الروح والمادة، والطبيعة وما وراء الطبيعة من منظور إسلامي مستقل.

وبهذا تتحقق الاستقلالية الفنية التي لا بد من أن تجلب إليها الأنظار، وتتعرف إلى جمالياتها أقطار العالم باعتبار أنها فنٌ إسلامي أصيل له فلسفته ومقوماته ومجالاته وأساليبه وابداعاته.

ومن ثم نتحرر من عبوديات فنية عالمية، وانتماءات إلى أشباه الفن أو الفن الهابط الذي اكتوى شبابُ العالم من ركامه وانتشاره، ثم من طغيانه على القيم والفضائل باسم الفن وتحت لوائه، ولكنه انغماس في البهيمية والحيوانية المدمرة.

وإن هذه المنطلقات الفنية والطروحات الجمالية لا تعني عزلة محضة ولا انفتاحاً مطلقاً وإنما هي تقدير للأصالة التراثية المتجددة، الواهبة والآخذة، ولكن بحسبان، وليس على حساب الفن الإسلامي الصحيح.

وعندئذ سيكسب هذا الفن إعجاباً حضارياً وتقديراً عالمياً وستوفر له المتاحف ركناً واسعاً من الفنون المختلفة، (وقد أقيم العديد منها)، وهو سبيل واحدة للتأثير الوجداني والعاطفي في المجالات الفلسفية والفكرية والحضارية العالمية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

ثبت المراجع

أولاً: القرآن الكريم، وتفاسيره، ومنها:

١ ـ تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، (الطبري) أبو جعفر محمد بن جرير، البابي الحلبي، ط ٣، ١٣٨٨ هـ.

٢ ـ تفسير الفخر الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (الفخر الرازي) محمد بن ضياء الدين، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠١ هـ.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم: (ابن كثير) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢ هـ.

٤ ـ تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (أبو السعود) محمد بن محمد العمادي، إحياء التراث العربي.

٥ ـ فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (الشوكاني) محمد بن علي، دار الفكر.

ثانياً: الحديث النبوي وشروحه، ومنها:

١ ـ الصحيحان: (البخاري) محمد بن إسماعيل، و (مسلم) مسلم بن الحجاج.

٢ ـ السنن: (الترمذي) محمد بن عيسى، (أبو داود) سليمان بن الأشعث، و (ابن ماجة) محمد بن القزويني، و (النسائي) أحمد بن شعيب.

٣ ـ الموطأ: مالك بن أنس.

٤ ـ المستدرك على الصحيحين: (الحاكم) أبو عبدالله الحاكم النيسابوري محمد بن عبدالله.

٥ ـ المسند: (أحمد بن حنبل).

٦ ـ صحيح ابن خزيمة: (ابن خزيمة) محمد بن إسحاق، المكتب الإسلامي ١٤٠٠ هـ.

٧ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (الهيثمي) علي بن أبي بكر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٢ هـ.

٨ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري: (ابن حجر) العسقلاني، أحمد بن علي، قرأ الأجزاء الثلاثة الأولى تصحيحاً وتحقيقاً: الشيخ عبدالعزيز بن باز، ورقّمه: محمد فؤاد عبدالباقي، وأخرجه محب الدين الخطيب.

٩ ـ شرح مسلم: (النووي) يحيى بن زكريا، دار الفكر، دمشق ١٤٠١ هـ.

١٠ ـ الجامع الصغير والجامع الكبير: (السيوطي) عبدالرحمن بن أبي بكر.

١١ ـ الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين خ: (ابن عدي) عبدالله.

ثالثاً: المراجع الخاصة:

١ ـ آيات الخالق الكونية والنفسية: رشيد رشدي الغافري، بغداد، جمعية التربية الإسلامية.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، البابي الحلبي ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥١ م.

٣ ـ استخراج الجدل من القرآن الكريم: ابن الحنبلي، عبدالرحمن بن نجم الحنبلي، ت. د. زاهر الألمعي ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٤ ـ أسرار البلاغة: الجرجاني، عبدالقاهر، دار المنار، تعليق محمد عبدالمنعم جفاجي، مكتبة القاهرة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٥ ـ أسرار التكرار في القرآن: الكرماني، محمود بن حمزة بن نصرت عبدالقادر أحمد عطاء، دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٨٧ م، وسماه البرهان في متشابه القرآن.

٦ ـ الأسس الجمالية في النقد العربي: د. عزالدين إسماعيل.

٧ ـ الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي، دار الكتب الحديثة.

٨ ـ الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي، سلسلة دعوة الحق ٥٠، مكة المكرمة.

٩ ـ أسماء الله الحسنى (رسالة): حسنين مخلوف، دار المعارف بمصر، تاريخ المقدمة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

١٠ ـ أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح، ط١٠، المكتب المصري الحديث ١٩٧٦ م.

١١ ـ الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم، دار المطبوعات الدولية، القاهرة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

١٢ ـ إعجاز القرآن: الباقلاني، محمد بن الطيب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ م.

١٣ ـ إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي، ط ٨، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م.

١٤ ـ الإعجاز والإيجاز: الثعالبي، عبدالملك بن محمد (أبو منصور)، دار البيان، بغداد، ودار صعب، بيروت.

١٥ ـ الإقناع في القراءات السبع: ابن خلف الأنصاري، أحمد بن علي، ت: د. عبدالمجيد قطامش، جامعة أم القرى، دار الفكر بدمشق ١٤٠٣ هـ.

١٦ ـ الأمثال في القرآن: محمود بن الشريف، دار عكاظ، السعودية.

١٧ ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: الزملكاني، عبدالواحد، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

١٨ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزابادي، مجدالدين بن يعقوب، ت: د. محمد علي النجار، القاهرة ١٣٨٥ هـ.

١٩ ـ بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار: د. عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي ١٩٧٨ م.

٢٠ ـ البيان والتبيين: الجاحظ، عمر بن بحر (أبو عثمان)، ت: د. عبدالسلام هارون، الخانجي ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.

٢١ ـ بيان إعجاز القرآن: الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم (أبو سليمان)، دار التأليف ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م.

٢٢ ـ التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار المعارف ١٩٧٥ م.

٢٣ ـ الجمالية عبر العصور: إتيان سوريـو، ت: د. ميشال عـاصي، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٤ م.
٢٤ ـ خصـائص التصور الإسـلامي ومقومـاته: سيـد قـطب، بيـروت، القـاهـرة ١٩٨٠ م.
٢٥ ـ حجة القراءات: (أبو زرعة) عبدالرحمن بن سعـد، ت: سعيد الأفغـاني، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.
٢٦ ـ الحيوان: الجاحظ، عمر بن بحر (أبو عثمان)، ت: د. عبدالسلام هارون البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م.
٢٧ ـ دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.
٢٨ ـ دراسات نفسية في الفن: د. مصطفى سويف، القاهرة ١٩٨٣ م.
٢٩ ـ دلائل الإعجاز: الجرجاني، عبدالقاهر، تصحيح وتعليق: محمد رشيا رضا، دار المعرفة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م.
٣٠ ـ رغبة الآمل من كتاب الكامل: سيد بن علي المرصفي، بغداد، دار البيان ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م.
٣١ ـ روح التربية والتعليم: د. محمد عطية الأبراشي، البابي الحلبي.
٣٢ ـ السبعة في القراءات (كتاب): ابن مجاهد، أحمد بن موسى، ت: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ م.
٣٣ ـ الشخصية الفنية: د. محمود البسيوني، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦ م.
٣٤ ـ طبقات الأمم: أبو القاسم صاعد أحمد الأندلسي، المطبعـة الكاثـوليكية، بيروت ١٩١٢ م.
٣٥ ـ طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، دار النهضة، بيروت ١٩٦٩ م.
٣٦ ـ ظلال القرآن (في): سيد قطب، دار الشروق ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.
٣٧ ـ العقـد الفريـد: ابن عبد ربـه، أحمد بن محمـد، المحمـوديـة التجـاريـة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م.

٣٨ ـ علم الجمال: دني هويسمان، ت: ظافر الحسن، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٥ م.

٣٩ ـ فتاوى: ابن تيمية، أحمد، مكتبة المعارف، الرباط.

٤٠ ـ الفتح الرباني: أحمد عبدالرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٤١ ـ الفن الإسلامي: أصوله، فلسفته، مدارسه: أبو صالح الألفي، دار المعارف، لبنان.

٤٢ ـ الفوائد: ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (أبو عبدالله)، المؤيد، الطائف، والبيان، دمشق ١٩٨٨ م.

٤٣ ـ القرآن والصورة البيانية: د. عبدالرحمن حسين.

٤٤ ـ القرآن ينبوع العلم والعرفان: علي فكري.

٤٥ ـ قصص الأنبياء: د. مصطفى عبدالواحد، دار الكتب الحديثة.

٤٦ ـ قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، عيسى البابي الحلبي.

٤٧ ـ الكامل في اللغة والأدب: المبرّد، أبو العباس، مكتبة المعارف، بيروت.

٤٨ ـ لغة القرآن الكريم في جزء عمّ: د. محمد أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ م.

٤٩ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن علي الندي، ط ٦، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٥٠ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ضياء الدين، قدّم له وحققه: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م.

٥١ ـ مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (أبو عبدالله)، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٥٢ ـ المدارس الفلسفية: د. أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة مصر ١٩٦٥ م.

٥٣ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين، ت: جاد المولى، البيجاوي، أبو الفضل إبراهيم. البابي الحلبي.

٥٤ ـ مشكلة الفن: د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر.

٥٥ ـ معجـزة خلق الإنسان بين الـطب والقرآن: د. نبيه عبدالرحمن عثمان، سلسلة دعوة الحق: ٥٠.

٥٦ ـ معجم القراءات القرآنية: د. أحمد مختار، ود. عبدالعال، جامعة الكويت ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

٥٧ ـ المغني: ابن قدامة، عبدالله بن أحمد، من مطبوعات إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٥٨ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبدالجبار بن أحمد (القاضي).

٥٩ ـ مفـاهيم جغرافيـة في القصص القرآني: د. عبدالعليم عبـدالـرحمن، دار الشروق ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٦٠ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٩ م.

٦١ ـ من أساليب البيان في القرآن الكريم: د. محمد علي أبو حمدة، جمعية عماد المطابع التعاونية، عمان ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

٦٢ ـ من إعجاز القرآن البياني: د. أحمد حمدي بدوي.

٦٣ ـ النقـد الأدبي الحديث: د. محمـد غنيمي هـلال، دار الثقـافـة، بيـروت ١٩٧٣ م.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة